علم الجمال اللغوي

(المعاني - البيان - البديع)

(١)

تأليف
الدكتور محمود سليمان ياقوت
أستاذ العلوم اللغوية
كلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٥

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس. الشاطبي ت ٥٩٧٢١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وبعد ..

فإن البلاغة العربية تضم ثلاثة من العلوم: المعانى والبيان والبديع، ولكل علم منها وجهة معينة فى البحث والدرس، تحاول الوصول خلالها إلى الجمال فى الأداء اللغوى من الناحية الصوتية أو التركيبية أو الدلالية، وذلك خلال الجانبين النظرى والتطبيقى. ومن هنا فقد وجدنا الكثير من الشواهد التى طبق عليها علماء البلاغة ماقدموه من إطار نظرى، ووجدنا أيضاً الكثير من المصطلحات البلاغية التى تنصرف – فى الأغلب الأعم – إلى تتبع الإبداع فى لغة النص، مع توضيحه بالشواهد والأمثلة والعبارات الافتراضية؛ بل إن تحديد مفهوم كل علم من تلك العلوم الثلاثة إنما هو تحديد لغوى. من أجل هذا كله نستطيع أن نقول إن البيان والمعانى والبديع تشكل علماً واحداً هو «علم الجمال اللغوى» الذى نحاول دراسته والتعرف عليه والكشف عن معالمه الأساسية، فى هذا الكتاب.

ويبدأ هذا الكتاب بتمهيد يدور حول البحث فى إعجاز القرآن الكريم وأثره فى نشأة ما اصطلحنا على تسميته بعلم الجمال اللغوى. وقد عرضنا فيه لعدة موضوعات كالحديث عن التفسير والقراءات والصرف والنحو وسواها من العلوم التى نشأت من أجل فهم النص المقدس وتفهيمه، وما أشار إليه الزمخشرى من جعله علمى المعانى والبيان مختصين بالكتاب العزيز مع ربطهما بالتفسير ربطاً علمياً دقيقاً فى كشافه. وتوقفنا أمام الشعر ومكانته فى الحياة الفكرية عند العرب، مع الاهتمام بما كتبه ابن رشيق القيروانى رداً على من يكره الشعر، وكيف أن الإسلام لم يحارب الشعر والشعراء، وتفسير بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الخاصة بهما. وحاولنا – فى التمهيد – التعرف على الأعمال العلمية التى دارت حول الإعجاز، والموضوعات التى عرضت لها، ومن أهمها النظم القرآنى وتصرفه وخروجه عن المعهود المألوف من نظم جميع كلام العرب، مع الإشارة إلى أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لايتفاوت ولايتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه

التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة وسواها من الوجوه التى يشتمل عليها الكتاب العزيز. وقد بحث القدماء قضية الإعجاز فى ضوء علوم البلاغة، وأشاروا خلال هذا البحث إلى بعض القضايا اللغوية والبلاغية التى تتصل بلغة القرآن الكريم، ومن أهمها:

١ – ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه.

٢ – نَظْم القرآنِ الكريم.

٣ – أسرار فواتح السور.

ويدور الفصل الأول من هذا الكتاب حول «النقد اللغوى للشعر»، والذى دفعنا إليه تلك الحركة اللغوية التى قامت حول الشعر والشعراء، وحاولت الكشف عن المحاسن والمساوئ فى النص الشعرى. وهناك الكثير من العلماء الذين كانت لهم آراء نقدية مهمة فى مجال اللغة الشعرية، بل إن بعض الشعراء كالنابغة الذبيانى كانت تضرب له قبة حمراء من أَدَم بسوق عكاظ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وهو يتولى بيان ما فيها من عيوب فى اللغة بجوانبها المختلفة. ومن أهم الموضوعات التى عرضنا لها فى هذا الفصل دور الشعراء فى النقد اللغوى، وتحكيمهم فى الخصومات التى تنشأ من حين لآخر بين الشعراء بعضهم وبعض على نحو ما جرى بين الحطيئة والزبرقان بن بدر الذى هجاه الحطيئة بعدة أبيات، وكشف حسان بن ثابت عما فيها من هذا الهجاء. وتوقفنا أمام موقف اللغويين من شعر معاصريهم، وما حدث من رفضهم لهذا الشعر حتى إن اللغوى قد يسمع أبياتاً وتنال استحسانه وإعجابه فإذا أخبر بأنها لواحد من معاصريه رفضها، وقد حاول ابن قتيبة أن يتخلص من التعصب للقدماء ضد المحدثين وأن يسوّى بينهما فى دراسته للشعر والشعراء، ولكنه لم يفعل إلا قليلاً؛ لأنه حرّم على المحدثين الخروج عن مذاهب المتقدمين فى بكاء الأطلال ووصف الناقة والورود على المياه الآسنة وغير ذلك.

وقد توقفنا فى هذا الفصل أمام ما يتصل بالأصوات فى النقد اللغوى، وقبل الدخول فى الحديث عن الانتقادات التى وُجهت للشعر فى ضوء الأصوات عرضنا لما قاله ابن سنان الخفاجى عن مفهوم «الصوت» عند علماء الدراسات النقدية والبلاغية واللغوية، مع الاهتمام ببيان عدم وجود صوت مفرد جميل أو حسن وآخر قبيح أو ردئ، إذ إن الطاء – مثلاً – ليست بأجمل من الميم أو العكس؛ لأن الجمال والقبح يُردَّان إلى السياق العام؛ بالإضافة إلى ما يتصل بالألفاظ فى أصل وضعها اللغوى من حيث عدم الجمع بين أصوات بعينها. ودرسنا التنافر الذى يأتى من تكرار أصوات بعينها، والكراهة فى السمع الذى يؤدى إلى أن تمجَّ الكلمة، ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة، ومما يتصل بالكراهة فى السمع والثقل على اللسان ما أشار إليه علماء البلاغة من كثرة عدد الأصوات المفردة التى تتشكل منها اللفظة، وقد درسنا ذلك مع الإشارة إلى ما يتصل بـ «الأوزان الشعرية» من عيوب تندرج تحت الأصوات.

وبعد أن أنتهينا من العرض للعيوب والانتقادات المتصلة بالأصوات حاولنا التعرف على جانب آخر يرتبط بالنقد اللغوى ارتباطاً مباشراً وهو ما يتصل بالتركيب النحوى، أو بناء الجملة فى الشعر. وهناك الكثير من الظواهر اللغوية التى عرض لها النقاد والبلاغيون والنحاة حين درسوا التركيب وما فيه من عيوب، وقد بدأنا بالحديث عن «التقديم والتأخير» الذى يؤدى إلى الإبهام والغلط فى الدلالة أو المعنى إذا أخفق الشاعر فى توظيفه توظيفاً جيداً، ثم عرضنا لبعض الشواهد التى لها رواج معين فى باب التقديم والتأخير مع الاهتمام بتفسيرها وإعادة ترتيبها للكشف عن معناها. وبعد ذلك درسنا «الفصل» الذى يحدث بين العناصر النحوية المتلازمة ويؤدى إلى القبح فى النظم والصعوبة فى التوصل إلى المعنى، ومن أشهر مواطن الفصل التى أشار إليها العلماء ذلك الذى نجده بين المضاف والمضاف إليه، وحرف الجر والاسم المجرور، والحروف التى لا يليها إلا الفعل فى سعة الكلام والفعل، والأعداد والتمييز المنصوب، والصفة والموصوف، والمعطوف والمعطوف عليه وسواها.

ومن الظواهر اللغوية ذات الارتباط المباشر بالتركيب أو بناء الجملة الإعرابُ،

وقد وقع الشعراء فى بعض الأخطاء المتصلة به، وتتبعها العلماء، ومن أهم تلك الأخطاء تسكين ما كان ينبغى له أن يحركه، وترك التنوين مع المصروف من الأسماء، والحمل على الموضع، والإقواء أو اختلاف الإعراب فى القوافى، وقد عرضنا لها مع الاستشهاد عليها. ومما له صلته بتلك الظواهر اللغوية الحذف وعيوبه كترخيم الاسم فى غير النداء؛ بالإضافة إلى نوع من الحذف يؤدى إلى الإخلال بمعنى الكلمة، ويتصل بها أيضاً تكرار العناصر النحوية التى تؤدى إلى ضعف العمل الفنى، ومن أمثلة ذلك كثرة استعمال المتنبى لاسم الإشارة «ذا» فى شعره.

ومن الموضوعات المرتبطة بالنقد اللغوى للشعر «الدلالة» التى وجه العلماء إليها عدة انتقادات نحو ما أطلقوا عليه اسم التناقض فى الدلالة، وفساد التفسير، والتناقض من جهة القنية والعدم، والتكلف فى طلب القافية، والإخفاق فى التعبير عن المعنى، والخطأ فى الدلالة، والخروج عن الاستعمال السياقى للألفاظ، وعدم موافقة المعجم اللغوى لألفاظ الشعر كلام العرب، وعيوب المعانى، والسرقات الشعرية لبعض المعانى، والتضمين الذى يعرفونه بأنه تمام وزن البيت قبل تمام المعنى. وبعد أن درسنا تلك العيوب توقفنا أمام سنن العرب والدلالة، والمقصود بذلك أهمية الإلمام بالعادات والتقاليد العربية حين دراسة الشعر؛ لأنه يساعد فى الوصول إلى المعنى الذى يريده الشاعر، وتوقفنا أيضاً أمام التعليل الدلالى لأسماء الشعراء وألقابهم كالمرقِّش وصناجة العرب والفحل والمستوغر وسواها.

ومن الظواهر ذات الصلة بالنقد اللغوى للشعر تلك الأحكام التى أُطلقت على الشعراء، والمقصود بذلك أن تاريخ النقد العربى عرف مجموعة من الأحكام تحاول بيان مقدرة الشاعر الفنية وتفوقه على غيره، وقد احتوت تلك الأحكام على بعض الجوانب اللغوية؛ خاصة فيما يتصل بالنظم والدلالة؛ لذلك وجدنا ألفاظاً وعبارات من نحو عدم المعاظلة بين القول، وعدم اتباع حوشى الكلام، وجودة المقاطع وسواها، وقد درسنا تلك الأحكام مع بيان صلتها بالأداء اللغوى. وقد اهتم القدماء بالحديث عما أسموه «أدوات الشعر» وهى - فى مجملها - مجموعة من الأدوات اللغوية التى تفيد فى التعرف على الإطار الذى دار حوله النقد اللغوى؛

لذلك تناولنا تلك الأدوات بالدراسة التفصيلية مع الاهتمام بما أطلقوا عليه «آداب الشاعر».

وختمنا الفصل الأول من هذا الكتاب بالعرض لـ «عمود الشعر» خلال التعرف على التطور التاريخى لاستعمال تلك العبارة فى الدراسات النقدية والبلاغية حتى صار الحديث عن «عمود الشعر» نظرية واضحة المعالم عند المرزوقى فى مقدمته لشرح ديوان الحماسة.

ويدور الفصل الثانى حول «المصطلحات البلاغية وعلاقتها بالأداء اللغوى»، والمقصود بذلك أن البلاغة العربية لها مجموعة من المصطلحات الفنية الخاصة بها التى اكتسبت مدلولاً معيناً فى إطار البحث فيها والدراسة لها، وحين النظر فى تلك المصطلحات نجد بها عدة جوانب تتصل بالأصوات والتراكيب والدلالة اتصالاً مباشراً؛ بالإضافة إلى أن المصطلحات الأساسية كالبلاغة والفصاحة والمجاز والمعانى والبيان والبديع تتضمن فى تعريفها تلك الجوانب اللغوية المتصلة باستعمال «اللغة» بواسطة «المتكلم السامع المثالى»، وقد حاولنا الكشف عن هذا كله.

وقد بدأنا بمصطلح «البلاغة» ومفهومه فى اللغة والاصطلاح، وتتبعنا آراء القدماء فى تعريفها خاصة ابن المقفع الذى حدد وجوهها فى تسعة هى السكوت، والاستماع، والإشارة، والاحتجاج، والجواب، والشعر، والسجع، والخطب، والرسائل، ثم توقفنا أمام صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتوت على الكثير من النقاط ذات الصلة باستعمال اللغة والتوفيق فى ذلك بلاغياً. وقد اهتم علماء البلاغة، وعلى رأسهم الجاحظ، بالأداء الصوتى الذى يعد جزءاً من أدوات الخطيب الماهر؛ لذلك اهتموا بالوقوف أمام عيوب النطق وأمراض الكلام؛ لأنها تؤدى إلى استهجان الجمهور للخطيب وعدم الإقبال عليه، وهذا التوقف يندرج تحت التعريف بمصطلح البلاغة فى الدرس العربى؛ لذلك تناولنا تلك العيوب والأمراض بالعرض التفصيلى.

وتوقفنا أمام مفهوم «الفصاحة» فى اللغة والاصطلاح، وفصاحة اللفظ المفرد وشروطها التى وصل بها ابن سنان الخفاجى إلى ثمانية كتأليفها من أصوات

متباعدة فى المخارج، وأن تجد لتأليفها فى السمع حسناً ومزية على غيرها، وأن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية، وأن تكون غير ساقطة عامية، وأن تكون جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة، وألا تكون الكلمة قد عبِّر بها عن أمر آخر يكره ذكره وغير ذلك.

ويتصل «المجاز» بالاستعمال اللغوى اتصالاً مباشراً، وقد حاولنا التعرف على ذلك، وبدأنا بكتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة ومفهوم المجاز عنده، وانصراف هذا المفهوم إلى الحذف، والاختصار، والتذكير والتأنيث، والمفرد والمثنى والجمع، وتعدد وجوه الإعراب، وتعدى الفعل ولزومه، وإحلال صيغة صرفية محل أخرى، والاختلاف فى تأويل معانى المفردات، والتقديم والتأخير، والتكرار، وزيادة الحروف. وبعد تلك المحاولة للتعرف على مفهوم المجاز ومجالاته اللغوية عند أبى عبيدة توقفنا أمام المصطلح عند أهل البلاغة مع الاهتمام بما كتبه يحيى العلوى عنه؛ إذ إنه حصر مجالات المجاز فى خمسة عشر أمراً، منها تسمية الشئ باسم الغاية التى يصير إليها، وتسمية الشئ بما يشابهه، وتسمية الشئ باسم قابله، والمجاز بالزيادة والنقصان وسواها. وبعد هذه المحاولة للتعرف على الصلة بين المجاز والأداء اللغوى، عرضنا لثلاثة مصطلحات تكوِّن معاً «علم البلاغة العربى» هى المعانى والبيان والبديع.

وقد ختمنا هذا الفصل بالتعرف على صلة المصطلحات البلاغية بما فى الدراسات اللغوية المعاصرة من التحليل للغة خلالها مستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية.

ويدور الفصل الثالث من هذا الكتاب حول «علم الجمال الصوتى» وهو أحد فروع علم الجمال اللغوى، وقد توقفنا فى بدايته أمام بعض الحقائق المتصلة بالجمال فى الأداء الصوتى كقلة عدد الحروف، وسهولة المخرج، والسلامة من التكلف، والطلاقة حين التعبير، ويؤدى هذا الأداء إلى سرعة الدخول المعنى للقلب والعقل؛ لأن الأذن تلذه وترتاح إليه. وتوقفنا أيضاً أمام اللحن العربى للكلام وانقسامه إلى ثلاثة أقسام: الواسع، والمتوسط، والضيق، وربط القدماء من العلماء

العرب الأداء العربى للكلام الذى يتصل بطبقة الصوت من حيث العلو والانخفاض بالحالة التى عليها المتكلم من حيث الغضب أو الخوف أو الحزن أو غير ذلك.

وهناك الكثير من الموضوعات التى عرفتها البلاغة، ويمكن دراستها فى ضوء ما يتصل بالجمال فى الأصوات، وقد بدأنا بالحديث عن «أوزان الشعر العربى»، والوزن أعظم أركان حدّ الشعر وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة؛ بل إنهم عرفوا الشعر بعدة تعريفات من بينها أنه الكلام الموزون المقفى الدال على معنى، ويؤدى إلى الجمال الفنى مع تحقيق الموسيقى التى يحسُّها كل من المتكلم والمستمع، أو المبدع والمتلقى؛ لذلك عالجنا ما يتصل بالوزن كالحديث عن بحور الشعر العربى والتعليلات الصوتية التى جعلتنا نطلق على بحر اسماً دون آخر، والصلة بين الأوزان وأغراض الشعر، ونعوت الأوزان وسواها. ولعله مما يتصل بتلك النعوت ما أشار إليه العلماء من «الترصيع» فى الشعر الذى يقابل «السجع» فى النثر؛ لذلك حين عرفوا الترصيع قالوا أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع، أو شبيه به، أو من جنس واحد فى التصريف، وقد درسنا ما يتصل به بالتفصيل.

والقافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، ولايسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية، والقوافى هى التى فصلت بين الكلام والشعر؛ لأنه قد يقع الوزن فى الكلام ولايسمى شعراً حتى يقفى، وهى تعد العلم الذى يضبط الموسيقى الظاهرة فى الشعر، ولابد من معرفتها والإلمام بها حتى يمكن أن نتوصل إلى النسق الذى يسير عليه الشعر العربى؛ لذلك عرضنا لما يتصل بها من موضوعات بالدراسة والتحليل كنعت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، والإيغال، والأسماء التى تُطلق على القافية، والجمال الصوتى الذى تخلعه على القصيدة، وحروف القافية الستة: التأسيس والدخيل والرِّدف والروى والوصل والخروج، وتحديد حرف الروى، وأنواع القافية وغير ذلك.

ومن الظواهر اللغوية التى تخلع الجمال على النصوص النثرية «السجع»، وقد اهتم به علماء البلاغة لأصالته فى التعبير فى اللغة العربية منذ العصر الجاهلى؛

فنجده الأسلوب الذى اختارته العرب فى الجاهلية، وتمسك به بعضهم، وبلغ درجة من الشيوع فى الاستعمال حتى قيل بأسبقية وجوده على الشعر، وبأنهم عرفوه قبل أن يصطنعوا تلك البحور المقيسة؛ لذلك كان رجالات العرب وقضاتهم فى الجاهلية يحكمون وينفرون بالأسجاع. ومع التطور الهائل الذى شمل كل مظاهر الحياة فى العصر العباسى أصبح السجع واحداً من الظواهر الصوتية التى تطبع الأداء اللغوى عند كُتّاب الرسائل، وفى الخطب، وحاول الكثيرون الالتزام به، ولكن دون تكلف. وقد درسنا ما يتصل بالسجع فتوقفنا أمام أقسامه، وشروط جماله عند النقاد والبلاغيين، والسجع فى القرآن الكريم وآراء العلماء فى ذلك.

ويدور الفصل الرابع من هذا الكتاب حول «علم الجمال التركيبى»، وهو أحد فروع علم الجمال اللغوى، وقد عرضنا فى بدايته للسياق ودوره فى جمال النص، ويعد «السياق» أساس علم الجمال التركيبى، ونعنى به هاهنا الأصوات والأبنية الصرفية والتراكيب النحوية التى تلتحم فيما بينها؛ لتكوّن سياقاً لغوياً نستطيع أن نحكم عليه بالجودة أو الرداءة حسب معايير نقدية معينة، وقد عبّر القدماء عن السياق باسم «النظم»، ورائدهم فى هذا المجال عبد القاهر الجرجانى.

ومن أول الموضوعات التى عرضنا لها فى هذا الفصل «الحذف» والبلاغة التى يخلعها على النص أو العمل الفنى، وقد ربطناه بسياق الحال، وأسباب النزول، والحوار الذى جاء فى بعض الأبيات. ثم توقفنا أمام «الإيجاز»، وقبل الدخول فى دراسته حاولنا التعرف على حده عند القدماء من العلماء العرب، خلال بعض الأمثلة التى توضح المقصود به فى الأداء اللغوى، ومن أهمها قوله تعالى: (ولكم فى القصاص حياة) الذى قارنه البلاغيون بقول العرب «القتل أنفى للقتل» من حيث الإيجاز. وقد درسنا بالتفصيل قسمى الإيجاز وهما «إيجاز القِصَر» و «إيجاز الحذف» مع الاهتمام بالحذف عند النحاة.

ومن الموضوعات المتصلة بالجمال فى التركيب «الفصل والوصل» الذى لفت نظر علماء البلاغة منذ المراحل الباكرة، حتى إن بعضهم عرف البلاغة بأنها «معرفة الفصل من الوصل»، ويعود السبب فى ذلك إلى غموضه ودقة مسلكه، وأنه

لايكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة - كما يقول عبد القاهر - فى تعليقه على هذا التعريف. ومن أهم النقاط التى عرضنا لها حين الحديث عنه محاولة معرفة التعليلات التى قدمها العلماء للفصل والوصل فى النصوص المختلفة وما فيها من الجمال، ومن ذلك حديثهم عن «مقام المحادثة» وما يندرج تحته من الحوار، والقطع والاستئناف.

وتوقفنا أمام «الالتفات» وبداية تنبه العلماء له، وعلى رأسهم الأصمعى الذى قال لإسحاق الموصلى: أتعرف التفات جرير؟ فقال له: وما هو؟ فأنشده:

أتنسى إذ تودّعنا سُليمى ... بعُودِ بشامة سُقِى البَشامُ

ثم قال الأصمعى: أما تراه مقبلاً على شعره؛ إذ التفت إلى البشام فدعا له.

وقد جمعنا بعض التعريفات التى وضعها القدماء للالتفات، ثم درسنا الشواهد والأمثلة الخاصة به، مع تفسيرها فى ضوء الأداء اللغوى كالتحويل حين استعمال الضمائر من الغيبة إلى الخطاب، أو العكس، وخطاب النفس أو الحكاية، والانتقال من صيغة فعلية إلى أخرى؛ بالإضافة إلى الالتفات المتصل بالمعنى، فقد يكون الشاعر - مثلاً - يتغزل ويصف نفسه بالإفراط فى الرقة والصبابة فيتوقع أن يظن ظان أن ذلك لضعف نفسٍ منه، فيلتفت إلى ما يدرأ عنه ذلك الظن، ويشير إلى ما يدل على ذلك بلفظ مختصر يلحقه فى تضاعيف كلامه أو عقبه.

ويتصل بالجمال فى التركيب «الإطناب» الذى يكون فى تفصيل المعنى ومايتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل، وقد قارنه البلاغيون بالتطويل فأشاروا إلى أن الإطناب من مواضع الجمال فى حين أن التطويل عيب وعى، وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة التى أتى بها البلاغيون للإطناب، وهى مأخوذة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، وقد درسناها بالتفصيل للتعرف على المقصود بالإطناب فى البلاغة العربية. وهو يأتى على أنواع مختلفة كالإيضاح بعد الإبهام، وذكر الخاص بعد العام، وذكر العام بعد الخاص، والتكرير، والإيغال، والاعتراض، والاحتراس، والتذييل، وعرضنا لتلك الأنواع خلال الجانبين النظرى والتطبيقى.

ومن موضوعات علم الجمال التركيبى «النكرة والمعرفة» وما يتصل بهما من القضايا اللغوية التى كانت مشتركة بين النحاة والبلاغيين، وإن اهتم البلاغيون أكثر بالحديث عن التعبير بالنكرة وكيف يؤدى إلى الجمال فى النص، والوضوح فى الدلالة كما فى قوله تعالى: (ولتجدنهم أحرصَ الناسِ على حياةٍ) وما يتصل به من تنكير كلمة (حياة). وقد درسنا ما يتصل بالنكرة والمعرفة، وبدأنا بما ورد عند الزمخشرى من نصوص يحلل التعبير بهما فى الكتاب العزيز، ثم تعرفنا على دور «تعريف المسند إليه» فى الجمال خلال تعريفه بالإضمار، والعلمية، والموصولية، والإشارة التى درسنا فيها ما يتصل باللغة الجانبية وما قاله القدماء من أنه «رب إشارة أبلغ من عبارة».

ومن الأساليب البلاغية المتداولة فى اللغة العربية «أسلوب القصر» الذى يعرّف بأنه تخصيص شئ بشئ بطريق مخصوص، عن طريق بعض الطرق، وقبل الدخول فى عرضنا لها أشرنا إلى بعض الملاحظات المتصلة بهذا الأسلوب، ويأتى على رأسها بيان دور سيبويه فى الحديث عنه، وكيف أنه يأتى فى مقدمة الذين نبهوا إليه حين حلل قولهم «شئ ما جاء بك» وقال إن أصله «ما جاء بك إلا شئ»، ومن تلك الملاحظات صلة القصر بالدلالة، والتقديم والتأخير، وارتباط القصر بحال المخاطب وغير ذلك. ثم توقفنا أمام طرق القصر فى الجملة التى هى عبارة عن مجموعة من الأنماط النحوية كالنفى والاستثناء، وإنما والتقديم لما يستحق التأخير وغيرها.

ويتصل بالجمال فى التركيب النحوى للجملة استخدام التوكيد بواسطة «إنّ» على أساس وجود خبر فى الجملة السابقة يتلقاه السامع وهو متحير، ويأتى التوكيد ليزيل ذلك كما فى قول بشار:

بكّرا صاحبىَّ قبل الهجير ... إنَّ ذاك النجاحَ فى التبكير

وقد درسنا هذا الاستخدام لـ «إن» فى ضوء تحليل بعض الشواهد التى وردت فى كتب الدراسات النقدية والبلاغية.

ويعد «الاتساع» واحداً من العمليات التحويلية التى تطرأ على العبارات

والتراكيب النحوية، ويعرفه المحدثون من علماء اللغة بأنه عملية نحوية تأتى عن طريق إضافة بعض العناصر الجديدة إلى المكونات الأساسية دون أن تتأثر تلك المكونات. وقد عرضنا للاتساع عند البلاغيين والنحاة ومفهومه عند كل طائفة منهما.

ومن الأساليب التى نالت اهتمام علماء النحو والبلاغة «أسلوب الإنشاء»، وهو كلام لايحتمل الصدق والكذاب لذاته، والسبب فى ذلك يعود إلى أن مدلول لفظه قبل النطق به ليس له وجود خارجى يطابقه أو لايطابقه؛ لذلك قال الشريف الجرجانى: «الإنشاء قد يقال على الكلام الذى ليس لنسبته خارج تطابقه أو لاتطابقه». وهو ينقسم إلى قسمين: الإنشاء الطلبى، والإنشاء غير الطلبى، ويشمل الأول التمنى والاستفهام والأمر والنهى والنداء، ويشمل الثانى صيغ المدح والذم والتعجب والقسم والرجاء وصيغ العقود وسواها. وقد درسنا هذا كله بالتفصيل.

ومن الظواهر اللغوية التى تطبع التركيب النحوى للجملة العربية تقديم ما حقُّه التأخير، أو العكس، لبعض الأغراض المعنوية. وقد أشار سيبويه فى كتابه إلى بعض الشواهد المتصلة بتلك الظاهرة، وتبعه جيل من علماء النحو والبلاغة الذين توسعوا فى دراسة التقديم والتأخير من حيث التطبيق فى النصوص الشعرية والنثرية، وأشاروا إلى أنه دليل على تمكن العرب ومقدرتهم على التصرف فى فنون القول وامتلاكهم لناصية اللغة. وقد درس علماء البلاغة بعض أبواب النحو دراسة تطبيقية فى ضوء التقديم والتأخير؛ وذلك نحو تقديم المسند إليه على المسند، وتقديم المسند على المسند إليه، وتقديم متعلقات الفعل عليه. وقد عرضنا لهذا كله خلال الجانبين النظرى والتطبيقى.

واهتم علماء البلاغة بدراسة «الضمائر» واستعانوا فى تلك الدراسة بمعطيات النحاة مع ربطها بالجمال فى النص الأدبى، ومن ذلك حديثهم عن «ضمير الشأن» و «الفصل» وتوكيد الضمير والتعبير بالاسم الظاهر بدلاً من الضمير. وقد درسنا ما يتصل بالضمائر بين علماء النحو والبلاغة.

ويعد التكرار واحداً من الظواهر اللغوية التى نجدها فى الألفاظ والتراكيب

والمعانى؛ لتحقيق البلاغة فى التعبير والتأكيد للكلام والجمال فى الأداء اللغوى والدلالة على العناية بالشئ الذى كُرِرَ فيه الكلام. وقد ورد التكرار فى آى الذكر الحكيم والحديث الشريف والشعر العربى؛ لذلك نال اهتمام علماء الدراسات النقدية والبلاغية وسواهم. وقد تناولنا التكرار بالعرض التفصيلى الذى يركز على الجانب النظرى والتطبيقى، وهو آخر الموضوعات التى درسناها فى «علم الجمال التركيبى».

ويدور الفصل الخامس من هذا الكتاب حول «علم الجمال الدلالى»، وقد درسنا فيه موضوعات ستة، مع التمهيد لها بالعرض لمفهوم «الدلالة» عند القدماء، وقد جاءت تلك الموضوعات على النحو الآتى.

١ – العلاقة بين اللفظ والمعنى: هناك الكثير من القضايا التى دار حولها حديث القدماء عن اللفظ والمعنى، وقد حاولنا التعرف على العلاقة بينهما فى حديثهم هذا، وبدأنا بالجاحظ الذى فصل بينهما حين جعل للألفاظ جهابذة يهتمون بها، وللمعانى نقاداً يُرجَع إليهم، وتوقفنا أمام حديث ابن قتيبة عن أضرب الشعر الأربعة على نحو ما عرضه فى كتابه (الشعر والشعراء)، واللفظ والمعنى عند ابن المعتز فى كتابه (البديع)، وقدامة بن جعفر فى كتابه (نقد الشعر)، وإسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب فى كتابه (نقد النثر) وهو منسوب خطأ إلى قدامة، واللفظ والمعنى فى (الصناعتين) و (العمدة فى صناعة الشعر ونقده) و (سر الفصاحة) و (دلائل الإعجاز).

٢ – فى ائتلاف اللفظ والمعنى: نظر علماء الدراسات النقدية والبلاغية فى اللفظ والمعنى وتوظيفهما فى النص الأدبى، واستطاعوا التوصل إلى بعض الأنواع من الائتلاف بينهما، وهى تؤدى إلى تحقيق الجمال فى الدلالة التى هى جزء من السياق العام أو النظم، ومن أنواع الائتلاف:

أ– ائتلاف اللفظ مع المعنى.

ب– اتفاق اللفظ مع اللفظ.

جـ- ائتلاف المعنى مع المعنى.

وقد درسنا هذا كله بالتفصيل.

٣- نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى: توقف علماء البلاغة أمام أنواع الائتلاف بين اللفظ والمعنى التى أشرنا إليها، وتوصلوا إلى بعض الجوانب الدلالية التى تؤدى إلى الجمال فى العمل الفنى؛ لذلك أطلقوا عليها اسم «النعوت»، ومن أهم تلك النعوت المساواة والإشارة والإرداف والتمثيل، وقد عرضنا لها بالدراسة التفصيلية.

٤- قوة اللفظ لقوة المعنى: يرى القدماء أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نُقل إلى وزن آخر أكثر منه فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ أدلة على المعانى وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زِيد فى الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعانى. ومن أمثلة ذلك دلالة كل من الفعلين «خشُن» و «اخشوشن»؛ فمعنى خش دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير الشين وزيادة الواو. وقد حاولنا التعرف على مايقصده القدماء من الحديث عن قوة اللفظ لقوة المعنى.

٥- طرق الأداء الدلالية: هناك ثلاثة من الموضوعات لها صلتها الوثيقة بالمعنى هى التشبيه والاستعارة والكناية، ويعود السبب فى تلك الصلة إلى أن علماء البلاغة حين عرّفوا كل واحد منها نجد «المعنى» يشكل محوراً أساسياً فى هذا التعريف؛ بالإضافة إلى أن أثر التشبيه أو الاستعارة أو الكناية فى النص نجده واضحاً فى جانب المعنى أكثر من غيره من جوانب اللغة كالأصوات والأبنية الصرفية والتراكيب النحوية؛ لذلك حين شرعنا فى الحديث عن طرق الأداء والدلالى رأينا العرض لها فى ضوء التشبيه والاستعارة والكناية.

٦- المحسنات المعنوية واللفظية: طرق علماء البلاغة الكثير من الموضوعات ذات الصلة بالمحسنات المعنوية واللفظية، ومن تلك الموضوعات المطابقة والمبالغة والإغراق والغلو والتورية والالتفات والجناس والسجع وسواها، وقد درسنا التضاد على أنه من المحسنات المعنوية، والجناس على أنه من المحسنات اللفظية.

وبعد فهذه محاولة قمتُ بها جاداً مخلصاً، فإن كانت نافعة فبها ونعمت، وإن كانت الأخرى فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والله وحـده ولـى التوفيـق ،

محمود سليمان ياقوت

الجمعة : غرة رمضان المبارك ١٤١٤هـ

١١ مـن فبـرايـر ١٩٩٤م

تمهيـــــــد

الكشف عن الإعجاز القرآنى
ونشــأة علم الجمال اللغــوى

عرفت الحياة الفكرية عند القدماء من العلماء المسلمين الكثير من العلوم التى دارت حول القرآن الكريم من أجل فهمه وتفهيمه، ومن بينها التفسير والقراءات والصرف والنحو وسواها؛ بالإضافة إلى الاهتمام باللفظة القرآنية الكريمة من حيث دراسة الغريب وتقديم بعض المعاجم الخاصة به على نحو ما فعل الراغب الأصفهانى فى كتابه المتميز فى موضوعه (المفردات فى غريب القرآن). ومن العلوم التى اتصلت بالكتاب العزيز اتصالاً مباشراً «علم البلاغة»؛ إذ إن هذا العلم اهتم بالكثير من القضايا القرآنية، ويأتى على رأسها محاولة التوصل إلى الأسباب اللغوية وغير اللغوية التى جعلت القرآن الكريم معجزاً فى نظمه وبيانه، والذى يوجب الاهتمام التام بمعرفة هذا الإعجاز أن نبوة رسولنا ﷺ أساسها تلك المعجزة، وإن كان قد أُيِّد - بعد ذلك - بمعجزات كثيرة، ولكنها قامت فى أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة؛ لذلك وجدنا بعض المؤلفين يتخذ من أحد فروع البلاغة مجالاً للتطبيق فى القرآن، ومن أولئك ابن أبى الإصبع المصرى (٥٨٥ - ٦٥٤هـ) صاحب كتاب (بديع القرآن). ووجدنا الزمخشرى فى كشافه يجعل من علمى «المعانى» و «البيان» مختصين بالكتاب العزيز مع ربطهما بعلم «التفسير». يقول الزمخشرى: «إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذى لايتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه كل ذى علم، كما ذكر الجاحظ فى كتابه (نظم القرآن)؛ فالفقيه وإن برّز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّية[1] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ، والنحوى وإن كان من سيبويه أنحى، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه، لايتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولايغوص على شئ من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعانى، وعلم البيان،

---

(١) ابن القرية: أحد فصحاء العرب، واسمه أيوب، والقرية اسم أمه، وهى فى الأصل حويصلة الطائر. وهو من الحفّاظ، نقل الكتب القديمة إلى العربية، وقد قتله الحجاج.

وتمهل فى ارتيادهما آونة، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله»(١).
ومن هنا احتل تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف مكانة فريدة فى مكتبة الدراسات القرآنية، لأن الرجل استطاع بذوقه البلاغى، وحسه الجمالى المرهف، وقدرته على فقه الأساليب العربية الرفيعة، وتمكنه من علوم العربية المختلفة أن يقدم عملاً عملياً لقى إعجاب علماء المسلمين على اختلاف اتجاهاتهم، على الرغم مما يشوب هذا التفسير من بعض الفكر الاعتزالى.

وإذا كان لكل نبى معجزة تدل على صدقه؛ فإن القرآن الكريم هو المعجزة الشاهدة على صدق الرسول ﷺ، وهى أعظم من المعجزات السابقة عليها، بل أعظمها على الإطلاق؛ لذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته: «إن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآنُ الكريمُ المنزَّل على نبينا محمدٍ ﷺ؛ فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحى المُدَّعى، وهو الخارق المعجز، فشاهده فى عينه، ولايفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى؛ فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبى من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلىّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحى، كان الصدق لها أكثر وضوحاً، فكثر المصدِّقُ المؤمن، وهو التابع والأمة»(٢).

ومن المعروف أن العرب اشتهروا بالفصاحة والبيان؛ لذلك احتل الشعر مكانة

---

(١) الكشاف: ١/ ١٥ و ١٦.

(٢) المقدمة: ٩٥. ويمكن تعريف المعجزة بأنها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدى، سالم عن المعارضة، وهى إما حسية وإما عقلية. وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولبقاء المعجزات العقلية إلى يوم القيامة.

متميزة فى الحياة الفكرية عندهم، وهو ديوان العرب، وهو علمُ قوم لم يكن لديهم علم غيره؛ لذلك عقدوا له الأسواق، ومن أهمها «سوق عكاظ» بجوار مكة، وكان هناك تنافس شديد بين الشعراء. وقد كانت لدى العرب المقدرة على تذوق الأساليب الرفيعة وفهمها والتوصل إلى ما فيها من بيان؛ حتى إن الوليد بن المغيرة المخزومى حين استمع إلى بعض آى الذكر الحكيم لم يستطع إنكار إعجابه ببلاغته وبيانه، وقال لقومه من بنى مخزوم: «والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن؛ إن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى». ونظراً لتلك المكانة التى احتلها الشعر فى العصر الجاهلى حرص القرآن الكريم على أن ينفى صفة الشعر عن الرسول ﷺ. قال تعالى (ومَا علمناه الشعر وما ينبغى له إنْ هو إلا ذكر وقرآن مبين. لتنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين)[١]. ولكن هل نفى تلك الصفة معناه أن الإسلام قد حارب الشعر والشعراء؟ لقد عقد ابن رشيق (أبو على الحسن ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) باباً فى كتابه (العمدة) عنوانه «فى الرد على من يكره الشعر» فيه الإجابة الشافية عن هذا السؤال؛ لذلك نقدمه هاهنا[٢].

رُوِىَ عن النبى ﷺ أنه قال: «إنما الشعر كلام مؤلَّف، فما وافق الحقَّ منه فهو حسن، ومالم يوافق الحق منه فلا خير فيه». وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الشعر كلام؛ فمن الكلام خبيث وطيب». وقالت عائشة رضى الله عنها: «الشعر فيه كلام حسن وقبيح؛ فخذ الحسن واترك القبيح». ويُروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ بَنَى لحسان بن ثابت فى المسجد منبراً ينشد عليه الشعر. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه» وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «الشعر ميزان القول» ورواه بعضهم: «الشعر ميزان القوم». وروى ابن عائشة يرفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به فى بواديها، وتسلُّ

---

(١) يس / ٦٩ و ٧٠.

(٢) العمدة: ٩ - ١٢ من الجزء الأول.

به الضغائن من بينها»، وأنشد ابن عائشة قول أعشى بنى قيس بن ثعلبة:

قلّدتُــك الشعرَ يـا سلامـــة ذا فائش، والشئُ حيثمـا جُعـلا
والشعـر يستنـزلُ الكريـم كمـا يُنزِلُ رعــدُ السحابـــة السَّبَلا(١)

ويروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت: «مرَّ الزبير بن العوام رضى الله عنه بمجلس لأصحاب النبى ﷺ وحسان ينشدهم، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره، فقال: مالى أراكم غير آذنين لما تسمعون من ابن الفريعة، لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولايشتغل عنه إذا أنشده». ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر فى مسجد الرسول ﷺ، ثم قال: أرغاء كرغاء البكر، فقال حسان: دعنى عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك، فقال: صدقت. وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى: مُرْ من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى، ومعرفة الأنساب. وقال معاوية رحمه الله: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعرُ أعلى مراتب الأدب، وقال: اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين، وقد أُتيتُ بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو ابن الإطنابة:

أبـــتْ لى همَّتى وأبى بلائـــى وأخـذى الحمدَ بالثمنِ الربيـح
وإقحامـى على المكـروه نفسـى وضرْبى هامـةَ البطـلِ المشيـحَ
وقولى كلمـا جشأتْ وجاشـتْ مكانَـكِ تُحْمَـدى أو تستريحى
لأدفــعَ عـــن مآثرَ صالحـــاتٍ وأحمى بَعْدُ عن عِرْضٍ صحيح

ويروى أن أعرابياً وقف على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: إنّ لى إليك حاجةً، رفعتُها إلى الله قبل أن أرفعها إليك؛ فإن أنت قضيتها حمدتُ الله

---

(١) ذو فائش: سلامة بن يزيد اليحصبى، والسَّبَل: المطر.

تعالى وشكرتُك، وإن لم تقضها حمدتُ الله تعالى وعذرتك، فقال له عليٌّ: خُطَّ حاجتك فى الأرض، فإنى أرى الضُّرَّ عليك، فكتب الأعرابى على الأرض: إنى فقير، فقال على: ياقنبر، ادفع إليه حلتى الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوْتَنى حُلَّـةً تبْلَى محاسنُها ... فسوف أكسوك من حُسْنِ الثَّنَا حُلَلا
إنّ الثناءَ لَيُحيى ذِكْرَ صاحبه ... كالغيث يُحيى نداه السهلَ والجبلا
لاتزهد الدهرَ فى عُرْفٍ بدأتَ به ... فكلُّ عبدٍ سيُجزى بالذى فعلا

فقال على: يا قنبر، أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا الناس منازلهم». وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر؛ فقال: نسكوا نسكاً أعجمياً. وقال ابن سيرين: الشعر كلام عُقد بالقوافى، فما حسن فى الكلام حسن فى الشعر، وكذلك ما قبح منه. وسئل فى المسجد عن رواية الشعر فى شهر رمضان، وقد قال قوم إنها تنقض الوضوء؛ فقال:

نُبِّئتُ أن فتاةً كنتُ أخطبها ... عرقوبُها مثلُ شهرِ الصوم فى الطول

ثم قام فأمَّ الناس ... وقال الزبير بن بكار: سمعت العمرى يقول: رَوُّوا أولادكم الشعر؛ فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحضُّ على الخلق الجميل .... وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سُئل عن شئ من القرآن أنشد فيه شعراً. وكانت عائشة رضى الله عنها كثيرة الرواية للشعر؛ يقال إنها كانت تروى جميع شعر لبيد. ورُوىَ عن النبى ﷺ أنه قال: «لاتدع العربُ الشعر حتى تدع الإبلُ الحنينَ». وكان أبو السائب المخزومى على شرفه وجلالته وفضله فى الدين والعلم يقول: أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرحبة كلَّ يوم مراراً[1] ... فأما احتجاج من لايفهم وجه الكلام بقوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون. وأنهم يقولون مالا

(١) الرحبة: المكان الذى تقام فيه الحدود؛ يريد أنه لايستطيع الصبر عنه فيُحدُّ فى كل يوم مراراً.

يفعلون)[١] فهو غلط وسوء تأول؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شئ من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل، ونبه عليهم فقال: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِمُوا)[٢]؛ يريد شعراء النبى ﷺ الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد قال فيهم النبى ﷺ: «هؤلاء النفر أشد على قريش من نَضْح النَّبْل»، وقال لحسان بن ثابت: «اهجهُم[٣] فو الله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات». فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبى ﷺ شعراءَ يثيبهم على الشعر، ويأمر بعمله، ويسمعه منهم. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لأنْ يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يَرِيَهُ[٤] خير له من أن يمتلئ شعراً»، فإنما هو فيمن غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر وغيره مما جرى هذا المجرى من شطرنج وغيره سواء، وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، والجلة من الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين.

وبعد هذا العرض لموقف الإسلام من الشعر والشعراء، نحاول التعرف على الدور الذى أدّاه البحث فى إعجاز القرآن الكريم فى نشأة علوم البلاغة الثلاثة: المعانى، والبيان، والبديع، أو ما اصطلحنا على تسميته بـ «علم الجمال اللغوى»، معتمدين فى ذلك على الأعمال العلمية التى خلفها الأوائل من العلماء المسلمين، واهتمت بالبحث فى الإعجاز القرآنى الكريم.

---

(١) الشعراء / ٢٢٤ - ٢٢٦.

(٢) الشعراء / ٢٢٧.

(٣) يقصد قريشاً.

(٤) أى يفسد جوفه.

لقد وصلت إلينا عدة مؤلفات تهتم بالكشف عن ذلك الإعجاز، من أهمها ما يأتي:

١- النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦ هـ).

٢- بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨ هـ).

٣- إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ).

٤- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ).

٥- الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ).

٦- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي (محمد بن عمر ت ٦٠٦هـ)

٧- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩ هـ).

واهتم المحدثون بالإعجاز، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده فيما كتبه تحت عنوان «في تحقيق وجوه الإعجاز بمنتهى الاختصار والإيجاز» ضمن كتابه (تفسير الذكر الحكيم)، والسيد مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن).

وقد احتوت تلك الأعمال العلمية على الكثير من النواحي اللغوية وغير اللغوية المتصلة بإعجاز القرآن الكريم، نحاول التعرف عليها، ولكننا قبل ذلك نتوقف أمام المناخ العام المتصل بالحديث عن هذا الإعجاز، وما يتصل ببعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة.

أشار القدماء إلى أن نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وليس للعرب

كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعانى اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب فى-البلاغة. والتشابه فى البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف. وقد حصل القرآن الكريم على كثرته وطوله متناسباً فى الفصاحة، على ما وصفه الله تعالى به؛ فقال عزّ من قائل: (الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرُ منه جلودُ الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)[١]، وقوله: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٢]، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمى إن امتد وقع فيه التفاوت، وبان عليه الاختلال.

ويرى القدماء أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لايتفاوت ولايتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها، وقد علّق الباقلانى على تلك الوجوه بقوله: «وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها، على حد واحد، فى حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لاتفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لايختلف. وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة القصة الواحدة تفاوتاً بيّناً، ويختلف اختلافاً كبيراً. ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولامتفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة»[٣].

---

(١) الزمر / ٢٣.

(٢) النساء / ٨٢.

(٣) إعجاز القرآن: ٣٧ و مابعدها.

ولقدوقع نظم القرآن الكريم موقعاً فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله عز وجل: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[١].

ولعله مما يتصل بالحديث عن الإعجاز التوقف أمام المعانى والألفاظ المعبرة عنها. قال الباقلانى: «إن المعانى التى تضمنها فى أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات فى أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع؛ وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعانٍ مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة. فإذا برع اللفظ فى المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ويراد تحقيقه بان التفاضل فى البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعانى وفقها، لايفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم»[٢].

ويرى بعض القدماء أن إعجاز القرآن الكريم يظهر فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان[٣] وذلك مما لايقدر عليه البشر، ولاسبيل لهم إليه، فمن ذلك ماوعد الله تعالى رسوله ﷺ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عز وجل: (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)[٤] ففعل ذلك. وكان أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله، من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح.

---

(١) الإسراء / ٨٨.

(٢) إعجاز القرآن: ٤٢.

(٣) الخطابى: بيان إعجاز القرآن ٢٣.

(٤)

وجميع الآيات التى يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيب، يكثر جداً، وقد أتى القدماء بقدر كبير منها[١].

وهناك وجه من وجوه الإعجاز يتصل بالرسول ﷺ، عبَّر عنه الباقلانى بقوله: «إنه كان معلوماً من حال النبى ﷺ أنه كان أمياً لايكتب، ولايحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم. ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام، إلى حين مبعثه، فذكر فى الكتاب الذى جاء به معجزة له قصة آدم عليه السلام، وابتداء خلقه، وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة، ثم جملاً من أمر ولده وأحواله وتوبته؛ ثم ذكر قصة نوح عليه السلام، وما كان بينه وبين قومه، وما انتهى إليه أمرهم. وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام، إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين فى القرآن، والملوك والفراعنة الذين كانوا فى أيام الأنبياء صلوات الله عليهم. ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لاسبيل إليه، إلا عن تعلم؛ وإذ كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه – عُلم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى، ولذلك قال الله عز وجل: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)[٢]. وقال: (وكذلك نصرِّف الآيات وليقولوا درستَ)[٣]. وقد بينَّا أن من كان يختلف إلى تعلُّم علم، ويشتغل بملابسة أهل صنعة، لم يخفَ على الناس أمره، ولم يشتبه عندهم مذهبه، وقد كان يُعْرَفُ منهم من يحسن هذا العلم، وإن كان نادراً، وكذلك كان يعرف من يختلف إليه للتعلم، وليس يخفى فى العرف عالم كل صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخفَ أمره»[٤].

---

(١) إعجاز القرآن: ٣٣ ومابعدها.

(٢) العنكبوت / ٤٨.

(٣) الأنعام / ١٠٥.

(٤) إعجاز القرآن: ٣٤ وما بعدها.

وبعد هذا العرض نشير إلى أن أصحاب «علم الكلام» هم أول من تحدث عن إعجاز القرآن الكريم، ويأتى على رأسهم «المعتزلة»، وقد كان لبعض رؤسائهم آراء فى ذلك الإعجاز كقولهم بـ «الصَّرْفة»، والمقصود بذلك أن العلى القدير صَرَفَ الهمم عن معارضة القرآن الكريم، ووجه احتجاجهم للصرفة أنه إذا جاز عقلاً عدم تعذر المعارضة، ثم عجز بلغاء العرب – فضلاً عمن دونهم – عن معارضته وانقطعوا دونه، فذلك برهان على المعجزة؛ لأن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجارى العادات، صار كسائر المعجزات. ولعلهم لم ينظروا فى ذلك إلى المعجزة، وإنما نظروا إلى دلالتها على النبوة، فبصرف النظر عن المعجزة ذاتها، يكفى عجز البشر عنها لتكون الآية والبرهان. أو كما قالوا افتراضاً: «ولو كان الله – عز وجل – بعث نبياً فى زمان النبوات، وجعل معجزته فى تحريك يده أو مدّ رجله فى وقت قعوده بين ظهرانى قومه، ثم قيل له: ما آيتك؟ فقال: «آيتى أن أحرِّك يدى أو أمد رجلى، ولايمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلى» – والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشئ من جوارحهم – فحرَّك يده أو مدَّ رجله، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه، كان ذلك آية على صدقه، وليس يُنظر فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى، ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمراً خارجاً عن مجارى العادات ناقضاً لها، فمهما تكن بهذا الوصف، كانت آية دالة على صدق مَنْ جاء بها»[1].

ويبدو أن مثل هذا الاحتجاج للنبوة بصرف الهمم عن معارضة القرآن، قد أوقع فى شبهة أن إعجازه البلاغى غير معتبر عند من لم ينظروا إليه. وذلك ما التفت إليه أعلام المعتزلة أنفسهم، فجهدوا فى تقرير وجه إعجاز فصاحته ونظمه، وتجردوا للاحتجاج له. فالجاحظ وهو من تلاميذ إبراهيم بن سيَّار النظَّام صنف كتابه (نظم القرآن) احتجاجاً لإعجاز هذا النظم، ومخالفاً به رأى من اكتفوا فيه بالقول بالصَّرفة، دون نظر إلى بلاغته المعجزة التى تفوت بلاغات البشر[2]. وعلى الرغم

(١) الخطابى. بيان إعجاز القرآن ٢٣

(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن. الإعجاز البيانى للقرآن. ٨٣

من أن هذا الكتاب لم يصل إلينا فإنه قد وردت بعض النصوص التى تدل على أن الجاحظ رأى أن إعجاز القرآن الكريم فى نظمه وبيانه، ومن ذلك قوله: «ولى كتاب (لعله يقصد كتاب: نظم القرآن) جمعت فيه آياتٍ من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف، وفرق بين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الإيجاز، والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذى كتبته لك فى باب الإيجاز وترك الفضول»[١]. ويقول أحد العلماء عن هذا الكتاب: «ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الردّ على المشبهة، وكتابه فى الأخبار وإثبات النبوات، وكتابه فى نظم القرآن، علم أن له فى الإسلام غناءً عظيماً لم يكن الله عز وجل ليضيعه عليه، ولايعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ»[٢]. ولانريد الوقوف مع دور الجاحظ فى الكشف عن إعجاز الكتاب الكريم أكثر من ذلك؛ لأننا سنتوقف أمام دوره فى دراسة بعض ما يتصل بلغة القرآن الكريم التى أدّت إلى الإعجاز البلاغى فيما بعد.

وقد بحث القدماء قضية الإعجاز فى ضوء علوم البلاغة، وأشاروا خلال هذا البحث إلى بعض القضايا اللغوية والبلاغية التى تتصل بلغة الكتاب العزيز، ويمكن تقديم تلك القضايا خلال النقاط الآتية:

(١)

ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه

نظر القدماء فى ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه وربطوا بها قضية الإعجاز وعجز البشر عن الإتيان بمثله، وقد أشار إلى هذا الخطابى فى قوله: «إن علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل لها، ولاتدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام

(١) الحيوان: ٣ / ٧٦.

(٢) ابن الخياط: الانتصار فى الرد على ابن الراوندى ٤٣٩.

مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لاترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولاترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه. وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها، والترقى إلى أعلى درجات الفضل فى نعوتها وصفاتها» . ثم يقول الخطابى: «فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعانى، من توحيد له عزّتْ قدرته، وتنزيه له فى صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته؛ من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شئ منها موضعه الذى لايرى شئ أولى منه، ولايرى فى صورة العقل أمر أليق منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه»[1] .

وقد توقف الجاحظ أمام الألفاظ القرآنية والعناية الخاصة التى أولاها الكتاب الكريم لتلك الألفاظ، وحسن اختيارها بدقة وبراعة للموضع الخاص بها، ومراعاة الفروق الدلالية والسياقية بينها، وعدم الإتيان بالألفاظ المترادفة إلا للدلالة على معانٍ مختلفة، وحسب الدقة وبمقدارها حين إصابة المعنى يظهر الفرق بين ألفاظ الناس فى كلامهم، وألفاظ القرآن الكريم. قال الجاحظ: «وقد يستخفُّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرُها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر؟ والناس لايذكرون السغب، ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة، وكذلك المطر؛ لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة

(١) بيان إعجاز القرآن: ٢٧ وما بعدها

لايفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث. ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لايجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً؟ والجارى على أفواه العامة غير ذلك، لايتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح فى القرآن إلا فى موضع التزويج»[١].

ويشير هذا النص إلى ما قلناه بخصوص تلك العلاقات السياقية والدلالية بين الألفاظ ومعانيها داخل الآيات الكريمة، ونقصد بذلك ذكر لفظة «الجوع» فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، وذكر لفظة «المطر» فى موضع الانتقام، وذكر لفظة «النكاح» فى موضع التزويج.

وقد توقف الرُّمانى أمام مفهوم مصطلح «البلاغة» مع ربطه باللفظ والمعنى والنظر فى البلاغة القرآنية. قال: «فأما البلاغة فهى على ثلاث طبقات: منها ما هو فى أعلى طبقة، ومنها ما هو فى أدنى طبقة، ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان فى أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. وليست البلاغة إفهام المعنى؛ لأنه قد يُفْهِم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيى، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ. فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحِم، فهذا معجز للمفحَم خاصة، كما أن ذلك معجز للكافة»[٢].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٣

(٢) النكت فى إعجاز القرآن: ٧٥ وما بعدها

(٢)
نظم القرآن الكريم

يرى القدماء أن إعجاز القرآن الكريم يظهر فى نظمه، ويقصدون بذلك تلك العلاقات التى تنشأ بين الألفاظ ومعانيها لتؤدى إلى ضرب من الإعجاز فى النظم والتأليف لايقدر على مثله بشر؛ لذلك لم يكن التحدى على مستوى الكلم المفردة أو بمعانيها؛ لأن ذلك متاح لأهل اللغة والعارفين بها والمالكين لناصيتها. ومما هو معروف فى تاريخ الدراسات البلاغية والنقدية أن عبد القاهر الجرجانى هو الذى صاغ الحديث عن «النظم» صياغة علمية دقيقة، ولكن هناك محاولات كثيرة سبقته، استطاع الرجل أن يفيد منها، ولابأس من التعرف على تلك المحاولات وتتبعها.

يرى الخطابى (أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ٣١٩ - ٣٨٨ هـ) أن القرآن الكريم إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعانى؛ لذلك قال أكثر العلماء إن إعجازه من جهة البلاغة، ولكن هؤلاء العلماء - عند الخطابى - إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها الكتاب العزيز، الفائقة فى وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا إنه لايمكننا تصويره ولاتحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لايمكن تحديده، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع فيه التفاضل فتقع فى نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك، ويتميز فى أفهامهم قبيل الفاضل والمفضول منه. قالوا (أى العلماء الذين قالوا إن الإعجاز فى البلاغة): وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره فى النفس حتى لايلتبس على ذوى العلم والمعرفة به. قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لايوجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لايوقف لشئ من ذلك على علة.

ويرى الخطابى أن ما قاله أولئك لايقنع فى مثل هذا العلم، ولايشفى من داء

الجهل به، وإنما هو إشكال أُحيل على إبهام، ثم يضيف قوله: «فأما من لم يرْضَ من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلة ... فإنه يقول إن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع، والهشاشة فى نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب، وتحصر الأقوال عن معارضته وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لابد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم وبحصوله يستحق هذا الوصف»[١].

وتوقف الباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب ت ٤٠٣هـ) أمام الإعجاز من جهة النظم. قال: «فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه فى جهته وتحار فى بحره وتضل دون وصفه». وقال أيضاً: «إن المتناهى فى الفصاحة والعلم بالأساليب التى يقع فيها التفاصح، متى سمع القرآن عرف أنه معجز؛ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لايقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو»[٢]. ومن هنا فإن العالم بالأساليب؛ أى بالنظم على اختلاف ضروبه وأنماطه يعلم علم اليقين أن القرآن الكريم معجز؛ لأنه جاء على ضرب من التأليف مخالف لما يعرفه العرب؛ لذلك قال الباقلانى: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز فى صرفه عن أساليب الكلام المعتاد». وقال كذلك: «إن نظم القرآن وقع موقعاً فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس؛ فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا»[٣]، وقد قال الله عز وجل: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[٤]. وقال الباقلانى أيضاً: «فأما نهج القرآن

(١) بيان إعجاز القرآن: ٢٤ ومابعدها.
(٢) إعجاز القرآن: ٢٦.
(٣) السابق: ٣٨.
(٤) الإسراء / ٨٨.

ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه فى جهته، وتحار فى بحره، وتضل دون وصفه»[١].

ولقد اهتم الباقلانى بتحليل الشعر، قبل الدخول فى بيان إعجاز القرآن الكريم، واختار لذلك قصيدتين؛ الأولى مطلعها:

قفا نبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ　　　بسقطِ اللّوى بين الدخولِ فحوملِ

وهى معلقة امرئ القيس، والأخرى مطلعها:

أهلاً بذلكم الخيالِ المُقبلِ　　　فَعَلَ الذى نهواه أو لم يَفْعَلِ

وهى للبحترى. وخلال هذا التحليل للقصيدتين يشير إلى بعض العيوب المتصلة بالنظم فيهما، ويمكن إيضاح ذلك فى النقاط الآتية:

١- وقع امرؤ القيس فى بعض الأخطاء المتصلة بالتذكير والتأنيث، ومن أمثلة ذلك قوله:

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسمُها　　　لِمَا نَسَجَتْهَا من جنوبٍ وشمألِ

قال الباقلانى: «فإن قوله «لما نسجتها» كان ينبغى أن يقول لما نَسَجَها» ولكنه تعسف فجعل «ما» فى تأويل تأنيث؛ لأنها فى معنى الريح، والأولى التذكير دون التأنيث، وضرورة الشعر قد قادته إلى هذا التعسف».

وقوله: «لم يعفُ رسمها» كان الأولى أن يقول: «لم يعفُ رسمُه»؛ لأنه ذكّر المنزل؛ فإن كان ردَّ ذلك إلى هذه البقاع والأماكن التى المنزلُ واقعٌ بينها، فذلك خلل؛ لأنه إنما يريد صفة المنزل الذى نزله حبيبه، بعفائه، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره.

٢- من المصطلحات التى أكثر القدماءُ من استعمالها «الحشو»، ويقصدون به وجود بعض التراكيب النحوية التى يمكن الاستغناء عنها كالجار والمجرور «منى»، و «على النحر» فى بيت امرئ القيس:

ففاضتْ دموعُ العينِ منى صبابةً　　　على النَّحْرِ حتى بلَ دمعىَ مِحْمَلِى

(١) إعجاز القرآن: ١٨٣.

قال الباقلانى: «قوله: «ففاضت دموع العين» ثم استعانته بقول: «منى» استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة، وهو حشو غير مليح ولابديع. وقوله: «على النحر» حشو آخر؛ لأن قوله: «بل دمعى محملى» يغنى عنه ويدل عليه، وليس بحشو حسن، ثم قوله: «حتى بل دمعى محملى» إعادة ذكر الدمع حشو آخر، وكان يكفيه أن يقول: حتى بلتْ محملى، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله».

٣- من عيوب النظم عند القدماء «التكرار» الذى يلجأ إليه بعض الشعراء دون طائل من ورائه، ومن أمثلته تكرار كلمة «خدْر» فى قول امرىء القيس:

ويومَ دخلتُ الخـدرَ خـدْرَ عُنيـزة — فقالتْ: لكَ الويلاتُ إنك مُرجلـى

٤- نظر الباقلانى فى بعض العيوب المتصلة باللفظ والمعنى؛ فالشعراء يقعون فى تكرار المعانى المتداولة، والاهتمام باللفظ على حساب المعنى، أو العكس، ومن أمثلة ذلك قول البحترى:

من غـادةٍ مُنِعَتْ وَتَمْنَـعُ نَيْلَهـا — فلـو انَّهـا بُذِلَـتْ لنا لـم تبْـذُلِ

فهذا البيت عند الباقلانى «ألفاظه أوفر من معانيه، وكلماته أكثر من فوائده، وتعلم أن القصد وَضْعُ العبارات فى مثله! ولو قال: هى ممنوعة مانعة، كان ينوب عن تطويله، وتكثيره الكلام وتهويله، ثم هو معنى متداوَل مكرر على كل لسان».

وهناك جوانب أخرى تتصل بعيوب النظم عند كلا الشاعرين، أشار إليها الباقلانى فى كتابه. ولقد بيَّن الرجل السبب فى اختياره لهذين الشاعرين دون غيرهما من شعراء العرب، أما امرؤ القيس فقد قال عنه: «وأنت لاتشك فى جودة شعر امرىء القيس ولا ترتاب فى براعته، ولاتتوقف فى فصاحته، وتعلم أنه قد أبدع فى طرق الشعر أموراً اتبع فيها، من ذكر الديار والوقوف عليها، إلى مايصل بذلك: من البديع الذى أبدعه، والتشبيه الذى أحدثه، والمليح الذى تجد فى شعره، والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله، والوجوه التى ينقسم إليها كلامه: من صناعة وطبع، وسلاسة وعفو، ومتانة ورقة، وأسباب تُحْمَد، وأمور تُؤْثَر وتمدح»، وقال عن البحترى: «الكُتَّاب يفضلونه على أهل دهره، ويقدمونه على مَنْ فى

عصره؛ ومنهم من يدعى له الإعجاز غُلُوّاً، ويزعم أنه يناغى النجم فى قوله عُلُوّاً..» .

وبعد هذا العرض لما يتصل بامرىء القيس والبحترى وقصيدتهما، نجد فى كتاب الباقلانى نصوصاً نظرية وتطبيقية متناثرة، يوضح بها الإعجاز فى نظم القرآن الكريم وغير النظم أيضاً؛ لذلك يقول: «ونظم القرآن عالٍ عن أن يعلق به الوهم، أو يسموَ إليه الفكر، أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب: (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[١] . وقد نبه على أهمية المعرفة بـ «علم اللسان» للتوصل إلى جوانب الإعجاز. قال: «إنك إن كنت بصنعة علم اللسان متدرباً، وفيه متوجهاً متقدماً، أمكنك الوقوف على ما ذكرنا (يقصد النظم) والنفوذ فيما وصفنا، وإلا فاجلس فى مجلس المقلدين، وارضَ بمواقف المتحيرين. ونصحتُ لك حيث قلتُ: انظر، هل تعرف عروق الذهب، ومحاسن الجوهر، وبدائع الياقوت، ودقائق السحر، من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها؟ وهل يُقطع سَمْتُ البلاد من غير اهتداء فيها؟»[٢] . ونقدم إحدى الآيات الكريمة وتعليق الباقلانى عليها.

قال تعالى: (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناه نوراً نَهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)[٣] .

فانظر – إن شئت – إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف؛ كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديعٌ واقعٌ.

قوله: (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) يدل على صدوره من الربوبية، ويُبين عن وروده عن الإلهية. وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعتْ بين كلام كثير، تميز عن جميعه، وكان واسطة عِقْده، وفاتحة عَقْده، وغرة شهره، وعين دهره.

---

(١) فصلت / ٤٢.

(٢) إعجاز القرآن: ٢٤٣.

(٣) الشورى / ٥٢.

وكذلك قوله: ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾ فجعله روحاً؛ لأنه يُحيى الخَلْقَ، فله فضل الأرواح فى الأجساد، وجعله نوراً؛ لأنه يضيىء ضياء الشمس فى الآفاق. ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته، وبيّن أنه لم يكن ليهتدى إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما فى الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وأنه لم يكن ليهتدى، فكيف كيف يهدى لولاه، فقد صار يهدى، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدى، فقال:

﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾[1].

فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان. وقوله: ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ كلمة منفصلة مبينة للأولى، قد صيَّرهما شريف النظم أشد ائتلافاً من الكلام المؤالف، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم.

وبهذا يبين فضل الكلام، وتظهر فصاحته وبلاغته.

الأمر أظهر – والحمد لله – والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف[2].

وهناك جوانب لغوية كثيرة أشار إليها الباقلانى، وهى تتصل بالنظم اتصالاً مباشراً كالحذف والاختصار والتقديم والتأخير وسواها، سوف نتوقف أمامها فى ضوء ما كتبه هو وغيره فى موضعه من هذا الكتاب[3].

ويعد القاضى أبو الحسين عبد الجبار الأسد آبادى قاضى قضاة الدولة البويهية بإيران واحداً من أكبر أعلام المعتزلة فى عصره الذى يمتد حتى سنة ٤١٥ هـ حين لبّى نداء ربه، وقد اهتم بإعجاز القرآن الكريم فى كتابه (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) وذلك فى الجزء السادس عشر منه. وقد عرض القاضى عبد الجبار لرأى شيخه أبى هاشم الجُبّائى الذى يشير إلى أن الفصاحة والبلاغة ليست فى «النظم»، ولكنها فى اللفظ والمعنى معاً. قال الجبائى: «إنما يكون الكلام فصيحاً

(١) الشورى / ٥٣.
(٢) إعجاز القرآن: ١٨٧.
(٣) انظر الفصل الخاص بـ «علم الجمال التركيبى».

لجزالة لفظه وحسن معناه، ولابد من اعتبار أمرين؛ لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يُعَدّ فصيحاً، فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين. وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص؛ لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحداً، وتقع المزية فى الفصاحة، فالمعتبر ما ذكرناه؛ لأنه الذى يتبين فى كل نظم وكل طريقة، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء: يَسْبق إليه، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء، فيساويه فى ذلك النظم، ومن يفضل عليه يفضله فى ذلك النظم»[1].

ولكن القاضى عبد الجبار وجد فى فكر شيخه أبى هاشم الجبائى بعض جوانب النقص؛ لأنه من الصعوبة النظر فى الفصاحة والبلاغة للنصوص على اختلافها فى ضوء اللفظ والمعنى حسب، ودونما اعتماد على النظم الذى هو تركيب الكلام؛ لذلك عقد فصلاً تالياً عرض فيه وجهة نظره فى العلة التى يتفاضل الكلام بها فى بلاغته وفصاحته. قال: «اعلم أن الفصاحة لاتظهر فى أفراد الكلام، وإنما فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التى تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع؛ لأنه إما أن تُعْتَبَرَ فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها. ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمة. ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات، إذا انضمَّ بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها. فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها. فإن قال: فقد قلتم إن فى جملة ما يدخل فى الفصاحة حسن المعنى فهلا اعتبرتموه؟ قيل له: إن المعانى وإن كان لابد منها فلا تظهر المزية ... ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق ... على أنا نعلم أن المعانى لايقع فيها تزايد، فإذن يجب أن يكون

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل: ١٦/ ١٩٩ وما بعدها.

الذى يعتبر التزايد عنده الألفاظ التى يعبر بها عنها. فإذا صحت هذه الجملة فالذى تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذى به تختص الكلمات أو التقدم والتأخر الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب، فبذلك تقع المباينة»[1].

ويشير هذا النص الذى نقلناه عن القاضى عبد الجبار إلى اهتمامه الخاص بالنظم أو التركيب للكلام، يدلنا على ذلك إكثاره من استعمال كلمة «الضم» التى نستطيع أن نقول إنها مصطلح لغوى عنده يساوى «النظم» أو «التركيب» أو «السياق». ونفى عبد الجبار صفة الفصاحة عن اللفظة المفردة؛ إذ إنها ليست فصيحة فى نفسها، وإنما يجب دراستها فى ضوء حركات الإعراب وموقعها فى الجملة من حيث التقديم والتأخير، لأن الحركات والموقع يؤثر تأثيراً بالغاً فى الدلالة التى يمكن التوصل إليها من الجمل والعبارات. وهذا نص آخر للقاضى عبد الجبار يشرح فيه نظريته الخاصة بالفصاحة يقول فيه:

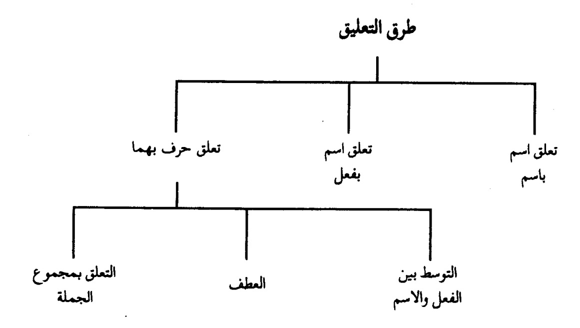
«ولايُمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها إذا استُعملت فى غيره، وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها، وكذلك القول فى جملة من الكلام ... وهذا يبين أن المعتبر فى المزية ليس بنية اللفظ وأن المعتبر فيها ما ذكرناه من الوجوه. فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه لايوجد فضلاً فى الفصاحة .. ولا فصل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز؛ بل ربما كان المجاز أدخل فى الفصاحة؛ لأنه كالاستدلال فى اللغة ... وكذلك فلا مُعتبرَ بقصر الكلام وطوله وبسطه وإيجازه؛ لأن كل ضرب من ذلك ربما يكون أدخل فى الفصاحة فى بعض المواضع من صاحبه».

وجاء الإمام عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) وتناول فى دلائله «النظم» بالتفصيل؛ لذلك يعد كتابه تفسيراً وشرحاً وتفصيلاً لما أوجزه القاضى عبد الجبار.

عرَّف عبد القاهر النظم بأنه «تعليق الكلم بعضِها ببعضٍ، وجَعْل بعضها بسببٍ من بعض». ومن المعروف أن الكلمة تنقسم ثلاثة أقسام:

(١) السابق: ١٦ / ١٩٩ وما بعدها.

الاسم والفعل والحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، يمكن إيضاحها خلال الشكل الآتي:



وأخذ عبد القاهر يشرح تلك الطرق خلال الأمثلة التطبيقية؛ فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبراً عنه، أو حالاً منه، أو تابعاً له ... وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلاً له، أو مفعولاً، فيكون مصدراً قد انتصب به كقولك: «ضربتُ ضرباً»، ويقال له المفعول المطلق، أو مفعولاً به كقولك: «ضربتُ زيداً»، أو ظرفاً مفعولاً فيه، زماناً أو مكاناً تقولك: «خرجتُ يوم الجمعة، ووقفتُ أمامك»، أو مفعولاً معه كقولنا: «جاء البَرْدُ والطيالسة»، أو مفعولاً له كقولنا: «فعلتُ ذلك إرادةَ الخيرِ بك» ... وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب:

١- أن يتوسط الحرف بين الفعل والاسم، وذلك في باب الفعل الذى يتعدى بحرف الجر كـ «مرّ» فى قولنا: «مررتُ بزيدٍ».

٢- العطف، وهو أن يدخل الثانى فى عمل العامل فى الأول، كقولنا: «جاءنى زيد وعمرو»، و «رأيتُ زيداً وعمراً»، و «مررتُ بزيد وعمرو».

٣- التعلق بمجموع الجملة، كتعلق حرف النفى والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه؛ وذلك أن من شأن هذه المعانى أن تتناول ما تتناوله بالتقييد، وبعد أن يُسْنَدَ إلى شيء.

ولعل حديث عبد القاهر عن التعليق يدل على اهتمامه الشديد بالنحو والتراكيب التى تندرج تحته، وهذا التعليق إنما هو مجموعة من العلاقات النحوية التى تنشأ بين العناصر التى تتصاحب داخل السياق؛ فإن المبتدأ لابد أن يكون له خبر، والصفة لابد أن يكون لها موصوف، والحال لابد أن يكون لها صاحب ... وهكذا؛ لذلك قال عبد القاهر عن النظم: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التى رُسمت لك، فلا تخل بشئ منها» . وقد أوضح عبد القاهر دور النحو خلال مجموعة من الجمل التى تعبر عن انطلاق زيد، ولجأ إلى التصرف فى الجمل تعريفاً وتنكيراً، وتقديماً وتأخيراً ... وتلك الجمل هى: زيد منطلق، زيد ينطلق، ينطلق زيد، منطلق زيد، زيد المنطلق، المنطلق زيد، زيد هو المنطلق، زيد هو منطلق. لذلك قال عبد القاهر:

«فلست بواجدٍ شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أُصيب به موضعه، ووُضع فى حقه، أو عوامل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له، فلا ترى كلاماً قد وُصِفَ بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»[1] .

وقد توقف عبد القاهر أمام بعض الأبيات التى وُصفت بفساد التأليف، وسوء النظم، وتناولها بالتعليق، وقبل أن نقدم هذا التعليق، نشير إلى الأبيات أولاً. قال الفرزدق:

وما مثلُه فى الناس إلا مملكاً ... أبو أمه حىٌّ أبوه يقاربُهْ

وقال المتنبى:

ولذا اسمُ أغطيةِ العيونِ جفونُها ... من أنها عَمَلَ السيوفِ عواملُ

(١) دلائل الإعجاز: ٨٢ وما بعدها.

وقال:

الطيِّبُ أنت إذا أصابك طيبه … والماءُ أنت إذا اغتسلتَ الغاسلُ

وقال:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه … بأن تُسْعدا والدمعُ أشفاه ساجمُهْ

وقال أبو تمام:

ثانيه فى كبد السماءِ ولم يكن … كاثنين ثانٍ إذ هما فى الغار

وقوله:

يدى لمن شاء رَهْنٌ لم يذق جُرَعاً … من راحتيك دَرَى ما الصابُ والعسلُ

وقد علّق عبد القاهر على تلك الأبيات بقوله: «إن الفساد والخلل (فى النظم) كانا من أن تعاطى الشاعرُ ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع فى تقديم أو تأخير، أو حذف أو إضمار، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، وما لايسوغ ولايصح على أصول هذا العلم. وإذا ثبت أن سبب فساد النظم واختلاله، أن لايُعْمَل بقوانين هذا الشأن، ثبت أن سبب صحته أن يُعْمَلَ عليها، ثم إذا ثبت أن مستنبط صحته وفساده من هذا العلم، ثبت أن الحكم كذلك فى مزيته والفضيلة التى تعرض فيه، وإذا ثبت جميع ذلك، ثبت أن ليس هو شيئاً غير توخّى معانى هذا العلم وأحكامه بما بين الكلم»[1].

وقد قدم عبد القاهر الكثير من التطبيقات لنظرية النظم فى القرآن الكريم والشعر، سوف نلتقى بها حين حديثنا عن «علم الجمال التركيبى» الذى يعد عبد القاهر مؤسسه بلا منازع، ولكن لابأس من أن نعرض لبعض نصوصه فى مجال الحديث عن «النظم».

توقف عبد القاهر أمام قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقُضِى الأمر واستوت على الجُودىّ وقيل بُعداً للقوم الظالمين)[2]

---

(١) السابق: ٨٤.

(٢) هود / ٤٤.

بالتحليل الذى ركز فيه على المعانى النحوية الآتية:

- أن نوديت الأرض (يا أرض) ثم أمرت (ابلعى).
- أن كان النداء بـ (يا) دون «أى» نحو يا أيتها الأرض».
- إضافة الماء إلى الكاف (ماءك) دون أن يقال ابلعى الماء».
- أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمرها كذلك بما يخصها.
- التعبير باستخدام الفعل المبنى للمجهول. قال عبد القاهر: «ثم أن قيل: (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة «فُعِلَ» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر».
- التأكيد والتقرير بقوله تعالى: (وقُضِى الأمر).
- ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو (استوت على الجودى).
- إضمار السفينة قبل الذكر.
- مقابلة (قيل) فى الخاتمة بـ (قيل) فى الفاتحة.

ولابأس من تقديم نص يحلل فيه عبد القاهر الشعر فى ضوء نظرية النظم، ونختار حديثه عن أبيات للبحترى. قال: «وإذ قد عرفت ذلك (أى دور النظم فى جمال التعبير وفساده) فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً، دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر، من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لايدخل فى النظم، وتأمله، فإذا رأيتَكَ قد ارتحت واهتززت واستحسنت، فانظر إلى حركات الأريحية مِمَّ كانت؟ وعند ماذا ظهرت؟ فإنك ترى عياناً أن الذى قلتُ لك كما قلت، اعمد إلى قول البحترى:

بلونَـــا ضرائــــبَ مَــنْ قــد نرى ... فمـــا إن رأيْنـــاَ لفتـــح ضريبـــا
هـــو المـــرء أبـــدتْ لـه الحادثا ... تُ عزمـــاً وشيكـــاً ورأيـــاً صليبـــا

تنقّـل فى خُلُقَـىْ سُـؤددٍ ... سماحـاً مُرجّى وبأساً مهيبا
فكالسيـف إن جئتـه صارخـاً ... وكالبحـر إن جئتـه مستثيبـا[١]

وإذا رأيتها قد راقتك وكثُرَتْ عندك، ووجدت لها اهتزازاً فى نفسك، فعُدْ فانظرْ فى السبب واستقصِ فى النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدّم وأخر، وعرّف ونكرّ، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التى يقتضيها علم النحو، فأصاب فى ذلك كله، ثم لطّف موضعَ صوابه، وأتى مأتى يوجب الفضيلة.

أفلا ترى أن أول شئ يروقك منها قوله: «هو المرء أبدت له الحادثات» ثم قوله: «تنقل فى خلقى سؤدد» بتنكير «السؤدد» وإضافة «الخلقين» إليه، ثم قوله «فكالسيف»، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ؛ لأن المعنى لا محالة: فهو كالسيف، ثم تكريره الكاف فى قوله: «وكالبحر»، ثم أنْ قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابُه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله «صارخاً» هناك و «مستثيباً» ههنا؟ لاترى حسناً تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددتُ، أو ما هو فى حكم ما عددتُ، فاعرف ذلك[٢].

ومن العلماء الذين اهتموا بالحديث عن إعجاز القرآن الكريم فى ضوء «النظم» فخر الدين محمد بن عمر الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) فى كتابه (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) ونحاول التعرف على ما فى هذا الكتاب إجمالاً؛ لأن الرجل اعتمد فى تأليفه على عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة)، وقد صرح بذلك فى المقدمة حين قال: «ولما وفقنى الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما، وراعيت الترتيب، مع التهذيب، والتحرير، مع التقرير، وضبطت أوابد الإجمالات فى كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم فى الضوابط العقلية، مع

---

(١) لفتح: هو الفتح بين خاقان، والضرائب جمع ضريبة، وهى الطبيعة والخلق. والضريب: المثيل والشبيه، والمستثيب: طالب الثواب.

(٢) الدلائل ٨٤ وما بعدها

الاجتناب عن الإطناب الممل، والاحتراز عن الاختصار المخل».

فالكتاب إذن تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر فى صورة تنضبط فيها القواعد البلاغية وتنحصر فروعها وأقسامها حصراً دقيقاً. وإذا تقدمنا فى قراءته وجدنا الفخر الرازى يذكر اسم على بن عيسى الرمّانى وينقل عنه مراراً، كما نجده يلم بأطراف من آراء الزمخشرى، وسَرَدَ طائفة من الألوان البديعية، ومَنْ يرجع إلى كتاب (حدائق السحر فى دقائق الشعر) الذى ألفه فى البلاغة الفارسية معاصرة رشيد الدين العُمرى المعروف بالوطواط والمتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة يراه يجلب هذه الألوان منه[١]، وقد نقله إلى العربية إبراهيم أمين الشواربى، وهو محاولة دقيقة لتطبيق ما اصطلح عليه أصحاب البديع العربى على الأدب الفارسى، ووزع الوطواط أمثلة الشعر والنثر فيه بين الأدبين الفارسى والعربى. ونرى الفخر الرازى ينقل عنه الأمثلة العربية مع الألوان البديعية التى تمثلها، ومصطلحاتها الخاصة. وكان الوطواط يتمثل أحياناً فى تلك الألوان ببعض أشعاره العربية، وساق الفخر بعض أبياته فى مواضعها من تلك الألوان[٢]، مما يدل دلالة قاطعة على أنه قرأ كتابه قراءة دقيقة[٣].

وإذا حاولنا التعرف على موقف الفخر الرازى من إعجاز القرآن الكريم، وهل أشار إلى دور النظم فى ذلك الإعجاز، فإننا نرى الرجل يتحدث عن أربعة مذاهب، لم يأخذ بها جميعاً، وهى مذهب الصِّرْفة الذى قال به إبراهيم بن سيار النظام والذى أوضحناه من قبل، ومذهب من قالوا بمخالفة أسلوبه لأساليب الشعر والخطب والرسائل وخاصة فى مقاطع الآيات، ومذهب من قالوا بأنه ليس فيه اختلاف وتناقض بينما يشيعان فى كلام العرب حتى لايوجد لهم شعر ولانثر يخلو منهما، ثم مذهب من رجعوا الإعجاز إلى اشتمال القرآن الكريم على الغيوب، وهو مذهب – كما يقول الفخر الرازى – ينطبق على بعض الآى دون بعض. والمذهب الصحيح فى رأيه هو تعليل إعجازه بفصاحته، وهى عنده – كما عند

(١) انظر فى ذلك كتاب: البلاغة عند السكاكى للدكتور أحمد مطلوب ٢٤٣.

(٢) قارن (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) بـ (حدائق السحر فى دقائق الشعر) ١٧٨ وما بعدها.

(٣) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٢٧٥ وما بعدها

عبد القاهر – ترجع إلى الألفاظ والمعانى، وبذلك ترادف البلاغة. وعقد لها الفصل الثانى فى مقدمة كتابه وقال إن مبحثها أجل المباحث وأشرفها، ومضى يقول: إنها إما أن تكون راجعة إلى مفردات الكلام، وإما أن تكون راجعة إلى تأليفه وتركيبه، ومن أجل ذلك رتب كتابه على جملتين (مبحثين): جملة خاصة بالمفردات، وجملة خاصة بالنظم أو التأليف، وبحث فى الجملة الأولى طائفة من المحسنات اللفظية بالإضافة إلى الصور البيانية، وبحث فى الجملة الثانية مجموعة القواعد الخاصة بالنظم كما صوره عبد القاهر فى (دلائل الإعجاز) مع العناية بطائفة من المحسنات المعنوية، وقد أشار إلى أن «النظم» عبارة عن توخى معانى النحو، ولايحصل فى الكلمة الواحدة، وإنما يحصل فى الكلمات يُضَمُّ بعضها إلى بعض؛ بحيث يُختار فى مفرداتها من الدلالة ومن مواقعها ومن اتصال بعضها ببعض ما يلائم الصورة البليغة[١].

ولقد اهتم المحدثون من علمائنا وشيوخنا بدراسة الإعجاز فى ضوء النظم، ومن أهمهم الشيخ محمد عبده الذى توقف أمام قوله تعالى: (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[٢] ثم كتب فصلاً فى تفسيره عنوانه «فى تحقيق وجوه الإعجاز» عرض فيه للأقوال المختلفة الخاصة بذلك الإعجاز، ويهمنا فى هذا المقام ما يتصل بالنظم والتركيب والأسلوب. قال الشيخ: «ولعمرى إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكُبَر، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر. ولم يوفها أحدٌ حقَّها على كثرة ما أبدأوا وأعادوا فيها، وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد، وإنما هو مائة وأكثر: القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة فى الطول والقصر، من السبع الطوال إلى مادونها. وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين المعين على الفهم المفيد للتأثير، على اختلافها فى الفواصل، وتفاوت آياتها فى الطول والقصر. وهى على ما فيها من

---

(١) انظر مقدمة (نهاية الإيجاز)، والبلاغة تطور وتاريخ: ٢٧٦.

(٢) البقرة / ٢٣ و ٢٤.

متشابه وغير متشابه فى النظم، متشابهة كلها فى مزج المعانى العالية بعضها ببعض». ثم يقول الشيخ محمد عبده: «ومن اللطائف البديعة التى يخالف بها نظمُ القرآنِ نظمَ كلام العرب من شعر أو نثر، أنك ترى السور ذات النظم الخاص والقوافى المقفاة، تأتى فى بعضها فواصلُ غير مقفاة فتزيدها حسناً وجمالاً وتأثيراً فى القلوب، وتأتى فى بعض آخر آياته مخالفة لسائر آيها فى فواصلها وزناً وقافية، فترفع قدرها وتكسوها جلالاً وتكسبها روعة وعظمة، وتجدد من نشاط القارئ وترهف من سمع المستمع. وكان ينبغى للخطباء والمتراسلين أن يحاكوا هذا النوع من محاسنه، وإن كانوا يعجزون عن معارضة السورة فى جملتها أو الصعود إلى أفق بلاغتها»[1].

وبعد هذا العرض لما يتصل بنظم القرآن الكريم، نشير إلى أن الحديث عن النظم عموماً يعد أرقى ما توصل إليه البلاغيون؛ لأنهم ينظرون فى ضوئه إلى النصوص نظرة شاملة لاتعرف الفصل بين فروع اللغة بأصواتها وأبنيتها الصرفية وتراكيبها النحوية ودلالة ألفاظها.

(٣)

أسرار فواتح السور

فى القرآن الكريم تسع وعشرون سورة تُفتتح بحروف مختلفة من «حروف التهجى) وهى على النحو الآتى:

١ – (الم): البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

٢ – (المص): الأعراف.

٣ – (الر): يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحِجْر.

٤ – (كهيعص): مريم.

٥ – (طه): طه.

---

(١) الشيخ محمد عبده: تفسير الذكر الحكيم ١ / ١٩٨.

٧- (طسم): الشعراء، القصص.

٨- (طس): النمل.

٩- (يس): يس.

١٠- (ص): ص.

١١- (حم): غافر، فُصِّلت، الزخرف، الدُّخَان، الجاثية، الأحقاف.

١٢- (حم، عسق): الشورى.

١٣- (ق): ق.

١٤- (ن): القلم.

وتلك السور كلُّها مكية، ماعدا البقرة وآل عمران والرعد فهى مدنية. وقد نالت فواتح السور وأسرارها عناية القدماء والمحدثين بحثاً ودرساً وتأليفاً، وأشاروا إلى أن مجموعها، دون ما هو مكرر منها، أربعة عشر حرفاً، وهى بذلك نصف حروف اللغة العربية، وتلك الحروف الموجودة فى فواتح السور هى: الألف، اللام، الميم، الصاد، الراء، الكاف، الهاء، الياء، العين، الطاء، السين، الحاء، القاف، النون.

وقد أثارت فواتح السور الكثير من القضايا اللغوية والبلاغية؛ لذلك عدَّها بعض العلماء من الأسرار التى لايعلمها سوى العلى القدير، وقد رُوِىَ عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال: «فى كتاب الله سر، وسر الله فى القرآن، فى الحروف التى فى أوائل السور»، وأشار إلى هذا أبو حيان حين قال: «وقد أنكر جماعة من المتكلمين أن يكون فى القرآن ما لايُفهم معناه. فانظر إلى هذا الاختلاف المنتشر الذى يكاد ينضبط فى تفسير هذه الحروف والكلام عليها. والذى أذهب إليه أن هذه الحروف فى فواتح السور هو المتشابه الذى استأثر الله بعلمه، وسائر كلامه تعالى محكم». وأضاف أبو حيان: «وإلى هذا ذهب أبو محمد على بن أحمد اليزيدى، وهو قول الشعبى والثورى وجماعة من المحدِّثين. قالوا: هى سر الله فى القرآن، وهى من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه، ولايجب أن

نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها وتمرُّ كما جاءت»[(١)]. ولكن الذى عليه الجمهور من علماء العربية على اختلاف اهتماماتهم العلمية أنه يجب البحث فى تلك الفواتح، ومحاولة التماس الفوائد المندرجة تحتها، والمعانى التى تتخرج عليها، والتأويل الخاص بها، وهذا ما نحاول التعرف عليه فى ضوء النقاط الآتية:

١ - يُروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه سبحانه وتعالى؛ فالألف من «الله»، واللام من «لطيف»، والميم من «مجيد»، و (الم): أنا الله أعلم، و (المص): أنا أفصل، و(الر): أنا الله أرى وغير ذلك مما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما. ويروى عن السُّدّى أنه قال: فواتح السور أسماء من أسماء الرب جل جلاله، فرّقت فى القرآن. وحكى الكرمانى فى قوله (ق) أنه حرف من اسمه «قادر» و «قاهر»، وحكى غيره فى قوله (ن) أنه مفتاح اسمه تعالى «نور» و «ناصر».

ومن هنا فإن تلك الأقوال كلها ترجع إلى قول واحد، وهى أنها حروف مقطعة، كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الاكتفاء ببعض الكلمة دون استعمالها كاملة مما تعرفه اللغة العربية، ومن شواهد ذلك قول الشاعر:

قُلْنَا لها قفِى فقالت ق

فإن الحرف «ق» تعبير عن قولها «وقفْتُ» وقال الشاعر:

بالخيــر خيـرات وإن شـرًّا فــا ... ولا أريــــدُ الشـــرَّ إلا إنْ تــــا

أراد الشاعر: وإنْ شرًّا فشر، وإلا أن تشاء. أى إن:

فا = فشر

تا = تشاء

٢ - يرى بعض المفسرين أن تلك الحروف المقطعة فى فواتح السور ذُكرت

---

(١) البحر المحيط: ١/ ٣٥. وقد رُوى عن الشعبى قوله: «إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل». انظر البرهان فى علوم القرآن ١/ ١٧٣.

للدلالة على أن القرآن الكريم مؤلف من حروف الهجاء التى يستعملها العرب سواء أكانت مفردة أم مركبة، ومع ذلك فهم لايستطيعون الإتيان بسورة من مثله. وهذا الرأى أقرب ما قيل من حيث صلة تلك الفواتح بقضية الإعجاز والبيان، وقد شرحه الزمخشرى بقوله: «أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن وبغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر فى أن هذا المتلوّ عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم، كلامٌ منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا، إن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم يظهر عجزهم، عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم الحراص على التساجل فى اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان فى القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التى بزت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء، إلا أنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر»[(١)].

وقد أيد ابن كثير فى تفسيره هذا الرأى، وأضاف إليه قوله: «قلتُ: ولهذا، كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته. وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: (الم. ذلك الكتاب لاريب فيه)[(٢)]. (آلم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم. نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه)[(٣)]. (المص. كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه)[(٤)]. (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم)[(٥)]. (الم. تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين)[(٦)]. (حم.

(١) الكشاف: ١/ ٩٥ وما بعدها.
(٢) البقرة / ١ و ٢.
(٣) آل عمران / ١ - ٣.
(٤) الأعراف / ١ و ٢.
(٥) إبراهيم / ١.
(٦) السجدة / ١ و ٢.

تنزيل من الرحمن الرحيم)[١]. (حم. عسق. كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم)[٢]. وغير ذلك من الآياتْ الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء القائلون بأنها إشارة إلى أن القرآن المعجز جاء من مألوف حروفهم لمن أمعن النظر»[٣].

ومن هنا فإن ابن كثير قد أيد هذا الرأى الذى يشير إلى مجىء تلك الحروف بياناً لإعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها.

٣- أشار بعض المفسرين إلى أن تلك الحروف المقطعة أسماء للسور؛ فإن (الم) اسم لهذه، و (حم) اسم لتلك؛ وذلك أن الأسماء وُضعت للتمييز؛ فهكذا هذه الحروف وضعت لتمييز هذه السور من غيرها، ونقله الزمخشرى عن الأكثرين[٤]، وأن سيبويه نصٌ عليه فى كتابه[٥]. وقال الإمام فخر الدين: هو قول أكثر المتكلمين. فإن قيل: فقد وجدنا (الم) افتتح بها عدة سور، فأين التمييز؟ قلنا: قد يقع الوفاق بين اسمين لشخصين، ثم يميز بعد ذلك بصفة وقعت، كما يقال: زيد وزيد، ثم يميزان بأن يقال: زيد الفقيه، وزيد النحوى، فكذلك إذا قرأ القارىء: (الم. ذلك الكتاب) فقد ميزها عن (الم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم).

٤- هناك من يرى أن تلك الحروف إنما جىء بها للتنبيه؛ لأن القرآن الكريم كلام عزيز وفوائده عزيزة، فينبغى أن يرد على سَمْعٍ متنبه، فكان من الجائز أن يكون الله سبحانه وتعالى قد علم فى بعض الأوقات كون النبى ﷺ فى عالم البشر مشغولاً، فأمر جبريل عليه السلام بأن يقول عند نزولهم (الم و الر و حم) ليسمع النبى صوت جبريل فيقبل عليه ويصغى إليه، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة

(١) فصلت / ١ و ٢.

(٢) الشورى / ١ - ٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ١ / ٦٨.

(٤) الكشاف: ١/ ٩٨.

(٥) الكتاب: ٣/ ٢٥٧.

فى التنبيه كـ «ألا» و «إما» لأنها من الألفاظ التى يتعارفها الناس فى كلامهم، والقرآن الكريم كلام لايشبه الكلام فناسب أن يؤدى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ فى قرع سمعه.

٥- ربط المفسرون استعمال تلك الحروف فى فواتح السور بأحوال العرب؛ فهم إذا سمعوا القرآن الكريم لغوا فيه، وقال بعضهم: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه)[1] فأنزل العلى القدير هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم سبباً لاستماعهم، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة.

وقيل إنها كالمهيجة لمن سمعها من الفصحاء، والموقظة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل، والأخذ فى التفاضل، وهى بمنزلة زمجرة الرعد قبل الناظر فى الأعلام لتعرف الأرض فضل الغمام، وتحفظ ما أفيض عليها من الإنعام. وما هذا شأنه خليق بالنظر فيه، والوقوف على معانيه، بعد حفظ مبانيه[2].

وهناك تأويلات أخرى كثيرة قال بها العلماء العرب، ولعله من المفيد الإشارة إلى أن أبا الحسين أحمد بن فارس وغيره اختاروا أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً واحداً؛ فيقال إن الله جل وعلا افتتح السور بهذه الحروف إرادةً منه للدلالة بكل حرف منها على معانٍ كثيرة، لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً، وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله عز وجل قد وضعها هذا الوضع فسمّى بها، وأن كل حرف منها فى آجال قوم وأرزاق آخرين، وهى مع ذلك مأخوذة من صفات الله تعالى فى إنعامه وإفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يسمع القرآن الكريم من لم يكن سمع، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدالّ على نبوة محمد ﷺ بهذه الحروف، وأن عجزهم عن الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالَمة بينهم دليل على كفرهم وعنادهم وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقعَ أول كل سورة فهو اسم لتلك السورة. ثم يضيف ابن فارس : وهذا القول الجامع للتأويلات كلها،

(١) فصلت / ٢٦

(٢) البرهان فى علوم القرآن ١/ ١٧٥ وما بعدها

والله أعلم بما أراد من ذلك.

* * *

وبعد هذا العرض نشير إلى أنه قد قامت حول إعجاز القرآن الكريم والكشف عنه حركة بلاغية فى ضوء ثلاثة من العلوم هى المعانى والبيان والبديع، وقد تضمنت الكثير من البحوث الجليلة، والدراسات النافعة التى اهتمت بأصوات الكتاب العزيز، وأبنيته الصرفية، وتراكيبه النحوية، ودلالة ألفاظه الشريفة، وسوف نتوقف أمام هذا كله بالدراسة التفصيلية فى ضوء «علم الجمال اللغوى» الذى يضم:

١- علم الجمال الصوتى.

٢- علم الجمال التركيبى.

٣- علم الجمال الدلالى.

وستكون تلك الدراسة تطبيقية فى القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربى، والجمل والعبارات الافتراضية. وقبل الدخول فى تلك الدراسة نحاول التعرف على ما أسميناه بـ «النقد اللغوى للشعر»، وهو موضوع الفصل الأول.

الفصل الأول
فى النقد اللغوى للشعر

تمهيد

من الأمور اللافتة للنظر فى تاريخ العرب اهتمامهم الشديد بلغتهم، وعنايتهم بشأنها، واحتفاؤهم بها، والدليل على ذلك أنهم إذا نبغ منهم شاعر أو خطيب أقاموا الولائم، واحتفوا به، وجعلوه عيداً لهم وفخراً؛ بالإضافة إلى ذلك فإن أصحاب الفصاحة والبلاغة والمقدرة على التعبير من الشعراء والخطباء كانوا رؤساء الوفود عند العرب، وهم أهل الرأى والشورى الذين يُرجع إليهم. وقد ورد عنهم الكثير من الشعر والنثر فى مديح اللسان، ومن ذلك قول الشاعر:

أرى الناسَ فى الأخلاق أهلَ تخلُّق ... وأخبارهــم شتى فعُرْفٌ ومنكَـرُ
قريبـــاً تدانيهـــم إذا ما رأيتَهـــم ... ومختلفـاً ما بينهـم حين تَخْبُـرُ
فلا تحمــدَنَّ الدهـرَ ظاهرَ صفحةٍ ... من المرء ما لم تَبْلُ ما ليس يظهر
فما المـرءُ إلا الأصغـران لسانــه ... ومعقولُـه والجســمُ خلقٌ مصــوَّرُ
ومـا الزَّيـــنُ فى ثوبٍ تـــراه وإنما ... يزيـن الفتى مخبورُه حـين يُخْبَرُ
فـــإن طُرَّةٌ راقتْـــك منهـــم فربمـــا ... أمــرُّ مذاقُ العـودِ والعـودُ أخضرُ[(١)]

وكان الشاعر فى الجاهلية يُقدَّم على الخطيب بفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض من الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر؛ لذلك قالوا إن الشعر وضع من قدر النابغة الذبيانى، ولو كان فى الدهر الأول مازاده ذلك إلا رفعة[(٢)].

وقد حرص العرب على إقامة الأسواق الأدبية فى مواسم معينة، وكانوا يجدون

---

(١) أهل تخلُّق: يقلد بعضهم بعضاً فى الأخلاق، وليسوا على طبع واحد، حين تخبر: حين تتكشف أحوالهم وحقائق أمورهم، ظاهر الصفحة: حسن الوجه وجمال الهيئة، تبلو: تخبر وتكشف، طرة: مجاز يراد به أية حالة ظاهرة خادعة ببهرجها.

(٢) البيان والتبيين: ١ / ٢٠٤.

فيها الفرصة فى سبيل إذاعة شعرهم ونشره بين القبائل الأخرى، وكانت عدتهم فى تلك الأسواق «اللسان» الذى أحبوا فيه البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة. وكانت تلك الأسواق أشبه بمعارض لسانية أو مؤتمرات أدبية، تخرج فيها القبيلة عن عزلتها وتلتحم بغيرها من القبائل العربية، ويعود الفضل إلى تلك الأسواق فى خَلْق الوحدة اللغوية أو فى إيجاد ما يمكن أن نسميه بـ «اللغة المشتركة» التى ينشدون بها أشعارهم، وقد خلت تلك اللغة من العيوب التى لحقت بعض اللهجات كالكشكشة والعنعنة والتلتلةوسواها؛ لذلك نستطيع أن نقول إنها منتقاة مختارة من كل لهجات القبائل. ويعد «سوق عكاظ» من أشهر أسواقهم الأدبية وأكثرها عمراناً بفنون القول من الشعر والنثر؛ لذلك أعدوا فيه المنابر يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام.

وقد اهتم بعض الشعراء فى العصر الجاهلى بفنهم اهتماماً شديداً، ونال جل عنايتهم، وينصرف هذا الاهتمام وتلك العناية – فى الأغلب الأعم – إلى التنقيح والتهذيب، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ فى قوله: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كَرِيتاً (عاماً تامًا كاملاً) وزمناً طويلاً، يرد فيها نظره ويقلّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله ذماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره؛ إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمُقلّدات والمنقحات والمحكمات؛ ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً (فحلاً مجيداً) وشاعراً مفلقاً»[1]. وكان الأصمعى يقول: زهير بن أبى سُلْمى والحطيئة وأشباههما عبيدُ الشعر، وكذلك كل من يجوّد فى جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر؛ حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة. وكان يقال: لولا أن الشعر قد استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم فى باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قعر الكلام واغتصاب الألفاظ – لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعانى سهواً ورهواً (سهلاً متدفقاً) وتنثال (تأتى عفواً بلاتكلف) عليهم الألفاظ انثيالا»[2].

---

(١) السابق: ٢/ ٧.

(٢) السابق: ٢/ ١١.

ولكل فن أدواته، والشعر فن أداته اللغة بأصواتها وصيغها الصرفية وتراكيبها النحوية ودلالة ألفاظها؛ تلك اللغة التى عرفها ابن جنى بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم(١)؛ لذلك إذا استطاع الشاعر توظيف اللغة فى عمله الفنى توظيفاً جيداً لقى إعجاب النقاد واستحسانهم، أما إذا حدث العكس فإن الاستهجان هو ما يجنيه من قريضه. ولقد كان للغويين دور فى الحياة النقدية عند القدماء، والدليل على ذلك تلك الروايات التى وردت فى كتب الطبقات والتراجم مشيرةً إلى تتبعهم للغة فى الشعر؛ بل إن واحداً من كبارهم هو ابن قتيبة اهتم بـ (الشعر والشعراء) فى واحد من مؤلفاته القيمة.

وهذا الفصل الذى نعقده للحديث عن النقد اللغوى للشعر محاولة للتعرف على الانتقادات التى وُجّهت للشعر والشعراء، مع الاهتمام بدور الشعراء فى النقد اللغوى، وأدوات الشعر، والتعليل اللغوى لأسماء الشعراء وألقابهم، وعمود الشعر وسواها.

* * *

---

(١) الخصائص: ١/ ٣٣. وللتعرف على هذا المفهوم للغة انظر كتابنا: فقه اللغة وعلم اللغة ١٠ - ١٣.

دور الشعراء فى النقد اللغوى

ظهر دور الشعراء فى هذا النقد اللغوى منذ العصر الجاهلى، واشتُهرَ به جماعةٌ منهم، وعلى رأسهم النابغة الذبيانى الذى كان تُضْرب له قبة حمراء من أَدَم بسوق عُكاظ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأنشده الأعشى أبو بصير، ثم أنشده حسان بن ثابت، ثم الشعراء، ثم جاءت الخنساء السُّلَمِيَّة فأنشدته، فقال لها النابغة: والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلتُ إنك أشعر الجن والإنس، فقال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدّك! فقبض النابغة على يده، ثم قال: يابن أخى، إنك لاتحسن أن تقول مثل قولى:

فإنَّك كالليلِ الـذى هو مُدْركـى وإنْ خلتُ أنَّ المنتأى عنـك واسعُ

ثم قال للخنساء: أنشديه، فأنشدته، فقال: والله ما رأيتُ ذاتَ مثانة أشعر منك! فقالت له الخنساء: والله ولا ذا خُصْيين»[١]. ويروى أيضاً أن حسان بن ثابت ثار عليه، وقال إنه أشعر منه ومن الخنساء؛ فقال له النابغة: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بالضحى وأسيافُنا يقطرْنَ من نجدة دمـا

ولدنـا بنى العنقـاءِ وابنىْ محـرِّق فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنَمَا[١]

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قلّلت عدد جفانك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. وفى رواية أخرى: إنك قلت «الجفنات» فقللت العدد ولو قلت: الجفان لكان أكثر، وقلت «يلمعن فى الضحى»، ولو قلت: يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً، وقلت «يقطرن من نجدة دماً» فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً»[٢].

---

(١) العنقاء: ثعلبة بن عمرو مزيقياء أحد أجداد الأزد القدماء من اليمن، والمحرق: جبلة بن الحارث أمير الغساسنة فى الشام لأوائل القرن السادس.

(٢) الأغانى: ٩ / ٣٤٠؛ وانظر نقد الشعر: ٦٠؛ والموشح: ٨٢.

ويمكن دراسة نقد النابغة فى ضوء «الإحلال» replacement بين المفردات والتراكيب النحوية كما فى الجدول الآتى:

مسلسل	حسان	النابغة
١	الجفنات	الجفان
٢	يلمعن	يبرقن
٣	بالضحى	بالدجى
٤	يقطرن	يجرين

وهذا الإحلال يرتبط عند النابغة بالدلالة، ويمكن إيضاح ذلك فى النقاط الآتية:

١ – تدل «الجفان» على الكثرة فى العدد[1].

٢ – «يبرقن بالدجى» فيه الدلالة على المبالغة فى المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً.

٣– التركيب النحوى «يجرين» فيه الدلالة على كثرة انصباب الدم.

وقد أشار النابغة إلى ما يتصل بالدلالة فى البيت الثانى دون أن يلجأ إلى الإحلال، وهو يتصل بفخر حسان بمن ولد دون الفخر بمن ولده.

وإذا تركنا العصر الجاهلى للتعرف على دور الشعراء فى النقد اللغوى؛ فإننا نجد جرير بن عطية وقد ألقى ببعض الملاحظات اللغوية حين نقد الشعر؛ إذ كان يتتبع المفردات التى يستعملها الشعراء، مع ربطها بالسياق فقد سمع عمر بن لجأ التيمى ينشد أرجوزة له يصف إبله:

---

(١) يرى أبو بكر بن الأنبارى رأياً مخالفاً لذلك؛ فقد أورد بيت حسان وعلق عليه بقوله: «فالجفنات ههنا معناها الكثرة؛ لأنه لم يرد أن لنا جفنات قليلة؛ لأنه لو أراد ذلك لم يكن مبالغاً فى المدح. وقرأت القراء: (وصلِّ عليهم إن صلواتك سكن لهم) [التوبة / ١٠٣] فليس معنى الصلوات القلة؛ إنما معناها الكثرة». المذكر والمؤنث: ١/ ٢٠٣؛ وانظر رد قدامة على النابغة فى: نقد الشعر ٦٠.

قـد وردتْ قبل إِنَى ضَحائهـا
تقرُّش الحيـــاتِ فى غِشائهـا
جرَّ العجوز الثِّنْيَ من كسائها[١]

فقال له جرير: كان أولى بك أن تقول «جر العروس» لا «جر العجوز» التى تتساقط خوراً وضعفاً»[٢]. ونقـد جـرير ينصب على دلالة كل من «العـروس» و «العجوز» فى المعجم العربى.

ويروى أن ذا الرمة قدم الكوفة، فوقف راحلته بالكُناسة ينشد قصيدته الحائية؛ فلما بلغ إلى هذا البيت:

إذا غيّر النّأىُ المحبين لـم يكـد   رسيس الهوى من حبّ مية يبرح[٣]

فقال له ابن شُبْرمة: ياذا الرمة؛ أراه قد برح. ففكر ساعة، ثم قال:

إذا غيّر النّأىُ المحبين لـم أجد   رسيس الهوى من حبّ مية يبرح

وقد لجأ ذو الرمة إلى الإحلال بين الفعلين «يكاد» و «أجد»، وإن كان أبو الحكم بن البخترى بن المختار قد علّق على هذا الإحلال الذى لجأ إليه الشاعر بقوله: «أخطأ ابن شبرمة حيث أنكر عليه، وأخطأ ذو الرمة حيث رجع إلى قوله؛ إنما هذا كقول الله عز وجل: (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها)[٤]؛ أى لم يرها ولم يكد[٥].

ونترك هذا الحديث عن الشعراء ودورهم فى النقد اللغوى إلى حديث آخر، يتصل بتحكيم الشعراء فى الخصومات، يدلنا على ذلك ما جرى بين الحطيئة

---

(١) ورد الرجز «ونفرس» مكان «تقرش»، و «خرشائها» مكان «غشائها». انظر الموشح : ٢٠٢.

(٢) طبقات ابن سلام : ٣٦٢.

(٣) رسيس الهوى: أثره.

(٤) النور / ٤٠.

(٥) الموشح: ٢٨٣.

والزّبرقان بن بدر، الذى هجاه الحطيئة بعدة أبيات منها قوله:

دعِ المكارمَ لاترحلْ لبُغْيتها ... واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فاستعدى عليه الزبرقانُ عمرَ بن الخطاب، رضى الله عنه، وأنشده هذا البيت، فقال له عمر: ما أعلمه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟ قال: إنه لايكون فى الهجاء أشدُّ من هذا. ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فسأله عن ذلك فقال: لم يهجه، ولكن سلح عليه! فحبسه عمر وقال: ياخبيث! لأشْغَلَنَّك عن أعراض المسلمين؛ فقال وهو محبوس:

ماذا أردْتَ لأفراخٍ بذى مَرخٍ ... حُمْرِ الحواصلِ لا ماءٌ ولاشجرُ[١]

ألقيْتَ كاسبَهم فى قَعْرِ مُظْلمةٍ ... فاغفرْ عليك سلامُ الله ياعمرُ

فرقّ له عمر وخلّى سبيله، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً من المسلمين»[٢]. ومن هنا فإن وصفه بـ «الطاعم الكاسى»[٣] من أشد أنواع الهجاء كما نلمح من قول حسان؛ بالإضافة إلى أن أمير المؤمنين كان يعلم ذلك؛ لأنه يتذوق الشعر ويعرف أغراضه ومعانيه، ولكنه فضّل أن يكون الحكم لواحدٍ من الشعراء أنفسهم.

ويروى أيضا أن النجاشى الحارثى (قيس بن عمرو بن مالك) هجا بنى العجلان؛ فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: ما قال فيكم؟ فأنشدوه:

إذا اللّهُ عادى أهلَ لؤمٍ ورقّةٍ ... فعادى بنى العجلانِ رهطَ ابنِ مُقْبلِ

فقال عمر: إنما دعا، فإن كان مظلوماً استجيب له، وإن كان ظالماً لم يُسْتجب له، قالوا: وقد قال أيضاً:

قُبَيِّلةٌ لايغدورن بذمّةٍ ... ولايظلمون الناسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

---

(١) ذو مرخ: اسم موضع.

(٢) الشعر والشعراء: ١ / ٣٢٨.

(٣) من الظواهر التى تطبع الجملة العربية التحويل فى الصيغ الصرفية، و «الطاعم الكاسى» المراد بهما اسم المفعول. انظر كتابنا: ظاهرة التحويل فى الصيغ الصرفية.

فقال عمر: ليت آل الخطاب هكذا! قالوا: وقد قال أيضاً:

ولا يَــــرِدُونَ المــاءَ إلاَّ عشيَّــةً إذا صـــدر الـورَّادُ عـن كلِّ منْهَـــلِ

فقال عمر: ذلك أقل للُّكاك[١]! قالوا: وقد قال أيضاً:

تَعَافُ الكلابُ الضاريـاتُ لحومَهم وتأكـلُ من كعـبٍ وعوفٍ ونَهْشَـلِ

فقال عمر: أجنَّ القومُ موتاهم فلم يضيعوهم! قالوا: وقد قال:

وما سُمِّي العجـلانَ إلا لقيلهـــم خُذِ القَعْبَ واحلُبْ أيها العبدُ واعجَلِ[٢]

فقال عمر: خير القوم خادمهم، وكلنا عبيد الله. ثم بعث حسان والحطيئة، وكان محبوساً عنده، فسألهما، فقال حسان مثل قوله في شعر الحطيئة، فهدد عمرُ النجاشيَّ وقال له: إن عدتَ قطعتُ لسانك»[٣].

* * *

---

(١) اللكاك: الزحام.

(٢) القعب: القدح الضخم الغليظ.

(٣) الرواية في عدة مصادر كالشعراء والشعراء: ١/ ٣٣٠ و ٣٣١؛ والعمدة: ١/ ٣٧ و ٣٨

موقف اللغويين من شعر معاصريهم

رفض بعض اللغويين شعر معاصريهم؛ حتى إن اللغوى قد يسمع شعراً، وينال هذا الشعر إعجابه، فإذا أُخبر بأنه لواحد من معاصريه رفضه. قال القاضى الجرجانى: «وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة، من يلهج بعيب المتأخرين، فإن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده، ويعجب منه ويختاره؛ فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه، ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث، والإقرار بإحسان لمولد»[1]. فقد حُكِىَ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال: أنشدت الأصمعى:

هــل إلى نظــرة إليــك سبيـلُ ... فيُبــلُّ الصـدى ويُشْفَــى الغليـلُ
إنّ مـا قــلَّ منـك يكثـر عندى ... وكثيــرٌ ممــن تحــبُّ القليــلُ

فقال: والله هذا الديباج الخسروانى، لمن تنشدنى؟ فقلت: إنهما لليلتهما؛ فقال: لاجرم، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر»[2].

وقد حاول ابن قتيبة فى دراسته للشعر والشعراء أن يتخلص من التعصب للقدماء ضد المحدثين، وأن يسوّى بينهم فى تلك الدراسة؛ لذلك نجده يقول: «ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل من قلّد، أو استحسن باستحسان غيره. ولانظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلاً حظّه، ووفرتُ عليه حقّه. فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه فى متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولاعيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه، أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره، وكل شرف خارجيّةً فى أوله؛ فقد

(١) الوساطة: ٥٠.

(٢) أخبار أبى تمام: ١٧٣.

كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعدُّون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثُر هذا المحدث وحَسُنَ حتى لقد هممتُ بروايته. ثم صار هؤلاء قدماءَ عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخُريمى والعتابى والحسن بن هانئ وأشباههم. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولاحداثة سنه. كما أن الردئ إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبه ولاتقدمه»[1].

ولكن الدكتور شوقى ضيف يعلق على هذا النص بقوله: «غير أن ابن قتيبة كان شذوذاً على ذوق اللغويين، ولم يلبث أن عاد إليهم بعد قوله السالف بقليل؛ إذ حرم على المحدثين الخروج عن مذاهب المتقدمين فى بكاء الأطلال ووصف الناقة والورود على المياه الآسنة، فليس لهم فى رأيه أن يبكوا مشيّد البنيان ولا أنْ يصفوا بغلاً ركبوه، بل لابد أن يجعلوه ناقة، ولابد أن ينعتوا ماء عذباً جارياً وردوه؛ بل حتى ليس لهم أن يذكروا النرجس والورد والآس وما إلى ذلك من أزهار الحاضرة، إنما يذكرون الشيخ والحنوة والعرار وما إلى ذلك من أزهار البادية»[2].

وننتقل الآن إلى الحديث عن الانتقادات اللغوية التى وجهها القدماء للشعر، وقد جمعنا معظم تلك الانتقادات، ورأينا أن تصنف حسب المستويات اللغوية، ونبدأ بالعرض لما يتصل بالأصوات.

* * *

---

(١) الشعر والشعراء: ١ / ٦٢ و ٦٣.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ: ٧٤.

النقد اللغوى والأصوات

اهتم القدماء بالتوقف أمام الأصوات المفردة بالدرس والتحليل، وبيان التنافر والتلاؤم فيما بينها حين تأليف الكلمات من مجموعها. وقبل الدخول فى العرض للانتقادات التى وُجّهت للشعر فى ضوء الأصوات، نتوقف أمام ما قاله ابن سنان الخفاجى حول مفهوم «الصوت».

قال: «الصوت مصدر صات الشئ يَصُوت صوتًا فهو صائت، وصوّت تصويتًا فهو مصوّت، وهو عام لايختص. يقال: صوت الإنسان وصوت الحمار، وفى الكتاب الكريم: (إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير)[1]، وقال الراجز:

كأنمـــا أصواتُهـــا فى الـــوادى ‌ ‌ ‌ ‌ أصـــواتُ حُـــجٍ من عُمَـــان غـادِ[2]

وقال جرير بن عطية:

لـمــا تذكـرت بالديريـــن أرّقنـــى ‌ ‌ ‌ ‌ صـــوتُ الدجـــاجِ وقرعٌ بالنواقيـــس

والصوت مذكر؛ لأنه مصدر كالضَّرْب والقتل، وقد ورد مؤنثاً على ضرب من التأوُّل. قال رُوَيشد بن كثير الطائى:

يـأيهـا الراكـبُ المزجـى مطيتـــَه ‌ ‌ ‌ ‌ بلّـــغْ بنـى أسـدٍ مـا هـذه الصـــوتُ

فأراد الاستغاثة ... ويقال: رجل صاتٌ؛ أى شديد الصوت ... وقولهم: لفلان صيت، إذا انتشر ذكره، من لفظ الصوت، إلا واوه انقلبت ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها»[3].

ويدل هذا النصُّ على أن الصوت مصدر مذكر عام يوصف به العاقل وغير العاقل، وما ورد فى الشعر من تأنيث الصوت له تأويل دلالى، كأن يكون بمعنى الاستغاثة. وقد أشار ابن سنان، بعد ذلك، إلى أن الصوت معقول؛ لأنه يدرك، ولا خلاف بين العقلاء فى وجود ما يدرك، وهو عَرَض ليس بجسم، ولاصفة لجسم،

---

(١) لقمان / ١٩.

(٢) حج: جمع ومفردها حاج.

(٣) سر الفصاحة: ١٥ و ١٦.

والدليل على أنه ليس بجسم، أنه مدرك بحاسة السمع؛ فلو كان جسماً لكانت الأجسام جميعها مدركة بحاسة السمع، وفى علمنا ببطلان ذلك دليل على أن الصوت ليس بجسم.

وبعد هذا العرض لمفهوم الصوت عند علماء البلاغة، كما عبر عنه ابن سنان، نشير إلى أنه لايوجد صوت مفرد حسن وآخر قبيح؛ فالطاء – مثلاً – ليست أجمل من الزاى أو العكس؛ بل كلاهما صوت يتشكل مع غيره؛ ليكوّن اللفظة المفردة التى يدخلها الحُسْن أو القبح حين التأليف، وليس قرب المخرج أو بُعْده أيضاً هو الذى يؤدى إلى الحسن أو القبح؛ بل الأساس فى التأليف دونما اعتبار لقُرْب أو بُعْد للصوت من حيث خروجهُ من الحلق. وقد أفصح عن ذلك يحيى العلوى فيما كتبه تحت عنوان: «فى بيان ما يجب مراعاته من حسن التركيب» قائلاً: «اعلم أن هذا النظر إنما يختص بالمفردات؛ فإنها وإن كانت مختلفة؛ أعنى مفردات الحروف فى العذوبة والسلاسة؛ فإن شيئاً منها غيره مستكره، لكن الاستكراه إنما يعرض من أجل التأليف، لما يحصل بسببه من التنافر والثقل؛ فلأجل هذا كانت العناية فى أحكام التركيب والتأليف؛ لأنه ربما حصل على وجه يفيد دقة اللفظ وحلاوته فيكون حسناً، وربما حصل على وجه يفيد ثقلاً وتعثراً فى اللسان فيكون قبيحاً؛ فإذن العناية كلها فى التركيب ...»[1].

ثم يشير يحيى العلوى إلى ما يتصل بالألفاظ فى أصل وضعها اللغوى من حيث عدم الجمع بين أصوات بعينها قائلاً: «قد بان من حسن تصرف واضع اللغة امتناعه من الجمع بين العين والحاء، وبين الغين والخاء، ومن الجمع بين الجيم والصاد، وبين الجيم والقاف، وبين الذال المعجمة والزاى». ولكن ما تعليل هذا عند يحيى العلوى؟ يجيب عن هذا التساؤل بقوله: «وما ذاك إلا لما يحصل من تأليف هذه من البشاعة والثقل على الألسنة فى النطق، وليس ذلك من أجل ما يحصل من تقارب مخارج الحروف وتباعدها ...». والدليل على أنّ بُعْد المخرج أو قربه ليس السبب فى ذلك كلمة «مَلَعَ»[2]؛ فالعين من حروف الحلق، والميم من

(١) الطراز: ١ / ١٠٧.
(٢) ملع: عدا.

الشفة، واللام من وسط اللسان - كما يقول العلوى - ومع ذلك فإنها ثقيلة على اللسان، ينبو عنها الذوق، ولاتستعمل فى كلام فصيح. وربما عرض لما تقاربت حروفه حسنُ الذوق فى اللسان فكان حسناً، ومثاله قولنا «ذقْته بفمى»؛ فإن الباء والفاء والميم كلها أحرف متقاربة شفوية، وهى رقيقة حسنة يخف محملها على اللسان؛ لذلك لايوجد حسن أو قبح يتعلق بقرب المخرج أو بعده.

وقد درس علماء البلاغة فصاحة الأصوات التى يتكون منها اللفظ المفرد خلال الجانب التطبيقى، ومن أمثلتهم تلك الرواية التى تقول إن أعرابياً سُئل عن ناقته؛ فقال: «تركتها ترعى الهُعْخُع»[1]، وهذا الاستعمال لكلمة «الهعخع» يمثلون به للتنافر وعلامته الثقل على اللسان، وعُسْر النطق[2]، وهى أعلى درجات التنافر. وهناك استعمال أقل فى التنافر، ويمثله كلمة «مستشزرات» فى بيت امرىء القيس:

غدائره مستشزراتٌ إلى العلا ... تضلُّ العقاص فى مثنى ومُرْسَل[3]

وهناك تنافر يتصل بتكرار أصوات بعينها كالحاء والهاء فى «أمدحه» من بيت أبى تمام:

كريمٌ متى أمدحْهُ أمدحْه والورى ... معى وإذا مالمتُهُ لمتُهُ وَحْدى

قال الخطيب القزوينى: «فإن فى قوله أمدحه ثقلاً ما؛ لما بين الحاء والهاء من تنافر»[4]. ويبدو أن تكرار التركيب النحوى «أمدحه» هو الذى أدى إلى هذا التنافر بين الصوتين ويمكن أن يدخل فى هذا التنافر قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر[5]

---

(١) ضرب من الشجر أو النبات.

(٢) الإيضاح: ٧٥.

(٣) الغدائر: الذوائب، واحدتها غديرة، ومستشزرات: مرفوعات؛ وأصل الشزر: الفتل على غير الجهة، فأراد أنها مفتولة على غير الجهة من كثرتها، والعقاص: ماجمع من الشعر كهيئة الكبة، وفى مثنى ومرسل: معناه منها ما قد ثُنى ومنها ما لم يثْنَ. انظر: شرح القصائد السبع: ٦٣.

(٤) الإيضاح: ٧٥.

(٥) الطراز: ١/ ١٠٤.

الذى احتوى على تكرار لأصوات القاف والباء والراء، تبعه تكرار لبعض المفردات.

ومما يتصل بالتنافر الكراهةُ فى السمع، ومن علاماته أن تُمَجَّ الكلمة، ويُتبرأ من سماعها، كما يُتبرأ من سماع الأصوات المنكرة؛ فإن اللفظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ماتستلذ النفسُ سماعه، ومنها ما تكره النفس سماعه؛ فإنه يستلذ بصوت القُمْرِىّ، ويُكره صوت الغراب، ويستظرف صهيل الفرس، ويستنكر نهيق الحمار[١]. وقد مثلوا لما يكره سماعه كلمة «الجرشى» فى قول المتنبى:

مبـاركُ الاسـم أغـرُّ اللقـبْ كريـمُ الجِرِشَّى شريف النَّسب[٢]

و «حقلد» فى قول زهير:

تقىٌّ نقىٌّ لم يكثِّر غنيمةً بنهكة ذى قُرْبى ولا بحقلَّدِ[٣]

قال ابن سنان: «الحقلد كلمة توفى على قبح الجرشى وتزيد عليها»[٤].

ومما يتصل بالكراهة فى السمع والثقل على اللسان ما أشار إليه علماء البلاغة من كثرة عدد الأصوات المفردة التى تتشكل منها اللفظة، «ومتى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة»[٥]، كما يقول ابن سنان، ومن أمثلة ذلك قول أبى نصر بن نُباتة:

فإياكُمْ أن تكشفوا عن رؤوسكم ألاَ إنَّ مغناطيسهنَّ الذوائبُ

---

(١) الطراز: ١/ ١٠٤.

(٢) الجرشى: النفس، واللقب: ما ينبز به الرجل. والمعنى: يريد أن اسم سيف الدولة علىّ، وهو اسم مبارك يتبرك به لمكان على عليه السلام، وهو مشتق من العلو، والعلو محبوب مطلوب. ويريد أنه مشهور اللقب بسيف الدولة، قد اشتهر به فى الآفاق فهو أغر، والأغر: الواضح الأبلج، وشريف النسب؛ لأنه من ربيعة، وهم كرام أشراف. انظر شرح ديوان المتنبى: ١/ ٩٩.

(٣) الحقلد: سيئ الخلق. شرح ديوان زهير: ٢٣٤. وانظر مغنى اللبيب: ٦٨٥؛ إذ إن أبا حيان سأل ابن هشام عن العطف فى «ولابحلقد»، ولم يجب ابن هشام إلا بعد أن عرف معنى «الحلقد».

(٤) سر الفصاحة: ٦٦.

(٥) السابق: ٨٨.

فإن «مغناطيسهن» مكونة من عنصرين الاسم الذى أضيف إلى الضمير بعده، مما أدى إلى الطول. ومن هذا النوع أيضاً قول أبى تمام:

فلأذربيجـانَ اختيـــالٌ بعدمـــــا   كانـــت معرَّس عبـــرةٍ ونكـــــالِ
سَمُجَتْ ونبهنا على استسماجهـا   مـا حولهـــا مـــن نضـــرةٍ وجمـــالِ

قال ابن سنان: فقوله «فلأذربيجان» كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها وهى غير عربية، ولكن هذا وجه قبحها، وكذلك قوله فى البيت الثانى «استسماجها» ردىء لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد فى الألفاظ إلى الشاذ النادر»[1].

وعبـارة «فلأذربيـجـان» مكونة من ثلاثة عناصر نحوية: الفـاء واللام والاسم، و «استسماجها» مكونة من عنصرين: الاسم المضاف إلى الضمير، وقد عاملهما ابن سنان على أن كلاً منهما كلمة مفردة.

ونحو من هذا قول أبى الطيب المتنبى:

إن الكريـــــم بلا كـــرامٍ منهـــم   مثـــل القلـوب بــلا سُويـداواتهــــا

فـ «سويداواتها» كلمة طويلة جداً. ومنه أيضاً قول أبى تمام:

أنلْـــه باستماعكـــه محـــلاً   يفـــوت علـــوُّه الطـرفَ الطموحـــا

فليس بقبح قوله «باستماعكه» خفاء لكثرة الحروف .... وكذلك قوله أيضاً:

العيـــشُ تعلـــم أنَّ حَوْباواتهـــا   ريـــحٌ إذا بلغتْـــك إن لـم تُنْخـــرِ[2]

و «حوباواتها» كلمة طويلة جداً. ومنه قول أيضاً:

وإلى محمـــدٍ ابتعثتُ قصائـــدى   ورفعـــتُ للمستنشديـــن لوائـــى

فـ «المستنشدين» كلمة كثيرة الحروف .....»[3].

واهتم النقاد بالنظر فى الوزن وبيان مايعتريه من عيوب، وهى تتصل بالأصوات

(١) السابق والصحيفة نفسها.

(٢) حوباوات: جمع حوباء، ومعناها النفس.

(٣) سر الفصاحة: ٨٨ و ٨٩.

اتصالاً مباشراً، ومن تلك العيوب «التخليع»، وهو أن يكون قبيح الوزن قد أفرط قائله في تزحيفه، وجعل ذلك بنيةً للشعر كلّه، حتى ميّله إلى الانكسار، وأخرجه عن باب الشعر الذى يعرف السامع له صحة وزنه فى أول وهلة، إلى ما ينكره حتى ينعم ذوقه، أو يعرضه على العروض فيصح فيه، فإن ماجرى من الشعر هذا المجرى ناقص الطلاوة، قليل الحلاوة؛ وذلك مثل الأسود بن يعفر:

إنا ذممنـــا على مـــا خيّلـــتْ   سعـــدَ بـــن زيـد وعمـــراً من تميم
وضبـــةَ المشتـــرى العـــار بنـا   وذاك عـــمٌّ بنـــا غيـــر رحيـــم
لاينتهـــون الدهـرَ عن مولًى لهـم   قَـــوْرَك بالسهـــم حافـــات الأديـــم
ونحـــن قـــوم لنـــا رمـــاح   وثـــروة مـــن مـــوالٍ وصميم
لانشتكـى الوصـم فى الحرب ولا   نئـــنٌّ منهـــا كتأنـــان السليـــم

ومثل قول عروة بن الورد:

يـــا هنـــدُ بنـــتَ أبـى ذراعٍ   أخلفتنـــى ظنّـــى ووترتنـى عشقـى
ونكحـــتِ راعـــى ثلـة يثمرها   والدهـــــر فائتـــــه بمـا يبُقّـى

ومثل قصيدة عبيد بن الأبرص، وفيها أبيات قد خرجت عن العروض البتة، وقبح ذلك جودة الشعر، حتى أصاره إلى حدّ الردىء منه؛ فمن ذلك قوله:

والمـــرء مـا عاش فـى تكذيـب   طـــول الحيـــاة لـــه تعذيـــب

فهذا معنى جيد، ولفظ حسن، إلا أن وزنه قد شانه وقبح حسنه، وأفسد جيده[1].

فما جرى من التزحيف هذا المجرى فى القصيدة أو الأبيات كلها أو أكثرها، كان قبيحاً من أجل إفراطه فى التخليع واحدة، ثم من أجل دوامه وكثرته ثانية، وإنما يستحب من التزحيف ما كان غير مفرط، أو كان فى بيت أو بيتين من القصيدة من غير توالٍ ولا اتساق، ولا إفراط يخرجه عن الوزن، مثل ما قال متمم ابن نويرة:

---

(١) نقد الشعر: ١٨١ و ١٨٢؛ والموشح: ١٢١ و ١٢٢.

وفَقَـدُ بنى أُمٍّ تداعــوا فلــم أكن   خلافهـــم لأستكيـــن وأضرعــــا

فأما الإفراط والدوام فقبيح.

والتخليع من عيوب الوزن، وهناك ما يتصل بعيوب القوافى، وهو التجميع، ويعرفونه بأن تكون قافية المصراع الأول من البيت الأول على روى متهيئ لأن تكون قافية آخر البيت بحسبه، فتأتى بخلافه، مثل ما قال عمرو بن شأس:

تذكرتُ ليلى لات حين ادكارهـا   وقد حُنِىَ الأصـلاب ضـُلاً بتضـلال

ومثل قول الشماخ:

لمـــن منزلٌ عــافٍ ورسمُ منــازلِ   عفت بعد عهد العاهديـن رياضهـــا[١]

* * *

النقد اللغوى والتركيب

أشار اللغويون والنقاد إلى بعض المآخذ التى أخذوها على الشعراء فى نظمهم، ويمكن تنظيمها على النحو الآتى:

-١-

التقديم والتأخير

التقديم والتأخير من الظواهر التى تطبع الجملة العربية فى تركيبها النحوى، وقد لجأ إليهما الشعراء، ولكن هذا أدّى إلى الإبهام فى الدلالة. قال النابغة:

يصاحبْنَهـم حتّـى يُغرْنَ مُغارهـــم   مــن الضاريـاتِ بالدمـــاءِ الـدوارب[٢]

يريد: من الضاريات الدوارب بالدماء؛ فقدم وأخّر؛ وإنما يقبح مثل هذا إذا التبس بما قبله؛ لأن «الدماء» جمع، و «الدوارب» جمع؛ ولو كان من الضاريات بالدم الدوارب لم يلتبس؛ وإن كانت هذه الكلمة حاجزة بين الكلمتين - أعنى بين الضاريات والدوارب - اللتين يجب أن تقرنا معاً[٣].

(١) السابق: ١٨٥.
(٢) انظر عيار الشعر: ٤٤.
(٣) الموشح: ٥٣.

ومن التقديم والتأخير الذى أدّى إلى حدوث الغلط قول خداش بن زهير:

وتُركبُ خيــلٌ لاهــوادةَ بينهــا   وتشقى الرماحُ بالضياطرة الحُمْرِ[١]

وإنما الضياطرة هى التى تشقى بالرماح[٢]. وقال الشاعر:

كانــتْ فريضــةَ ما تقــولُ كما   كــان الزّنـــاءُ فريضــةَ الرّجْمِ

وإنما الرجم فريضة الزناء[٣]. وقال الفرزدق يصف ذئباً:

وأطلسَ عسالٍ وماكان صاحبــاً   رفعـــتُ لنــارى مَوْهنــاً فأتانــى

قال المبرد: «قوله: رفعتُ لنارى، من المقلوب إنما أراد: رفعتُ له نارى»[٤]. وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

أسلمتُــه فى دمشـــق كمـــا   أسلمـــتْ وحشيـــةٌ وَهَقَـــا

أراد: كما أسلم وحشيةً وهقٌ؛ فقلب على الغلط[٥]. ومن الخطأ قول أبى تمام:

طللَ الجميعِ لقد عفوْت حميـدا   وكفـى علـى رُزْئى بذاك شهيدا

قال الآمدى: «أراد وكفى بأنه مضى حميداً شاهداً على أنى رُزئت، وكان وجه الكلام أن يقول: وكفى برزئى شاهداً على أنه مضى حميداً؛ لأن حميداً من الطلل قد مضى، وليس بشاهد ولا معلوم، ورزؤه بما يظهر من تفجعه مشاهد معلوم؛ فلأن يكون الحاضر شاهداً على الغائب أولى من أن يكون الغائب شاهداً على الحاضر». وقد ردّ الآمدى على من أشار إلى أن بيت أبى تمام جاء على التقديم والتأخير؛ أى القلب، فقال: «المتأخر لايُرخّص له فى القلب؛ لأن القلب إنما جاء فى كلام العرب على السهو، والمتأخر إنما يحتذى على أمثلتهم، ويقتدى بهم؛ وليس ينبغى له أن يتبعهم فيما سهوا فيه»[٦].

(١) الضياطرة: جمع ضيطر، وهو اللئيم الضخم.
(٢) سر الفصاحة: ١١٤.
(٣) السابق: ١١٥؛ وتأويل مشكل القرآن: ١٩٩.
(٤) الكامل: ١/ ٣٢٠.
(٥) تأويل مشكل القرآن: ١٩٨.
(٦) الموازنة: ١/ ٢١٧.

ومما جاء على الخطأ فى التقديم والتأخير قول عروة بن الورد:

فديتُ بنفسه نفسى ومالى ... وما آلوك إلاّ ما أطيقُ

يريد أن يقول: فديتُ نفسه بنفسى[١].

ومن الأبيات التى لها رواج معين فى باب التقديم والتأخير قول الفرزدق:

وما مثلُه فى الناسِ إلاّ مملّكًا ... أبو أمّه حىٌّ أبو يقاربُهُ

فقد قالوا إنه «من الكلام الغث المستكره الغلق»[٢]. وقال المرزبانى: «وإنما أراد: وما مثله فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملّكٌ أبو أمه أبوه، فتعسّف هذا التعسف الشديد، ووضع أشياءَ فى غير مواضعها؛ وإنما مدح بهذا الشعر خال هشام، فقال: ما فى الناس حى يقارب خال هشام إلا هشام الذى أبو أمه أبوه؛ يعنى أن جد هشام لأمه أبو هذا الممدوح»[٣].

وللفرزدق بيت آخر، أكثر فيه من التقديم والتأخير، الذى لايؤدى إلى فهم المعنى المراد إلا بعد تدبر كثير. قال:

فليست خراسان التى كان خالدٌ ... بها أسدٌ إذ كان سيفاً أميرَها

وقد أوضح ابن جنى ما يقصده الفرزدق بقوله: «وذلك أنه – فيما ذُكر – يمدح خالد بن الوليد ويهجو أسداً، وكان أسد وليها بعد خالد؛ قالوا فكأنه قال: وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفاً، إذ كان أسد أميرها؛ ففى «كان» على هذا ضمير الشأن والحديث، والجملة بعدها التى هى «أسد أميرها» خبر عنها. ففى هذا التنزيل أشياء: منها الفصل بين اسم «كان» الأولى وهو «خالد» وبين خبرها الذى هو «سيفاً» بقوله «بها أسد إذ كان» فهذا واحد. وثان: أنه قدّم بعض ما «إذ» مضافة إليه وهو «أسد» عليها. وفى تقديم المضاف إليه أو شئ منه على

---

(١) سر الفصاحة : ١١٤.

(٢) عيار الشعر: ٧٢؛ والمثل السائر: ١/ ٣٩٧ و ٢/ ٢٢٩.

(٣) الموشح: ١٥٢ . وتقدير البيت: وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه؛ إذ إن الفرزدق يمدح هشام بن إسماعيل المخزومى، وهو خال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى.

المضاف من القبح والفساد ما لاخفاء به ولا ارتياب. وفيه أيضاً أن «أسد» أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير على شريطة التفسير؛ أعنى ما فى «كان» منه. وهذا الضمير لايكون تفسيره إلا من بعده. ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير، ولمآ سماه الكوفيون الضمير المجهول»(١).

وهناك تقديم للمعطوف على المعطوف عليه. قال ابن عصفور: «وأحسن ما يكون ذلك فى الواو. ولايجوز التقديم فيها إلا بشرط أن لايؤدى التقديم إلى وقوعها صدر الكلام، لايقال: وزيد عمرو قائمان، وبشرط أن لايكون المعطوف عليه مخفوضاً، لايقال: مررت وزيد بعمرو»(٢). ومما ورد على هذا النحو قول الشاعر:

جمعْتَ وفحشــاً غيبةً ونميمــةً   ثلاثَ خصالٍ لست عنها بمرعوى(٣)

وقول حسان بن ثابت:

لعــن الإلــهُ وزوجَهــا معهــا   هنــدَ الهنــودِ طويلــةَ البظْــرِ(٤)

يريد: لعن الإلهُ هندَ الهنود وزوجَها معها. وقول ذى الرمة:

وأنــت عزيـــمٌ لا أظــنُّ قضاءه   ولا العنــزى القــارظَ الدهرَ جائيــا

يريد: لا أظن قضاءه جائيا ولا العنزى القارظ الدهر، فقدم المعطوف عليه وعامله، وهو الضمير المستتر فى «جاء»(٥). وقول متمم بن نويرة اليربوعى يرثى أخاه مالكاً:

وإنى متى ما أدعُ باسمك لاتُجبْ   وكنــتَ جديراً أن تُجيــبَ فتسمعا

أى: أن تسمع فتجيب(٦).

---

(١) الخصائص: ٢/ ٣٩٧.

(٢) الضرائر: ٢١٠.

(٣) الخصائص: ٢/ ٣٨٣؛ وما يجوز للشاعر فى الضرورة للقراز: ١٧٠.

(٤) المحتسب: ١/ ٣٤١؛ والمقرب لابن عصفور: ١/ ٢٣٤.

(٥) الضرائر: ٢١١.

(٦) السابق: ٢١١، وقد ورد البيت «أن تجيب وتسمعا». انظر العقد الفريد: ٣ / ٢٦٤.

ويلجأ الشعراء إلى تقديم النعت كما في قول الفرزدق:

متقلداً لأبيه كانت عنده أرباق صاحبَ ثلةٍ وبهام

يريد: متقلداً أرباق صاحب ثلة وبهام كانت عنده لأبيه؛ فقدم النعت على المنعوت بدلاً منه(١). وقال الشاعر:

ولستُ مقراً للرجال ظلامة أبى ذاك عمى الأكرمان وخاليا

يريد: أبى ذاك عمى وخالى الأكرمان؛ فقدم النعت على أحد المنعوتين(٢). وقال علقمة بن عبدة:

فأوردتها ماءً كأنَّ جمامَه من الأجن حناءٌ معاً وصَبيبُ

يريد: كأن جمامه حناء وصبيب معاً(٣).

ويلجأون إلى تقديم ما بعد «إلا» عليها كما فى قول الأعشى:

أحلَّ به الشيبُ أثقالَه وما اغتره الشيبُ إلاّ اغترارا

يريد: وما اغتره اغتراراً إلا الشيبُ، فقدم. وإنما لم يكن بد من هذا التقدير؛ لأنها لو جعلت داخلة على المصدر لفظاً وتقديراً، لم يكن للكلام فائدة؛ إذ معلوم أنه لايغتره الشيب خلاف الاغترار(٤).

ويلجأ الشعراء إلى تقديم المجرور على حرف الجر، ولكن هذا التقديم من القلة بحيث لايلتفت إليه، ويجعل منه ابن عصفور قول الشاعر:

أتجزعُ إنْ نفسٌ أتاها حمامُها فهلاّ التى عن بينَ جنبيك تُدْفعُ

يريد: فهلا عن التى بين جنبيك تدفع(٥).

(١) الضرائر: ٢١٢.

(٢) المغنى: ٨٠٣؛ والضرائر: ٢١٢.

(٣) الضرائر: ٢١٢.

(٤) الضرائر: ٢١٢؛ والمغنى: ٣٨٩؛ وخزانة الأدب: ٢/ ٣٠.

(٥) يرى ابن هشام أن «عن» زائدة فى البيت للتعويض من أخرى محذوفة. وهناك رواية أخرى له «فهل أنت عما بين جنبيك تدفع»، ولا شاهد فيه حينئذ. انظر المغنى: ١٩٨. وقال ابن جنى: «أراد فهلا تدفع عن التى بين جنبيك؛ فحذفت «عن» من أول الموصول، وزيدت بعده» المحتسب: ١/ ٢٨١.

نخلص من هذا إلى أن التقديم والتأخير ظاهرة نحوية تطبع الأداء اللغوى فى الشعر، ولها تعليلان؛ أولهما يتصل بالدلالة؛ حيث يلجأ الشاعر إلى تقديم ما يكون معقد الفائدة وأساس الاهتمام، والآخر يتصل بالضرورة.

* * *

-٢-

الفصــــل

«الفصل» من المصطلحات الأصيلة فى الدرس النحوى والبلاغى، ويستخدمه العلماء للإشارة إلى ما يصيب بيت الشعر من الفصل بين العناصر النحوية Grammatical Elements المتلازمة؛ كالفصل بين المضاف والمضاف إليه، والصفة والموصوف، وحرف العطف والمعطوف ... وهكذا. ويؤدى هذا الفصل إلى «القبح» فى النظم والصعوبة فى التوصل إلى المعنى، وإن كان قد خُرِّج على أنه ضرورة، تجوز للشاعر دون الناثر. ونقدم، فيما يلى، بعض أمثلته.

يعد الفصل بين المضاف والمضاف إليه أكثر شيوعاً فى الشعر، ويكون بالظرف والجار والمجرور، الذى نبدأ به. قالت ذو الرمة:

كأنَّ أصواتَ من إيغالهــــنَّ بنــــا   أواخــرِ الميْــسِ أصواتُ الفراريج[1]

والتركيب النحوى الذى أصابه الفصل أصله «كأن أصوات أواخر ...» والذى فصل بين عناصره «من إيغالهن بنا». وقالت دُرْنَا بنت عبعبة:

هما أَخَوا فى الحربِ مَنْ لا أخا له   إذا خـاف يوماً نبْـوةً فدعاهمـا[2]

والتركيب الذى أصابه الفصل «هما أخوا مَنْ ..» بواسطة الجار والمجرور «فى الحرب». وقال الشاعر:

مؤخَّرٌ عن أنيابـه جلــــدِ رأسِـــه   وأسنانُـه مثــــل الزجاجِ خَروج[3]

---

(١) المقتضب: ٤/ ٣٧٦؛ والخصائص: ٢/ ٤٠٤؛ والموشح: ٢٩٢، والإيغال: الإبعاد و«هن» فى «إيغالهن» تعود على الإبل فى بيت سابق، والميس: شجر يتخذ منه الرحل والأقتاب، والفراريج: صغار الدجاج، مفردها فروج.

(٢) الموشح: ٣٥٦.

(٣) معانى القرآن: ٢/ ٨١، والضرائر: ١٩٢.

والتقدير «مؤخّرُ جلدِ ...»، وتم الفصل بـ «عن أنيابه».

ومن الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف قولُ أبى حية النميرى (الهيثم ابن الربيع):

كمـا خُطَّ الكتـاب بكـفِّ يومـاً يهـوديٍّ يقـــاربُ أو يُزيـــلُ

وترتيب الكلام: كما خُطَّ الكتاب بكف يهودى يوماً ... وقد فصل الشاعر بالظرف «يوماً». وقول عمرو بن قميئة:

لمـــا رأتْ ساتيدمـــا استعبـرتْ للّـــــه درُّ اليـومَ مَنْ لامهـا[١]

يريد: لله درُّ مَنْ لامها اليومَ. وقول الشاعر:

فرشنى بخيـــرٍ لا أكونَنْ ومدحتى كناحتِ - يوماً - صخرةٍ بعسيل[٢]

يريد: كناحتِ صخرةٍ بعسيل يوماً.

وهناك فصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف والجار والمجرور؛ وذلك نحو الفصل بينهما بالمعطوف على الاسم المضاف مع حرف العطف. قال الفرزدق:

يـــا مـــن رأى عارضـــاً أُسَرُّ به بـــين ذراعىْ وجبهـــةِ الأسـدِ[٣]

أراد بين ذراعى الأسد وجبهة الأسد، كما يقول المبرد[٤]، وأضاف ابن عصفور: «فقدم المعطوف وحرف العطف، وفصل بهما بين المضاف والمضاف إليه، وحذف الضمير لفهم المعنى اختصاراً»[٥] ومثل هذا البيت قول الأعشى:

ولا نقاتـــــــلُ بالعصِـــىِّ ولانرامـــــى بالحجـــــــارهْ

---

(١) السابق والصحيفة نفسها، و «ساتيدما» اسم جبل كما فى معجم البلدان: ٣ / ١٦٨ و ١٦٩.

(٢) معانى القرآن: ٢/ ٨٠، والمخصص: ١١/ ٢٠٣. ويقول ابن عصفور عن معنى «عسيل»: «والعسيل: مكنسة يكنس بها العطار بلاطه من العطر». الضرائر: ١٩٣.

(٣) سر الصناعة: ١/ ٢٩٧. والعارض: السحاب، والذراعان والجبهة: من منازل القمر الثمانية والعشرين.

(٤) المقتضب: ٤ / ٢٢٩.

(٥) الضرائر: ١٩٤، وانظر شرح المفصل: ٣/ ٢١.

إلا عُلالـــــــةَ أو بـــــدا هـــةَ قـــارحٍ نَهْـدِ الجزُاره[١]

يريد: إلا علالة قارح نهد الجزارة أو بداهته[٢].

وهناك فصل بين المضاف والمضاف إليه بسائر الأسماء التى ليست ظروفاً ولا مجرورات؛ وذلك نحو الفصل بالمفعول به. قال الشاعر:

فـزججتهــا بمزجـــةٍ زجَّ القلـــوصَ أبـــى مـــزاده[٣]

وترتيب الكلام: زجَّ أبى مزادة القلوصَ. وقال جندل بن المثنى:

يفركْـــنَ حَـبَّ السنبـل الكُنَافِجِ بالقـــاع فـــركَ القطنَ المحالـجِ[٤]

وترتيب الكلام: فرك المحالج القطنَ. وقال عمرو بن كلثوم:

وحلـــق المـــاذىّ والقوانـــس فداسهـم دَوْسَ الحصادَ الدائـسِ[٥]

وترتيب الكلام: دوسَ الدائسِ الحصادَ. وقال الطرماح:

يُطفْـــنَ بجـوزىّ المراتـع لم يُرَعْ بواديه من قرعِ القسـىَّ الكنائـنِ[٦]

ويقع الفصل بالمفعول لأجله. قال الشاعر:

أشـــم كأنـــه رجـــلٌ عبـــوسٌ مخالـــطُ جـرأةً وقتِ التـوادى[٧]

وترتيب الكلام: مخالط وقت التوادى جرأةً؛ فقدم المفعول لأجله «جرأة» وهو المصدر، وفصل بينهما.

---

(١) العلالة: بقية جرى الفرس، والبداهة: أول جرى الفرس، والقارح: الذى بلغ أقصى أسنانه من الخيل، والنهد: المرتفع، والجزارة: الرأس واليدان والرجلان، وهى الأصل فيما يذبح.

(٢) الضرائر: ١٩٤.

(٣) الخصائص: ٢/ ٤٠٦، والزج: الطعن بسنان الرمح، والمزجة: رمح قصير، والقلوص: الناقة الفتية. وانظر معانى القرآن: ١/ ٣٥٨ و ٢/ ٨١.

(٤) الضرائر: ١٩٧، والكنافج: السمين الممتلئ.

(٥) السابق والصحيفة نفسها، وانظر شرح الشواهد للعينى: ٣/ ٤٦١.

(٦) الخصائص: ٢/ ٤٠٦، والشاعر يصف بقر الوحش، والجوزى: الفحل، وفى الأصل: المتوحد.

(٧) المقتضب: ٤/ ٣٧٧، ويروى «الهوادى» جمع هادية وهى من كل شئ أوله.

ونترك الحديث عن الفصل بين المضاف والمضاف إليه إلى نوع آخر، حكم عليه اللغويون والبلاغيون بالقبح، وهو الفصل بين حرف الجر والمجرور؛ وذلك كما فى قول الفرزدق:

وإنى لأطوى الكشحَ من دون ما انطوى   وأقطعُ بالخرق الهبوعِ المراجمِ[١]

يريد: وأقطع بالهبوع المراجم الخرق، وفصل بين الباء ومخفوضها وهو «الهبوع»، وقول الشاعر:

لو كنت فى خلقاء أو رأس شاهق   وليس إلى منها النزولِ سبيلُ[٢]

وفصل بين حرف الجر «إلى» والاسم المجرور «النزول» بالجار والمجرور «منها».

وهناك فصل بين الحروف التى لايليها إلا الفعل فى سعة الكلام وبين الفعل؛ وذلك كقول الشاعر:

لمّا رأيتُ أبا يزيد مقاتلاً   أدعَ القتالَ وأشهدَ الهيجاء[٣]

وترتيب الكلام: لن أدعَ القتال ما رأيت أبا يزيد مقاتلاً؛ ففصل بينها وبين منصوبها بالظرف الذى هو «مارأيت أبا يزيد»؛ أى مدة رؤيتى[٤]. ولابد أن يلى الفعل «قد»، ولكن قال أحد الشاعر:

فقد والشكُّ بيّن لى عناءٌ   بوشكِ فراقهم صُردٌ يصيحُ[٥]

وترتيب الكلام: فقد بيّن لى بوشك فراقهم صردٌ يصيح والشك عناء؛ ففصل بين «قد» والفعل[٦]. ومثله قول الآخر:

---

(١) الضرائر: ٢٠٠.

(٢) الخصائص: ٢/ ٣٩٥، ويروى الشطر الأول: مخلقة لايستطاع ارتقاؤها، انظر المقرب: ١/ ١٩٧؛ والضرائر: ٢٠١. وخلقاء: ملساء، ويقصد صخرة ملساء، وشاهق: جبل عالٍ.

(٣) «لمّا» مكونة من عنصرين «لن» الناصبة للمضارع و«ما». الخصائص: ٢/ ٤١١.

(٤) قال ابن هشام عن البيت: «وهو لغز، يقال فيه: أين جوابُ لمّا؟ وبم انتصب أدع؟ وجواب الأول أن الأصل «لن ما» ثم أدغمت النون فى الميم للتقارب، ووُصلا خطًا للإلغاز، وإنما حقهما أن يكتبا منفصلين». المغنى ٣٧٣.

(٥) المثل السائر: ٢/ ٢٥.

(٦) الطراز: ٢/ ١٧٥.

تهتـم علينا لأن الذئب كلمكـم　　فقـدْ لعمرى أبوكم كلّم الذيبـا(١)

يريد: فقد كلّم أبوكم الذيب لعمرى؛ ففصل بين «قد» والفعل «كلّم». وفصل الشاعر إبراهيم بين الأسود النخعى بين «سوف» والفعل «تمر» فى قوله:

عليك سلامٌ بعد سوف سلامهـا　　تمـرُّ سنـون بعدهـا وشهـورُ

وترتيب الكلام: بعد سلامها سوف تمر سنون وشهور بعدها؛ ففصل بين «سوف» والفعل، وفصل بين «بعد» والاسم المجرور بالإضافة إليها «سلامها». وفصل الفرزدق بين «لما» والفعل «دعا» فى قوله:

فلمّـا للصـلاةِ دعـا المنـادى　　نهضـتُ وكنـتُ منها فى غرورِ(٢)

وترتيب الكلام: فلما دعا المنادى للصلاة. وفصل أحد الشعراء بين «لم» والمضارع المجزوم بها «تطرق». قال:

نوائبُ من لـدن ابـن آدمَ لم تـزلْ　　تباكـرُ مَنْ لـم بالحـوادثِ تطرقِ(٣)

وترتيب الكلام: تباكر بالحوادث من لم تطرق، وقال ذو الرمة:

فأضحـتْ مغانيهـا قفـاراً رسومُها　　كأنْ لم سوى أهلٍ من الوحش تؤهل(٤)

وترتيب الكلام: كأن لم تؤهل.

ويقع الفصل بين الأعداد والتمييز المنتصب بها كما فى قول الفرزدق:

فى خمسَ عشرةَ من جُمادى ليلةً　　لا أستطيـعُ على الفـراش رقـادى(٤)

(١) الضرائر: ٢٠١.

(٢) هذا من غزل قصيدة يمدح فيها الوليد بن عبد الملك، وقد ذكر أنه زاره طيف محبوبته فى المنام، وقوله «نهضت»: هببتُ من نومى وأيقظنى أذان الفجر، وقوله «وكنت منها فى غرور» أى كان متاعه بمحبوته فى الحلم، فكان ذلك باطلاً. انظر الخصائص: ٢/ ٣٩٠ (الهامش).

(٣) الضرائر: ٢٠٣.

(٤) مغانيها: جمع «مغنى»، وهو المنزل، ويروى «مباديها»؛ أى حيث تبدو، والقفار: جمع قفر وهى الأرض الخالية، وتؤهل: من أهل الدار: نزلها. تأويل مشكل القرآن: ٢٠٧؛ والمغنى: ٣٦٧.

(٥) المقتضب: ٣/ ٥٥.

وترتيب الكلام «فى خمس عشرة ليلةً من جمادى»، وقول العباس بن مرداس السلمى:

على أنَّنــي بعــد ما قــد مضى   ثلاثــون للهجر حولاً كميــلا(١)

وترتيب الكلام «ثلاثون حولاً كميلاً للهجر»، وقول سحيم عبد بن الحسحاس:

وأشهــدُ عنــد اللــهِ أنى رأيتُها   وعشريــن منهــا إصبعاً من ورائيا(٢)

وترتيب الكلام «وعشرين إصبعاً منها». وقد قال ابن عصفور عن الفصل هاهنا: «وإنما قبح الفصل بين هذه الأعداد وتمييزاتها لضعف عملها فيها من حيث كانت محمولة فى العمل على الصفة المشبهة، والصفة المشبهة محمولة فى عملها على اسم الفاعل، واسم الفاعل محمول فى عمله على الفعل»(٣).

ويقع الفصل بين الصفة والموصوف كما فى قول الشاعر:

أمَّرت من الكتــان خيطاً وأرسلــتْ   رســولاً إلــى أخــرى جريّاً يعينُها(٤)

أراد: وأرسلت إلى أخرى رسولاً جريّاً، وقول عروة بن الورد:

أقول لقــومٍ فى الكنيــف تروحــوا   عشيــةَ بتنــا عندمــا وان رُزَّحِ(٥)

أراد: أقول لقومٍ رزحٍ.

ويقع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه كما فى قوله لبيد بن ربيعة:

فصلقنــــا فى مــــراد صَلْقَــــةً   وصُــــداءٍ ألحقتهــــم بالثَّلَــــلْ(٦)

أراد: فصلقنا فى مرادٍ وصداءٍ صلقة، وقول البَعيث الحنفى (البعيث بن حريث بن

(١) انظر أساس البلاغة: (كمل) ٥٥١.

(٢) شرح المفصل: ٤/ ١٣٠.

(٣) الضرائر: ٢٠٤.

(٤) أمرت خيطاً: شدت فتله، والجرى: الوكيل؛ انظر المحتسب: ٢/ ٢٥٠؛ والخصائص: ٢/ ٣٩٦.

(٥) أمالى القالى: ٢/ ٢٣٧.

(٦) صلقنا: صحنا، ومراد وصداء: حيّان من مذحج، والثلل: الهلاك. انظر المحتسب: ٢/ ٢٥٠ و ٢٥١؛ والمعانى الكبير: ٩٣٣.

جابر):

وجدتُ أباهـا راضيـاً بي وأمّـــها ... فأعطيتُ فيها الحكم حتى حويتها[١]

أراد: وجدت أباها وأمها راضيا.

ويقع الفـصل بين حـرف العطف والمعطوف بالظرف أو المجـرور، نحـو قـول الأعشى:

وفـــي كلِّ عامٍ أنت جاشم غزوة ... تشـــدّ لأقصاهـا غريـم عزائكا

مـــورثـــةً مالاً وفي الحيّ رفعـــةً ... لمـا ضـاع فيها من قروء نسائكا[٢]

أي: مورثة مالاً ورفعةً في الحي، وقول الأعشى أيضاً:

يومًـا تراهـــا كشبـــه أرديـــة ... العصـــب ويومًـــا أديمَهـا نَغلا[٣]

والتقـدير: تراها يوماً كـمثل أردية العَصْب، وأديمها يومًا آخر نغلا، فـفصل بالظرف بين حرف العطف والمعطوف به على المنصوب من قبله، وهو «ها» من تراها، كما يقول ابن جني[٤].

* * *

(١) الضرائر: ٢٠٦.

(٢) انظر مجاز القرآن: ١/ ٧٤.

(٣) المقرب: ١/ ٢٣٥؛ ومجمع الأمثال للميداني: ٢/ ٢٣٩.

(٤) الخصائص: ٢/ ٣٩٥.

-٣-

الإعـــــراب

يؤدى «الإعراب» دوراً مهماً فى النقد اللغوى الذى ورد عن القدماء؛ لأن الشعراء وقعوا فى بعض الأخطاء المتصلة به، وتتبعها العلماء، وإن كان بعضها يعود إلى «الضرورة الشعرية». ونحاول التعرف على النقاط الرئيسية التى احتواها النقد اللغوى للإعراب.

مما وقع فيه بعض الشعراء تسكين ما كان ينبغى له أن يحركه، وذلك كقول لبيد:

تَرّاكُ أمكنـــةٍ إذا لـــم أرْضَهـــا أو يعتلـقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[١]

لقد ورد الفعل «يعتلق» ساكناً، وكان حقه التحريك بالفتحة؛ لأنه منصوب بـ«أن» مضمرة بعد «أو»، ولكن الذى ألجأ الشاعر إلى ذلك إقامة «البحر الكامل».

وقد سكّن أبو نواس كلمةً لاتستحقُّ ذلك، ولكن ابن قتيبة علل ذلك بتتابع الحركات وكثرتها[٢]. والكلمة التى سكّنها هى «محدثة» فى قوله:

وصيـفُ كـاسٍ محدّثـــه ملـكٍ تيـهُ مُغـنٍّ وظَـــرْفُ زِنْديـــق

وهذا التسكين يُعلل عند ابن قتيبة، فى ضوء تتابع الحركات وكثرتها، مثلما سكّن امرؤ القيس «أشرب» فى قوله:

فاليومَ أشربْ غيـر مستحقبٍ إثمـاً من اللـــهِ ولا واغل[٣]

وتوقف ابن قتيبة أمام قول أبى نواس فى الخمر:

---

(١) شرح القصائد السبع: ٥٧٣.

(٢) ربط ابن قتيبة بيت أبى نواس ببيت امرىء القيس الذى سكّن فيه «أشرب»؛ لذلك جمعنا البيتين معاً.

(٣) الشعر والشعراء: ١/ ٩٨. وقال ابن هشام عن تسكين الفعل فى بيت امرىء القيس: «فليس قوله «أشرب» مجزوماً، وإنما هو مرفوع، ولكن حذفت الضمة للضرورة، أو على تنزيل «ربُغَ» من قوله «أشربُ غير» منزلة «عَضُد» بالضم؛ فإنهم قد يجرون المنفصل مجرى المتصل، فكما يقال فى «عضُد» بالضم «عضْد» بالسكون؛ كذلك قيل فى «ربُغ» بالضم «ربغ» «بالإسكان» للباء. انظر: الشذور: ٢٦٩.

شَمـــولٌ تخطتهــا المَنونُ فقد أتتْ ··· سنـــونٌ لهـــا فى دَهْـــا وسنــــونُ
تــراثُ أنــاسٍ عن أنــاس تخرمـوا ··· توارثهـــا بعـــد البنيـــن بنــــونُ

قائلاً: «فرفع نون الجماعة (سنون وبنون) وهذا يجوز فى المعتل، وقد أتى مثله، كأنه لما ذهب منه حرف، صار كأنه كلمة واحدة، وصارت «سنون» كأنها «منون» و«بنون» كذلك»[١].

ومن العيوب المتصلة بالإعراب «ترك التنوين» مع بعض الأسماء. قال أبو الأسود الدؤلى:

وألفـيـتُه غـيـرَ مُسْتـعـتَبٍ ··· ولاذاكـرَ اللـــهَ إلاّ قليــــلا[٢]

فقد ترك تنوين اسم الفاعل «ذاكر» مع إعماله النصب فى لفظ الجلالة، والأصل المقدر هو: ولاذاكراً اللهَ. وقال حسّان بن ثابت:

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد ··· أو عبد شمس أو أصحاب اللوى الصيد
أو من بنى زهرة الأخيار قد علموا ··· أو من بنى خلفِ الخضر الجلاعيـد[٣]

يريد: من بنى خلفٍ الخضر. وقال ابن قيس الرقيات:

تُذْهلُ الشيخَ عن بنيـه وتبـدى ··· عـن خـدام العقيلـةُ العـــذراء[٤]

يريد: عن خدامٍ العقيلةُ. وقال الشاعر:

حميــــدُ الـــذى أمــــج داره ··· أخـو الخمـر ذو الشيبـة الأصلع[٥]

يريد: حميدٌ الذى. وقال الراجز:

لتجدنّـــى بالأميــــر بَـــرًّا

---

(١) الشعر والشعراء: ٢/ ٨١٩.

(٢) الكتاب: ١/ ١٦٩ (ط هارون).

(٣) الضرائر: ١٠٥.

(٤) معانى القرآن: ١/ ٤٣٢ و ٣ / ٣٠٠، والخدام: الخلخال.

(٥) الكامل: ١/ ١٤٨.

وبالقنـــاة مدْعَســـًا مكـــرًّا
إذا غُطَيْـــفُ السُّلَمـــيُّ فـــرَّا(١)

يريد: غطيفٌ السُّلَميُّ.

وقد أشار اللغويون إلى أن السبب فى ترك التنوين التقاء الساكنين، ويقصدون بذلك أن التنوين عبارة عن نون ساكنة تلحق آخر الاسم نطقاً لا كتابة، وبعدها «ال» التعريف ساكنة؛ لذلك يحذف الساكن الأول، وهو التنوين. وقد قال الأعلم عن بيت أبى الأسود: «وفى حذف تنوينه لالتقاء الساكنين وجهان: أحدهما أن يُشبَّه بحذف النون الخفيفة إذا لقيها ساكن كقولك: اضربَ الرجلَ، تريد: اضربَنْ. والوجه الثانى: أن يشبه بما حذف تنوينه من الأسماء الأعلام إذا وصف بابن مضاف إلى علم؛ كقولك: رأيت زيدَ بن عمرو»(٢).

ومما يطبع التركيب النحوى للجملة العربية، وله صلته بالإعراب «الحمل على الموضع»؛ فإننا نقول:

ليـــس زيدٌ ببخيـــلٍ ولا جبانـــاً

بنصب كلمة «جباناً» عطفاً على موضع «ببخيل» وهو خبر «ليس» منصوب بالفتحة المقدرة لاشتغال المحل بحركة الباء الزائدة. ولكن بعض الشعراء أخطأ حين حمل على الموضع؛ فقد قال عقيبة بن هبيرة الأسدى:

مُعـــاوىَ إننا بشـــرٌ فـــأسـجح   فلسْنَا بالجـــبـــالِ ولا الحـــديدَا

قال ابن قتيبة: «كأنه أراد: لسنا الجبالَ ولا الحديدا، فردّ الحديد على المعنى قبل دخول الباء، وقد غلط الشاعر؛ لأن هذا الشعر كله مخفوض. قال الشاعر:

فهبْهـــا أُمـــةً ذهبـــتْ ضياعـــا   يزيـــدُ أميرُهـــا وأبـــو يزيـــدِ
أكلتـــم أرضنـــا وجردتموهـــا   فهـــل من قائـــمٍ أو من حصيدِ(٣)

---

(١) معانى القرآن: ١/ ٤٣١. والمدعس: المطاعن، والمكر: الذى يكر فى الحرب، وعكسه المفر.
(٢) الكتاب: ١/ ١٦٩ (الهامش).
(٣) الشعر والشعراء: ١/ ٩٨ و ٩٩. وانظر الكتاب: ١/ ٦٧ (الهامش).

وعرض القدماء لعيب من عيوب الشعر، يتصل بالإعراب، وهو «الإقواء»، وقد عرّفه أبو عمرو بن العلاء بأنه اختلاف الإعراب فى القوافى؛ وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة؛ كقول النابغة:

قالت بنو عامر خالوا بنى أسد ... يابؤس للجهل ضراراً لأقوامِ

وقال فيها:

تبدو كواكبُه والشمسُ طالعةٌ ... لا النورُ نورٌ ولا الإظلام إظلامُ

وقال أبو عمرو أيضاً: فحلان من الشعراء كانا يقويان: النابغة وبشر بن أبى خازم؛ فأما النابغة فدخل يثرب فُغُنِّى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء، وأما بشر بن أبى خازم فقال له أخوه سوادة: إنك تُقْوِى، قال: وما الإقواء؟ قال: قولك:

ألم تَرَ أنَّ طولَ الدهرِ يسلى ... وينسى مثل ما نسيتْ جذامُ

ثم قلت:

وكانوا قومنا فبغوْا علينا ... فسقناهم إلى البلد الشآمِ[1]

وقد حفلت الكتب العربية[2] بأمثلة للإقواء؛ ومن ذلك قول النابغة:

زعم البوارحُ أنَّ رحلتنا غداً ... وبذاك خبَّرنا الغرابُ الأسودُ
لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به ... إن كان تفريقُ الأحبةِ فى غدِ

ومنه قول دريد بن الصمة:

نظرتُ إليه والرماحُ تنوشُه ... كوقعِ الصياصى فى النسيجِ الممددِ

ثم قال:

فأرهبتُ عنه القومَ حتَّى تبددوا ... وحتى علانى حالكُ اللونِ أسودُ

وكقول حسان بن ثابت:

---

(١) الموشح: ١١ و ١٢؛ والشعر والشعراء: ١/ ٢٧٠.

(٢) الموشح: ١١ و ١٢ و ٤٧ و ٤٨؛ ورسالة الغفران: ١٤٣؛ وطبقات اللغويين والنحويين: ٣٢.

لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومنِ عظَمٍ ... جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

ثم قال:

كـأنهم قـصبٌ جـوف أسـافله ... مثـقب نَفَخَتْ فيـه الأعاصيـرُ

وقال الفرزدق يمدح يزيد بن عبد الملك:

مستقبليـن شمـالَ الشام تضربهم ... بحاصـبٍ كنديـفِ القطـن منثـورِ
علـىَ عمائمنـــا تُلْقَى وأرحلنـــا ... علـى زواحـفَ تزجـى مخهـا ريرُ

وقال أبو الهندى (عبد المؤمن بن عبد القدوس):

سيغنى أبا الهندى عن وطب سالم ... أباريـقُ لم يعلـقْ بها وضـر الزبـدِ
مفدمـــة قـــزًا كـــأنَّ رقابَهـــا ... رقـابُ بنـاتِ المـاء أفزعهـا الرعـدُ

وهناك بعض الأسباب التى تؤدى إلى وقع الإقواء، من أهمها «الارتجال» للقصيدة. قال الأصمعى: قد أقوى الحارث بن حلزة فى قصيدته التى ارتجلها. قال:

فملكنـــا بـــذلك النـــاسَ إذمـا ... هَلَـكَ المنـذُر بـن مـــاءِ السمـــاءِ

ويضيف ابن قتيبة: «ولن يضر ذلك فى هذه القصيدة؛ لأنه ارتجلها، فكانت كالخطبة»[1].

* * *

(١) الشعر والشعراء: ١/ ١٩٧ و ١٩٨؛ وانظر أمثلة أخرى فى نقد الشعر: ١٨٥ – ١٨٧.

-٤-

الحـــــذف

من النقد اللغوى الذى تعرض له العلماء حين نظروا فى التركيب النحوى للشعر «الحذف» الذى لجأ إليه بعض الشعراء، وقد أشاروا إلى ما يتصل به من انتقادات، لأن هناك حذفاً لم يكن مقبولاً؛ فقد زعم أبو عبيدة أن حكيم مُعيّة التميمى قال:

قد وعدتنى أمُّ عمرو أن تا
تَدْهُن رأســـى وتُفلّينى وا
وتمسح القَنّفَـاءَ حتى تنتا

وقال آخر:

بالخيـر خيـراتٍ وإن شـراً فـا   ولا أريـدُ الـشـــــــرَّ إلا أنْ تـا

يريد «فشراً» ، ويريد «إلا أن تريد» . قال: فسألت الأصمعى عن ذلك، فقال: هذا ليس بصحيح فى كلامهم؛ وإنما يتكلمون به أحياناً.

قال: وكان رجلان من العرب أخوان، ربما مكثا عامة يومهما لايتكلمان. قال: ثم يقول أحدهما «ألاتا» ؛ يريد ألا تفعل فيقول صاحبه «بلى فا» ، يريد فأفعل. وليس هذا بكلام مستعمل فى كلامهم[(١)].

ومن النقد اللغوى المتصل بالحذف «ترخيم الاسم فى غير النداء» وذلك كقول امرىء القيس:

لنعم الفتى تعشو إلى ضوءِ ناره   طريفُ بن مالٍ ليلةَ الجوعِ والخَصَرْ[(٢)]

أى: ابن مالك، وقول الأسود بن يعفر:

وهذا ردائى عنده يستعيرهُ   ليسلبنـى نفسى أمـالُ بـنُ حَنْظلِ[(٣)]

(١) الموشح: ١٥.
(٢) السابق: ١٥٥ . والخصر: شدة البرد.
(٣) أمالى ابن الشجرى: ١/ ١٢٧ ؛ ٢/ ٨٩.

أى: ابن حنظلةَ، وقول جميل:

بثين الزمى «لا» إنّ «لا» إنْ لزمتـه   على كثرة الواشيـــن أى مَعـُون[١]

أى: أى معونة، وقول الزبير:

مــالــك لاتنهـــم يـا فــلاحُ   إن النهيــــم للسقـــــاء راحُ[٢]

أى: راحة.

* * *

-٥-

تكرار العناصر النحوية

يكثر بعض الشعراء من استعمال عناصر نحوية بعينها فى شعرها، مما يؤدى إلى ضعف العمل الفنى، مع الدلالة على التكلف. ويمكن التمثيل لذلك بما ورد فى شعر المتنبى من تكرار اسم الإشارة فى بعض الأبيات. قال:

قد بلغت الذى أردت من البر ومن حق ذا الشريف عليكا

وإذا لم تسر إلى الــدار فى وقْتك ذاخفــت أن تسير إليكـا[٣]

قال الجرجانى: «وهو أكثر الشعراء استعمالاً لـ «ذا» التى هى للإشارة، وهى ضعيفة فى صنعة الشعر، دالة على التكلف». ثم يورد أبياتاً أخرى استعمل فيها المتنبى اسم الإشارة، ويعلق عليها قائلاً: «فهو كما تراه سخافة وضعفاً، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكره من هذه الإشارة، وأنت لاتجد منها فى عدة دواوين جاهلية حرفاً، والمحدثون أكثر استعانة بها، لكن فى الفرط والندرة

---

(١) الضرائر: ١٣٧؛ وإصلاح المنطق: ٢٢٣، وقد ورد فيه نقلاً عن الفراء: «وقوله: معون، أراد: جمع معونة». انظر معانى القرآن: ٢ / ١٥٢.

(٢) الضرائر: ١٣٧.

(٣) قال البيتين عند أبى محمد بن طُغج؛ يريد: أنه كان عنده فى مجلس الشراب ليلاً وأطال، فقال له: بلغت بنا ما أردت من الإكرام، وقضيت حق هذا الشريف، وكان عنده رجل علوى، فقم إلى منزلك، وإذا لم تقم خفت أن تجئ إليك الدبار، اشتياقاً إليك، ومحبة لك». الديوان: ٢/ ٣٨٤.

أو على سبيل الغلط والفلتة»[١].

ويبدو أن الإكثار من استعمال الإشارة ظاهرة أسلوبية تطبع بعض أبيات المتنبى، وقد تنبه إلى ذلك ابن جنى، الذى قال للمتنبى: «إنك تكرر فى شعرك «ذا» و «ذى» كثيراً، ففكر ساعة ثم قال: إن هذا الشعر لم يعمل كله فى وقت واحد، فقلت: صدقت، إلا أن المادة واحدة، فأمسك»[٢].

* * *

النقد اللغوى والدلالة

يعد التوصل إلى «المعنى» Meaning غاية التحليل الصوتى والصرفى والنحوى، وقد كانت هناك روايات كثيرة وردت على ألسنة الشعراء وغيرهم تتصل اتصالاً مباشراً بالدلالة التى وجهوا إليها انتقادات على أساس التطبيق فى النص نفسه؛ فيذكرون أن أبا نواس ومسلم بن الوليد اجتمعا وتلاحيا؛ فقال له مسلم: ما أعلم لك بيتاً يسلم من سَقَط! فقال له أبو نواس: هاتِ من ذلك بيتاً واحداً، فقال له مسلم: أنشدْ أنت أىَّ بيت شعرٍ شئت من شعرك، فأنشد أبو نواس:

ذكر الصبوحَ بسُحْرةٍ فارتاحا　　　وأملّه ديكُ الصباحِ صِياحاَ

فقال له مسلم: قف عند هذا البيت، لمَ أملّه ديكُ الصباح وهو يبشره بالصبوح الذى ارتاح له؟ قال له أبو نواس: فأنشدنى أنت؛ فأنشده مسلم:

عاصَى الشبابَ فراح غيرَ مُفَنّدِ　　　وأقام بين عزيمةٍ وتجلُّدِ

فقال له أبو نواس: ناقضْت، ذكرت أنه راح، والرواح لايكون إلا بانتقال من مكان إلى مكان، ثم قلت: وأقام بين عزيمة وتجلد، فجعلته متنقلاً مقيماً»[٣]. ومن هنا فإن الشاعرين كليهما قد انصب نقدهما اللغوى على «التناقض فى الدلالة»؛ إذ إن مسلماً يرى أن أبا نواس قد ناقض نفسه حين قال «وأمله ديك الصباح صياحا»

---

(١) الوساطة: ٩٧.

(٢) سر الفصاحة: ١٠٧.

(٣) الشعر والشعراء: ٢/ ٨٠٦.

وهو يبشره فى الوقت نفسه بالصبوح الذى ارتاح له فى الشطر الأول من البيت. ثم إن أبا نواس نظر أيضاً فى بيت مسلم نظرة دلالية أساسها التناقض بين دلالتى الفعلين «راح» و «أقام»؛ لذلك جعل الشاعرُ الفاعلَ متنقلاً مقيماً.

والذى يلفت النظر أن واحداً من كبار اللغويين، وهو ابن قتيبة، قد دافع عن الدلالة فى البيتين بقوله: «والبيتان جميعاً صحيحان، لاعيب فيهما، غير أن من طلب عيباً وجده، أو أراد إعناتاً قدر عليه، إذا كان متحاملاً متحيناً، غير قاصد للحق والإنصاف».

وهناك عدة جوانب لغوية اهتمّ بها النقاد واللغويون حين نظروا فى النص خلال الدلالة، ويمكن الإشارة إليها خلال النقاط الآتية:

-١-

فساد التفسير

وقع الشعراء فيما يمكن أن نسميه «فساد التفسير»؛ وذلك كما فى قول بعض المحدثين:

فيأيهــا الحيـــرانُ فى ظُلَمِ الدُّجى ... ومَنْ خاف أن يلقاه بَغْىٌ من العدى

تعـالَ إليـــه تلـقَ من نـورِ وجهِهِ ... ضيـاءً ومـن كفَّيْه بحراً من الندى

ويرى قدامة أن العيب فى هذين البيتين أن هذا الشاعر لما قدم فى البيت الأول الظُّلَم وبَغْيَ العدى كان الجيد أن يفسر هذين المعنيين فى البيت الثانى لما يليق بهما؛ فأتى بإزاء الإظلام بالضياء، وذلك صواب، وكان يجب أن يأتى بإزاء بغى العدى بالنصرة أو بالعصمة أو بالوَزَر، أو بما جانس ذلك مما يحتمى به الإنسان من أعدائه؛ فلم يأت بذلك، وجعل مكانه ذكر الندى، ولو كان ذكر فى البيت الأول الفقر أو العُدْم لكان ما أتى به صواباً[١].

---

(١) نقد الشعر: ٢٠٣ و ٢٠٤.

-٢-

التناقض من جهة القنية والعدم

أشار النقاد إلى ما أسموه «التناقض على طريق القنْية والعدم»، ويمثلون له بقول يحيى بن نوفل:

لأعْــلاج ثمانيـــــةٍ وشيـــــخٍ   كبيـرِ الســــنِّ ذى بصـرٍ ضريـرِ

قال المرزبانى: «فلفظة «ضرير» إنما تستعمل - وهى تصريف فعيل من الضرّ - فى الأكثر للذى لابصر له، وقول هذا الشاعر فى هذا الشيخ إنه ذو بصر وإنه ضرير تناقض من جهة القنْية والعَدم؛ وذلك أنه كأنه يقول: إن له بصراً ولا بصر له؛ فهو بصير أعمى»[١]. وقد أشار قدامة إلى أنه قد يقول قائل: «إنه ضرير، راجع على البصر بأنه أعمى؛ فالعرب أولاً إنما تريد بضرير الإنسانَ الذى قد لحقه الضرُّ بذهاب بصره لا البصر نفسه، وأيضاً فليس البصر هو العين التى يقع عليها العمى، بل ذات الإبصار، وذات الإبصار لايقال: إنها عمياء، كما لايقال: إن حدة السيف كليلة، بل إنما يقال: إن السيف كليل؛ لأن الحدة لاتكل، وكذلك البصر لايعمى، ولكن هو فى توسع اللغة، وتسمح العرب فى اللفظ جائز على طريق المجاز، وقد جاء فى أقوى المواضع حجة، وهو القرآن فى قوله عز وجل: (فإنها لاتعمى الأبصار)[١] ولكنه جاز فى البصر أن يقال: أعمى؛ فلا أراه يجوز أن يقال فيه: مضرور، وأرى أنه إنما يدخل فى هذا الباب»[٢]؛ أى باب التناقض عن طريق القنْية والعدم.

ومن هذا الباب أيضاً قول إبراهيم بن هرْمَة:

تـراه إذا مـا أبصر الضّيـفَ كلبـُهُ   يكلّمـهُ من حُبّـهِ وهـو أعجـمُ

فإن هذا الشاعر أفنى الكلب الكلام فى قوله: أنه يكلمه، ثم أعدمه إياه عند قوله: إنه

(١) الموشح: ٣٦٨. والأعلاج: الرجال من كفار العجم.

(٢) الحج / ٤٦.

(٣) نقد الشعر: ٢٠٩ و ٢١٠.

أعجم، من غير أن يزيد فى القول ما يدلُّ على أن ماذكره إنما أجراه على طريق الاستعارة»[١].

-٣-

التكلف فى طلب القافية

يؤدى «التكلف فى طلب القافية» إلى أن يشتغل معنى سائر البيت بها، وذلك كقول أبى تمام:

كالظبية الأدْمـاءِ صافتْ فارتعـتْ زَهَرَ العـرارِ الغـضَّ والجثْجـاثَـا

قال قدامة: «فجميع هذا البيت مبنى لطلب هذه القافية، وإلا فليس فى وصف الظبية بأنها ترعى الجثجاث كبيرة فائدة؛ لأنه إنما توصف الظبية - إذا قُصِدَ لنعتها بأحسن أحوالها - بأن يقال: إنها تعطو الشجر؛ لأنها حينئذٍ رافعةٌ رأسها، وتوصف بأن ذعراً قد لحقها، كما قال الطِّرِمَّاح:

مثـلَ مـا عاينْـتَ مَخْروفـةً نصَّهـا ذاعـرُ رَوْعٍ مُـؤام[٢]

فأما أن ترعى الجثجاث، فلا أعرف له معنى فى زيادة الظبية من الحسن، لاسيما والجثجاث ليس من المراعى التى توصف بأن ما يرتعى يؤثره»[٣].

-٤-

الأسماء فى الشعر

نالت «الأسماء» التى ترد فى الشعر اهتمام اللغويين والنقاد من حيث الدلالة، حتى إن بعضهم كان يحكم على البيت أو الأبيات بالقبح لوجود أسماءٍ معينة فيه؛ فقد استعمل الخليل فى شعره اسمين هما «أم البنين» و «بَوْزَع». قال:

---

(١) السابق والصحيفة نفسها؛ وانظر الشعر والشعراء: ٢/ ٧٥٤.

(٢) المخروفة: المقصود بها الظبية التى رعت عشب الخريف، نصها: جعلها ترفع رأسها، والروع: الفزع، والمؤام: المقارب اليسير.

(٣) نقد الشعر: ٢٢٣ و ٢٢٤؛ وانظر الموشح: ٣٦٩.

إنّ الخليـــــط تصـــــدّعْ فَطِـــــرْ بدائــك أوْقَـــعْ
لـــولا جـــــوارٍ حِسَـانٌ حُــــورُ المدامـــعِ أربَــعْ
أمُّ البنيــــن وأسمـــاءُ والربــــابُ وبَــــوْزَعْ
لقلــتُ للراحـــلِ ارحـلْ إذا بَــــدَا لــــك أوْ دَعْ

قال ابن قتيبة: «ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه»، ويدلل على ذلك بموقف يتصل بالشاعر جرير الذى أنشد بعضَ خلفاءِ بنى أمية قصيدته التى أولها:

بـان الخليـطُ برامتيْـــنِ فودَّعـوا أوَ كلّمــا جَـدُّوا لبيـنٍ تَجْـزَعُ
كيف العزاءُ ولم أجـدْ مذ بِنْـتُـمُ قلبــاً يقـرُّ ولا شرابــاً ينقــعُ

وهو يتحفز ويزحف من حسن الشعر، حتى إذا بلغ إلى قوله:

وتقول بَوْزَعُ قد دببْتَ على العصـا هــلاّ هزئْـتَ بغيرنا يا بـوزع

قال له: أفسدت شعرك بهذا الاسم»(١). فاستعمال اسم «بوزع» أفسد الشعر من وجهة نظر الخليفة الأموى.

-٥-

الإخفاق فى التعبير عن المعنى

توقف العلماء أمام بعض الأبيات موجهين النقد إلى الشاعر على أساس عدم التوفيق فى التعبير عن المعنى، ومن أمثلة ذلك قول امرىء القيس:

أغـــرَّكِ منى أن حُبكِ قـــاتلى وأنكِ مـهمـا تأمرى القلبَ يَفْعَلِ

فقد علقوا عليه بقولهم: «إذا لم يغرّها هذا فأى شئ يغرُّها؟ قال ابن المعتز: «وإنما هذا كأسير قال لمن أسره: أغرك منى أنى فى يديك وفى إسارك وأنك ملكت سفك دمى؟»[٢]. ولكن ابن قتيبة استطاع توجيه الدالالة توجيهاً آخر هو

(١) الشعر والشعراء: ١ / ٧٠؛ وانظر العمدة: ٢/ ٩٨؛ وسر الفصاحة: ٦٨.
(٢) الموشح: ٣٨.

الذى قصده امرؤ القيس من وجهة نظره: «ولا أرى هذا عيباً، ولا المثل المضروب له شكلاً؛ لأنه لم يرد بقوله: حبك قاتلى، القتلَ بعينه؛ وإنما أراد به: أنه قد برّح بى فكأنه قد قتلنى. وهذا كما يقول القائل: قتلتنى المرأة بدلها وبعينها، وقتلنى فلان بكلامه. فأراد: أغرك منى أن حبك قد برح بى، وأنك مهما تأمرى قلبك به من هجرى والسلو عنى يطعك؛ أى فلا تغترى بهذا؛ فإنى أملك نفسى وأصبرها عنك وأصرف هواى»[١].

وقد جمع المرزبانى فى موشحه[٢] بعض الأبيات التى عابوا فيها الدلالة كما عابوا بيت امرىء القيس، وقدم لها بقوله: «ومن الأبيات المستكرهة الألفاظ، المتفاوتة النسج، القبيحة العبارة التى يجب الاحتراز من مثلها قول الأعشى:

وأنكرتْنى ومـا كـان الذى نكِرَتْ ... من الحوادثِ إلا الشيبَ والصَّلَعا

فأى نكرة تكون أنكر من هذا عندها؟. وقال الأعشى أيضاً:

فـرمـيتُ غَفْلَةَ عـينه عن شـاته ... فـأصبتُ حبَّةَ قلبـهـا وطحـالهـا

وقد عابه قوم بذلك؛ لأنهم رأوا ذكر القلب والفؤاد والكبد يتردد كثيراً فى الشعر عند ذكر الهوى والمحبة والشوق، وما يجده المغرم فى هذه الأعضاء من الحرارة والكرب، ولم يجدوا الطحال استعمل فى هذه الحال؛ إذ لاصنع له فيها، ولا هو مما يكتسب حرارةً وحركة فى حزن ولاعشق، ولا برداً وسكوناً فى مزح أو ظفر؛ فاستهجنوا ذكره». وعابوا على طرفة قوله:

أُسُدُ غيـلٍ فـإذا مـا شربـوا ... وهبـوا كلَّ أمـونٍ وطمـرْ

فقيل: إنما يهبُّون عند الآفة التى تدخل على عقولهم، وفضلوا قول عنترة بن شداد العبسى:

وإذا شربـتُ فإننـى مستهـلكٌ ... مالـى، وعرضى وافـرٌ لم يُكْلَـم

وإذا صحوتُ فما أقصّـر عن ندى ... وكمـا علمْتِ شمائلى وتكرُّمـى

---

(١) الشعر والشعراء: ١/ ١٣٥؛ وانظر شرح القصائد السبع: ٤٥.

(٢) الموشح: ٧٠ و ٧٦ و ٧٨.

-٦-

الخطأ فى الدلالة

وقع الشعراء فى بعض الأخطاء الخاصة بالدلالة، وذلك نحو:

مثل النصارى قتلوا المسيحا[١]

وإنما اليهود، على ما قالت اليهود والنصارى، قتلوا المسيح. وقد كذبهم الله فى ذلك بقوله: (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم)[٢]. والذى غلطه كون اليهود والنصارى مخالفين للإسلام؛ فظن أنهم جميعاً مشتركون فيما ينكرونه من الأشياء»[٣].

ومن الأخطاء فى الدلالة استعمال الشعراء لكلمة على أنهم يقصدون معنى بعينه، ولكنه غير صحيح؛ فقد استعمل رؤبة لفظة «اليَلَب» بمعنى «الحديد»، وذلك فى قوله:

ومحورٍ أُخْلِصَ من ماءِ اليَلَبْ[٤]

فغلط «وإنما اليلب جلود يضم بعضها إلى بعض ويجعل تحت البيض وقاية»[٥].
ويبدو أنّ الذى أوقعه فى الخطأ قول عمرو بن كلثوم:

علينـا البيْـضُ واليَلَـبُ اليمانـــى وأسيــــافٌ يُقَمْــــنَ وينحنينا[٦]

فتوهم أن اليلب أجود من الحديد. ويعاب على امرىء القيس قوله:

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ٢٠٢؛ وقال ابن قتيبة فى (المعانى الكبير: ٢/ ٨٧٩) معلقاً: «سمع بالنصارى، والمسيح، ولم يدرِ كيف كان الأمر؛ فقال على ماتوهم».

(٢) النساء/ ١٥٧.

(٣) ضرائر الشعر: ٢٤٦.

(٤) مجالس ثعلب: ١/ ١٣٢ و ١٣٣.

(٥) ضرائر الشعر: ٢٤٦.

(٦) انظر شرح القصائد السبع: ٤١٤؛ حيث أورد أبو بكر الأنبارى المعانى الخاصة بكلمة «اليلب» فى بيت عمرو.

إذا ما الثريا فى السماء تَعرضت   تعرضَ أثناءِ الوشاح المفصَّلِ(١)

وقالوا: الثريا لاتعرض لها، وإنما أراد الجوزاء، فذكر الثريا على الغلط(٢). وقال المتلمس:

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره   بناجٍ عليه الصيعريةُ مُكْدَمِ(٣)

والصيعرية سمة للنوق لا للفحول، فجعلها لفحلٍ. وسمعه طَرَفَةُ وهو صبى ينشد هذا؛ فقال: «استنوق الجملُ»(٤)، فضحك الناس وسارت مثلا(٥). وقال المرقّش فى المرأة:

صحا قلبُه عنها على أن ذكرةً   إذا خطرت دارتْ به الأرضُ قائما

قالوا: كيف يصحو من إذا ذُكرتْ له دارتْ به الأرض؟!(٦) ويعاب الأعشى بقوله فى ملك الحيرة:

ويأمرُ لليحموم كلَّ عشيةٍ   بقتٍّ وتعليقٍ فقد كاد يَسْنَقُ(٧)

---

(١) الثريا: مجموعة من النجوم فى صورة الثور، وكلمة النجم علم عليها، والجوزاء: برج من بروج السماء. وقال أبو بكر الأنبارى عن معنى البيت: «قوله: تعرضت، معناه أن الثريا تستقبلك بأنفها أول ما تطلع، فإذا أرادت أن تسقط تعرضتِ، كما أن الوشاح إذا طُرح تلقاك بناحيته. والوشاح: خرز يعمل من كل لون، والمفصل: الذى فُصل بالزبرجد، وأثناء الوشاح: نواحيه ومنقطعه». شرح القصائد السبع: ٥٠ و ٥١.

(٢) الشعر والشعراء: ١/ ١١١؛ والوساطة: ١٣.

(٣) فى الموشح: ١١٠ «ادكاره» مكان «احتضاره»، والصيعرية: اعتراض فى السير، وهو من سمات النوق فى أعناقها خاصة، والمكدم: الغليظ أو الصلب.

(٤) «الجمل» بالنصب مفعول؛ أى جعله كالناقة، ويؤيده تفسير الأغانى (٢١/ ١٣٢): «أى وصفت الجمل بوصف الناقة وخلطت» وضُبط فى اللسان (٦/ ١٢٧ و ٩/ ٢٤١) بالرفع وفسره عن ابن سيده: «استنوق الجمل: صار كالناقة فى ذلها». من تعليقات الشيخ أحمد محمد شاكر هامش ١/ ١٨٣ من الشعر والشعراء.

(٥) الشعر والشعراء: ١/ ١٨٣؛ وانظر الموشح: ١١٠.

(٦) ولكنَّ الشيخ أحمد شاكر يدافع عن الدلالة قائلاً: «الناقد يقيس بالشبر والذراع، والشاعر يصور فيبالغ فى ثبات حبّه، فيثبت صحوه عنها قولاً؛ وينفيه عملاً وفعلاً، وقد أوفى فى هذا على الغاية: يدعى السلوَّ، والذكرة تصرعه». هامش ١/ ٢١٦ من الشعر والشعراء.

(٧) اليحموم: فرس النعمان بن المنذر، سمى بذلك لسواده؛ لأن اليحموم الأسود من كل شئ، والقت: نوع من العلف، ويسنق: يبشم ويتخم من الطعام أو الشراب.

قالوا: هذا مما لايُمدح به رجلٌ من خساس الجنود؛ لأنه ليس من أحدٍ له فرس إلا وهو يعلفه قتّاً ويُقْضمه شعيراً، وهذا مديح كالهجاء.

ولكن ابن قتيبة دافع عن هذا المعنى الذى طرقه الأعشى فى ضوء العادات العربية قائلاً: ولستُ أرى هذا عيباً، لأن الملوك تُعدُّ فرساً على أقرب الأبواب من مجالسها بسرجه ولجامه، خوفاً من عدو يفجؤها، أو أمرٍ ينزل، أو حاجة تعرض لقلب الملك فيريد البدَارَ إليها، فلايحتاج إلى أن يتلوّم على إسراج فرسه وإلجامه، وإذا كان واقفاً غُدّى وعُشّى، فوضع الأعشى هذا المعنى، ودلَّ به على ملكه وعلى حزمه»[1]. وأُخذَ على جرير قولَه فى بنى الفدوكس رهط الأخطل:

هذا ابنُ عمّى فى دمشق خليفةٌ   لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قَطينـا[2]

وهناك عدة تعليقات صدرت على هذا البيت؛ فقد قيل له: «يا أبا حَزْرَةَ، لم تصنع شيئاً، أعجزتَ أن تفخر بقومك حتى تعديت إلى ذكر الخلفاء؟ وقال له عمر بن عبد العزيز: جعلتنى شُرَطيّا لك؛ أما لو قلْتَ: لو شاء ساقكم إلى قطيناً، لسقتهم إليك عن آخرهم»[3]. أو قيل لجرير: «يا أبا حزرة ما وجدت فى بنى تميم فخراً تفخر به عليهم حتى فخرتَ بالخلافة، لا والله إن صنعْتَ فى هجائهم شيئاً»[4]. أو قال «يزيد بن عبد الملك أو بعض إخوته: أما ترون جهل جرير؛ يقول لى: ابن عمى، ثم يقول: لو شئت ساقكم، أما لو قال: لوشاء ساقكم لأصاب، ولعلى كنت أفعل»[5].

ومن الخطأ فى الدلالة عدم مراعاة الشاعر لما يمكن أن نسميه حال الممدوح أو المخاطب من حيث وجود بعض العيوب الخلَقية؛ فقد أنشد أبو النجم هشامَ بن عبد الملك أرجوزته التى أولها:

---

(١) الشعر والشعراء: ١/ ٢٦٤.

(٢) القطين: العبيد والإماء.

(٣) عيار الشعر: ١٥٢ و١٥٣.

(٤) الشعر والشعراء: ١/ ٤٧٠.

(٥) الموشح: ١٩٠ و١٩١.

الحـــمــــدُ للهِ الوهوبِ المجــزِلِ

وهى أجود أرجوزة للعرب، وهشام يصفق بيديه من استحسانه لها؛ فلما بلغ قوله فى الشمس:

حتّى إذا الشمسُ جَلَاها المجتلى
بيــن سِماطــىْ شفــقٍ مُرَعْبَــلِ
صفواء قــد كــادت ولمَّا تَفْعَــلِ
فهى على الأُفْق كعين الأحول[١]

أمر هشام بوَجْأ[٢] رقبته وإخراجه، وكان هشام أحولَ[٣].

وإذا كان أبو النجم قد فاته «حال» من يخاطبه بشعره فوقع فى الخطأ حين التشبيه بعين الأحول؛ فإن الأخطل قال فى عبد الملك بن مروان:

وقـد جـعل اللهُ الخـلافـةَ مِنْهُمُ ... لأبيض لاعـارى الخوانِ ولا جـدب

وهذا مما لايجوز أن يُمدح به خليفةٌ، ويجوز أن يُمْدح به غيره؛ كقول الآخر:

إلى امــرىء لاتخطّاه الرفـاقُ ولا ... جَدْبِ الخوانِ إذا ما استُنْشِئ المرق[٤]

فإن «لاعارى الخوان ولاجدب» لايجوز أن يمدح بها خليفة من الخلفاء، ولكن يجوز هذا مع غيره؛ لذلك لم يراعِ الأخطل «حال الممدوح»، والحال هنا مكانته الاجتماعية والسياسية.

ويتصل بالخطأ فى الدلالة أن ينقلب المدح إلى الهجاء لعدم مراعاة «الحال» أيضاً. ووقع فى هذا الأخطل؛ فقد أجاره رجلٌ من بنى أسد اسمه سِماك بن حمير؛ فقال قاصداً مدحه:

---

(١) السِّماط: الصف، والمرعبل: المقطع أو الممزق، وصفواء: مائلة للغروب؛ يقال: صفت الشمس والنجوم: مالت للغروب.

(٢) وجأ فلاناً يَجَؤه وَجْأ ووجاءً: دفعه بجُمْع كفه فى الصدر أو العنق.

(٣) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٤.

(٤) الشعر والشعراء: ١/ ٤٨٧.

نعـــم المجيرُ سماكٌ من بني أســد ... بالطّـفِّ إذ قتلـتْ جيرانَها مُضــرُ[١]
قـد كنـتُ أَحْسِبُـهُ قَيْنــاً وأُنْبَـؤُه ... فاليــومَ طُيِّـرَ عــن أثوابـه الشَّــرَرُ

وكان يقال لرهطه «القُيُون»، وقال الأخطل: فلما أجارني وأحسن إليَّ طار الشرر عن أثوابه؛ أى بطل هذا اللقب. وهذا مدح كالهجاء[٢]. وهناك عدة تعليقات على هذين البيتين، من بينها أن سماكاً الذى قصد الأخطل مدحه قال له: «يا أخطل أردت مدحى فهجوتنى، كان الناس يقولون قولاً فحققته»، وقال له الجلاح ابن ضوء أيضاً: «لو أردت المبالغة فى هجائه مازدت على هذا»[٣]. وأراد الأخطلُ هجاءَ سويد بن منجوف فقال:

وما جِذْعُ سَوْءٍ خَرَّبَ السوسُ وسْطَهُ ... لمـــا حمَّلْتَـــه وائـــلٌ بمُطيــق

وعلّق سويد على المعنى بقوله: «هجوتَنى بزعمك فمدحتنى؛ لأنك جعلتَ وائلاً حمّلتنى أمرها، وما طمعتُ فى بنى تغلبَ منها»[٤].

ويلجأ الشعراء إلى بعض الصور البلاغية كالاستعارة والتشبيه ولكن بعضهم يجانبه التوفيق فى استعماله لتلك الصور؛ فقد أخذ ثعلب على قيس بن الخطيم قوله:

حـوراء جـيـداء يُسْتَضـاءُ بهـا ... كأنهـــا عـــود بانـــةٍ قَصِـــفُ

لأن المرأة إنما تُشبَّه بالعود المتثنى لا بالمتقصِّف[٥]. ومما يستقبح من تشبيه رؤبة قولُه للمرأة:

يُكْسَيْنَ من لينِ الشبابِ نِيَما

و«النِّيم» الفرو القصير إلى الصدر، قيل له نيم؛ أى نصف فَرْو بالفارسية[٦]. وعاب

---

(١) الطَّفُّ: موضع قرب الكوفة، وما أشرف من أرض العرب على ريف العراق. القاموس ٣/ ١٧٤.
(٢) الشعر والشعراء: ١/ ٤٨٧ و ٤٨٨.
(٣) الأغانى: ٧ / ١٧٥.
(٤) الشعر والشعراء: ١/ ٤٨٨.
(٥) الموشح: ١١٧.
(٦) المعرب: ٣٨٧.

قوم على أوس بن حجر قوله:

وذاتُ هِـــدْمٍ عـــارٍ نواشرُهـــا　　تُصْمِـتُ بالمـــاء تولبـاً جَدِعَـا[١]

لأنه أفحش الاستعارة بأن سمّى الصبى تولباً، وهو ولد الحمار، ومثله قوله الآخر:

ومـــا رقـد الولْـدانُ حتى رأيتـــهُ　　على البَكْـرِ يَمْريـه بساقٍ وحافرِ[٢]

فسمّى رِجْل الإنسان حافراً. قال قدامة: «فإن ماجرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لاعذر فيه»[٣].

وقد اهتم ابن طباطبا بالصور البلاغية من حيث البُعْد والغلو، وخَصّ التشبيه بذلك؛ فتحدث عن التشبيهات البعيدة التى لم يلطف أصحابها فيها، ولم يخرج كلامهم فى العبارة عنها سهلا[٤].

ومن الخطأ فى الدلالة قول ابن أحمر:

لـم تَـدْرِ ما نسـجُ اليَرنْـدجِ قبلها　　ودِرَاسُ أعـوصَ دارسٍ متجـــدِّدِ[٥]

و«اليرندج» جلد؛ فظن أنه منسوج[٦]. ومن الخطأ كذلك قول أبى نخيلة:

بَـرِّيَّـــةٌ لــــم تأكـــل المرقَّقَـــا　　ولــــم تَــذُقْ من البقولِ الفُسْتقا

ظنّ أن «الفستق» بقل[٧].

---

(١) ذات هدم: يعنى امرأة ضعيفة، والهدم: الكساء الخلق الرث، والنواشر: عصب باطن الذراع وعرقه، ويقصد الشاعر هنا ذراع المرأة، والجدع: السيئ الغذاء.

(٢) البكر: الفتى من الإبل، ويمريه: يستخرج ما عنده من الجرى.

(٣) نقد الشعر: ١١٥.

(٤) عيار الشعر: ٨٥.

(٥) اليرندج والأرندج أصله بالفارسية «رنده» وهو جلد أسود، كما فى (المعرب: ٦٤). وقال ابن دريد فى (الجمهرة: ٣/ ٥٠٤) عن معنى البيت: «قال بعض أهل العلم إن هذه المرأة لغرتها وقلة تجاربها ظنت أن اليرندج منسوج، وإنما هو جلد ... قوله فى البيت: دراس، يريد مدارسة، والأعوص: الذى قد أعوص من الكلام؛ أى عدل به عن جهته». والدارس: الذى يغمض أحياناً فلا يرى.

(٦) مجالس ثعلب: ١/ ١٣٣؛ وضرائر الشعر: ٢٤٧.

(٧) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٢.

وكلمة «الأيدع» معناها «دم الأخوين»، وقد توهم رؤبة أنه «الزعفران»؛ فقال:

كما اتّقى مُحْرِم حج أيدعا(١)

ولكن ابن سيده قال: «الأيدع هنا الزعفران؛ لأنّ المحرم يتقى أن يمس الطيب»(٢).
ولذلك فإن استعمال رؤبة لها ليس خطأً. وحملوا على الخطأ قول حميد بن ثور:

لمـا تحملـت الحمـول حسبتُهـا دَوْمـاً بأيلـةَ ناعمـاً مكمومـا(٣)

قال ابن عصفور: «ظن بعضهم أن ذلك غلط؛ لأن الدوم لايكمم، وإنما يكمم النخل، وليس كذلك عندى؛ بل ينبغى أن يحمل على أنه سمّى النخل دوماً لشبهه به»(٤). وكذلك توقف ابن عصفور أمام قول لبيد:

نحـن بنـى أمّ البنيـن الأربعـهْ المطعمـونَ الجفنـة المُدَعْدعـهْ(٥)

وأشار إلى أن الشاعر لم يقل الأربعة، وهم خمسة، على جهة الغلط، وإنما قال ذلك لأن أباه كان مات وبقى أعمامه، وهم أربعة»(٦).

ونختم هذا العرض للأخطاء التى أشار إليها اللغويون والنقاد ببيت زهير:

فـتُنْتِجْ لكم غِلْمـانَ أشْأَمَ كلُّهم كأحمـرِ عـادٍ ثم تُرْضِـعْ فتفطـمِ

قال ثعلب شارحاً: «تنتج لكم، يعنى الحرب، غلمان أشأم: فى معنى غلمان شؤم، فجعل أشأم مصدراً، ولم يحتج إلى «منْ»، ولوكان أفعل لم يكن له بد من «من»؛ أى كلهم فى الشوم كأحمر عاد، ورفع «كلهم» بالكاف، وإنما أراد أحمر ثمود، فقال: أحمر عاد، وهذا غلط»(٧).

* * *

---

(١) ضرائر الشعر: ٢٤٧.
(٢) المخصص: ١٣/ ٩٣.
(٣) الحمول: الهوادج، وأيلة: اسم موضع، ومكوم: غُطى وستر بالكمامة.
(٤) ضرائر الشعر: ٢٤٨.
(٥) المدعدعة: المملوءة.
(٦) ضرائر الشعر: ٢٤٩.
(٧) شرح ديوان زهير: ٢٠؛ وانظر أساس البلاغة: ٣١٨؛ وشرح القصائد السبع: ٢٦٩. وقد أشاروا إلى أن «أحمر ثمود» هو قدار بن سالف، عاقر الناقة، وأشاروا أيضاً إلى أن الشاعر لم يخطئ، ولكنه جعل عاداً مكان ثمود اتساعاً ومجازاً؛ إذ قد عرف المعنى مع تقارب ما بين عاد وثمود فى الزمن

-٧-

الاستعمال السياقى للألفاظ

هناك ألفاظ فى اللغة العربية لها رواج معين فى الشعر، وحين يستعملها الشعراء فى التراكيب المختلفة داخل النص الشعرى يخلعون عليها أوصافاً معينة؛ حتى إن تلك الأوصاف قد أصبحت من ملامح أى «استعمال سياقى» ترد فيه تلك الألفاظ، ومن ذلك «الحلم» الذى خلع عليه الشعراء بعض الصفات التى تصلح لأن تشكل معجماً له، ويؤدى الخروج عنها إلى الخطأ حين التعبير، ومن أمثلته قول أبى تمام:

رقيقُ حواشى الحلـمِ لو أنّ حلمـه بكفّيـك ماماريـت فى أنّـه بُـرْدُ

وقد علقوا على هذا الوصف الدلالى للحلم بقولهم: «هذا الذى أضحك الناس منذ سمعوه». والخطأ يعود إلى أن الحلم لايوصف بالرقة، ولم يعرف ديوان الشعر العربى هذا الوصف، وإنما يوصف بالعظم والرجحان والرزانة ونحو ذلك. وهذه مجموعة من الأبيات التى احتوت على بعض أوصاف الحلم. قال النابغة:

وأعظـم أحلامـاً وأكثـر سيّـداً وأفضـل مشفوعـاً إليـه وشافعـا

فقد وصف النابغة الحلم فى بيته بالعظم، والوصف نفسه نجده فى قول الأخطل:

شُمْسُ العداوةِ حتّى يستقـادَ لهـم وأعظـمُ النـاسِ أحلامـاً إذا قدَروا

وقال عدى بن الرّقاع:

فى شدّة العقدِ والحلم الرزين وفى القول الثبيتِ إذا ما استُنْصت الكلمُ

فقد وصف عدى الحلم بالرزانة، والوصف نفسه نجده فى قول أبى ذؤيب الهذلى:

وصبـرٌ علـى حـدثِ النائبـات وحلـم رزيـنٌ وقلـبٌ ذكـىّ

وقال عدى:

قَرْم لـه مـع دينـه وتمامـه حِلـمٌ إذا وُزِن الحلـومُ ثقيـل

فقد وصفه بالثقل.

ثم أشار الشعراء إلى أن هذا الحلم بصفاته المختلفة يزن الجبال، وهو يرتد إلى الصفات السابقة. قال عدى:

أبَتْ لكُمُ مواطنُ طيباتٌ ... وأحلامٌ لكم تزنُ الجبالا

وقال الفرزدق:

أحلامُنا تزنُ الجبالَ رزانةً ... وتخالُنا جنًّا إذا ما نجهلُ

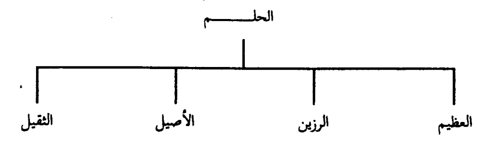
وقال أيضاً:

إنّا لتُوزنُ بالجبالِ حلومنا ... ويزيدُ جاهلُنا على الجهَّالِ

وكما قال الآخر

وعظيم الحلمِ لو وازنْتَهُ ... بثَبيرٍ أو برضوى لرجح

ومن هنا فإنه يمكن تلخيص بعض أوصاف الحلم كما يأتى:



والذى يلفت النظر أن أبا تمام حين وصفه بالرقة لم يكن ليجهل تلك الأوصاف؛ لذلك قال الآمدى: «وأبو تمام لايجهل هذا من أوصاف الحلم، ويعلم أن الشعراء إليه يقصدون، وإياه يعتمدون، ولعله قد أورد مثله، ولكنه يريد أن يبتدع فيقع فى الخطأ»[1].

* * *

(١) الموازنة: ١/ ١٤٣ - ١٤٧.

-٨-

المعجم اللغوى لألفاظ الشعر

نال «المعجم اللغوى» لألفاظ الشعر اهتمام النقاد واللغويين، ونقصد بذلك أن أولئك توقفوا أمام الألفاظ من حيث موافقتها لكلام العرب أو عدم موافقتها، وهل هناك ألفاظ أعجمية فى هذا الشعر أولا؟ وغير ذلك من الجوانب اللغوية المتصلة بدلالة الألفاظ؛ فقد ذكر أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء قوله: «كان عدى ابن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم، يعارضها ولايجرى مجاريها. قال: والعرب لاتروى شعره؛ لأن ألفاظه ليست بنجدية، وكان نصرانيًا من عِبَاد الحيرة[١]، قد قرأ الكتب»[٢].

وتوقف العلماء أمام بعض الأبيات لبيان ما فيها من ألفاظ أعجمية، وقد استطاع أوس بن حجر أن يجمع ثلاثة ألفاظ فى بيت واحد. قال:

وقارفتْ وهى لم تَجْرَبْ وباع لها ... من الفصافص بالنّمىّ سِفْسيرُ[٣]

«الفصافص» الرطبة، وهى بالفارسية «إسْبَسْت» و «النُّمىُّ» الفلوس بالرومية، و «السفْسير» السمسار[٤].

ووردت بعض الألفاظ على ألسنة بعض الشعراء دون أن تكون معروفة، ومنهم ابن أحمر الباهلى الذى قال عنه ابن قتيبة: «وقد أتى ... فى شعره بأربعة ألفاظ لاتعرف فى كلام العرب»؛ فقد سمى النار «ماموسة» وذلك فى قوله:

تطايح الطَّلُّ عن أعطافها صُعُدًا ... كما تطايح عن مامُوسة الشَّرَرُ

وسمى حُوار الناقة «بَأْبُوسًا»؛ فقال:

حنّتْ قَلُوصى إلى بابُوسها جزَعًا ... فما حنينُكِ أمْ ما أنتِ والذِّكَرُ

---

(١) قال ابن دريد: «العِبَادُ: قوم من قبائل شتى من العرب، اجتمعوا على النصرانية، فأنفوا أن يتسموا بالعبيد. فقالوا: نحن العباد». الجمهرة: ١/ ٢٤٥.

(٢) الشعر والشعراء: ١/ ٢٣٠.

(٣) انظر المعرب: ٢٣٣ و ٢٨٨ و ٣٨٧، وقد نسب الجواليقى البيت للنابغة ثم أوس.

(٤) الشعر والشعراء: ١/ ٢٠٦ و ٢٠٧.

واستعمل الفعل «بنَّسَ» فى قوله:

وبنَّسَ عنها فَرْقَدٌ خَصِرُ

أى تأخرَّ، ولايُعرف «التَّبْنيس». واستعمل «الأُرْنَة» بمعنى ما لُفَّ على الرأس، وذلك فى قوله:

وتقنَّـــع الحِرْبـــاءُ أُرْنَتَـــهُ متشاوِســـاً لوريـــده نَقْــرُ [1]

-٩-

عيـــوب المعانـــى

من النقد اللغوى الذى اهتم به العلماء ويتصل بالدلالة اتصالاً مباشراً مادرسوه تحت اسم «عيوب المعانى»، ونبدأ هذا الحديث بـ «المديح»؛ فقد أنشد عبيد الله بن قيس الرقيات الخليفةَ عبدَ الملك بن مروان بائيته التى يمدحه فيها؛ فلما انتهى إلى قوله:

يأتلِــقُ التـــاجُ فـــوق مَفْرِقِـــه علـــى جبيـــنٍ كأنـــه الذهـــبُ

غضب عبد الملك، وقال له: قد قلت فى مصعب بن الزبير:

إنما مُصْعبٌ شهابٌ من الله قد تجلتْ عن وجهه الظلماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم، وأعطيتنى من المدح مالا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة»[2]. قال قدامة: «فوَجْهُ عتب عبد الملك إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن الفضائل النفسية، التى هى العقل والعفة والعدل والشجاعة، وما جانس ذلك ودخل فى جملته إلى ما يليق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينة»[3]. وهذا الذى مدح به عبيد

(١) السابق: ١/ ٣٥٧ و ٣٥٨.

(٢) كتاب الصناعتين: ٩٨.

(٣) نقد الشعر: ١٨٩. ويقول طه إبراهيم: «إن البيت لم يقع موقعاً حسناً من نفس عبد الملك؛ لا لأنه عدل فى مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامة؛ بل لأن بين البيتين بوناً شاسعاً فى الجمال والقوة والروح؛ لأن بيت ابن الرقيات فى مصعب أروع وقعاً وأعلى نفساً، وأمس بالنور العلوى، وأشد اتصالاً بالله الذى يحرص الخلفاء على أن يمثلوه فى الأرض، ولهذا وحده عتب عبد الملك على الشاعر، وليس لخلو بيته من الفضائل النفسية؛ فليس فى بيت مصعب شئ منها على النحو الذى يفهمه قدامة». تاريخ النقد: ١٣٨ و ١٢٩.

الله الخليفة من عيوب المدح.

ويبدو أن المدح بالأشياء المادية كالذهب والفضة وغيرهما من عيوب المدح بصفة عامة؛ فقد مدح أيمنُ بن خُرَيم الأميرَ الأمويَّ بشر بن مروان بأبياتٍ يقول فيها:

يـا ابـنَ الذوائب والذُّرَى والأرْؤُسِ والفرعُ من مُضَرَ العَفَرْنَا الأقْعَسِ[(١)]
وابـنَ الأكــارمِ من قريــشٍ كلِّها وابنَ الخلائف وابنَ كل قَلَمَّسِ[(٢)]
من فــرعِ آدمَ كابــراً عن كابرِ حتى انتهيتَ إلى أبيـك العَنْبَـسِ[(٣)]
مــروانَ إن قناتَــــه خطيــةٌ غُرِســـتْ أورمتُهـا أعزَّ المغـرسِ
وبنيْــتَ عنــد مقام ربِّك قبةً خضــراءَ كُلِّل تاجهـا بالفسفُسِ
فسماؤها ذهبٌ وأسفلُ أرضها وَرِقٌ تلألأ في البهيـم الحِنْــدِسِ[(٤)]

وعلّق عليها قدامة بقوله: «فما في هذه الأبيات شئ يتعلق بالمدح الحقي؛ وذلك أن كثيراً من الناس لايكونون كآبائهم في الفضل، ولم يذكر هذا الشاعر شيئاً غير الآباء، ولم يصف الممدوح بفضيلة في نفسه أصلاً، وذكر بعد ذلك بناءه قبة، ثم وصف القبة بأنها من الذهب والفضة، وهذا أيضاً ليس من المدح؛ لأن في المال والثروة مع الضعة والفهّة[(٥)] ما يمكن معه بناء القباب الحسنة واتخاذ كل آلة فائقة، ولكن ليس ذلك مدحاً يعتد به، ولانعتاً جارياً على حقه»[(٦)].

ومما يتصل بعيوب المدح أن تكون للعبارة دلالة على أمر مكروه خارج عما جئ بها للدلالة عليه، إما باشتراك وقع في اللفظ، أو بعرف واستعمال حدث فيه

(١) العفرنا: الأسد القوى، والأقعس: الثابت.
(٢) قلمس: بحر زاجر، ورجل عظيم.
(٣) العنبس: الأسد، والمقصود هنا أولاد العنابس من قريش.
(٤) الحندس: الشديد الظلمة.
(٥) الفهة: العى.
(٦) نقد الشعر: ١٩٠ و ١٩١.

ولو للعامة. فيجب أن يتحفظ من ذلك حيث تتهيأ تلك العبارة بنفسها أو مع ما يكتنف بها؛ لأن مايفهم منها بحسب الاشتراك الواقع فيها، أو بحسب العرف والاستعمال أمر قبيح فى حق ممدوح أو مندوب أو منسوب أو نحو ذلك مما يكره فى حقه القبح. ومن ذلك قول الصاحب فى عضد الدولة:

ضممْتَ على أبناءِ تَغْلب تاءها　　　فتَغْلبُ ماكرَّ الجديدان تُغْلَبُ

فقال عضد الدولة: يقى الله». قال حازم القرطاجنى: «ومما أكد القبح فى هذه اللفظة التى هى قوله «تُغْلَب» وقوعها قافية؛ فإنها مقطع الكلام وموضع تخلى السامع وتفرغه لتفقد مامر على سمعه مما وقع فيها. فالسمع أقرب عهداً به، وهو أشد ارتساماً فيه. ولو وردت اللفظة التى أنكرها عضد الدولة فى أثناء البيت لكان الأمر فيها أسهل»[١].

ولأيمن بن خريم الذى أشرنا إليه من قبل أبيات يمدح فيها بشر بن مروان أيضاً، وقد قال فى بيت منها:

فإنا قد وجدْنا أمَّ بشرٍ　　　كأمِّ الأُسْدِ مذكاراً ولُودا

وأشاروا إلى أنه قريب من الذم؛ وذلك أنه جعل أمّه ولوداً، والناس مجمعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة، يكون أعسر، ويستدلون على ذلك بقول كثير الخزاعى:

بُغَاثُ الطيرِ أكثرها فراخاً　　　وأمُّ الصقرِ مقلات نَزورُ[٢]

ونختم هذا الحديث عن «عيوب المدح» ببعض الأبيات التى أوردها ابن رشيق، وتتصل بتلك العيوب. قال البحترى يمدح المعتز بالله:

لا العذلُ يردعُه ولا التعنيفُ عن كرمٍ يصدّه

وقالوا: مَنْ ذا يعنف الخليفة على الكرم أو يصده، هذا بالهجاء أولى منه بالمدح.

وعيب على الأخطل قوله فى عبد الملك بن مروان:

---

(١) منهاج البلغاء: ١٥٠ و ١٥١.

(٢) نقد الشعر: ١٩٢.

وقد جعل اللهُ الخلافــةَ منهــم   لأبيــض لاعارى الخوان ولا جـدب

وقالوا: لو مدح به حرسيًا لعبد الملك لكان قد قصّر به. وعابوا على الأحوص قوله للملك:

وأراك تفعــلُ ماتقــولُ وبعضهُــم   مـذقُ الحديـثِ يقـولُ ما لايفعـلُ

فقالوا: إن الملوك لاتمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة، وإنما تمدح بالإغراق والتفضل، بما لايتسع غيرهم لبذله. ومن هذا النوع قول كثيّر:

رأيــتُ ابنَ ليلى يعترى صلبَ ماله   مسائــلُ شتى من غنــى ومصـرم

مسائـلُ إن توجـدْ لديـك تجدْبها   يــداك وإن تظلــمْ بهـا تتظلــم

لأن هذا إنما يقع لمن دون الخليفة والملك[١].

وبعد هذا العرض لعيوب المدح نجدها تتلخص فى المدح بالأشياء المادية؛ وذلك على نحو مدح عبيد الله لعبد الملك بأن التاج فوق جبينه كأنه الذهب، وهذا لافضل للممدوح فيه، مما عُدَّ عيباً؛ بل إن الخليفة نفسه تنبه إلى هذا. بالإضافة إلى استعمال المشترك اللفظى، ومدح الملوك بما تمدح به العامة.

ومن الموضوعات التى تتصل بـ «عيوب المعانى»، وعرض لها النقاد واللغويون «النسيب» الذى يعرفونه بأنه ذِكرْ الشاعر خلْق النساء وأخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى به معهن، وقد تحدث ابن رشيق عن بعض عيوبه قائلاً: «ومن عيوب هذا الباب أن يكثر التغزل، ويقل المديح، كما يحكى عن شاعر أتى نصر بن سيار بأرجوزة فيها مائة بيت نسيباً، وعشرة أبيات مديحاً؛ فقال له نصر: والله ما أبقيت كلمة عذبة ولامعنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحى بنسيبك؛ فإن أردت مديحى فاقتصد فى النسيب. فغدا عليه فأنشده:

هـل تعــرفُ الــدار لأمِّ عمـرو   دعْ ذا وحبـر مدحــةً فى نصــر

فقال نصر: لاهذا ولا ذاكَ، ولكن بين الأمرين»[٢]. ويقصد نصر بذلك ألا

(١) العمدة: ٢/ ١٠٣ – ١٠٤.

(٢) العمدة: ١/ ٩٩.

يطغى جانب على جانب آخر إذا كان الشاعر ينشد أحداً؛ فالشاعر هاهنا قدْ طغى الغزل عنده على المدح الذى يعد الغرض الأساسى، وقد لجأ إلى العكس، ولكنه لقى الانتقاد أيضاً.

ومن عيوب المعنى فى باب النسيب أن يعكس الشاعر فينسب بنفسه، وهذا ما وقع فيه عمر بن أبى ربيعة؛ بل كان معروفاً من أمره، ومن أمثلة ذلك قوله:

بينمـــا ينعتْننـــى أبصرْننـــى	دون قِيـدِ الميـلِ يعـدو بى الأغـرّْ
قالـتِ الكبـرى أتعرفْـنَ الفتـى	قالـت الوسطـى نعـم هـذا عُمَـرْ
قالـتِ الصغـرى وقـد تيّمْتُهـا	قـد عرفْنَـاه وهـل يخفى القمـرْ

وقد قال له ابن أبى عتيق: أنت لم تنسب بها، إنما كان ينبغى أن تقول: قلت لها، فقالت لى، فوضعت خدّى، فوطئت عليه[١].

ومن عادة العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة والراغبة والمخاطبة، وهنا دليل كرم النحيزة فى العرب وغيرتها على الحرم، ولكنّ عمر بن أبى ربيعة وقع فى عيب حين جعل المرأة هى التى تسعى إليه. قال:

قالـتْ لتِـرْبٍ لهـا تحدّثُهـا	لَتُفْسِـدِنَّ الطـوافَ فـى عُمَـرِ
قومـى تصـدّى لـه ليُبْصرنـا	ثـم اغمزيـه يـا أخـت فى خَفَـرَ
قالـتْ لهـا غمزتُـه فأبَـى	ثـم اسبطـرّتْ تشتـدُّ فـى أثَـرى

قال كثيّر لعمر معلقاً على الأبيات: «أردت أن تنسب بها فنسبتَ بنفسك، والله لو وصفت بهذا هِرّة أهلك ... كنتَ قد أسأت صفتها. أهكذا يقال للمرأة؟ إنما توصف بالخفر، وأنها مطلوبة ممنّعة ...»[٢].

ومما يتصل بالدلالة فى باب النسيب تلك الرواية التى تقول إن الأقيشر دخل على عبد الملك بن مروان وعنده قوم، فتذاكروا الشعر، وذكروا قول نصيب:

(١) الأغانى: ١/ ١١٨. و «قيد الميل» فى البيت الأول: مقداره.
(٢) الموشح: ٢٥٨.

أهيمُ بدعْـدٍ مـا حييتُ فإنْ أمُـتْ فيا ويح دعدٍ من يهيم بها بعدى[١]

فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر، قال عبد الملك: فكيف كنت تقول لو كنت قائله؟ قال: كنتُ أقول:

تحبكم نفسى حياتى، فـإن أمـتْ أو كِّلْ بدعـدٍ من يهيمُ بها بعدى

قال عبد الملك: والله لأنت أسوأ قولاً منه حين توكل بها. فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أقول:

تحبكم نفسى حياتى، فـإن أمـتْ فلا صلُحَتْ هندٌ لذى خُلَّةٍ بعدى

فقال القوم جميعاً: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم[٢].

ومن العيوب فى هذا الباب ماورد فى قول إسحاق الأعرج مولى عبد العزيز بن مروان:

فلمّـا بـــدا لـــى مـــارابنـــى نَزَعْـــتُ نـزوعَ الأبـىِّ الكريـــمْ

ويقال إن أبا السائب المخزومى لما أُنْشد هذا البيت قال: قبّحه الله، لا والله ما أحبها ساعةً قط. ومثلها لنابغة بنى تغلب:

هجـرْتَ أُمامـــةَ هجـراً طويـــلا ومـا كـــان هجـرك إلا جميـلا
علـــى غير بغـضٍ ولا عن قِلـى وإلا حيـــــاءً وإلا ذهــــولا
بَخلْنـــا لبخلك قـــد تعلميـــن فكيـــف يلـــوم البخيلُ البخيـلا

ومن الكلام المستخشن فى الغزل قول عبد الرحمن بن عبد القَسّ:

سَلاّمَ ليـت لسانـاً تنطقيـن بـــه قبـــل الذى نالنى من صوته قُطعَا

قال قدامة: «فما رأيت أغلظ ممن يدعو على معشوقته، حيث أجادت فى غنائها له بقطع لسانها»[٣].

---

(١) انظر تعليق كثيّر على هذا البيت فى الموشح: ٢٦٠.
(٢) الشعر والشعراء: ١/ ٤١٢.
(٣) نقد الشعر: ١٩٧ - ١٩٩.

ونستمر فى العرض لـ «عيوب المعانى» حتى نصل إلى «باب الهجاء»، ومن العيوب فى هذا الباب حين هجاء أحد «أن يُنسب إلى أنه قبيح الوجه، أو صغير الحجم، أو ضئيل الجسم، أو مقتر، أو معسر، أو من قوم ليسوا بأشراف، إذا كانت أفعاله فى نفسه جميلة، وخصاله كريمة نبيلة، أو أن يكون أبواه مخطتين، إذا كان مصيباً، أو غويين، إذا وُجد رشيداً سديداً، أو بقلة العدد، إذا كان كريماً، أو بعدم النظار، إذا كان راجحاً شهماً»(١)؛ فليس هذا داخلاً فى الهجاء.

وهناك عدة أبيات تدل على أن القبح والشحوب والسماجة ليست بعار، ومن ذلك قول الشاعر:

رأتْ نضْـوَ أسفـارٍ أميمـةُ قاعـداً	علـى نضْوِ أسفارٍ فَجُنَّ جنونُهـا(٢)
فقالَتْ: من ايَّ الناسِ أنت ومَنْ تكنْ	فإنـك راعـى ثُلَّـة لانزينهـا
فقلت لها: ليس الشحوبُ على الفتى	بعـارٍ ولاخيـرُ الرجـال سمينهـا

ويعد «الوصف» واحداً من أهم موضوعات الشعر العربى؛ إذ إن الشعراء توقفوا أمام وصف السيف والفرس والإبل والسحاب وسواها، وخلال هذا الوصف أخفق بعضهم؛ لأن ماعرضه لم يكن بالدقة المطلوبة، وهذا يرد إلى السياق العام الذى ورد فيه الوصف، وما احتواه من ألفاظ وعبارات تؤدى إلى دلالة بعينها. ونقدم، فيما يلى، بعض الروايات والتعليقات النقدية المتصلة بالنقد الدلالى للوصف.

هناك بعض الانتقادات التى وجهها العلماء لوصف الفرس؛ فقد أنشد رؤبةُ سلمَ بن قتيبة قوله فى وصف قوائم الفرس:

يَهْوِينَ شتَّى ويقَعْنَ وَفْقَا(٤)

فقال له سلم: أخطأت فى هذا يا أبا الجحاف، جعلته مقيداً(٥). ويعود السبب فى

(١) نقد الشعر: ١٩٢.

(٢) النضو: المهزول من الحيوان

(٣) الشحوب: تغير اللون والجسم من السفر وغيره.

(٤) وفقاً: معاً، وهو من الموافقة بين الشيئين كالالتحام. انظر مجمل اللغة: ٢/ ٩٣٢ (وفق).

(٥) الشعر والشعراء: ٢/ ٥٩٦.

هذا الخطأ حين الوصف لقوائم الفرس أن رؤبة لم يكن صاحب خيل، وكان صاحب إبل ونعتها[١]؛ لذلك قال رؤبة لسلم حين وجّه إليه هذا الانتقاد: «أدْنِنى من ذَنَب البعير»، ويقصد بذلك أنه يجيد وصف الإبل لا الخيل.

وكان أبو النجم الراجز وصّافاً للفرس، وأُخِذ عليه فى صفته قوله:

يَسْبح أُخْراه ويطفو أوّلُه

قال الأصمعى: إذا كان ذلك كذلك فحمار الكسّاح أسرع منه؛ لأن اضطراب مآخيره قبيح. قال: وما أحسن فى قوله «ويطفو أوله»[٢].

وقال أبو ذؤيب فى وصف الفرس:

قَصَرَ الصبوحَ لهـا فَشُرِّج لحمُهـا ... بالنىِّ فهى تثـوخُ فيهـا الإصبـعُ

قال الأصمعى: «شُرِّج لحمها: صار شريجين، شحماً ولحماً، وتثوخ: تغيب، مثل تسوخ. وهذا من أخبث ما نُعتت به الخيل، والصواب أن توصف بصلابة اللحم»[٣].

وتوقف النقاد أمام وصف الفرس فى شعر امرىء القيس، وعلى الرغم من اتفاقهم على إبداعه فى هذا الوصف؛ فإنهم تتبعوا بعض الأبيات التى أشاروا إلى أن الشاعر لم يصادفه التوفيق؛ فقد عابوا عليه:

لهـا ذَنَـبٌ مثـلُ ذيـل العـروس ... تَسُـدُّ بـه فَرْجَهـا مـن دُبُـرْ

وقالوا: ذيل العروس مجرور، ولايجب أن يكون ذنب الفرس طويلاً مجروراً ولاقصيراً. قالوا: والصواب قوله:

ضليع إذا استدبرتَـه سـدَّ فَرْجَـه ... بضافٍ فُويقَ الأرضِ ليس بأعْزلِ[٤]

(١) انظر طبقات ابن سلام: ٢٨.

(٢) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٤ و ٦٠٥؛ وانظر الوساطة: ١٢.

(٣) السابق: ٢/ ٦٥٥؛ وانظر الوساطة: ١٢.

(٤) قال أبو بكر الأنبارى: «يقال: فرس ضليع وبعير ضليع، إذا كانا قويين منتفجى الجنبين، وهى الضلاعة ... وفرجه: ما بين رجليه، بضاف: معناه بذنب ضافٍ، وهو السابغ ... ويكره من الفرس أن يكون أعزل ذنبه فى ناحية، وأن يكون قصير الذنب، وأن يكون طويلاً عليه، ويستحب منه أن يكون سابغاً قصير العسيب». شرح القصائد السبع: ٩٠.

وعاب الأصمعي قولَ امرىء القيس:

وأركــبُ في الـرَّوْع خيفانـــةً   كسـا وجهها سَعَــفٌ منتـشر(١)

وقال: إذا غطت الناصيةُ الوجه لم يكن الفرس كريماً، والجيد الاعتدال، كما قال عبيد:

مضبَّــر خَلْقُهـــا تضبيـــــراً   ينشـــقُّ عن وجههـا السبيب(٢)

وقد كان وصف الفرس واحداً من الموضوعات التى حرص كل شاعر على أن يتفوق فيه على صاحبه، ولعلنا نذكر في مجال الوصف ما جرى بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة من تنازع بينهما أيهما أشعر؟ فقال كل واحد منهما: أنا أشعر منك. فقال علقمة: قد رضيتُ بامرأتك أم جندب حكماً بيني وبينك، فحكماهما؛ فقالت أم جندب لهما: قولا شعراً تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة ورويٍّ واحد؛ فقال امرؤ القيس:

خليليَّ مُـرَّا بـي على أمِّ جُنـدبِ   نقـضِّ لُبـانـاتِ الفـؤادِ المعـــذَّبِ

وقال علقمة:

ذهبْتَ من الهجْرانِ في غير مَذْهبِ   ولم يـكُ حقًّا طولُ هـذا التجنُّبِ

فأنشداها جميعاً القصيدتين؛ فقال لامرىء القيس: علقمة أشعر منك، قـال: وكيف؟ قالت: لأنك قلت:

فللسَّـوْطِ أُلهـوبٌ وللســـاق دِرَّةٌ   وللزجر منه وقعُ أَخْرجَ مُهْـذِب(٣)

الأخرج: ذكر النعام، والخرج: بياض في سواد، وبه سُمّي، فجهدْتَ فرسك

(١) الخيفانة: الجرادة، وقد شبّه امرؤ القيس فرسه بها لسرعتها وخفتها؛ لذلك يقال: فرس خيفانة، وشبه شعر الناصية بسعف النخلة. الموازنة: ١ / ٣٧.

(٢) المضبر: الموثق، والسبيب: شعر الناصية. انظر: الموشح: ٣٩؛ والوساطة: ١٠؛ وجمهرة أشعار العرب: ١٠١.

(٣) مهذب: الإهذاب السرعة في الطيران والعدو، ومرّ الفرس يهذب. مجمل اللغة: ٢/ ٩٠٢ (هذب)؛ وانظر الموازنة ١/ ٣٩.

بسوطك فى زجرك، ومريْتَه[١] فأتعبته بساقك. وقال علقمة:

فأدركهنّ ثانيـاً مـن عنانـه ... يمـرُّ كمرِّ الرائـح المتحلِّـب[٢]

فأدرك فرسه ثانياً من عنانه، لم يضربه ولم يتعبه[٣].

واهتم الشعراء بوصف السيف، وتتبع النقاد واللغويون أشعارهم الخاصة بذلك، ومن أمثلة عيوب هذا الوصف عندهم قول النمر بن تولب:

أبقـى الحـوادثُ والأيـامُ من نمرٍ ... أسبـادَ سيـفٍ قديـمٍ إثْـرُه بـادِ
تظـلُّ تحفـر عنـه إن ضربتَ بـه ... بَعْـد الذراعيـن والساقين والهادى

ذكر أنه قطع ذلك كله ثم رسب فى الأرض، حتى احتاج إلى أن يحفر عنه، وهذا من الإفراط والكذب[٤].

ووصف الشعراء ورود الإبل، ولكن أبا النجم لم يُحْسن فى قوله:

جاءتْ تسامـى فى الرعيـل الأوّلِ ... والظـلُّ عن أخفافهـا لـم يَفْضُلِ

ذكر أنها وردت فى الهاجرة، والعادة فى هذا أن توصف بالورود غَلَساً والماء بارد؛ كقول الآخر:

فوردتْ قبلَ الصباحِ الفاتق

وكقول لبيد:

إنّ من وِرْدِىَ تَغْليسَ النَّهَلْ

وكقول الآخر:

فوردْنَ قبل تبيُّـنِ الألـوان

(١) مريْتَ الفرس: إذا استخرجت ما عنده من الجرى بسوط أو غيره، ومَرَى الفرسُ بيده: إذا حركها على الأرض كالعابث.

(٢) الرائح: السحاب، والمتحلب: المتساقط المتتابع.

(٣) الموشح: ٢٨ و ٢٩؛ والشعر والشعراء: ١/ ٢١٨ و ٢١٩.

(٤) الشعر والشعراء: ١/ ٣١١؛ والموشح: ١١٣.

ووصف الشعراءُ النخلَ، وكان الأصمعي يخطئ المرّار العدوى فى قوله فى صفة نخل:

كـــأنّ فروعهـــا فى كـلّ ريـح | عـــذارى بالذوائـب ينتصينـــا
ضربْـــنَ العـرقَ فى ينبـوع عينٍ | طلبْـــنَ معينـــه حتـــى روينـا
بنـاتُ الدهـــر لايخشيْـنَ مَحْلاً | إذا لـــم تبــق سائمـةٌ بَقينـــا(١)

وقال: لم يكن له علم بالنخل، وإذا تباعد النخل كان أجود له وأصلح لثمره، ومما كانت العرب تقوله عن الأشياء: قالت نخلة لأخرى:

أبْعـــدِى ظلّـــى مـــن ظلّكِ | أحمـــلْ حملـى وحمـــلَكْ(٢)

ووصف الشعراء راعى الإبل، وقد أخذوا على أبى النجم قوله:

صُلْبُ العصا جافٍ عن التغزُّلِ

قال الأصمعي: لايوصف راعى الإبل بصلابة العصا، والجيد قول الراعي:

ضعيفُ العصا بادى العروق ترى له | عليها إذا ما أمحل الناسُ إصبعـا(٣)

وأُخذ على أبى ذؤيب قوله فى وصف الدُّرّة:

فجـاء بهـا مـا شئتَ من لطميـّةٍ | يـــدوم الفـراتُ فوقهـا ويموجُ(٤)

وقالوا: الدُّرّة لاتكون فى الماء الفرات، إنما تكون فى الماء المِلْح؛ لذلك هناك رواية أخرى للبيت هى «تدوم البحار»، تؤدى إلى نفى الغلط فى الوصف(٥). ووصف أبو نواس الدار فقال:

كأنهـــا إذ خَرِسَـــتْ جـــارمٌ | بيـــن ذوى تفنيـــده مُطْـــرِقُ

---

(١) الذوائب: الضفائر، وينتصين: يتجاذبن، والمحل: الجدب.
(٢) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٩٨.
(٣) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٩.
(٤) اللطمية: نسبة إلى اللطيمة، وهى سوق فيها أوعية العطر.
(٥) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٥٨ و ٦٥٩؛ وانظر الوساطة: ١٣.

شبّه ما لاينطق أبداً فى السكوت بما قد ينطق فى حال، وإنما كان يجب أن يشبه الجارم[١] إذا عذلوه فسكت وأطرق وانقطعت حجته بالدار، وإنما هذا مثل قائل قال: مات القوم حتى كأنهم نيام، والصواب أن يقول: نام القوم حتى كأنهم موتى[٢].

ومما يتصل بالحديث عن عيوب المعانى أن كتب النقد والبلاغة عرفت مجموعة من المصطلحات والعبارات التى استخدمها العلماء للدلالة على تلك العيوب، ومن بينها مخالفة العرف والإخلال والحشو والتثليم ونسبة الشئ إلى ما ليس منه والزيادة فى اللفظ مما يؤدى إلى فساد المعنى، ونحاول التعريف بتلك المصطلحات والعبارات خلال بعض الأمثلة من الشعر.

يقع الشعراء فيما أسماه العلماء مخالفة العرف، والإتيان بما ليس فى العادة والطبع؛ وذلك مثل قول المرّار:

وخالٍ على خَدَّيْكَ يبدو كأنّه ... سنا البَدْرِ فى دَعْجَاءَ بادٍ دُجُونُها[٣]

فالمتعارف المعلوم أن الخيلان سود، أو ما قاربها فى ذلك اللون، والخدود الحسان إنما هى البيض، وبذلك تنعت؛ فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى. ومن هذا الجنس قول الحكم الخُضْرى:

كانَتْ بنو غالبٍ لأُمّتها ... كالغيثِ فى كل ساعةٍ يكِفُ[٤]

فليس فى المعهود أن يكون الغيث واكفاً فى كل ساعة[٥].

ونترك الحديث عن مخالفة العرف والإتيان بما ليس فى العادة والطبع إلى عيب آخر من عيوب المعانى وهو «الإخلال»، والمقصود به أن يترك الشاعر من

---

(١) الجارم: المجرم.

(٢) الشعر والشعراء: ٢/ ٨٠٢؛ وانظر العمدة: ٢/ ٢٢٦.

(٣) دعجاء: سوداء، وهى أولى ليالى المحاق وهى ليلة ثمان وعشرين، ودجونها الدجون جمع الدجن: الغيم المظلم المطبق.

(٤) يكف: وكف الغيث سال وقطر قليلاً قليلاً.

(٥) نقد الشعر: ٢١٥.

اللفظ ما به يتم المعنى؛ وذلك كما فى قول عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود:

أعَاذِلَ عاجِلُ ما أشتهى أحبُّ من الأكثرِ الرَّائثْ[١]

فإنما أراد أن يقول: عاجل ما أشتهى مع القلة أحب إلىَّ من الأكثر المبطئ؛ فترك «مع القلة» وبه يتم المعنى. ومثل ذلك قول عروة بن الورد:

عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسَهم ومقتلُهم عند الوغى كان أعْذَرَا

فإنما أراد أن يقول: عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسهم فى السلم، ومقتلهم عند الوغى أعذر؛ فترك «فى السلم»[٢]. ومن هذا الجنس قول الحارث بن حلزة:

والعيشُ خيرٌ فى ظلا لِ النُّوكِ ممن عاش كَدّاً[٣].

فأراد أن يقول: والعيش خير فى ظلال النوك من العيش بكدّ فى ظلال العقل؛ فترك شيئاً كثيراً، وعلى أنه لو قال ذلك لكان فى هذا الشعر خلل آخر؛ لأن الذى يظهر أنه أراده، هو أن يقول: إن العيش الناعم فى ظلال النوك خير من العيش الشاق فى ظلال العقل؛ فأخل بشئ كثير[٤].

ومن الإخلال إسقاط عنصر نحوى له وظيفة دلالية محددة، مما يؤدى إلى قلب المعنى؛ فإن «لا» من بين وظائفها النفى، ولكن أبا الصلت بن أبى ربيعة الثقفى قال:

لا يَرْمضُون إذا حَرَّتْ مغافرُهم ولاترى منهم فى الطعنِ ميّالا
ويفشلون إذا نادى ربيئُهم ألا اركبُنَّ فقد آنستُ أبطالا[٥]

---

(١) الرائث: المبطئ.

(٢) نقد الشعر: ٢١٦؛ والموشح: ٣٦٣؛ وكتاب الصناعتين: ١٨٨.

(٣) النوك: مفردها الأنوك: الأحمق.

(٤) نقد الشعر: ٢١٧؛ والموشح: ٣٦٤.

(٥) رمض الرجل: إذا اشتد عليه الحر، والمغافر: مفردها المِغْفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة، والربيء: الطليعة.

فأراد أن يقول «ولايفشلون» فحذف «لا»، فعاد المعنى إلى الضد[١].

وهناك عيب عكس السابق، وهو أن يزيد الشاعر فى اللفظ ما يفسد به المعنى؛ وذلك نحو:

فمـا نطفةٌ من مـاء نَحْضٍ عُذَيبَـةٌ تُمنّـعُ مـن أيـدى الرُّقاة رومُها
بأطيبَ مـن فيهـا لو انّـكَ ذُقتـه إذا ليلةٌ أسجتْ وعارتْ نجومُهـا [٢]

فإن «لو انك ذقته» زيادة توهم أنه لو لم يذقه لم يكن طيباً.

ويلجأ الشعراء إلى «الحشو» وهو أن يحشى البيت بلفظ لايحتاج إليه، لإقامة الوزن. مثال ذلك ما قال أبو عدى القرشى:

نحـن الرؤوسُ وما الرؤوسُ إذا سمتْ فى المجـدِ للأقـوامِ كالأذنـاب

فقوله «للأقوام» حشو لامنفعة فيه. وقال مَصْقَلَة بن هبيرة:

ألكنْـى إلـى أهـلِ العـراقِ رسالـةً وخُصَّ بها، حُيِّيت، بكرَ بنَ وائلِ[٣]

فقوله «حييت» حشو لا منفعة فيه[٤].

وهناك عيب خاص بالأسماء ويطلق عليها «التثليم» وهو أن يأتى الشاعر بأسماء يقصر عنها العروض، فيضطر إلى ثلمها والنقص منها، مثال ذلك قول أمية ابن أبى الصلت:

لا أرى مـن يُعيننـى فـى حياتـى غيـرَ نفسـى إلاّ بنـى إسْـرالِ

ويقصد «إسرائيل». وقال فى هذه القصيدة:

أيُّمـا شاطـنٍ عَصَـاه عكـاه ثم يُلْقَى فى السجن والأكبـالِ[٣]

---

(١) نقد الشعر: ٢١٧.

(٢) النطفة: الماء الصافى، وأسجت: سكنت.

(٣) ألكنى: أرسلنى؛ أى كن رسولى إليه.

(٤) نقد الشعر: ٢١٨، ٢١٩؛ والموشح: ٣٦٥.

(٥) يصف سليمان بن داود، وعكاه فى الحديد: قيده وشده.

ويقصد «أيما شيطان». وقال علقمة بن عبدة:

كـأنّ إبريقهـم ظبـيٌ على شَرَف   مُقَـدَّمٌ بِسَـبَا الكتّـان مَثْلـومُ

ويقصد «بسبائب الكتان»[١]. وقال لبيد بن ربيعة:

دَرَسَ المَنَـا بمُتَالـعٍ فأبـانِ   بالحبـسِ بيـن البيد والسّوبانِ[٢]

ويقصد «درس المنازل»[٣].

وإذا كان الشعراء يلجأون إلى التثليم والنقص من الأسماء؛ فإن هناك عيباً عكس ذلك، وهو «التذنيب»، وذلك أن يأتي الشاعر بألفاظ تقصر عن العروض فيضطر إلى الزيادة فيها. مثال ذلك ما قال الكميت:

لا كعبـد المليـك أو كيزيـد   أو سليمـانَ بَعْـدُ أو كهشـامِ

فالملك والمليك اسمان لله عز وجل، وليس إذا سُمّي إنسان بالتعبد لأحدهما وجب أن يكون مسمى بالآخر؛ كما أنه ليس من سمى «عبد الرحمن» هو من سمى «عبد الله».

ويلجأ الشعراء إلى تغيير الاسم عن حاله وصورته إلى صور أخرى، إذا اضطرته العروض إلى ذلك، كما قال النابغة الذبياني يذكر سليمان عليه السلام:

وكـلُّ صمـوتٍ نثّلـةٍ تُبّعيّـةٍ   ونسـجُ سُلَيـمٍ كلَّ قَضّاء ذائلِ[٤]

وقال الحطيئة:

فيـه الرمـاحُ وفيـه كلُّ سابغـةٍ   جدلاء محكمةٍ من نَسْجِ سَلاَّمِ[٥]

وقال الأسود بن يعفر:

---

(١) السبائب: جمع سبيبة وهي الشُّقة الرقيقة من الكتان.

(٢) متالع والحبس: موضعان، وأبان: جبل، والسوبان: واد.

(٣) نقد الشعر: ٢١٩ و ٢٢٠؛ والوساطة: ٤٥٠ و ٤٥١.

(٤) الصموت من الدروع: اللينة الملمس، ونثلة: واسعة، وتبعية: نسبة إلى تبع ملك اليمن، وقضاء: محكمة، وذائل: طويلة الذيل.

(٥) السابغة: الدرع الوسيعة، وجدلاء: محكمة النسج.

ودعـا بمحكمـة أميـن سكهـا   مـن نسـج داود أبـى سـلاّم

أرادوا «داود» فغلوا إلى «سليمان»، ثم حرفوا اسمه فقالوا «سلام» و «سليم»[(١)].

-١٠-

السرقات الشعرية

من الموضوعات التى لها أهميتها فى تاريخ الحركة النقدية عند القدماء والمحدثين «السرقات الشعرية». وللجانب اللغوى موقف واضح فى مجال الدلالة؛ إذ إن هناك بعض المعانى المتداولة التى إن وردت عند عدة شعراء فلايمكن الحكم عليها بالسرقة.

ويعد «باب التشبيه» واحداً من أبواب البلاغة التى تتصل اتصالاً مباشراً بالدلالة، وقد نال اهتمام النقاد من حيث ربطه بالسرقة، ومن أولئك القاضى الجرجانى، الذى بدأ دراسته بالوقوف أمام المعانى المشتركة والمتداولة قائلاً: «فمتى نظرتَ فرأيت أن تشبيه الحَسَن بالشمس والبدر، والجواد بالغيث والبحر، والبليد البطئ بالحجر والحمار، والشجاع الماضى بالسيف والنار، والصب المستهام بالمخبول فى حيرته، والسليم فى سهره، والسقيم فى أنينه وتألمه، أمورٌ متقررة فى النفوس، متصورة للعقول، يشترك فيها الناطق والأبكم، والفصيح والأعجم، والشاعر والمفحم، حكمْتَ بأن السرقة عنها منتفية، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع، وفصلْتَ بين ما يشبه هذا وبيانيه، وما يلحق به وما يتميز عنه، ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع؛ فوجدت منه مستفيضاً متداولاً لايعد فى عصرنا مسروقاً، ولايُحْسَب مأخوذاً، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به، وأوله للذى سبَق إليه؛ كتشبيه الطلل المُحيل بالخط الدارس وبالبُرْد النَّهج[(٢)] والوشم فى المِعْصم، والظُّعن المتحملة بالنخل، وعلائقها بأعذاق البُسْر، والفحل بالفَدَن[(٣)] المشيد، والظليم المهيج بأحقب[(٤)] يسوق أُتنه، وكوصف الحمول ومَوَران[(٥)] الآل بها، وذم الغراب،

(١) نقد الشعر: ٢٢٠ و ٢٢١؛ والموشح: ٣٦٧ ؛ والوساطة: ١٤.
(٢) نهج البرد: بَلِىَ وأَخْلق.
(٣) الفدن: القصر.
(٤) الأحقب: الحمار الوحشى فى بطنه بياض.
(٥) المو.ان: الاضطراب.

والصُّرد(١)، والسانح(٢)، والبارح(٣)، وسؤال المنزل عن أهله، والتفجع لمن استبدل بعد ساكنه، ولوم النفس على بكاء الدار، واستعطاف العقل واستبطاء الصبر، وتحسينه تارة وتقبيحه أخرى، وتشبيه الفرس باللِّقْوة(٤)، والظبى بشهاب قُذُف، والعقاب بالدلو التى خانها الرشاء، وكوصف الغيث بالعموم والتطبيق(٥)، واقتلاع الدوح، وتفريق الوحش، وتشبيه دفعه بَعطِّ(٦) المزاد، وحَلّ العَزَالى(٧) ووصف البرق بخطف الأبصار، وسرعة اللمح، وأنه كالقَبَس من النار، وكالحريق المتضرم، وكمصباح الراهب»(٨).

لذلك يرى الجرجانى أن التشبيهات صنفان؛ صنف مشترك عام الشركة، لاينفرد أحد منهم بسهم لايساهم عليه، ولايختص بقسم لاينازع فيه، وصنف سبق المتقدم إليه ففاز به، ثم تدوول بعده فكثر واستعمل.

ولكن هذا الصنف الأول يستطيع الشاعر إذا كان متمكناً من صنعة الشعر أن يأتى بلفظة تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى لها دون غيره؛ فيريك المشترك المبتذل فى صورة المبتدع المخترع؛ وذلك كقول لبيد:

وجلا السُّيولُ عن الطلول كأنَّها   زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها(٩)

(١) الصرد: طائر ضخم الرأس والمنقار، أكبر من العصفور، والعرب يتشاءمون به.

(٢) السانح: الطائر أو الظبى مرّ من مياسرك إلى ميامنك فولاك ميامنه، والعرب يتيمنون به.

(٣) البارح: الطائر أو الظبى مرّ من يمين الرائى إلى يساره، والعرب تتشاءم به.

(٤) اللقوة: العُقاب الخفيفة السريعة الاختطاف.

(٥) طبق السحاب الجو، والغيمُ السماء، والماءُ وجه الأرض: غطّاه وعمّه.

(٦) العطُّ: الشقُّ.

(٧) العزالى: مفردها العزلاء، مصبّ الماء من القربة ونحوها، وصيغة الجمع بفتح اللام وكسرها.

(٨) الوساطة: ١٨٣ - ١٨٥.

(٩) قال أبو بكر الأنبارى شارحاً: «معناه: جلت السيولُ التراب عن الطلول؛ أى كشفت ... والطلول والأطلال: ما شَخَص من آثار الديار، وزبر: جمع زبور، وهو الكتاب ... وتجِد متونها أقلامها: معناه يعاد عليها الكتاب بعد أن درست، ومتونها: ظهورها وأوساطها». شرح القصائد السبع: ٥٢٦ و ٥٢٧

فالدلالة التى أراد لبيد أن يعبر عنها وصف كشف السيول للتراب عن الأطلال؛ فلجأ إلى التشبيه فى «كأنها زبر». ومثل هذا التشبيه موجود فى شعر امرىء القيس وحاتم الطائى وأبى ذؤيب الهذلى وسواهم، وقد ذكر القاضى الجرجانى أبياتاً فيها التشبيه بالزبر، ثم علّق عليها بقوله: «وأمثال ذلك مما لايحصى كثرة، ولايخفى شهرة، وبين بيت لبيد وبينها ماتراه من الفضل، وله عليها من الزيادة والشّفّ»(١).

ويمثل القاضى الجرجانى للتجديد فى التشبيه خلال بيت لعلى بن الجهم، وقد قدّم له بقوله: «ولم تزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود، والخدود بالورد، نثراً ونظماً، وتقول فيه الشعراء فتكثر، وهو من الباب الذى لايمكن ادعاء السرقة فيه إلا بتناول زيادة تُضمُّ إليه، أو معنى يُشْفَع به، كقول على بن الجهم:

عشيّــةَ حيّانــى بوردٍ كأنــه ... خدودٌ أُضيفت بعضُهن إلى بعض

فأضاف بعضهن إلى بعض له، وإن أُخذ فمنه يؤخذ، وإليه ينسب»(٢).

وهناك بعض الجوانب الخاصة بقضية السرقات التى بالغ النقاد فيها؛ وذلك كأن يتحدثون عن أَخْذ شاعر لمعنى من المعانى ورد فى بيت واحد، ثم يأتى بعده شاعر آخر، ويوزع المعنى فى أربعة أبيات؛ فقد قال ابن مناذر(٣):

تراضينــا بحكــم اللّــه فينــا ... لنــا أدبٌ وللثقفــى مــالُ

وأخذ العطوى هذا المعنى، ووزعه فى الأبيات الآتية:

رضينــا بحكــم اللـه بين عباده ... رِضَــا علمـاءٍ لاتسخُّط جهــالِ
لئــن خَـصّ قومـاً بالنباهـة والغنى ... وألبسنــا ثوبَـى خمـولٍ وإقـلال
لقـد جـاء بالعلم النفيس الذى به ... رَشدْنـا فلـم نلبس ملابس ضُلاَّل
فلو سُمْتنـا لـم نُعْطِ علمـاً بثروة ... ولـم نَـرَ للتمييـز كُفواً من المـال

ويبدو أن الذى دفع النقاد على الحكم على تلك الأبيات الأربعة بالسرقة من

---

(١) الوساطة: ١٨٧.

(٢) السابق: ١٨٧.

(٣) السابق: ١٩٠.

البيت التشابه بين بعض التراكيب النحوية مثل «تراضينا بحكم الله» و «رضينا بحكم الله»؛ بالإضافة إلى أن الدلالة العامة واحدة، ونعنى بذلك أن الشاعرين كليهما يفخر بوجود الأدب والعلم دون الغنى والمال.

وهناك بعض المعانى المتداولة على ألسنة العامة، ولكن الصياغة اللغوية يمكنها أن تخلع عليها لوناً من ألوان التعبير الأدبى غير المبتذل؛ فقد قال المتنبى:

فاستعــار الحديـدُ لونــاً وألقــى   لونــَه فى ذوائــب الأطفــالِ[١]

قال الجرجانى عن هذا البيت إنه «وإن كان مأخوذاً من قول العامة: هذا أمر يشيب الطفل، وكانت الشعراء قد تداولته وابتذلته حتى أخلق ورثّ، وقد زاد فيه الزيادةالمليحة»[٢].

* * *

-١١-

التضميــــن

ويتصل بالنقد اللغوى حين النظر فى الدلالة ما أطلق عليه القدماء مصطلح «التضمين»، وقد وضعوا له عدة تعريفات من بينها تمام وزن البيت قبل تمام المعنى، أو تضمين البيت الثانى معنى الأول؛ لأن الأول لايتم إلا بالثانى، أو يسمّى افتقار أول البيتين إلى الآخر تضميناً؛ لأن تتمة معناه فى ضمن الآخر، ويوضح تلك التعريفات هذا البيتان للنابغة الذبيانى:

وهـــم وردوا الجفـــارَ على تميمٍ   وهــم أصحابُ يــوم عكاظ أنى
شهــــدتُ لهــم مــواردَ صادقــاتٍ   شهــدْنَ لهــم بصدق الودِّ منى[٣]

(١) قال العكبرى شارحاً: «الذوائب: جمع ذؤابة، وهى شعر الرأس، والأطفال: جمع طفل، وهو الصغير، ويكون واحداً وجمعاً ...، المعنى: يقول إن السيوف والرماح توصف بالبياض، فلما باشرت القتل اكتست الدم، ولم يكن عليها فصارت سوداء، فكأنها استعارت لوناً غير ألوانها، وألقت ألوانها، وهى البياض، فى ذوائب الأطفال؛ لأنهم يشيبون من شدة ما ينالهم من الفزع». شرح ديوان المتنبى: ٣ / ٢٠٠.

(٢) الوساطة: ١٩٠.

(٣) التنوخى: القوافى ١٣٥.

والبيت الثانى هو الذى تمم معنى الأول ووضحه. وقد بالغ فى استعمال التضمين داخل النص الشعرى بعض الشعراء كما فى الأبيات الآتية:

يأذا الذى فى الحبِّ يَلْحَى أمَا … واللـه لو حُمِّلتَ منه كما
حملتُ من حبِّ رخيمٍ لما … لُمتَ على الحبِّ فذرنى وما
أطلبُ إنى لستُ أدرى بما … قتلت إلا أننى بنيما
أنا بباب القصر فى بعض ما … أطلب من قصرهم إذ رمى
شبه غزال بسهام فما … أخطأ سهماه ولكنما
عيناه سهمان له كلما … أراد قتلى بهما سلما[١]

والذى دفع القدماء إلى عيب التضمين رغبتهم فى أن يكون البيت عبارة عن وحدة دلالية مستقلة، حين نسمعه يمكن التوصل إلى المعنى مباشرة، دونما انتظارٍ للبيت الذى يليه؛ لذلك يقول المرزبانى: «المضمّن عيب شديد من الشعر، وخير الشعر ما قام بنفسه، وخير الأبيات عندهم ما كفى بعضه دون بعض، مثل قول النابغة:

ولست بمستبقٍ أخاً لاتلمه … على شعثٍ، أىُّ الرجال المهذب؟[٢]

ويقول ابن كيسان أيضاً: «أما التضمين فإنه ليس بالعيب القبيح، ولكن أجزل الكلام ما كان قائماً بنفسه، إذا أُنشد كل بيت من القصيدة مفرداً استوعب المعنى الذى وُضع له»[٣]. والذى دفعهم إلى عيب التضمين أيضاً كون القافية محل الوقف والاستراحة، فإذا كانت مفتقرة إلى مابعدها لم يصح الوقف عليها، وأُدرجت فى الكلام، فتفقد كثيراً من رنينها الذى يحب العربُ المحافظةَ عليه وإبرازه[٤].

وهناك نوع من التضمين يكون البيت الأول منه قائماً بنفسه يدل على جمل غير مفسَّرَة، ويكون فى البيت الثانى تفسير تلك الجمل، فيكون الثانى يقتضى الأول كاقتضاء الأول له كقول امرىء القيس:

(١) الخطيب التبريزى: الكافى ١٦٦.

(٢) الموشح: ٢٦١.

(٣) تلقيب القوافى: ٥٧.

(٤) الدكتور حسين نصار: القافية فى العروض والأدب ١١٢.

وتعرفُ فيه مــن أبيــه شمائـلاً ... ومن خاله ومن يزيد ومن حُجُـرْ
سماحـــة ذا، وبـــرذا، ووفـاء ذا ... ونائـل ذا، إذا صحـا وإذا سكـرْ

فالمعنى تم فى البيت الأول، ولكن امرأ القيس فصله وفسره فى البيت الثانى؛ فالسماحة لأبيه، والبرّ لخاله، والوفاء ليزيد، والنائل لحجر.

وهناك نوع من التضمين تفتقر فيه بعض أجزاء الكلمة إلى بعض، وربما صُنِعَ شعر قوافيه على هذا الوضع ليُعمّى موضع القافية، وهو قبيح جداً، وقد أطلق عليه أبو العلاء المعرى اسم «الإغرام»[١]، وقال عنه: «وكان بعض المتأخرين يزعم أن الإغرام أن يتم وزن البيت ولاتتم الكلمة، وهذا لايعرف فى شعر العرب، وإنما يتعمده المحدثون كقول القائل:

أبا بكرٍ لقد جاءتْك من يحيى بن منصو
رِ الكـأسُ، فخذها منـه صِرْفًا غيـر ممزو
جـةٍ، جنّبـك اللـه أبـا بكـر من السُّو

فقد لجأ الشاعر إلى التجزئة لكلمتى «منصور» و «ممزوجة»[٢].

ومن المعروف أن الضمير يغنى عن تكرار الاسم وإعادته، ولكن بعض الشعراء يميل إلى تكرار الاسم دون استعمال الضمير العائد عليه حتى يظهر الكلام مستقلاً غير مفتقر إلى ماقبله، وذلك كقول الخنساء:

وإنّ صخــراً لوالينــا وسيدُنــا ... وإنّ صخــراً إذا نشتــو لنّحــارُ
وإن صخــراً لتأتــمُّ الهُـداةُ به ... كأنــه علـــمٌ فى رأســه نــارُ

وقد علق حازم القرطاجنى على البيتين بقوله: «ولو قالت: وإنه لتأتم الهداة به

---

(١) يقول التنوخى: «ومعنى التضمين والإغرام عائد إلى شئ واحد فى اللغة، كما تقول: ضمنتك كذا وأغرمتك إياه، ويكون معناهما ألزمتك إياه. فكأن الشاعر قد ألزم البيت الثانى إتمام الحال. ومن ذلك سُمّى الغريم غريماً لملازمته. قال تعالى: (إنّ عذابَها كان غراما) [الفرقان / ٦٥]». القوافى ١٣٥.

(٢) انظر المنهاج ٢٧٧ ؛ والفصول والغايات ٤٤٦.

فأضمرت لكان البيت ناقصاً مفتقراً، فإنما أظهرت لفظ صخر ثانياً وثالثاً تباعداً بالكلام عن الافتقار، وقصداً لتعديل أقطاره وحسن تفصيله وتقديره»[(١)].

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن قدامة بن جعفر قد أطلق على التضمين اسم «المبتور» وهو عنده من عيوب ائتلاف المعنى والوزن، وقال عنه: «وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه في بيت واحد، فيقطعه بالقافية، ويتمه في البيت الثاني، مثال ذلك قول عُروة بن الورد:

فلو كاليوم كان عليَّ أمري ... ومَنْ لك بالتدبر في الأمور

فهذا البيت ليس قائماً بنفسه في المعنى، ولكنه أتى بالبيت الثاني بتمامه، فقال:

إذاً لملكتُ عِصْمَةَ أمِّ وَهْبٍ ... على ما كان من حَسَكِ الصدور[(٢)]

وقال امرؤ القيس:

أبَعْدَ الحارثِ الملكِ ابنِ عمرٍو ... وبعد الخير حُجْرٍ ذي القِبابِ

فالمعنى ناقص عن تمامه، فأتمه في البيت الثاني، وقال:

أُرَجِّي من صُروفِ الدهرِ ليناً ... ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الصِّلابِ[(٣)]

وقد أشار ابن رشيق إلى أنه كلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثاني بعيدة من القافية كان أسهل عيباً من التضمين، وذلك كقول إبراهيم بن هَرْمَةَ:

إمَّا تَرَيْني شاحباً متبذلاً ... كالسيف يخلق جفنه فيضيعُ

فلَرُبَّ لذةِ ليلةٍ قد نلتُها ... وحرامُها بحلالها مدفوعُ

فالبيت الثاني جواب لـ «إما» التي في صدر البيت الأول والدليل على ذلك وجود الفاء في صدره[(٤)].

* * *

(١) المنهاج: ٢٧٨.
(٢) الحسك: الحقد والعداوة.
(٣) القباب: الأبنية، والصروف: الأمور المتقلبة بالناس، والصم: الحجارة الصلبة المصمتة. انظر نقد الشعر: ٢٢٢ و ٢٢٣.
(٤) العمدة: ١/ ١١٣.

سنن العرب والدلالة

لابد من الإلمام بالعادات والتقاليد العربية حين دراسة الشعر؛ لأن هذا الإلمام يساعد في الوصول إلى المعنى الذى أراده الشاعر، ونقدم بعض الأبيات التى يمكن تفسيرها في ضوء سنن العرب وعاداتها وتقاليدها، وهى على النحو الآتى:

١ – من عادات العرب أنها تمسك عن بكاء قتلاها حتى تطلب بثأرها، فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاها، وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

مَنْ كان مسروراً بمقتلِ مالكٍ ... فليأتِ نسوتَنا بوجهِ نهارِ
يجدِ النساءَ حواسراً يندبْنَه ... يلطمْنَ أو جههنَّ بالأسحارِ
قد كُنَّ يكنُنَّ الوجوهَ تستراً ... فالآنَ حين بَرَزْنَ للنُّظَّارِ

يقول: من كان مسروراً بمقتل مالك فليستدلَّ ببكاء نسائنا وندبهن إياه على أنا قد أخذنا بثأرنا، وقتلنا قاتله[1].

٢ – تقوم العرب، إذا أصاب العُرُّ والجربُ، بكيِّ السليم منها ليذهب العُرُّ عن السقيم، وفى ذلك يقول النابغة متمثلاً:

لكلفتنى ذنْبَ امرىء وتركْتَه ... كذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع[2]

٣– إذا أحبَّ الرجل من العرب امرأةً وأحبته فلم يشقَّ برقعها وتشق هى رداءه، تحكم العرب على هذا الحب بالفساد، وإذا فعلا ذلك دام أمرهما، وقد عبرَّ عن هذا المعنى سحيم عبد بنى الحسحاس بقوله:

فكم قد شققْنَا من رداءٍ محبرٍ ... ومن بُرْقعٍ عن طَفْلةٍ غيرِ عانسِ
إذا شُق بردٌ شُقَّ بالبردِ مثلُه ... دواليك، حتى كلنا غير لابس[3]

٤– تعلق العرب الحلْيَ والجلاجل على السليم ليفيق، وفى ذلك يقول النابغة:

---

(١) عيار الشعر: ٥١ و ٥٢؛ وشرح الحماسة: ٢/ ٩٩٥؛ ونهاية الأرب: ٣/ ١٢٢.

(٢) الجاحظ: الحيوان / ٧.

(٣) محاضرات الراغب: ١/ ١٥٥.

يُسهِّدُ من ليل التَّمام سليمُها   لحلّي النساءِ في يديه قعاقعُ

ويقول رجل من عُذْرة:

كأني سليمٌ ناله كَلْمُ حيَّةٍ   تُرَى حوله حَلْيُ النساء مُوضَّعا[(١)]

٥- من عادات العرب فقأ عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً، فإن زادت على ألف فقأوا العين الأخرى، يقول: إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين. وفي ذلك يقول قائلهم يشكر ربّه على ما وهب له:

وهبتها وأنت ذو امتنان

تُفْقأ فيها أعين البُعْران

وقال بعض العرب ممن أدرك الإسلام يذكر أفعالهم:

وكان شكرُ القومِ عند المنن

كيُّ الصحيحات وفقأ الأعين[(٢)]

٦- تسقي العربُ العاشقَ الماءَ على خرزة تسمى السُّلوان فيسلو؛ ففي ذلك يقول القائل:

يا ليت أنّ لقلبي من يعلله   أو ساقياً فسقاني عنك سُلْوانا

وقال آخر:

شربتُ على سُلْوانةٍ ماءَ مزنةٍ   فلا وجديدِ العيش يامَيُّ ما أسلو[(٣)]

٧- توقد العرب خلف المسافر الذي لايحبون رجوعه ناراً، ويقولون: أبعده الله وأسحقه، وأوقد ناراً إثره، ويسميها الجاحظ «نار المسافر»[(٤)]، وفي ذلك يقول الشاعر:

وذمةِ أقوامٍ حملْتَ ولم تكن   لتوقد ناراً إثرهم للتندم

---

(١) عيار الشعر: ٥٣.

(٢) نهاية الأرب: ٣/ ١٢١؛ خزانة الأدب: ٢/ ٤٦٢.

(٣) تهذيب اللغة: ١٣/ ٦٨؛ ومحاضرات الراغب: ١/ ١٥٥.

(٤) الحيوان: ٤/ ٤٧٤.

ويقول بشار:

صحوتَ وأوقدتَ للجهلِ نارا ... وردّ عليك الصِّبا ما استعارا[١]

٨- تضرب العربُ الثورَ إذا امتنعت البقرُ من الماء، يقولون: إن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشرب. قال الأعشى:

فإني وما كلفتموني وربِّكم ... ليعلم من أمسى أعقّ وأحوبا
لكالثور والجنّيُّ يركب ظهره ... وما ذنبه أن عافت الماءَ مشربا
وما ذنبُه أنْ عافتِ الماءَ باقرٌ ... وما إن تعافُ الماءَ إلا لِيُضْربا

وقال نهشل بن حرّى:

أُتترك عامرٌ وبنو عديٌّ ... وتغرم دارمٌ وهم براء
كذاك الثور يُضْرب بالهَرَاوَى ... إذا ما عافتِ البقرُ الظماءُ[٢]

٩- تزعم العرب أن المقلات[٣] إذا وطئتْ قتيلاً شريفاً بقى ولدها، وفى ذلك يقول بشر بن أبى خازم:

تظل مقاليتُ النساء يطأْنَه ... يقلن: ألا يُلْقى على المرء ميزر

وقال الكميت بن زيد:

وتظل المرزّآتُ المقاليتُ يطأْنَ القعودَ بعد القيام

وإنما تفعل النساء ذلك بالشريف، إذا كان مقتولاً غدراً أو قوة[٤].

١٠- تزعم العرب أن الرجل إذا خَدَرتْ رجله فذكر أحبَّ الناس إليه، ذهب عن الخدر. قال كثير:

---

(١) المعانى الكبير: ١/ ٤٣٣؛ وانظر ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ص ٥٧١ وما بعدها؛ حيث خصص الباب التاسع والأربعين للحديث عن «النيران».

(٢) عيار الشعر: ٥٥ و ٥٦.

(٣) المقلات: التى لايبقى لها ولد.

(٤) عيار الشعر: ٥٦.

إذا خدرت رجلي ذكرتُك أشتفي بدعواكِ من مَذْلٍ بها فيهونُ

وقالت امرأة من بني أبي بكر بن كلاب:

إذا خدرتْ رجلي ذكرتُ ابن مُصْعَب فإنْ قلتُ: عبد الله أجلى فتورها

وقال آخر:

صبٌّ محبٌّ إذا ما رجلُه خدرتْ نادى كُبيسةَ حتى يذهب الخَدَرُ[١]

١١- من عادات العرب أن الصبي منهم يحذف سنَّه، إذا سقطت، في عين الشمس، ويقول: أبدليني بها أحسن منها، وليَجْرِ في ظَلْمِها إياتُك[٢]. وزعم العرب أن الصبي إذا فعل ذلك لم تنبت أسنانه عُوجا ولا ثُعْلاً، وقال طرفة بن العبد في ذلك:

بدلتْه الشمسُ من منبِته بَرَداً أبيضَ مصقول الأشُرْ

وقال أيضاً:

سقته إياةُ الشمس إلا لثاتِه أُسِفَّ، ولم تكدم عليه بإثمدِ[٣]

* * *

(١) نهاية الأرب: ٣/ ١٢٥.

(٢) إياة الشمس: ضياؤها وشعاعها.

(٣) عيار الشعر: ٥٨؛ ومحاضرات الراغب: ١/ ١٥٤

التعليل اللغوى لأسماء الشعراء وألقابهم

هناك بعض الأسماء والألقاب التى أطلقت على الشعراء، وقد ذكرها أصحاب كتب «الطبقات والتراجم» حين تعرضوا لحياتهم، ونحاول التعرف على بعض تلك الأسماء والألقاب، مع بيان السبب فى إطلاقها على هؤلاء الشعراء، ثم نوضح صلتها بالناحية اللغوية بعد ذلك، وهى على نحو الآتى:

١- جرير بن عبد المسيح من بنى ضُبَيْعة، وسُمّى المتلّمس بقوله:

وذاك أوانُ العِرْضِ جُنَّ ذبابُه   زنابيرُه والأزرقُ المتلمِّس

٢- ربيعة بن سعد بن مالك، أو عمرو بن سعد بن مالك، وسمى المُرَقّش بقوله:

الدار قَفْرٌ والرسومُ كما   رقَّشَ فى ظَهْرِ الأديم قَلَمْ

٣- علقمة بن عبدة، وهو الذى يقال له علقمة الفحل، وسُمّى بذلك لأنه احتكم مع امرىء القيس إلى امرأته أمّ جُنْدب لتحكم بينهما، فقالت: قولا قولاً تصفان فيه الخيل على روى واحد وقافية واحدة. وقد فضلت علقمة على امرىء القيس، فطلقها فَخَلَف عليها علقمةُ فسمى بذلك «الفحل».

ويقال: بل كان فى قومه رجل يقال له «علقمة الخَصِىّ» ففرقوا بينهما بهذا الاسم.

٤- يُسمّى الأعشى ميمون بن قيس «صنّاجة العرب»، لأنه أول من ذكر الصنْج فى شعره فقال:

ومستجيبٍ لصوت الصنْج تسمعُه   إذا تُرجِّع فيه القَيْنَةُ الفُضُل

ويقال أيضاً إن الأعشى سمى كذلك لجودة شعره.

٥- زيد الخيل بن مُهلهل من طيئ، جاهلى، وأدرك الإسلام، ووفد على النبى ﷺ فى وفد طيئ وأسلم، وسماه «زيد الخير».

٦- عدى بن زيد، وهناك عدة روايات تتصل بإطلاق «مهلهل» عليه واشتقاقه، من بينها ما يأتى:

- سُمّى مهلهلاً؛ لأنه هلهل الشعر؛ أى أرقّه.
- إنما سُمّى مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه.
- اشتقاق مهلهل من قولهم: ثوب هلهال؛ إذا كان رقيقاً، وذكر الأصمعى أنه إنما سمّى مهلهلاً؛ لأنه كان يهلهل الشعر؛ أى يرققه ولايحكمه.
- سمى بذلك لرداءة شعره؛ وقيل: لأنه أول من أرقّ الشعر.
- إنما لُقّب مهلهلاً لطيب شعره ورقته. وكان أحد من غنى من العرب فى شعره.

٧- عُتَيْبَة، ويقال عُتْبَة بن مِرْداس، من بنى تميم. وكان ابن فَسْوَة أسره رجل من قومه؛ فأتاه عتيبة فاشتراه منه فلُقِّب به، فقال فى نفسه:

وحوّل مولانـا علينـا اسـمَ أمّه ... ألا رب مولـى ناقـصٌ غيـر زائـد

٨- عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد، رهط الأضبط، وسمى المُسْتَوْغِر لقوله فى فرس:

ينشُّ المـاءُ فى الرَّبَـلاتِ منهـا ... نشيـشَ المـاءِ فى اللبـن الوغيـرِ

٩- محْصن بن ثعلبة أو عائذ، أو عائذ الله بن محصن بن ثعلبة، وسُمّى المُثقّب لقوله:

رددْنَ تحيـةً وكنـنَّ أخـرى ... وثقّبْـنَ الوصـاوص للعيـونِ

١٠- شَـأْس بن نهار، وسُمّى المُمزّق لقوله:

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكـلٍ ... وإلاّ فـأدركنى ولمـا أُمَـزّقِ

١١- سالم بن دارة، واسم أبيه مُسَافع، وأمه دارةُ من بنى أسد، وسُميت دارة لجمالها، شُبّهت بدارة القمرة.

١٢- صُرَيم بن معشر، وهو منَ بنى تغلب، وسُمّى أُفْنُون ببيت قاله.

١٣- المُخَبَّل: المجنون، وبه سمّى المخبّل الشاعر، واسمه ربيعة بن مالك.

١٤- زياد بن سلمى، ويقال: زياد بن جابر بن عامر، من عبد القيس، وكان ينزل إصْطخر، ويقال له الأعْجم، وهناك عدة روايات خاصة بهذا الاسم، منها ما يأتى:

- كانت فيه لُكْنة؛ فلذلك قيل له الأعجم.

- كان زياد الأعجم، وهو رجل من عبد القيس، يرتضح لكنة أعجمية، يذهب فيها إلى مذهب قوم بأعيانهم من العجم. وأنشد المهلب بن أبى صفرة فى مدحه إياه:

فتى زاده السُّلتان فى المدح رغبةً إذا غيَّر السلتانُ كلَّ خليل

يريد: السلطان؛ وذلك أن بين التاء والطاء نسباً؛ فلذلك قلبها تاءً؛ لأن التاء من مخرج الطاء، فقال: السُّلْتان.

١٥- طفيل بن كعب الغنوى. وكان من أوصف الناس للخيل، وكان يقال له فى الجاهلية المُحبِّر، لحسن شعره.

١٦- جرير بن عطية بن حذيفة، ولُقِّب حذيفة الخَطَفَى لقوله:

وعَنَقًا باقى الرسيم خَيْطَفَا

١٧- همّام بن غالب بن صعصعة، وإنما لُقِّب بالفرزدق لغلظه وقصره، شُبِّه بالفتيتة التى تشربها النساء، وهى الفرزدقة، وكنيته أبو فراس.

١٨- خداش بن بشر، من بنى مجاشع، وإنما لُقِّب بالبعيث بقوله:

تبعَّثَ منى ما تبعث بعدما أُمِرَّت قواى واستمر عزيمى

أراد أنه قال الشعر بعدما أسنّ وكبر.

١٩- غيلان بن عُقبة بن بُهَيْش، ويكنى أبا الحارث، وإنما سُمّى ذا الرمة بقوله فى الوتد:

لم يبقَ منها أبدَ الأبيدِ غيرُ ثلاثٍ ما ثلاثٍ سودِ

وغيرُ مرضوخِ القفا موتودِ أشعثَ باقى رُمَّة التقليدِ

٢٠- عُبيد الله بن قيس، أحد بني عامر بن لُؤيّ. وإنما سُمّي الرُّقيّات؛ لأنه كان يُشبّب بثلاث نسوة يقال لهن جميعاً رُقيّة.

٢١- عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان. وكان ينزل بموضع قبل الطائف يقال له «العَرْج» فنُسب إليه فقيل العَرْجي.

٢٢- أبو نُخَيْلة الراجز، واسمه يعمر، وإنما كنى أبا نخيلة؛ لأن أمّه ولدته إلى جنب نخلة.

٢٣- ثابت بن كعب، وقيل ثابت بن عبد الرحمن ابن كعب، وهو من شعراء خراسان وفرسانهم، ذهبت عينه، وكان يحشوها بقطنة فسُمّي ثابت قطنة، وقال فيه حاجب الفيل:

لايعـرف النـــاسُ منه غير قطنتـه ... ومـا سـواه مـن الأنســاب مجهول

٢٤- صخر الغي، واسمه صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي، ولُقّب بذلك لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شرّه.

٢٥- عروة بن الورد، وكان يُلقّب عُروة الصعاليك؛ لقوله:

لحى الله صعلوكـاً إذا جَـنّ ليلـه ... مُصافـي المُشـاشِ آلفاً كلّ مَجـزَرِ
يعُـد الغنـى من دهـره كلّ ليلةٍ ... أصـاب قراهـا مـن صديـق ميّسر
ينـام عشـاءً ثـم يصبـح قاعـداً ... يحت الحصى عـن جنبـه المتعفـر
ولله صعلـوك صفيحـة وجهـه ... كضـوء شهـاب القابـس المتنـور
مطـل علـى أعدائـه يزجرونـه ... بساحتهـم زجـز المنيـخ المشهـر

٢٦- عبد الله بن الأعور، وقيل له الكذّاب لكذبه.

٢٧- ذو الإصبع، وهو حُرْثان، من عَدْوَان بن عمرو بن قيس بن عيّلان، وسمى ذا الإصبع؛ لأنّ حية نهشته في إصبعه فقطعها.

٢٨- عامر بن الحارث بن كلفة، وقيل: كلدة، وإنما سُمّي جرَان العَوْد لقوله يخاطب امرأتيه:

عمــــدت لعــــود فالتحيتُ جرانه ... وللكيس أمضى فى الأمــور وأنجــح
خــــذا حــــذراً ياضَرّتـــى فإننــى ... رأيت جـران العـود قد كان يصلح

٢٩- عامر بن المجنون، من قضاعة، وسمى مُدْرِج الريح لقوله:

ولهـا بأعلـى الجـَـزْع ربـعٌ دارس ... درجـت عليه الريحُ بعدك فاستـوى

وهناك رواية أخرى تقول إنما سُمّى بهذا الاسم بشعر قاله فى امرأة كان يزعم أنه يهواها من الجنّ، وأنه يسكن إليها فى الهواء، وتتراءى له، وكان محمقاً، وشعره هذا:

لابنـــة الجنـــى فى الجـوّ طلـلُ ... دارسُ الآيـــاتِ عـــافٍ كالخلـــل
درستـه الريـــحُ مـــن بيـــن صبـا ... وجنـــوبٍ درجـــت حينـاً وطلـل

٣٠- محمد بن عمير، من كندة، وكان من أجمل الناس وجهاً، وأمدهم قامة؛ فكان إذا كشف عن وجهه لُقع؛ أى أصيب بالعين، فكان يتقنع دهره، فسُمّى المُقنّع.

٣١- مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغوانى، ويقال: إنه مدح الرشيد بقصيدة مطلعها:

أديرا علىَّ الكـأسَ لاتشربـا قبلـى ... ولاتطلبا من عنـد قاتلتى ذَحْلـى[1]

فلما دخل عليه وبلغ قوله:

هل العيشُ إلا أن تروح مع الصّبَا ... وتغدو صريعَ الكأسِ والأعين النُّجْلِ

قال له الرشيد: أنت صريع الغوانى. فسُمّى بذلك حتى صار لايُعرف إلا به.

٣٢- ابن شادة المعروف بالمخنّث، ولم يكن مخنثاً إنما كان لايهجو أحداً ولايعرض له، فسُمى بذلك مخنثاً على التلقيب، وكان آدبَ الناس.

هذه هى بعض الأسماء والألقاب التى أُطلقت على أولئك الشعراء الذين ذكرناهم من قبل. وهناك بعض الملاحظات التى يمكن التوصل إليها خلال النظر

---

(١) الذحل: الثأر.

في تلك الأسماء والألقاب من بينها أن بعضها مرتبط ببيت من الشعر وردت فيه كلمة يتم اشتقاق الاسم أو اللقب منها أو تركها كما هي مثل المتلمِّس والمرقِّش وصريع الغواني وسواها. وهناك أسماء وألقاب وُضعت للتفريق بين بعض الشعراء الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة كقولهم «علقمة الفحل» للتفريق بينه وبين «علقمة الخصي»، ومنها ما أطلق على بعض الشعراء؛ لأنه أول من ذكرها في شعره؛ فالأعشى ميمون بن قيس أول من ذكر الصَّنْج؛ لذلك قيل له «صناجة العرب». ومن الأسماء ما تم تغييره بإحلال صوت مكان آخر حتى تكون الدلالة مستحبة كـ «زيد الخيل» الذى سمّاه الرسول ﷺ «زيد الخير». وهناك بعض الشعراء الذى يصادف صعوبة حين الأداء الصوتى لبعض كلمات اللغة العربية لذلك قيل له: الأعجم على نحو ما حدث مع زياد بن سلمى أو زياد بن جابر بن عامر. وتتصل بعض الأسماء بالصفات الخلَقية للشعراء وذلك على نحو ما كان من أمر همام بن غالب الذى كان فيه غلظ وقصر فقيل له الفرزدق ... وهكذا إذا تتبعنا ما سبق ذكره من الأسماء والألقاب لوجدنا له صلة ببعض الجوانب اللغوية.

* * *

أحكام أطلقت على الشعراء

عرف تاريخ النقد العربى مجموعة من الأحكام التى أطلقت على بعض الشعراء، وهى تحاول بيان مقدرة الشاعر الفنية وتفوقه على غيره. وقد احتوت تلك الأحكام على بعض الجوانب اللغوية؛ خاصة فيما يتصل بالنظم والدلالة؛ لذلك وجدنا ألفاظاً وعبارات من نحو عدم المعاظلة بين القول، وعدم اتباع حوشى الكلام، وجودة المقاطع وسواها.

وحين نبدأ الحديث عن تلك الأحكام نتوقف أمام ماروى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه؛ فقد ورد أنه قال: أنشدونى لأشعر شعرائكم، قيل: ومن هو؟ قال: زهير: قيل: وبمَ صار كذلك؟ قال: كان لايعاظل بين القول، ولايتبع حوشى الكلام، ولايمدح الرجل إلا بما فيه»[١]. وقد توقف الآمدى أمام ماورد عن أمير المؤمنين موضحاً تفسيره قائلاً: «وقد فسَّر أهل العلم هذا من قول عمر، وذكروا معنى المعاظلة، وهى: مداخلة الكلام بعضه فى بعض، وركوب بعضه لبعض؛ كقولك: تعاظل الجراد، وتعاظلت الكلاب، ونحوهما مما يتعلق بعضه ببعض عند السِّفاد، وأكثر ما يستعمل فى هذين النوعين».

«وكذلك فسروا معنى حوشى الكلام، وهو اللفظ الغريب الذى لايتكرر فى كلام العرب كثيراً؛ فإذا ورد ورد مستهجناً، وقالوا فى معنى قوله «وكان لايمدح الرجل إلا بما فى الرجال» أنه أراد: لايمدح السوقة بما يمدح به الملوك، ولايمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك والأبطال وحملة السلاح؛ فإن الشاعر إلى فعل ذلك فقد وصف كل فريق بما ليس فيه؛ فذكروا هذه الجمل، ثم مثلوا لها أمثلة تزيد ما قاله عمر، رضى الله عنه، وضوحاً وبياناً»[٢].

وبعد أن شرح الآمدى قول عمر، رضى الله عنه، اعتماداً على مَنْ سبقه، قدّم له درساً تطبيقياً، مع شرحه الخاص له؛ فالمعاظلة عنده شدة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض، وأن يداخل لفظة من أجل لفظة تشبهها أو تجانسها، وإن

(١) الشعر والشعراء: ١/ ١٣٨.

(٢) الموازنة: ١/ ٢٩٣ و ٢٩٤.

أخلّ بالمعنى بعض الإخلال؛ وذلك كقول أبى تمام:

خان الصفاءَ أخٌ خان الزمانُ أخاً عنه فلم يتخون جسمه الكَمَدُ

وقد علّق الآمدى على هذا البيت قائلاً: «فانظر إلى أكثر ألفاظ هذا البيت، وهى سبع كلمات آخرها قوله «عنه» ما أشد تشبث بعضها ببعض، وما أقبح ما اعتمده من إدخال ألفاظ فى البيت من أجل ما يشبهها، وهى قوله «خان» و «خان»، و «يتخون» وقوله «أخٌ» و «أخاً». وإذا تأملت المعنى، مع ما أفسده من اللفظ، لم تجد له حلاوة، ولا فيه كبير فائدة؛ لأنه يريد: خان الصفاء أخ خان الزمان أخاً من أجله؛ إذ لم يتخون جسمَه الكمد».

ويمثل للمعاظلة ببيت ثانٍ من شعر أبى تمام، وهو قوله:

يـا يـومَ شـرّد يـومَ لهـوى لهوُهُ بصبابتـى وأذلّ عـزّ تجلّـدى

وعلّق عليه الآمدى قائلاً: «فهذه الألفاظ إلى قوله «بصبابتى» كأنها أيضاً سلسلة فى شدة تعلق بعضها ببعض. وقد كان أيضاً يستغنى عن ذكر اليوم فى قوله «يوم لهوى»؛ لأن التشريد إنما هو واقع بلهوه، فلو قال: يا يوم شرّد لهوى، لكان أصح فى المعنى من قوله: يا يوم شرد يوم لهوى، وأقرب فى اللفظ؛ فجاء باليوم الثانى من أجل اليوم الأول، وباللهو الثانى من أجل اللهو الذى قبله، ولهو اليوم أيضاً بصبابته هو من وساوسه وخطائه، ولا لفظ هو أولى بالمعاظلة من هذه الألفاظ»[1].

ويتوقف الآمدى أمام قول عمر رضى الله عنه فى زهير «إنه كان لايتبع حُوشىّ الكلام»، مطبقاً ذلك على بعض الأبيات من شعر أبى تمام أيضاً، قال: «فإن أبا تمام كان لعمرى يتتبعه (يقصد حوشى الكلام) ويتطلبه، ويتعمل لإدخاله فى شعره؛ فمن ذلك قوله:

أهلـس أليـس لجّـاء إلى هِمَـمٍ تغـرق العيـس فى آذيّهـا اللّيسـا

...!.. والهُلاس، السلال من شدة الهزال، فكأن قوله «أهلس» يريد خفيف

(١) الموازنة: ١/ ٢٩٤ و ٢٩٥.

اللحم. والأليس: الشجاع البطل الغاية فى الشجاعة، وهو الذى لايكاد يبرح موضعه فى الحرب حتى يظفر أو يهلك فهاتان لفظتان مستكرهتان إذا اجتمعتا، ثم لم يقنع بـ «أهلس أليس» حتى قال فى آخر البيت «الليسا»، يريد جمع أليس»[1].

وبعد هذا العرض لما قدمه الآمدى، نحاول دراسة المعاظلة بالتفصيل؛ لأن حديث علماء البلاغة عنها لغوى فى مجمله، وتجمع تلك الدراسة بين النظر والتطبيق.

وقد سبقت الإشارة إلى تعريف الآمدى لها، وهناك تعريف آخر لقدامة بن جعفر؛ فهى إدخالك فى الكلام ما ليس من جنسه، وإلزامه إياه، ومن أمثلة ذلك قول أوس بن حجر:

وذاتِ هِـــدْمٍ عـــارٍ نواشرُهـــا   تصمـــتُ بالمـــاءِ تولباً جَدَعَـــا

فسمى الصبىّ «تولباً»، والتولب ولد الحمار، وهذا لاوجه له لأمرين:

– أما أولاً فلأنه يلزم أن تكون الاستعارة معاظلة، وهو فاسد.

– وأما ثانياً فلأنه إنما يكون الاعتراض والاستطراد وغير ذلك من الكلمات الدخيلة معاظلة.

وهناك تعريف آخر للمعاظلة وهو تركيب الكلام وترادف ألفاظه على جهة التكرير، واشتقاقه من قولهم «تعاظلت الجراد» إذا ركب بعضها بعضاً عند الازدحام، أو «تعاظلت الكلاب» إذا لزم بعضها بعضاً عند السِّفاد.

وحين ننظر فى الأمثلة التى قدمها العلماء للمعاظلة نجدها تنصرف إلى ما يتصل بالأصوات والصيغ الصرفية وتركيب الجملة من حيث التكرار للصفات والإضافة، ويمكن توضيح ذلك خلال النقاط الآتية:

أولاً: يلجأ بعض الشعراء إلى تكرار الأصوات، وهذا يؤدى إلى الصعوبة فى النطق حين الأداء اللغوى للشعر، ومن المعروف أن العرب عدلوا عن هذا التكرار للأصوات بحسهم اللغوى؛ لأنه يتنافى مع الفصاحة والبلاغة، والدليل على ذلك

(١) الموازنة: ١/ ٣٠٠.

ميلهم إلى «الإدغام» فى نحو «شدّ» و «مدّ» و «مرّ» والأصل فيها «شَدَدَ» و «مَدَدَ» و «مرر».

كذلك أبدلوا من أحد حرفى التضعيف حرف لين حذراً من ذلك، وهذا كما قالوا «تسريت» فى «تسرّرت» و «تطبيّت» فى «تطبّبت» وفى نحو «ديوان» و «ديباج» والأصل فيهما «دوّان» و «دبّاج».

ومن الأمثلة المتداولة فى الكتب العربية كالمعاظلة الخاصة بالأصوات:

وقبـــر حـرب بمكـــان قفـــر وليـــس قـرب قبـــر حـرب قبـر

الذى يطبعه التكرار لصوتى القاف والراء. وكذلك:

وازورّ مـــن كـان لـــه زائـــراً وعـــافَ عافـــى العُرفِ عرفانـه

الذى يطبعه التكرار لصوتى الراء والفاء.

ثانياً: تؤدى حروف الجر دوراً مهماً فى دلالة الجملة العربية؛ إذ إن حرف الجر حين يتشكل مع غيره من الكلمات يكتسب دلالة بعينها، ولكن بعض الشعراء يلجأ إلى الإكثار من استعمالها، كما فى قول المتنبى:

وتسعدنـى فـى غمـرة بعد غمرة سبـوحٌ لهـــا منهـا عليهـا شواهـد

فقد قال: «لها منها عليها»، وهذا يؤدى إلى التنافر والثقل على اللسان. قال يحيى العلوى معلقاً على البيت: «فقوله: لها منها عليها، من قبيح السبك وسوء التأليف، وما ذاك إلا لأجل تكرر أحرف المعانى، فأكسبته هذا الثقل الذى تعافه النفوس»[1].

ومن ذلك ما ورد فى شعر أبى تمام قوله:

كأنـه فى اجتمـاع الـروح فيه له فى كل جارحـةٍ من جسمـه روح

فقد قال: فيه له فى كل ....».

ثالثاً: يلجأ بعض الشعراء إلى تكرار صيغ فعلية معينة، وذلك نحو استعمال فعل الأمر. قال المتنبى:

(١) الطراز ٣/ ٥٤

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِع احملْ علِّ سلِّ أعِدْ ... زِدْ هشَّ بَشَّ تفضّل أَدْنِ سُرَّ صِلِ

وهناك تكرار للأمر، مع العطف بالواو. قال ديك الجنّ (عبد السلام بن رغبان):

أُحل وامرر وضُرَّ وانفع ولِنْ واخُشْ ورِشْ وأُمر وانتدب للمعالى

قال يحيى العلوى: «فهذا كالأول (يقصد بيت المتنبى) خلا أن هذا ليس فى الكراهة كالوجه الأول فى الثقل، وما ذاك إلا من أجل توسط الواو فأكسبته خفة ورقة»[١]. أى إن البيتين كليهما فيه تلك المعاظلة من حيث استعمال صيغة الأمر، ولكن الثانى أقل فى الثقل لوجود العطف بالواو.

والمعاظلة ها هنا تتصل بالصرف والنحو وذلك من حيث تكرار «الصيغ» Form، وتلك الصيغ فعلية.

رابعاً: تؤدى «الصفة» دوراً مهماً فى الدلالة الخاصة ببيت الشعر، ويكفى أن نقول إنها تخلع بعض الصفات على الموصوف مما يؤثر فى المعنى. ويرى البلاغيون أن تعددها وتواليها يؤدى إلى المعاظلة فى التركيب النحوى. قال المتنبى:

دان بعيد محب مبغض بهج ... أعز حلو ممر لين شرس

ند أبى غرواف أخى ثقة ... جعد سرى نهٍ ندب رضى ندسِ

وقال أبو تمام يصف رمحًا:

مارنه لدنه مثقفه ... عراصه فى الأكف مطرده

وقال أيضاً يصف سحابة:

مُسَفّه ثرة مسحسحة ... وابلة مخضلة برده

ويلجأ الشعراء إلى تكرار نوع آخر من التراكيب النحوية كالإضافة. قال الشاعر

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى ... فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

فقد أضاف «حمامة» إلى «جرعى»، وأضاف «جرعى» إلى «حومة»، وأضاف

---

١ - الطراز ٣: ٥٦

«حومة» إلى «الجندل».

وتوقف النقاد أمام شعر النابغة، وأصدروا عليه بعض الأحكام اللغوية وغير اللغوية؛ فيقال: «كان النابغة أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف، ونبغ بالشعر بعدما احتنك، وهلك قبل أن يهتر». وقال أبو عبيدة: «يقول من فضّل النابغة على جميع الشعراء: هو أوضحهم كلاماً، وأقلهم سَقَطاً وحشواً، وأجودهم مقاطع، وأحسنهم مطالع، ولشعره ديباجة، إن شئت قلت: ليس بشعر مولَّف، من تأنثه ولينه، وإن شئت قلت: صخرة لو رُديت بها الجبال لأزالتها»[(١)].

وقال ابن المعتز عن بشار وشعره: «وكان بشار يعد فى الخطباء والبلغاء. ولا أعرف أحداً من أهل العلم والفهم دفع فضله، ولا رغب عن شعره. وكان شعره أنقى من الراحة، وأصفى من الزجاجة، وأساس على اللسان من الماء العذب. ومما يستحسن من شعره – وإن كان كله حسناً – قوله:

أمِـــنْ تجنّى حبيـبٍ راح سكرانـا	أصبحتَ فى سكرات الموت سكرانـا
لاتعرفُ النومَ، من شوقٍ إلى شجنٍ	كأنمـا لاتَــرَى للنـــاسِ أشجانـــا
أودُّ مَـــنْ لـــم ينلنى مـــن مودتـه	إلا سلامـــاً يــــردُّ القلـبَ حيرانا
ياقـــومُ أذْنى لبعضِ الحيِّ عاشقـةٌ	والأذنُ تعشـــقُ قبل العـينِ أحيانا

وهذا معنى بديع، لم يسبقه إليه أحدٌ»[(٢)].

وقال ابن المعتز عن أبى نخيلة: «من أفصح الناس وأشعرهم، وكان مطبوعاً مقتدراً، كثير البدائع والمعانى، غزيراً جداً، وكان الغالب عليه الرجز، ومع ذلك لايقصر فى القصيد»[(٣)].

ويبدو أن الحديث عن حوشى الكلام كان يطبع النقد اللغوى للشعر عند

---

(١) الشعر والشعراء: ١٥٧ و ١٦٨

(٢) طبقات الشعراء: ٢٨ و ٢٩.

(٣) السابق: ٦٣

القدماء من العلماء العرب على اختلاف اهتماماتهم العلمية، يدلنا على ذلك تلك الرواية التى أوردها المرزبانى فى موشحه. قال: «حدثنى أبو الحسن على بن هارون المنجم، قال: حضر أحمد بن أبى طاهر مجلس جدى أبى الحسن على بن يحيى يوماً بعد أن أخل به أياماً، فعاتبه أبو الحسن عن انقطاعه عنه، فقال أحمد: كنت متشاغلاً باختيار شعر امرىء القيس. فأنكر عليه أبو الحسن قوله هذا، وقال: أما تستحيى من هذا القول؟ وأى مرذول فى شعر امرىء القيس حتى تحتاج إلى اختياره! واتسع القول بينهما فى ذلك إلى أن قال أبى – أبو عبد الله هارون بن على – لأبيه الحسن: قد صدقت ياسيدى فى وصف شعر امرىء القيس، ولكن فيه ما يفضل بعضه بعضاً، وإلا فقوله:

يـا هنـدُ لاتنكحـى بوهَـةً ... عليـه عَقيقتُـه أحْسَبَـا(١)
مُرَسَّعَـةً بيـن أرباقـه ... بـه عَسَـمٌ يبتغـى أرنبـا (٢)
ليجعـلَ فـى ساقـه كعبهـا ... حـذارَ المنيـة أنْ يعطبـا
ولسـتُ بخزرافـة فـى القعـود ... ولسـتُ بطيَّاخـة أخْدَبَـا (٣)
ولسـت بـذى رَثْيـة إمَّـرٍ ... إذا قيـدَ مستكرهـاً أصحبـا (٤)

أهو مما يختار ويوصف بهذه الأوصاف، مع مافى هذه الأبيات من حوشى الكلام، وجَسَاء الألفاظ، وخلوها من كثير من الفائدة (٥).

---

(١) البوهة: البومة، تُضرب مثلاً للرجل لا خير فيه ولا عقل له. عليه عقيقته: عليه شعره الذى وُلِدَ به؛ يريد أنه لايتهيأ ولايتنظف. والأحسب: من الحُسبة؛ وهى صهبة تضرب إلى الحمرة، وهى مذمومة عند العرب.

(٢) المرسعة مثل المعاذة، وكان الرجل من جهلة العرب يعقد سيراً مرسعاً معاذة، مخافة أن يموت أو يصيبه بلاء. والعسم: يبس فى الرسغ واعوجاج.

(٣) الخزرافة: الخوّار الضعيف، والطياخة: الذى لايزال يقع فى سوءة لحمقه. والأخدب: الذى لايتمالك عن الحمق والجهل والاستطالة.

(٤) الرثية: وجع المفاصل من الضعف والكبر. والإمر: الضعيف.

(٥) الموشح: ٤٣ و ٤٤، والهامش أيضاً.

وحين وازن الآمدى بين أبى تمام والبحترى أشار إلى الكثير من الأحكام اللغوية التى أطلقت على كلا الشاعرين من مؤيدهما لبيان أيهما أشعر، ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق على ذلك، وعلّل الآمدى عدم اتفاقهما بقوله: «لميل من فضل البحترى ونسبه إلى حلاوة اللفظ، وحسن التخلص، ووضع الكلام فى مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأتى، وانكشاف المعانى. وهم الكتّاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة وميلِ من فضل أبا تمام، ونسبه إلى غموض المعانى ودقتها، وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج. وهؤلاء أهل المعانى والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفى الكلام».

ثم يشير الآمدى إلى فريق جعل الشاعرين كليهما طبقة، وذهب إلى المساواة بينهما، ولكنهما، عند الآمدى، مختلفان، «لأن البحترى أعرابى الشعر، مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام .... ولأن أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعة، ويستكره الألفاظ والمعانى، وشعره لايشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعانى المولدة ....».

وربما يتساءل الدارس عن أى الشاعرين أشعر عند الآمدى نفسه؟ ولم يجب الرجل عن السؤال، ولكنه وضع أحكاماً لغوية أطلقها على الشاعرين كليهما «فإن كنت ... ممن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك، وحسن العبارة، وحلو اللفظ، وكثرة الماء والرونق؛ فالبحترى أشعر عندك ضرورة. وإن كنت تميل إلى الصنعة، والمعانى الغامضة التى تستخرج بالغوص والفكرة، ولاتلوى على ما سوى ذلك؛ فأبو تمام عندك أشعر لا محالة» [1].

ومما يتصل بالحديث عن تلك الأحكام اللغوية وغير اللغوية التى أُطلقت على الشعراء، توقف العلماء أمام الأبيات المفردة والأشعار التى نالت إعجابهم واستحسانهم، وقد أطلقوا عليها بعض الأحكام، وعلقوا عليها ببعض التعليقات التى تبيح هذا الاستحسان. ونشير إلى أن تلك التعليقات – فى الأغلب الأعم –

(١) الموازنة: ١/ ٤ - ٦

كانت لغوية، ويمكن والاستدلال على ذلك بما قاله ابن طباطبا عن أبيات من معلقة زهير مقدماً لها. قال: «فمن الأشعار المحكمة، المتقنة، المستوفاة المعانى، الحسنة الوصف، السلسلة الألفاظ، التى قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً، فلا استكراه فى قوافيها، ولاتكلف فى معانيها، ولا عيٌّ لأصحابها فيها، قول زهير:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يعشْ ثمانين حولاً، لا أبالك، يَسْأَمِ[1]

ويذكر عدة أبيات من المعلقة. ولم يعلل ابن طباطبا لهذا الاستحسان الذى نالته أبيات زهير؛ بل إنه يذكر أبياتاً أخرى له ولغيره فى صفحات كثيرة، ويعلق عليها كلها تعليقاً عاماً، قال فيه: «فهذه الأشعار وما شاكلها من أشعار القدماء والمحدثين؛ أصحاب البدائع والمعانى اللطيفة الدقيقة، تجب روايتها والتكثر لحفظها»[2].

ومن الطبيعى أن يتوقف ابن طباطبا أمام الأشعار الغثة التى لم تنل إعجابه، وقد قدّم لها بقوله: «ومن الأشعار الغثة الألفاظ، الباردة المعانى، المتكلفة النسج، الغلقة القوافى، المضادة للأشعار التى قدمناها قول الأعشى:

بانتْ سعادُ وأمسى حبلُها انقطعَا واحتلتِ الغمرَ فالجدين فالفرعَا

لايسلم منها خمسة أبيات، ونكتبها ليوُقف على التكلف الظاهر فيها». ثم يذكر القصيدة بأكملها، ويشير، فيما بعد، إلى أنها ستة وسبعون بيتاً، التكلف فيها ظاهر بيّن إلا فى ستة أبيات، وهى:

تقول بنتى، وقد قرّبتُ مرتحلاً يارب جنبْ أبى الإتلاف والوجعا
بذاتِ لوثٍ عفرناةٍ إذا عثرتْ فاللعن أدنى لها من أن أقول: لعا
بأكلب كسراء النبلِ ضاريةٍ ترى من القدّ فى أعناقها قطعَا
ياهوْذُ إنك من قوم أولى حسبٍ لايفشلون إذا ما آنسوا فزعا
أغر أبلج يُستسقى الغمام به لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا
لايرقع الناسُ ما أوهى وإن جهدوا طول الحياة، ولايوهون ما رقعَا

(١) عيار الشعر: ٨٢
(٢) السابق: ١١٠

ثم يعلق على تلك الأبيات الستة بقوله: «وفيها خلل ظاهر، ولكنها؛ بالإضافة إلى سائر الأبيات، نقية، بعيدة من التكلف»[١].

ومن الموضوعات الأساسية فى تاريخ الدرس النقدى، وله صلته بتلك الأحكام الصادرة على الشعر والشعراء، توقف العلماء أمام الأبيات المفردة والحكم عليها من حيث الدلالة؛ لذلك وجدنا حديثاً عما يسمى بأشعر بيت، أو أهجى بيت ... والذى يدل على الاهتمام بالبيت المفرد أنه قيل لأبى المُهَوِّش الأسدى: لِمَ لاتطيل الهجاء؟ فقال: لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً. وقيل أيضاً إنه اجتمع عند عبد الملك أشراف من الناس والشعراء؛ فسألهم عن أرقّ بيت قالته العرب؛ فاجتمعوا على بيت امرىء القيس:

وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربى　　　بسهميكِ فى أعشارِ قلبٍ مقتَّلِ

وقال عبد الملك لقومٍ من الشعراء: أى بيت أمدح؟ فاتفقوا على بيت زهير:

تــراه إذا مــا جئْتَــه متهـللاً　　　كأنـك تعطيه الـذى أنـت سائلُـه

ويتصل بذلك تشبيه زهير لامرأة فى الشعر بثلاثة أوصاف فى بيت واحد فقال:

تنازعت المهاشبها ودرّ البحور　　　وشاكهت فيها الظباء

أى إن تلك المرأة:

- فيها شبه من البقر فى العيون.
- ومن الدر فى الصفاء.
- ومن الظباء بطول العنق.

وقال النابغة فى العفة، وهو أحسن ما قيل فيه:

رقاق النّعال طيب حجزاتهم　　　يحيون بالريحان يوم السباسب[٢]

* * *

(١) السابق: ١١٩.

(٢) انظر الشعر والشعراء: ١/ ١٣٩ و ١٦٣

أدوات الشعر

الذى دفعنا للدخول فى العرض لأدوات الشعر أنها – فى مجملها – مجموعة من الأدوات اللغوية التى تفيد فائدة حقيقية فى التعرف على الإطار العام الذى دار حوله النقد اللغوى عند القدماء، ولكن قبل الدخول فى العرض لها، نحاول التعرف على مفهوم الشعر وتعريفه عندهم.

يقول قدامة بن جعفر عن حد الشعر: «إنّ أول ما يحتاج إليه فى العبارة عن هذا الفن معرفة حد الشعر الحائز له عما ليس بشعر، وليس يوجد فى العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز – مع تمام الدلالة – من أن يقال فيه: إنه قول موزون مقفى يدل على معنى». ثم يأخذ قدامة فى شرح هذا التعريف قائلاً: «فقولنا: قول: دال على أصل الكلام الذى هو بمنزلة الجنس للشعر. وقولنا: موزون: يفصله مما ليس بموزون؛ إذ كان من القول موزون وغير موزون. وقولنا: مقفى: فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف، وبين مالا قوافى له ولا مقاطع. وقولنا: يدل على معنى: يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى»[١].

ويتضح من هذا التعريف تأكيد قدامة على بعض النواحى اللغوية خاصة الدلالة التى هى أساس القول الموزون المقفى؛ لذلك نجد علم اللغة الحديث Modern Linguistics لايتعامل مع الكلام الذى لامعنى له، ولعله من المفيد أن نذكر هذا المثال المتداول وهو قولهم: Colouress green ideas sleep furiously[٢] وترجمته بالعربية: الأفكار الخضراء عديمة اللون تنام نوماً غاضباً.

فهذا مثال من النثر تتحقق فيه القواعد كافة، لكنه لايدل على معنى؛ لذلك فإنه يخرج عن نطاق الدرس اللغوى، ولذلك أيضاً حكم سيبويه فى كتابه على تراكيب من نحو:

* حملتُ الجبل

---

(١) نقد الشعر: ١٧.

(2) Chomsky: Syntactic Structures, P. 15.

* شربتُ ماء البحر

بأنها «مستقيم كذب»[١].

نأتى، بعد ذلك، إلى الحديث عن أدوات الشعر، وقد اهتم بها كثيرون، وعلى رأسهم ابن طباطبا؛ فماذا قال عنها: «وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه وتكلف نظمه، فمن نقصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة. فمنها: التوسع فى علم اللغة، والبراعة فى فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب ....[٢] الشعر، والتصرف فى معانيه فى كل فن قالته العرب فيه وسلوك مناهجها فى صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها، والسنن المستعملة منها، وتعريضها وتصريحها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها وإيجازها، ولطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن مباديها، وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز فى أحسن زى وأبهى صورة، واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ، والمعانى المستبردة، والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، حتى لايكون ملفقاً مرقوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة، والوشى المنمنم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها، ويعلو فوقها ويكون ما قبلها مسبوقاً إليها ولاتكون مسبوقة إليه فتقلق فى مواضعها، ولاتوافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له، غير مستكرهة ولامتعبة، مختصرة الطرق، لطيفة الموالج، سهلة المخارج. وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذى به تتميز الأضداد، ولزوم العدل، وإيثار الحسن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها»[٣].

---

(١) الكتاب: ١/ ٢٦؛ وانظر كتابنا (التراكيب غير الصحيحة نحوياً فى الكتاب لسيبويه – دراسة لغوية).

(٢) مكان النقاط كلمة ناقصة، وقد أشار إلى ذلك محقق الكتاب.

(٣) عيار الشعر: ٦ و٧.

وقد أشار حازم القرطاجنى[1] إلى أنّ هناك ثلاثة أشياء تؤدى إلى تأتّى النظم على أكمل وجه وهى: المهيئات والأدوات والبواعث:

وتحصل المهيئات من جهتين:

١ – النشء فى بقعة معتدلة الهواء، حسنة الوضع، طيبة المطاعم، أنيقة المناظر، ممتعة من كل ما للأغراض الإنسانية به علقة.

٢ – الترعرع بين الفصحاء الألسنة المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان.

وكانت الأدوات تنقسم إلى العلوم المتعلقة بالألفاظ والعلوم المتعلقة بالمعانى.

وكانت البواعث تنقسم إلى أطراب وإلى آمال. وكان كثير من الأطراب إنما يعترى أهل الرحل بالحنين إلى ماعهدوه ومن فارقوه، والآمال إنما تعلق بخدام الدول النافعة وجب ألا تكمل تلك المهيآت للشاعر إلا بطيب البقعة وفصاحة الأمة وكرم الدول ومعاهدة التنقل والرحلة. فقلما برع فى المعانى من لم تنشئه بقعة فاضلة، ولا فى الألفاظ من لم ينشأ بين أمة فصيحة، ولا فى جودة النظم من لم يحمله على مصابرة الخواطر فى إعمال الروية الثقةُ بما يرجوه من تلقاء الدولة، ولافى رقة أسلوب النسيب من لم تشط به عن أحبابه رحلة ولا شاهد موقف فرقة.

وبعد هذا العرض لأدوات الشعر على نحو ما ورد عند القدماء نتوقف أمام وصية أبى تمام للبحترى لاحتوائها على الكثير من الأدوات المتصلة بالشعر.

قال البحترى: «كنت فى حداثتى أورم الشعرَ، وكنتُ أرجعُ فيه إلى طبع، ولم أكن أقفُ على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه، حتى قصدتُ أبا تمام، فانقطعت فيه إليه، واتكلت فى تعريفه عليه، فكان أول ما قال لى: يا أبا عبادة تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليلُ الهمومِ صِفْرٌ من الغمومِ. واعلم أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر؛ وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق. وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد، فأشهرْ مناقبه، وأظهرْ مناسبه، وأبنْ معاطه، وشرِّفْ

(١) منهاج البلغاء: ٤٠ – ٤٢.

مقامه، وتقاص المعانى واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية. وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسنه العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه ترشدْ إن شاء الله تعالى»[١].

ولعله مما يكمل الحديث عن «أدوات الشعر» التوقف أمام ماكتبه ابن رشيق عن «آداب الشاعر»[٢] لاحتوائه على بعض الجوانب اللغوية. وقد بدأ ابن رشيق العرض لتلك الآداب بقوله: «من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل، حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطئ الأكناف؛ فإن ذلك مما يحببه إلى الناس، ويزينه فى عيونهم، ويقربه من قلوبهم. وليكن مع ذلك شريف النفس، لطيف الحس، عزوب الهمة، نظيف البزة، أنفاً؛ لتهابه العامة، ويدخل فى جملة الخاصة، فلا تمجُّه أبصارهم، سمح اليدين».

ويرى ابن رشيق أنَّ الشاعر مطالب بحفظ الشعر والخبر ومعرفة النسب وأيام العرب؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار وضرب الأمثال، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم، ويقوى طبعه بقوة طباعهم. وقال الأصمعى: «لايصير الشاعر فى قريض الشعر فحلاً حتى يروى أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعانى، وتدور فى مسامعه الألفاظ. وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزاناً له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه، والنسب وأيام العرب ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم».

وأشار القدماء إلى مَنْ يطلق عليه «الفَحْل» من الشعراء، وقالوا إنه الرَّاوية، والمقصود بذلك أنه إذا رَوَى استفحل، وقال يونس بن حبيب: «وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة». وقد

(١) وردت وصية أبى تمام للبحترى فى عدة مصادر، نكتفى منها بـ (منهاج البلغاء) ص ٢٠٣.
(٢) العمدة: ١/ ١٣١ وما بعدها.

كان الفرزدق على فضله ومكانته المعروفة فى الشعر يروى للحطيئة كثيراً، وكان الحطيئة راوية زهير، وكان زهير راوية أوس بن حجر، وطفيل الغنوى جميعاً، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الإيادى مع فضل نحيزة وقوة غريزة.

ويحتاج الشاعر إلى حسن التأنى والسياسة وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذلّ وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخلّ وأوجع، وإن فخر خبّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنّ ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائناً مَنْ كان ليدخل إليه من بابه، ويداخله فى ثيابه؛ فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذى به تفاوت الناس وبه تفاضلوا.

ومن المأثورات عن العرب قولهم «لكل مقام مقالٌ» وقد ربطها ابن رشيق بأغراض الشعر وطرق التعبير والموقف نفسه الذى يقال فيه؛ لذلك فإنّ شعر الشاعر لنفسه وفى مراده وأمور ذاته من مزح وغزل ومكاتبة ومجون وخمرية وما أشبه ذلك غير شعره فى قصائد الحفل التى قوم بها بين السماطين، يقبل منه فى تلك الطرائق عفو كلامه وما لم يتكلف له ولا ألقى به بالاً، ولايقبل منه فى هذه إلا ما كان محككاً معاوداً فيه النظر جيداً لاغثّ فيه ولا ساقط ولا قلق، وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ماتقدم من هذه الأنواع.

ويجب على الشاعر إعادة النظر فى فنه. قال ابن رشيق: «ولايكون الشاعر حاذقاً مجوداً حتى يتفقد شعره ويعيد فيه نظره، فيسقط رديه ويثبت جيده، ويكون سمحاً بالركيك منه، مطرحاً له، راغباً عنه، فإن بيتاً جيداً يقاوم ألفى ردىء، وقال امرؤ القيس – وهو أول من زعموا أنه اختبر له وعلم به أنه يكون أفضل الشعراء والمقدم عليهم:

أذود القوافـــى عنـــى زيـــاداً   ذيـــادَ غـــلامٍ جرىءٍ جـــرادا
فلمـــا كثـــرْنَ وعنّيْنَـــه   تخيـــر منهـــن شتـــى جيـادا
فأعـــزلُ مرجانهـــا جانبـــاً   وآخـــذ مـــن دُرّهـــا المستجـــادا

... فإذا كان أشعر الشعراء يصنع هذا ويحكيه عن نفسه فكيف ينبغى لغيره أن يصنع».

ولايجوز للشاعر كما لايجوز لغيره أن يكون معجباً بنفسه مثنياً على شعره، وإن كان جيداً فى ذاته حسناً عند سامعه، فكيف إن كان دون مايظن كقوم أفردوا لذلك أنفسهم وأفنوا فيه أعمارهم وما يحصلون على طائل، وقد قال الله عزّ وجل: (فلاتزكوا أنفسكم)[١] اللهم إلا أن يريد الشاعر ترغيب الممدوح أو ترهيبه فيثنى على نفسه ويذكر فضل قصيدته، فقد جعلوه مجازاً مسامحاً فيه، كالذى يعرض لكثير من الشعراء فى أشعارهم من مدح قصائدهم. ويجب على الشاعر أن يتواضع لمن دونه ويعرف حقّ مَنْ فوقه من الشعراء

* * *

وبعد هذا العرض لآداب الشاعر نتوقف أمام ما عُرف عند القدماء بـ «عمود الشعر»، مع الاهتمام بما ورد عند المرزوقى فى شرحه لديوان الحماسة.

عمـــود الشعـــر

قبل الدخول فى بيان المقصود بعبارة «عمود الشعر» نشير إلى أنّ هناك بعض المحاولات التى جرت للتعرف على التطور التاريخى لاستعمالها فى الدراسات النقدية والبلاغية؛ لذلك يقال إن أقدم استخدام نعرفه لتلك العبارة ورد فى كتاب (الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى) لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠ هـ). فقد استخدام الآمدى هذا التعبير ثلاث مرات فى كتابه، لم يعزه إلى أحدٍ فى إحداها، وعزاه مرة إلى البحترى، وأخرى إلى من سمّاه صاحب البحترى.

قال فى المرة المهملة: وإن كان كثير من الناس قد جعلهما طبقة ... وإنهما لمختلفان؛ لأن البحترى أعرابى ... وما فارق عمود الشعر المعروف»[٢]. وقال فى الثانية: «والذى أرويه عن أبى على محمد بن العلاء السجستانى ... وكان صديق

---

(١)

(٢) الموازنة: ٦/١

البحترى – أنه قال: سُئل البحترى عن نفسه وعن أبى تمام فقال: كان أغوص على المعانى منى، وأنا أقول بعمود الشعر منه»[١]. وقال فى الثالثة: «قال صاحب البحترى ... حصل للبحترى أنه ما فارق عمود الشعر»[٢].

وتبين هذه الأقوال أن البحترى (ت ٢٨٤هـ) هو صاحب هذا التعبير، وإن كان عدم صدور النص عنه شخصياً غير مستبعد، ويكون السجستانى أو الآمدى قد روى قوله بالمعنى، وألبسه رداء من لفظه، فيكون أحدهما صاحباً للتعبير، ومهما يكن من شئ فالمطمأنٌ إليه أن عبارة «عمود الشعر» عُرفت وشاعت فى القرن الرابع الهجرى، وسُجلت للمرة الأولى فى الموازنة[٣].

وإذا كان الآمدى أول من استخدم «عمود الشعر» فى كتابه منسوبة إلى غيره، فإنه لم يقدم تحديداً لها، وإن كنا نستطيع أن نقول إن عمود الشعر عند الآمدى المقصود به هو طريقته المعهودة أو مذهب الأوائل؛ لذلك إذا عدنا ثانية إلى أقواله لنطلع على بقيتها وجدناه يقول فى إحدى المرات: «البحترى أعرابى الشعر، مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشى الكلام». ويقول فى الثانية: «حصل للبحترى أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة، مع ما نجده كثيراً فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة وانفرد بحسن العبارة، وحلاوة الألفاظ، وصحة المعانى، وحتى وقع الإجماع على استحسان شعره واستجادته».

ونجد ناقداً آخر يستعمل عبارة «عمود الشعر» بعد الآمدى بحوالى ربع قرن وهو القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٩٢ هـ) فى كتابه (الوساطة بين المتنبى وخصومه) وذلك فى قوله: «وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى

---

(١) السابق: ١/ ١٢.

(٢) السابق: ١/ ١٨.

(٣) انظر البحث الذى كتبه الدكتور حسين نصار تحت عنوان «عمود الشعر العربى»، وهو منشور ضمن كتاب (شوقى ضيف: سيرة وتحية) ص ٢٥٧ وما بعدها. وانظر أيضاً (تاريخ النقد الأدبى عند العرب) للدكتور إحسان عباس ١٦٢ وما بعدها.

الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتُسلِّم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبَّه فقارب، وبَدَه فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولاتحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض»[١].

ويرى المشتغلون بالدراسات النقدية والبلاغية[٢] أن هذا النص يضع ستة عناصر لمكونات عمود الشعر عند الجرجاني هي:

١- شرف المعنى وصحته.

٢- جزالة اللفظ واستقامته.

٣- إصابة الوصف.

٤- المقاربة فى التشبيه.

٥- الغزارة فى البديهة.

٦- كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة.

ونصل، بعد ذلك، إلى أبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى (ت ٤٢١هـ) فنجده يقدم تحديداً علميًا لعمود الشعر؛ لأنه جعل هذا التحديد هدفاً له. لذلك أصبح حديثه عن عمود الشعر متداولاً فى كتب النقد والبلاغة عند المحدثين.

بدأ المرزوقى حديثه عن عمود الشعر بقوله: «فالواجب أن يُتبيَّن ما هو عمود الشعر المعروفُ عند العرب، ليتميَّز تليدُ الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث، ولتُعرَفَ مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه، ومراسمُ إقدام المزيفين على مازيفوه، ويُعلم فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع، وفضيلة الأتيِّ السَّمْح، على الأبى الصعب»[٣]

---

(١) الوساطة ٣٣ ومابعدها

(٢) انظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٣٢٢

(٣) مقدمة ديوان الحماسة ٨ ومابعدها

ويرى المرزوقى أن هناك سبعة أبواب هى عمود الشعر، وتلك الأبواب السبعة هى:

١ - شرف المعنى وصحته.

٢ - جزالة اللفظ واستقامته.

٣- الإصابة فى الوصف.

٤- المقاربة فى التشبيه.

٥- التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن.

٦- مناسبة المستعار منه للمستعار له.

٧- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لامنافرة بينهما.

وأشار المرزوقى أن لكل باب منها معياراً؛ فعيار المعنى أن يُعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء، مستأنساً بقرائنه، خرج وافياً، وإلا انتقص بمقدار شَوْبه ووحشته.

وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم، وهذا فى مفرداته وجملته مُراعى؛ لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامَّها ما لايوافقها عادت الجملةُ هجيناً.

وعيار الإصابة فى الوصف الذكاءُ وحسنُ التمييز، فما وجداه صادقاً فى العلوق ممازجاً فى اللصوق، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه، فذاك سيماء الإصابة فيه. ويُروى عن عمرَ رضى الله عنه أنه قال فى زهير «كان لايمدح الرجلَ إلا بما يكون الرجال».

وعيار المقاربة فى التشبيه الفطنةُ وحسنُ التقدير، فأصدقه ما لاينتقض عند العكس، وأحسنه ما أُوقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما ليَبين وجهُ التشبيه بلا كلفة، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به وأملكها له؛ لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس وقد

قيل: «أقسام الشعر ثلاثة: مثل سائر، وتشبيه نادر، واستعارة قريبة».

وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخيرٍ من لذيذ الوزن، الطبعُ واللسان، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده، ولم يتحبس اللسانُ فى فصوله ووصوله، بل استمرا فيه واستسهلاه، بلا ملالٍ ولاكلالٍ، فذاك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة تسالماً لأجزائه وتقارناً ... وإنما قلنا «على تخيرٌ من لذيذ الوزن» لأن لذيذه يَطْرَبُ الطبعُ لإيقاعه، ويمازجه بصفائه، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه، واعتدال نظومه. ولذلك قال حسان:

تَغَنَّ فى كـل شعر أنـت قائلُـه ... إن الغنـاءَ لهـذا الشعـرِ مضمـارُ

وعيار الاستعارة الذهن والفطنة. وملاك الأمر تقريب التشبيه فى الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار؛ لأنه المنقول عما كان له فى الوضع إلى المستعار له.

وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدةِ اقتضائهما للقافية، طول الدربة ودوامُ المدارسة، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض، لاجفاء فى خلالها ولانُبُوّ، ولازيادة فيها ولاقصور. وكان اللفظ مقسوماً على رُتَب المعانى: قد جُعل الأخصُّ للأخص، والأخسُّ للأخس، فهو البرىء من العيب. وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر، يتسوقها المعنى بحقه واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقة فى مقرها، مجتلبة لمستغنٍ عنها.

وينهى المرزوقى حديثه بقوله: «فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها، فهو عندهم المفلِق المعظم، والمحسن المقدم. ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان، وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن».

* * *

وبعد هذا العرض للنقد اللغوى للشعر ننتقل إلى الحديث عن المصطلحات البلاغية وعلاقتها بالأداء اللغوى، وهذا هو موضوع الفصل التالى.

الفصل الثانى
المصطلحات البلاغية وعلاقتها بالأداء اللغوى

للبلاغة العربية مجموعة من المصطلحات الخاصة بها التى اكتسبت مدلولاً معيناً فى إطار البحث فيها والدراسة لها، وحين النظر فى تلك المصطلحات نجد بها عدة جوانب تتصل بالأصوات والتراكيب والدلالة اتصالاً مباشراً؛ بالإضافة إلى أن المصطلحات الأساسية كالبلاغة والفصاحة والمجاز والمعانى والبيان والبديع تتضمن فى تعريفها بعض تلك الجوانب اللغوية المتصلة باستعمال اللغة بواسطة «المتكلم السامع المثالى» Ideal speaker listener.

ونحاول فى هذا الفصل دراسة بعض مصطلحات البلاغة العربية خلال ربطها بـ «الأداء اللغوى» متخذين من مستويات التحليل اللغوى عند المحدثين أساساً لتلك الدراسة.

-١-

ونبدأ بمفهوم البلاغة نفسها؛ إذ إنّ تعريفها عند القدماء به تلك الجوانب اللغوية التى سبقت الإشارة إليها، ولكن قبل الدخول فى هذا التعريف نتوقف أمام بعض المعانى اللغوية التى يدور فى إطارها الجذر المعجمى Lexical root (بلغ)، ويمكن تنظيمها على النحو الآتى:

- بلغْتَ المكانَ: إذا أشرفْتَ عليه، وإن لم تدخله. قال تعالى: (فإذا بلغن أجلهنّ فأمسكوهن بمعروف)[1] فهذه المشارفة.
- البلوغ: الوصول، والعرب تقول: هو أحمق بلغ، أى إنه مع حماقته يبلغ ما يريده.
- تبلغت العلة به: اشتدت.
- بلغ الفارس: إذا مد يده بعنان فرسه ليزيد فى عدوه.
- أبلغ فلاناً عنى السلام: أوصله إليه[2].

ونستطيع أن نقول إن الأساس فى المعنى اللغوى هو الوصول. نأتى، بعد ذلك، إلى

(١) الطلاق/ ٢.

(٢) مجمل اللغة: ١/ ١٣٥.

مفهوم المصطلح عند علماء البلاغة.

حين طرح الجاحظ سؤاله المشهور: ما البلاغة؟[٣] كانت هناك عدة إجابات يمكن تنظيمها كما يأتي:

- معرفة الفصل من الوصل.
- تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.
- حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة.
- وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.
- البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة.
- التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحرف بما التبس من المعانى أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر.

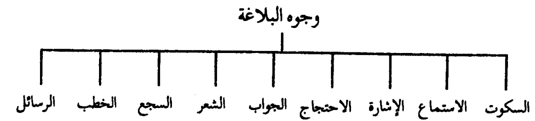
تلك هى الإجابات الخاصة بالسؤال الذى طرحه الجاحظ، وهى ترد إلى الأداء اللغوى الذى أساسه معرفة الفصل من الوصل، وحسن اختيار الكلام، والإيجاز أو الإطناب حسب المقام، ووضوح الدلالة، والابتعاد عن المعانى الغامضة. وهناك إجابة كانت تحتاج إلى إيضاح وهى «البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة»، وقد أوضحها الجاحظ بقوله: «أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك وأحق بالنظر».

ومن النصوص المهمة فى مجال تعريف البلاغة والحديث عنها هذا النص الذى ورد عن ابن المقفع. قال: «البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجرى فى وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون فى الإشارة، ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين؛ فالإكثار فى غير خَطَل، والإطالة فى غير إملال. وليكن فى

(٣) البيان والتبيين. ١/ ٨٧.

صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته. فقيل له: فإن ملَّ السامعُ الإطالة التى ذكرتَ أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيتَ من يعرف حقوق الكلام فلاتهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لايرضيهما شئ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شئ لاتناله، وقد كان يقال: رضا الناس شئ لا يُنال»[٤].

ونلاحظ أن ابن المقفع قد حدد تسعة وجوه يجرى فيها معنى البلاغة، ويمكن بيانها كما يأتى:



ولكن ما الأداء اللغوى الذى حدده ابن المقفع مع تلك الوجوه التسعة حتى يمكن وصف الشخص بأنه بليغ؟ يرى ابن المقفع أن هناك عدة طرق لهذا الأداء اللغوى. قال: «فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة». وليس الإيجاز مستحباً على الدوام؛ إذ إن هناك بعض المقامات التى تتطلب إكثاراً وإطالة. قال: «فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل، والإطالة فى غير إملال».

ويبدو أن مراعاة «المقام» من أسس الدرس البلاغى؛ فقد أشار الخطيب القزوينى[٥] إلى أن بلاغة الكلام معناها مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ثم أوضح أن مقتضى الحال مختلف، وشرح هذا الاختلاف بقوله: «فإن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام

---

(٤) البيان والتبيين ١/١٠٩ ومابعدها.

(٥) الإيضاح: ٨٠ ومابعدها.

القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى. وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام .... وارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له. فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب».

ويلاحظ من هذا النص الذى شرح به الخطيب مقتضى الحال أنه ينصرف، فى الأغلب الأعم، إلى التركيب النحوى؛ لذلك أشار إلى أن ما يقصده بمقتضى الحال هو الذى يسميه عبد القاهر «النظم» حيث يقول: «النظم تأخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام»[٦].

ونستمر فى حديثنا عن البلاغة وما يحيط بها من جوانب لغوية؛ فنجد صحيفة مهمة فى التراث العربى وهى «صحيفة بشر بن المعتمر»[٧]، ونحاول التعرف على ما فى تلك الصحيفة من النواحى المتصلة بالأداء اللغوى، وهى على النحو الآتى:

١ – تتصل الحالة النفسية للفنان والوقت الذى يختاره بالإبداع، وتؤدى تلك الحالة إلى تحقيق بعض المميزات اللغوية؛ فالفنان أو المبدع سيبتعد عن فاحش الخطأ، ويجلب كل غرة من لفظ كريم ومعنى بديع.

٢ – يجب الابتعاد عن «التوعر»، وقد استعمل بشر أسلوب التحذير؛ إذ قال: «إياك والتوعر»، ولكنه لم يحدد المقصود به، وإن كانت المعاجم العربية تشير إلى أن التوعر فى الكلام معناه التحير، وهو يؤدى إلى «التعقيد» الذى يصيب العمل الفنى باثنين من العيوب المتصلة بالدلالة؛ أولهما استهلاك المعنى، والآخر خلع القبح على الألفاظ التى هى أساس التركيب النحوى ومكوناته لذلك يصيبه القبح هو الآخر، وقد قال بشر: «والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك».

---

(٦) انظر دلائل الإعجاز: ٨١.

(٧) الصحيفة مذكورة فى عدة مصادر. انظر البيان والتبيين: ١/ ١٢٦ وما بعدها؛ والصناعتين: ١٣٥ وما بعدها.

٣- أشار بشر فى صحيفته عن البلاغة إلى بعض المواصفات الخاصة باللفظ والمعنى. قال: «أن يكون لفظك شريفاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون هناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً». ولم يغفل الحديث عن «النظم» أو «التركيب» الذى هو عبارة عن مجموعة من الألفاظ التى تؤدى إلى المعنى الظاهر المكشوف، القريب المعروف، والدليل على ذلك حديثه عن اللفظة التى لم تقع موقعها، ولم تصل إلى مركزها، ولم تتصل بسلكها، وكانت قلقة فى موضعها، نافرة عن مكانها. ويقصد بشر بالموقع والسلك والموضع والمكان النظم أو التركيب أو السياق الذى تقع فيه اللفظة.

٤- ربط بشر بين ثلاثة أشياء: أقدار المعانى، وأوزان المستمعين، وأقدار الحالات، وهى جزء مما يعرف فى الدرس الحديث باسم «سياق الحال» Context of situation، وقد أوضح هذا الربط بقوله: «فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات».

٥- هناك بعض الألفاظ التى لها رواج معين فى إطار علم من العلوم؛ لذلك تعد تلك الألفاظ جزءاً من المصطلحات الخاصة به؛ فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين؛ كما أنه إن عبّر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً ناسبه ألفاظ المتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحن، وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم؛ فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع؛ ولذلك قالوا العرض والجوهر وأَيْس[٨] وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشى، وذكروا الهَذِيّة والهوية والماهية[٩] وأشباه ذلك.

---

(٨) الأيس فى علم الكلام الوجود والإثبات، وهو ضد الليس الذى يعنى العدم والنفى.

(٩) الهذية: نسبة إلى هذا، والهوية: نسبة إلى هو، والماهية: نسبة إلى ما هى.

ومن هنا فإن «الخطيب من أصحاب علم الكلام إذا خاطب أوساط الناس كان عليه أن يتحاشى فى خطابه ألفاظ المتكلمين الاصطلاحية؛ لأن الجمهور لايفهمها، فإذا خاطبه بها فكأنما يتكلم إليه بألغاز، أما إذا خاطب أمثاله من المتكلمين فإن من حقه أن يسلك هذه الألفاظ فى كلامه؛ لأن أسماعهم تَهَشُّ لها وقلوبهم إليها أحن وبها أشغف؛ إذ هى ملتحمة بعقولهم ومتصلة بأذهانهم ومحببة إلى نفوسهم»(١٠).

والذى يلفت النظر أن علماء البلاغة حددوا بعض الصفات الخاصة بالشخص نفسه من حيث الهيئة والنطق تساعد فى أن يكون بليغاً؛ فقالوا: «أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية؛ فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال. وقال العتابى: «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردتَ اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كلَّ خطيب فإظهار ما غَمُضَ من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق. وقال له السائل: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: «يا هناه، وياهذا، وياهيه، واسمع منى، واستمع إلى، وافهم عنى، أو لست تفهم، أو لست تعقل. فهذا كله وما أشبهه عِيٌّ وفساد»(١١).

ويلاحظ من هذا النص استخدام العتابى لثلاثة من المصطلحات الخاصة بالأداء اللغوى وهى الإعادة والحُبسة والاستعانة، وقدّم تعريفاً بالمصطلح الثالث منها. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن «الحبسة» ترجمة عربية لها رواج فى العصر الحديث للمصطلح اللغوى aphasia، والمقصود به الفوضى فى استخدام اللغة، وهى ناتجة عن خلل فى الدماغ يؤثر فى مقدرة الشخص على إنتاج التراكيب النحوية والدلالية أو فهمها، ويعد جزءاً من علم اللغة البيولوجى(١٢).

---

(١٠) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ: ٤٥.

(١١) البيان والتبيين: ١/ ١٠٦ وما بعدها.

(12) Crystal, David, The cambridge Encyclopedia of language, p. 415.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالبلاغة فى اللغة والاصطلاح نقدم النص الكامل لـصحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة. قال: «خُذْ من نفسك ساعةَ نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك؛ فإنَّ قليل تلك الساعة أكرمُ جوهراً وأشرف حسباً وأَحسنُ فى الأسماع وأحلى فى الصدور وأسلم من فاَحش الخطأ وأجلب لكل عَيْن وغُرَّة من لفظ شريف ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومُك الأطول بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه.

وإياك والتوعرَ؛ فإن التوعر يُسْلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك، ويشين ألفاظَك. ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً؛ فإن حقّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يُفْسدهما ويهجّنها، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما.

فكن فى ثلاث منازل؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معانى العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامى والخاصى. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفْهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لاتلطف عن الدهماء، ولاتجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولاتعتريك ولاتسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تَصِرْ إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تَحُلّ فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن

والنزول فى غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قَرْض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يَعِبْك بترك ذلك أحدٌ. فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولامحكماً لسانك بصيراً بما عليك ومالك عابك من أنت أقلُّ عيباً منه ورأى مَنْ هو دونك أنه فوقك. فإن ابتُليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة فلا تَعْجَلْ ولاتضجر، ودَعْه بياض يومك وسواد ليلك، وعاوِدْه عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لاتعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عِرْق. وهى المنزلة الثانية.

فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادثِ شُغْلٍ عرض ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفّها عليك، فإنك لم تشتهها ولم تنازع إليها إلا وبينكما نسب، والشئ لايحنُّ إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات؛ لأن النفوس لاتجود بمكنونها مع الرغبة ولاتسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة.

وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً؛ حتى يَقْسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبّر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحن وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظّارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: العرض والجوهر وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشى، وذكر الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك».

وقد لاحظنا خلال النصوص السابقة اهتمام العلماء، وعلى رأسهم الجاحظ،

بالأداء الصوتى الذى يعد جزءاً من أدوات الخطيب الماهر؛ لذلك اهتموا بالوقوف أمام عيوب النطق وأمراض الكلام؛ لأنها تؤدى إلى استهجان الجمهور للخطيب وعدم الإقبال عليه، وهذا التوقف يندرج تحت التعريف بمصطلح «البلاغة» فى الدرس العربى، ومن المفيد أن نحاول دراسة تلك العيوب والأمراض بالتفصيل.

-٢-

اهتم القدماء من العلماء العرب بالتوقف أمام «عيوب النطق» أو «أمراض الكلام»، ومنهم الجاحظ الذى أشار إلى الجمال الصوتى فى اللغة المنطوقة، وأتبع ذلك بما يعرض للمتكلم من عيوب تتصل بنطقه لبعض الأصوات، وقد أطال الوقوف مع واصل بن عطاء الذى جانب صوت الراء فى إحدى خطبه، ونوّه بذلك بشار فى قوله:

تكلّفوا القولَ والأقوامُ قـد حفلوا ... وحبّروا خطباً ناهيك مـن خطب
فقام مرتجـلاً تغلـى بداهتـهُ ... كمرجلِ القيْن لما حـُفّ باللّهبِ
وجَانَـب الـراءَ لم يشعرْ به أحدٌ ... قبل التصفُّحِ والإغراقِ فى الطّلبِ

ويرى الجاحظ أن هناك أربعة أصوات تدخلها «اللثغة» هى: القاف، والسين، واللام، والراء؛ ثم أشار - بعد ذلك - إلى الشين وما يدخلها من اللثغة، وأوضح أن هذا شئ لايصوره الخط لأنه ليس من الأصوات المعروفة وإنما هو مخرج من المخارج، والمخارج لاتُحصى ولايوقف عليها.

واللثغة التى تعرض للسين تكون ثاء كما فى الأمثلة الآتية:

أبو يكسوم ← أبو يكثوم

بسـرة ← بثـرة

بسم الله ← بائم الله

واللثغة التى تعرض للقاف يجعل صاحبها القاف طاء كما فى:

قلت له ← طلت له

قال لي ← طال لي

واللثغة التي تقع في اللام يجعل صاحبها اللام ياءً كما في:

اعتللتُ ← اعتييتُ

جمل ← جمي

وأضاف الجاحظ حول تلك اللثغة: «وآخرون يجعلون اللام كافاً كالذي عرض لعمر أخي هلال؛ فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلةُ في هذا؟ قال: ما اكعكة في هذا؟»(١٣).

واللثغة التي تقع في الراء تكون عن طريق نطقها ياءً، نحو:

عمرو ← عمي

أو نطقها غيناً، نحو:

عمرو ← عمغ

أو نطقها ذالاً، نحو:

عمرو ← عمذ

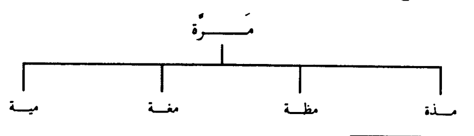
أو نطقها ظاءً، نحو:

مرّة ← مظّة

ويقدم الجاحظ تطبيقاً على نطق بعض الناس لكلمة «مرة» في قول الشاعر:

واستبـدتْ مـرةً واحـدةً   إنمـا العاجـزُ مَـنْ لا يستبـدْ

كما يأتي:



(١٣) البيان والتبيين: ١/ ٤٤.

وحدّد الجاحظ بعض من استمع إليه حين نطق كلمة «مرة»، ومنهم على بن جنيد بن فريدى، وهو بمثابة «الراوية» أو «المصدر البشرى» informant.

ثم قال: «وأما اللثغة الخامسة التى كانت تعرض لواصل بن عطاء وسليمان بن يزيد العدوى الشاعر؛ فليس إلى تصويرها سبيل. وكذلك اللثغة التى تعرض فى الشين كنحو ما كان لمحمد بن الحجاج كاتب داود بن محمد كاتب أم جعفر، فإن تلك أيضاً ليس لها صورة فى الخط ترى بالعين، وإنما يصورها اللسان، وتتأدى إلى السمع. وربما اجتمعت فى الواحد لثغتان فى حرفين، كنحو لثغة شوشى صاحب عبد الله بن خالد الأموى؛ فإنه كان يجعل اللام ياءً، قال مرة:

مويای ويی اّیی

يريد:

مولاى ولى الرى[١٤]

وهناك بعض الجوانب المهمة التى أشار إليها الجاحظ حين توقف أمام عيوب النطق أو أمراض الكلام، من بينها ما يأتى:

١ – فسر الجاحظ بعض الألفاظ الخاصة بعيوب النطق؛ فقد قال – نقلاً عن الأصمعى – «إذا تتعتع اللسان فى التاء فهو تمتام، وإذا تتعتع فى الفاء فهو فأفاء. قال رؤبة بن العجاج:

يا حَمْدَ ذات المنطق التِّمام
كأنّ وسواسَك فى اللِّمَامِ
حديثُ شيطان بنى هَمّامِ

وقال الشاعر:

لستُ بفأفاءٍ ولاتمتامِ ... ولاكثير الهُجر فى المنام

ومن الألفاظ المستعملة للإشارة إلى عيوب النطق ماورد فى قول أبى عبيدة:

---

(١٤) البيان والتبيين: ١/ ٤٦

«إذا أدخل الرجل بعض كلامه فى بعض فهو أَلَف، وقيل: بلسانه لَفَفٌ، وأنشدنى لأبى الزاحف الراجز:

كــأنّ فــيــه لفَفاً إذا نَطَقْ   من طُولِ تحــبـيـسٍ وهم وأَرَقْ

كأنه لما جلس وحده، ولم يكن له من يكلمه، وطال عليه ذلك أصابه لفف فى لسانه. فالجاحظ يرى أن اللغة أساسها الحوار والتواصل الاجتماعى، وإذا لم يتم التواصل أصيب اللسان باللفف، وأيّد الجاحظ ذلك بمثالين، أولهما خاص بيزيد ابن جابر قاضى الأزارقة(١٥) الذى كان قال له «الصموت» لأنه لما طال صمته ثقل عليه الكلام، فكان لسانه يلتوى، ولايكاد يبين. والآخر عبرّ عنه بقوله: «وأخبرنى محمد بن الجهم أن مثل هذا اعتراه أيام محاربة الزُّط (١٦) من طول التفكر ولزوم الصمت. قال وأنشدنى الأصمعى:

حـديث بنى زُط إذا مـا لقـيـتـم   كنَزْوِ الدَبَى فى العرفج المتقارب(١٧)

قال ذلك حين كان فى كلامهم عجلة(١٨).

وإذا كان الجاحظ قد أشار إلى التمتام والفأفاء والألف، فإنه فسّر لفظة رابعة مما يدور فى إطار أمراض الكلام وعيوبه وهى «الحُبْسَة»، والمقصود بها عنده إذا كان الكلام يثقل عليه، ولم يبلغ حد الفأفاء، وفسّر لفظة خامسة وهى «اللكنة» والمقصود بها إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج. وفسّر لفظة سادسة وهى «الحُكْلة»؛ فإذا قالوا فى لسانه حكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللفظ حتى لاتعرف معانيه إلا بالاستدلال. ويبدو أن الحكلة قد انتشرت على بعض الألسنة لاختلاط العرب بغيرهم من الشعوب؛ لذلك وردت على ألسنة الشعراء. قال رؤبة بن العجاج:

---

(١٥) الأزارقة: فرقة من فرق الخوارج، ورأسهم نافع بن الأزرق.

(١٦) الزط: قوم من الهند خرجوا على الناس فى العصر العباسى.

(١٧) النزو: الوثب، والدبى: صغار الجراد، والعرفج: نوع من الشجر السهلى.

(١٨) البيان والتبيين: ١/ ٤٧.

لــو أننى أوتيــتُ علْــمَ الحُكْــلِ عِلْــمَ سليمــانَ كــلامَ النمــلِ

وقال محمد بن ذؤيب فى مديح عبد الملك بن صالح:

ويفــهـم قــولَ الحكل لو أن ذَرَّةً تُسـاودُ أخـرى لم يفـتـه سِوادُها

وقال الشاعر يهجو بنى تغلب:

ولكـن حُكلاً لا تبين وديـنُهــا عبـادةُ أعـلاجٍ عليـهـا البـرانسُ

٢ – تنبه الجاحظ إلى إمكان علاج بعض عيوب الكلام وأمراضه، ويكون ذلك عن طريق التدرب على النطق السليم للأصوات التى يعتريها المرض أو العيب، يدلنا على ذلك قوله: «واللثغة فى الراء إذا كانت بالياء فهى أحقرهن وأوضعهن لذى المروءة، ثم التى على الظاء، ثم التى على الغين فهى أيسرهن. ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه، وأحدّ لسانه، وتكلف مخرج الراء على حقها والإفصاح بها، لم يكن بعيداً من أن تجيبه الطبيعة، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثراً حسناً. وقد كانت لثغة محمد ابن شبيب المتكلم بالغين، وكان إذا شاء أن يقول: عمرو لعَمْرى، وما أشبه ذلك على الصحة قاله، ولكنه كان يستثقل التكلف والتهيوء لذلك؛ فقلت له: إذا لم يكن المانع إلا هذا العذر، فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهراً واحداً إن لسانك كان يستقيم»[١٩]. فالنص يشير إلى العلاج عن طريق الشخص المصاب الذى عليه أن يجهد نفسه ولسانه ويحاول نطق صوت الراء نطقاً صحيحاً، وليس بمستبعد أن يتخلص من هذا العيب؛ بل إن الجاحظ قد حدّد الوقت الذى يستغرقه التكلف والتتبع للنطق لصوت الراء بأنه شهر واحد حسب.

وإذا كان الجاحظ قد حدد فى نصه السابق العلاج لعيوب النطق وأمراض الكلام؛ فإنه حاول تعليلها وبيان السبب فيها؛ فقد «زعم ناس من العوام أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان ألثغ، ولم يقفوا من الحروف التى كانت تعرض له فى شئ بعينه؛ فمنهم من جعل ذلك خِلْقَةً، ومنهم من زعم أنه إنما اعتراه حين قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون لفرعون: لاتقتل طفلاً لايفرق الجمر من

(١٩) البيان والتبيين: ١/ ٤٦.

التمر؛ فلما دعا له فرعون بهما جميعاً تناول جمرةً، فأهوى بها إلى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه»[٢٠].

٣- اعتمد الجاحظ فى وصفه لعيوب الكلام وأمراض النطق على «السماع» و «المشاهدة» للخطباء؛ بالإضافة إلى نقله عمن سمع أو شاهد، وقد ذكر بعض العيوب الخاصة بالخطيب، ومن ذلك ما ورد فى شعر لسحيم بن حفص فى الخطيب الذى تعرض له النحنحة والسعلة؛ وذلك إذا انتفخ سحره، وكبا زنده، ونبا حده؛ فقال:

نعوذُ باللـه مـن الإهمـال ومن كَلالِ الغـربِ فى المقـالِ

ومن خطيبٍ دائم السُّعـال[٢١]

فإن «السعال» حين الخطابة عيب ربما يؤدى إلى الإبهام على المستمعين، وعدم القدرة على فهم المعنى؛ لأن الجمل والعبارات والمفردات تختلط بالسعال مما يؤدى إلى هذا الإبهام. وقال بشر بن المعتمر:

ومـن الكبائـر مِقْولٌ متتعتـعٌ جمٌّ التنحنـح متعِـبٌ ميهور[٢٢]

وقد علق الجاحظ على هذا البيت قائلاً: «وذلك أنه شهد ريسان يخطب، وقد شهدت أنا هذه الخطبة، ولم أر جباناً قط أجرأ منه، ولا جريئاً قط أجبن منه».

ومما يتصل بذلك قول الجاحظ: «قال الأشلُّ الأزرقيُّ - من بعض أحوال عِمْران بن حطَّان الصُّفْرى القعدى - فى زيد بن جُنْدَبٍ الإيادى خطيب الأزارقة، واجتمعا فى بعض المحافل؛ فقال، بعد ذلك، الأشل البكرىّ:

نَحْنَـح زيـدٌ وسَعَـلْ لمّـا رأى وقْـعَ الأَسَـلْ[٢٣]

ويلمّـه إذا ارتجـلْ ثـم أطـال واحتفـلْ

وقد اهتم الجاحظ بصفات الخطيب، نقلاً عن أبى دؤاد بن جرير، وقد جرى

(٢٠) السابق والصحيفة نفسها.
(٢١) الغرب: الحد.
(٢٢) ميهور: متحير.
(٢٣) الأسل: الرماح.

شئ من ذكر الخطب، وتحبير الكلام واقتضابه، وصعوبة ذلك المقام وأهواله، الذى قال: «تخليص المعانى رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر فى عيون الناس عيٌّ، ومس اللحية هُلك، والخروج مما بُنى عليه أول الكلام إسهاب». وقال أبو دؤاد أيضاً: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه»(٢٤).

وبعد هذه المحاولة للتعرف على ما يحيط بـ «البلاغة» من جوانب لغوية، ننتقل إلى الحديث عن «الفصاحة».

-٣-

والفصاحة فى اللغة عبارة عن البيان والظهور، ونقدم بعض التراكيب النحوية التى توضح المعنى اللغوى، وهى كما يأتى:

– أفصحَ اللبنُ: إذا ذهب عنه اللّبَاء وانجلت رغوته.

قال الشاعر:

ولم يخشوا مصالته عليهم ... وتحت الرغوةِ اللبنُ الفصيحُ

ولذلك يقال: سقاهم لبناً فصيحاً، وهو الذى أُخذِت رغوته، أو ذهب عنه لباؤه وخلص منه.

– أفصح العجمى: إذا خلص كلامه عن اللكنة واللحن، أو تكلم بالعربية.

– أفصح الصبى فى منطقه: فُهم ما يقول فى أول ما يتكلم.

– جاء فِصْح النصارى: أى يوم بروزهم فى معيدهم، وقد تكلمت به العرب. قال حسان بن ثابت:

ودنا الفصح فالولائد ينظمن سراعاً أكلة المرجان

---

(٢٤) البيان والتبيين: ١/ ٥١ و ٥٢.

ويجوز أن يكون ذلك لاعتقادهم أن عيسى عليه السلام ظهر فيه.

– أفصح كل شئ: إذا وضح، وفى الكتاب العزيز: (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى)[٢٥].

– له مال فصيح وصامت. قال الشاعر:

وقد كنتُ ذا مالٍ فصيحٍ وصامتٍ   وذا إبلٍ قــد تعلمين وذا غَنَم

– أفصح الصبح: إذا ظهر وعلا ضوءه.

– سُمّى الكلام الفصيح فصيحاً كما أنهم سموه بياناً لإعرابه عما عُبر به عنه وإظهاره له إظهاراً جلياً، روى عن النبى ﷺ أنه قال: «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش»[٢٦].

نأتى، بعد ذلك، إلى مفهوم الفصاحة فى اصطلاح علماء البلاغة فنجدهم يشيرون إلى أن الفصاحة خاصةً تقع صفة للمفرد؛ فيقال: كلمة فصيحة، ولايقال: كلمة بليغة.

وحين درسوا فصاحة المفرد أشاروا إلى بعض الشروط التى يجب توافرها فيه[٢٧]، وصل بها ابن سنان الخفاجى إلى ثمانية[٢٨]، وهى مجموعة من الشروط

(٢٥) القصص / ٣٤.

(٢٦) انظر سر الفصاحة: ٥٨ وما بعدها؛ وأساس البلاغة: ٤٧٤؛ والطراز: ١/ ١٠٣؛ ومجمل اللغة: ٣/ ٧٢٢؛ والإيضاح: ٧٢.

(٢٧) من المفيد الإشارة إلى أنه ليست هناك كلمة جميلة وأخرى قبيحة، وإنما يرد هذا كله إلى السياق أو التركيب النحوى. قال عبد القاهر: «وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لايجوز أن يكون فى الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدى إلى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة، قد حدث فى مذاقة حروفها وأصدائها لم تكن، لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت فى أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة فى القرآن، لايجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن». الدلائل: ٣٨٦. وإننا إذ نعرض لتلك الشروط عند ابن سنان إنما نحاول التعرف على المناخ العام للتفكير اللغوى عند علماء البلاغة.

(٢٨) سر الفصاحة: ٦٤ – ٩٢.

اللغوية التى تؤدى إلى تلك الفصاحة، ويمكن العرض لها خلال النقاط الآتية:

أولاً: أن يكون تأليف اللفظة المفردة من حروف متباعدة المخارج، وعلى هذا جل كلام العرب، ومن أمثلة التأليف من الحروف المتقاربة فى مخارجها الذى يؤدى إلى الصعوبة فى النطق كلمة «الهُعْخُع»(٢٩)؛ فقد رُوى أن أعرابياً سُئل عن ناقته، فقال: تركتها ترعى الهعخع(٣٠).

ثانياً: أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزية على غيرها، وإن تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة، مثال ذلك الحروف (ع ذ ب) فإن السامع يجد لقولهم «العُذيب» اسم موضع، و «عذيبة» اسم امرأة، وعَذْب وعذاب وعَذَب وعذبات، ما لايجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف، وليس سبب ذلك بُعْد الحروف فى المخارج فقط، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى فى تقديم العين على الذال لضرب من التأليف فى النغم يفسده التقديم والتأخير.

وقد مثل ابن سنان لبعض الكلمات القبيحة فى تأليفها مثل «الجرشى» فى قول المتنبى:

مـبـاركُ الاسمِ أغــرُ اللقب ... كريمُ الجِرشّى شَريفُ النســب(٣١)

و «الحقلد» فى قول زهير:

تقىٌ نقىٌ لم يكثّر غنيــمــةً ... بنكهةِ ذى قُربى ولا بحقلــد(٣٢)

قال ابن سنان: «الحقلد كلمة توفى على قبح الجرشى وتزيد عليها».

ثالثا: أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية، كقول أبى تمام:

(٢٩) ضرب من النبت.

(٣٠) الإيضاح: ٧٣.

(٣١) الجرشى: النفس، واللقب: ما ينبز به الرجل. والمعنى: يريد أن اسم سيف الدولة على، وهو اسم مبارك يتبرك به لمكان على كرم الله وجهه، وهو مشتق من العلو، والعلو محبوب مطلوب. ويريد أنه مشهور اللقب بسيف الدولة، وقد اشتهر به فى الآفاق فهو أغر والأغر: الواضح الأبلج، وشريف النسب لأنه من ربيعة وهم كرام أشراف. انظر شرح ديوان المتنبى: ١/ ٩٩.

(٣٢) الحقلد: سيء الخلق: شرح ديوان زهير: ٢٣٤. وانظر المغنى: ٦٨٥؛ إذ إن أبا حيان سأل ابن هشام عن العطف فى «ولابحقلد» ولم يجب ابن هشام إلا بعد أن عرف معنى «الحقلد».

لقد طلعتْ فى وجه مصر بوجهه بلا طالع سـد ولاطائر كـهل

فإن كهلاً ها هنا من غريب اللغة، وقد روى أن الأصمعى لم يعرف هذه الكلمة، وليست موجودة إلا فى شعر بعض الهذليين. وقد قيل: إن الكهل الضخم، وكهل لفظة ليست بقبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة لايعرفها مثل الأصمعى.

رابعاً: أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية، ومن أمثلتها قول أبى تمام:

جليتَ والموت مبدٍ حُرَّ صفحته وقـد تفـرعن فى أفـعـاله الأجلُ

فإن «تفرعن» مشتق من اسم فرعون، وهو من ألفاظ العامة، وعاداتهم أن يقولوا «تفرعن فلان» إذا وصفوه بالجبرية.

خامساً: أن تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح غير شاذة، ويدخل فى هذا القسم كلُّ ما ينكره أهل اللغة، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد فى الكلمة، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية، كما أنكروا على أبى الشيص قوله:

وجناح مـقـصـوص تحيّف ريشَه ريبُ الزمـان تحـيف المقـراض

وقالوا: ليس «المقراض» من كلام العرب.

وقد تكون الكلمة عربية، ولكن قد عُبِّر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة، كما قال أبو تمام:

حلت محل البكر من معطى وقد زُفّت من المعطى زفـاف الأيِّم

فوضع «الأيم» مكان «الثيب» وليس الأمر كذلك؛ لأن الأيم هى التى لازوج لها، بكراً كانت أو ثيباً. قال تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم)(٣٣) أفتراه أراد أنكحوا الثيبات من النساء دون الأبكار؟ إنما أراد تبارك اسمه: انكحوا النساء اللواتى لا أزواج لهن. فالثيب والبكر والصغيرة والكبيرة ممن لازوج لها تدخل فى الآية الكريمة(٣٤)، قال الشماخ:

يقر بعـينى أن أُحَدَّثَ أنهـا وإن لم أنـلهـا أيم لم تَزَوَّج

(٣٣) النور / ٣٢.

(٣٤) الموازنة: ١/ ١٦٧.

سادساً: ألا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، ومثال هذا قول عروة بن الورد العبسي:

قلت لقـوم في الكنيف تروّحـوا عشيـــة بتنا عند مـاوانَ رُزّحِ[٣٥]

قال ابن سنان: «والكنيف أصله الساتر، ومنه قيل للترس كنيف، غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهر بها؛ فأنا أكرهه في شعر عروة، وإن كان ورد وردا صحيحاً، لموافقة هذا العرف الطارئ، على أن لعروة عذراً، وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده، بل لا أشك أنه كذلك؛ لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار، فهو وإن كان معذوراً وغير ملوم فبيته مما يصلح التمثيل به».

سابعاً: أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف؛ فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة. قال المتنبي:

إن الكريم بلا كـــــرامٍ منهمُ مـثل القلوب بلا سـويداواتهـا

فـ «سويداواتها» كلمة طويلة جداً عند ابن سنان.

ثامناً: أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شئ لطيف أو خفي أو قليل أو مايجرى مجرى ذلك، فإنها تحسن به، ولعل ذلك لموقع الاختصار بالتصغير ومثال ذلك قول الشريف الرضي:

يولّع الطلُّ بردينَا وقـد نسـمتْ رُوَيْحةُ الفجرِ بين الضّالِ والسّلم

فلما كانت الريح المقصودة هنا نسيماً مريضاً ضعيفاً حسنت العبارة عنه بالتصغير، وكان للكلمة طلاوة وعذوبة.

هذه هي الشروط الثمانية الخاصة بفصاحة الكلمة على نحو ما أشار ابن سنان.

وبعد هذا العرض لبعض ما يتصل بمصطلح الفصاحة من جوانب لغوية،

---

(٣٥) ماوان: قرية من أرض اليمامة، ورزح: يقال قوم رزح: صعاليك.

نتوقف أمام مصطلح مهم فى تاريخ الدرس البلاغى عند القدماء وهو «المجاز».

- ٤ -

ويتصل «المجاز» بالاستعمال اللغوى اتصالاً مباشراً، وقبل أن نحاول التعرف على هذا الاتصال نتوقف أمام كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة؛ باعتباره أول ما وصل إلينا ويحمل فى عنوانه كلمة «المجاز» ولكن قبل الدخول فى ذلك نتوقف أمام السبب فى تأليفه؛ لأنه سبب لغوى، وقد ورد على لسان أبى عبيدة نفسه قال: «أرسل إلىّ الفضل بن الربيع فى الخروج إليه سنة ثمانٍ وثمانين ومائة، فقدمتُ إلى بغداد واستأذنت عليه، فأذن لى وهو فى مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفى صدره فرش عالية لايرتقى إليها إلا على كرسى .... ثم دخل علىّ رجلٌ فى زى الكُتّاب له هيئة، فأجلسه إلى جانبى، وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا، قال: هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة، أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا، وقال إنى كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة، أفتأذن لى أن أعرفك إياها؟ فقلت هات، قال: قال الله عز وجل: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين)[٣٦]، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقلت: إنما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به. فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وعزمت فى ذلك اليوم أن أضع كتاباً فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته المجاز[٣٧].

ولكن ما مفهوم المجاز عند أبى عبيدة؟ لقد تحدث الرجل فى بداية كتابه[٣٨] عن بعض الظواهر اللغوية فى القرآن الكريم، وهى توضح هذا المفهوم وتكشف

(٣٦) الصافات / ٦٥.

(٣٧) معجم الأدباء: ٧/ ١٦٧؛ ووفيات الأعيان: ٥/ ٢٣٦؛ وشذرات الذهب: ٢/ ٢٥.

(٣٨) مجاز القرآن: ١/ ٨ – ١٦.

عنه، وقدّم لتلك الظواهر بقوله: «قالوا: إنما أُنزل القرآن بلسان عربى مبين، ومصداق ذلك فى آية من القرآن. وفى أية أخرى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) [٣٩] فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبى ﷺ أن يسألوا عن معانيه؛ لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما فى كلام العرب مثله من الوجوه والتخليص. وفى القرآن مثل ما فى الكلام العربى من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعانى».

وقد عرض أبو عبيدة لبعض الظواهر اللغوية التى تطبع الأسلوب القرآنى العظيم، ومن تلك الظواهر ما يأتى:

١ – اهتم أبو عبيدة بالتوقف أمام ما ورد فى الآيات الكريمة من «الحذف» deletion. قال تعالى: (واسأل القرية التى كنا فيها)[٤٠] والأصل المقدر the underlying structure هو «واسأل أهل القرية» ويدرج هذا الحذف تحت «حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه».

٢ – أشار إلى ماورد فى الآيات الكريمة من «الاختصار» reduction. قال: «ومن المحتمل من مجاز ما اختصر وفيه مضمر، قال: (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا)[٤١] فهذا مختصر فيه ضمير مجازه: (وانطلق الملأ منهم) ثم اختصر إلى فعلهم وأضمر فيه وتواصوا أن امشوا، أو تنادوا أن امشوا أو نحو ذلك».

٣ – توقف أبو عبيدة أمام بعض الظواهر اللغوية التى يدرسها المحدثون فى إطار «الفصائل النحوية» grammatical categories وتشمل «الجنس» gender و «العدد» number و «الزمن» Tense[٤٢]، ومن ذلك توقف أبى عبيدة أمام التعبير بلفظ الواحد عن الجميع. قال تعالى: (والملائكة بعد ذلك ظهير)[٤٣]، (ظهير) فى موضع «ظهراء».

---

(٣٩) ابراهيم/ ٤.

(٤٠) يوسف / ٨٢.

(٤١) ص / ٦.

(42) Palmer, Frank, Grammar, p. 74.

(٤٣) التحريم / ٤.

وقال أبو عبيدة: «ومن مجاز ما فيه لغتان فجاء بإحداهما قال: (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه)[٤٤]؛ فالأنعام يذكر ويؤنث، وقال: (كذبت قوم نوح المرسلين)[٤٥] يقال: هذه قومك، وجاء قومك ومن مجاز ما أظهر من لفظ المؤنث ثم جعل بدلاً من المذكر فوصف بصفة المذكر بغير الهاء كذلك، قال: (السماء منفطر به)[٤٦] جُعلت السماء بدلاً من السقف بمنزلة تذكير سماء البيت».

٤- اهتم أبو عبيدة بالتوقف أمام وجوه الإعراب دون بيانها بالتفصيل وذلك كما فى قوله تعالى: (إن هذان لساحران)[٤٧]، وتلك الوجوه مما يندرج تحت المجاز.

٥- أشار إلى ماورد من الآيات التى أُعمل فيها الفعل مباشرة، دون أن يتعدى بحرف الجر. قال تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم)[٤٨] والفعل يتعدى بـ «إلى» واللام: إلى الصراط المستقيم.

٦- مما يطبع الأسلوب القرآنى وضع المصدر موضع الاسم أو الصفة. قال تعالى: (ولكن البر من آمن بالله)[٤٩]؛ أى البار، وقال تعالى: (أن السموات والأرض كانتا رتقاً)[٥٠]، والرتق مصدر، وهو فى موضع مرتوقتين.

٧- مما يندرج تحت المجاز عند أبى عبيدة اختلاف دلالة الألفاظ عند اللغويين. قال تعالى: (وغدوا على حَرْدٍ قادرين)[٥١] ففسروه على ثلاثة أوجه؛ قال بعضهم: على قصد، وقال بعضهم: على منع، وقال آخرون: على غضب وحقد.

---

(٤٤) النحل / ٦٦.

(٤٥) الشعراء / ١٠٥.

(٤٦) المزمل / ١٨.

(٤٧) طه / ٦٣.

(٤٨) الفاتحة / ٥.

(٤٩) البقرة / ١٨٩.

(٥٠) الأنبياء / ٣٠.

(٥١) القلم/ ٢٥.

٨- توقف أبو عبيدة أمام «التقديم والتأخير» . قال تعالى: (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)[٥٢] أراد: ربت واهتزت، وقال تعالى: (لم يكد يراها)[٥٣] أى لم يرها ولم يكد.

٩- أشار أبو عبيدة إلى التكرار. قال تعالى: (رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين)[٥٤]، أعاد الرؤية.

١٠- زيادة الحروف من الظواهر التى تطبع التركيب النحوى لبعض الآيات الكريمة، وتندرج تلك الزيادة تحت المجاز. قال تعالى: (فما منكم من أحد عنه حاجزين)[٥٥]، وقال تعالى: (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين)[٥٦].

تلك هى أهم الموضوعات التى تندرج تحت «المجاز» عند أبى عبيدة، وهى مجموعة من الظواهر اللغوية المتصلة بالصرف والنحو والدلالة. ولعله من المفيد أن نشير إلى ما قاله ابن جنى من أن «هذه اللغة أكثرها جارٍ على المجاز، وقلما يخرج الشئ منها على الحقيقة.... فلما كانت كذلك، وكان القوم الذين خوطبوا أعرف الناس بسعة مذاهبها، وانتشار أنحائها، جرى خطابهم بها مجرى ما يألفونه ويعتادونه منها، وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم وعادتهم فى استعمالها»[٥٧].

وبعد هذه المحاولة للتعرف على مفهوم «المجاز» عند أبى عبيدة، نحاول دراسة المصطلح عند علماء البلاغة، وقد أشار إليه الجاحظ حين تحدث عن الحقيقة والمجاز قال: «وإذا قالوا: أكله الأسد؛ فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا قالوا: أكله الأسود[٥٨]؛ فإنما يعنون النهش واللدغ والعض فقط. وقد قال الله عز وجل: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً)[٥٩] ويقولون فى باب آخر: فلان يأكل

٥٢ – الحج/٥. ٥٣ – النور/ ٤٠.
٥٤ – يوسف ٤. ٥٥– الحاقة/ ٤٧.
٥٦ – المؤمنون / ٢٠.
(٥٧) الخصائص: ٣/ ٢٤٥ وما بعدها.
(٥٨) الأسود: نوع خبيث من الأفاعى.
(٥٩) الحجرات/١٢.

الناس، وإن لم يأكل من طعامهم شيئاً، وكذلك قول دهمان النهرى:

سألتنى عن أناس أكلوا   شرب الدهر عليهم وأكل

فهذا كله مختلف وهو كله مجاز[٦٠] فالتركيب النحوى «أكله الأسد» جاء على الحقيقة عند الجاحظ، أما ما يتصل بالأكل فى التراكيب الأخرى فهو مجاز.

وتوقف ابن فارس أمام الحقيقة والمجاز أيضاً، وأشار إلى أن الحقيقة «الكلام الموضوع موضعه الذى ليس باستعارة ولاتمثيل، ولاتقديم فيه ولا تأخير؛ كقول القائل: أَحْمَدُ اللّه على نعمه وإحسانه. وهذا أكثر الكلام»؛ أى إن الكلام الحقيقى عند ابن فارس يمضىَ لسننه لا يُعْتَرض عليه، وقد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه، إلا أن فيه من تشبيه واستعارة، كف ما ليس فى الأول، وذلك كقولك: عطاءُ فلانٍ مُزْن؛ فهذا تشبيه، وقد جاز مجاز قوله: عطاؤه كثير واف[٦١]؛ أى إن المجاز عند ابن فارس كاد يقترب من الحقيقة، ولكن هناك بعض التصرف فى القول عن طريق استخدام الاستعارة والتمثيل والتقديم والتأخير.

واهتم ابن رشيق بالمجاز فى باب من أبواب كتابه (العمدة)[٦٢]، وقد أشار إلى أن العرب كثيراً ما تستعمل المجاز وتعده من مفاخر كلامها؛ فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات. ومعنى المجاز - عند ابن رشيق - طريق القول ومأخذه، وهو مصدر: جزتُ مجازاً؛ كما تقول: قمتُ مقاماً، وقلتُ مقالاً... والمجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعاً فى القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالاً محضاً فهو مجاز؛ لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخل تحت المجاز، إلا أنهم خصوا به (المجاز) باباً بعينه وذلك أن يسمى الشئ باسم ما قاربه أو كان منه بسبب كما قال جرير بن عطية:

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ   رعيناه وإن كانوا غضابا

---

(٦٠) الحيوان: ٢٧/٥و٢٨.

(٦١) الصاحبى: ٣٢١ -٣٢٣.

(٦٢) العمدة: ١٧٨/١ - ١٨٠.

أراد المطر لقربه من السماء، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب؛ لأن كل ما أظلك فهو سماء وقال «سقط»؛ يريد سقوط المطر الذى فيه، وقال «رعيناه» والمطر لايُرْعى ولكن أراد النبت الذى يكون عنه؛ فهذا كله مجاز.

ويعرّف عبد القاهر الجرجانى المجاز بأنه كل «كلمة أريد بها غيرما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهى مجاز. وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً وللملاحظة ما تجوّز بها إليه وبين أصلها الذى وُضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز»[٦٣].

وبعد هذا العرض للتعريفات التى قال بها العلماء للمجاز، نستطيع أن نقول إنه عكس «الحقيقة» وإنه خروج عن طريق التعبير الحقيقى فى استعمال الألفاظ داخل التراكيب النحوية، وهو من سنن العرب فى كلامها.

وقد ربط يحيى العلوى فى (الطراز)[٦٤] بين «المجاز» ووجوه التصرف فى الأداء اللغوى خلال خمسة عشر أمراً، نستطيع أن نقول إنها تمثل المجالات التى يدور فى إطارها المصطلح عند القدماء، ويمكن تقديم تلك الأمور على النحو الآتى:

١ – تسمية الشيء باسم الغاية التى يصير إليها، وهذا نحو تسميتهم «العنب» بالخمر لما كان يصير إليها، و«العَقْد» بالنكاح لما كان موصلاً إليه.

٢ – تسمية الشيء بما يشابهه، وهذا نحو تسميتهم المذلة العظيمة بالموت، والمرض الشديد بالموت أيضاً.

٣ – تسميتهم «اليد» باسم القدرة كقوله تعالى: (يد الله فوق أيديهم)[٦٥]؛ أى قدرته، وقولهم: يد فلانٍ على غيره قاهرة. ووجه المجاز من جهة أن اليد محل للقدرة، أو من جهة أن اليد آلة فى الفعل، والفعل لايمكن حصوله إلا بواسطة القدرة؛ فلأجل هذا تجوزوا فى تسمية اليد بالقدرة.

(٦٣) أسرار البلاغة: ٢٨١ وما بعدها.

(٦٤) الطراز: ١/٦٩-٧٣.

(٦٥) الفتح / ١٠.

٤ - تسمية الشئ باسم قابله؛ حيث قالوا: سال الوادى، والحقيقة: سال ماء الوادى؛ فإسناد السيلان إلى الوادى من باب المجاز المركب، وتسمية الماء بالوادى من باب المجاز المفرد، لما كان الوادى قابلاً له.

٥ - تسمية الشئ باسم ما يكون ملابساً له كما سموا المطر بالسماء؛ فقالوا: جادتنا السماء، لما كان المطر نازلاً منها.

٦ - إطلاقهم الاسم أخذاً من غيره لاشتراكهما فى معنى من معانيه؛ كما أطلقوا لفظ «الأسد» على الشجاع باعتبار الشجاعة، وكما أطلقوا «الحمار» على البليد لأجل البلادة، وهذا هو الذى يقال إنه من باب الاستعارة.

٧ - تسمية الشئ باسم ضده كقوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها)[٦٦].

٨- تسمية الكل باسم الجزء، كإطلاق لفظ العموم مع أن المراد منه الخصوص كقوله تعالى: (وهو على كل شئ قدير)[٦٧]، فقد خرج من هذا كثير من الموجودات التى لايقدر عليها؛ فالعموم صار مجازاً فى الخصوص.

٩ - تسمية الجزء باسم الكل كما يقال للزنجى إنه أسود، فقد اندرج بياض أسنانه وبياض عينيه فى هذا الإطلاق.

١٠ - إطلاق اللفظ المشتق بعد زوال المشتق منه كإطلاق قولنا: قاتل وضارب بعد فراغه من القتل والضرب، فإن إطلاقه على جهة الحقيقة فى الحال؛ فأما بعد ذلك فهو مجاز.

١١ - المجاورة. وهذا كنقل اسم الراوية من ظرف الماء إلى ما يحمل عليه من الجمل وغيره، ونحوه تسمية الشراب بالكأس لأجل مجاورته له.

١٢ - إطلاق لفظ «الدابة» على الحمار؛ فإنه كان بالوضع اللغوى لكل ما يدب كالدودة والنملة ، ثم تعورف على قصره على ذوات الأربع من الدواب؛ فإذا قُصر من ذوات الأربع على الحمار كان هذا مجازاً بالإضافة الى العرف.

---

(٦٦) الشورى/ ٤٠.

(٦٧) المائدة / ١٢٠. وآيات كريمة أخرى.

١٣ - مجاز بالزيادة كقوله تعالى: (ليس كمثله شيء)(٦٨) فالكاف ههنا مزيدة؛ لأنها لو أسقطت لاستقام الكلام؛ فلهذا كان مجيئها للزيادة المجازية.

١٤ - المجاز بالنقصان، وهذا كقوله تعالى: (واسأل القرية)(٦٩) فإن المراد أهل القرية؛ ولهذا فإنه لوجيء بها لصح الكلام واستقام.

١٥ - تسمية المتعلّق باسم المتعلَّق كتسمية المعلوم علماً، والمقدور قدرة؛ كما قال تعالى: (ولايحيطون بشيء من علمه)(٧٠)؛ أي معلومه، وقولهم: هذه قدرة الله؛ أي مقدوره.

ومن هنا فإنّ مفهوم المجاز عبارة عن التصرف في استعمال اللغة خلال أبنيتها وتراكيبها النحوية ودلالة ألفاظها(٧١).

وبعد هذه المحاولة للتعرف على الصلة بين المجاز والأداء اللغوى، نتوقف أمام ثلاثة من المصطلحات التى تكون معاً «علم البلاغة العربى»، وهى البيان والمعانى والبديع، ونبدأ بالحديث عن «علم البيان».

-٥-

يقول عبد القاهر عن علم البيان: «إنك لاترى علماً هو أرسخ أصلاً وأبسق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان، الذى لولاه لم ترَ لساناً يحوك الوَشْيَ، ويصوغ الحَلْيَ، ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويَقْرى الشهد، ويريك بدائع من الزَّهَر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر، والذى لولا تحفيه بالعلوم، وعنايته بها، وتصويره إياها، لبقيت كامنة مستورة، ولَمَا استبنت لها يد الدهر صورة، ولاستمر السرار بأهلتها، واستولى الخفاءُ على جملتها، إلى فوائد لايدركها الإحصاء، ومحاسن

---

(٦٨) الشورى / ١١.

(٦٩) يوسف/٨٢.

(٧٠) البقرة / ٢٥٥.

(٧١) انظر ما عقده ابن قتيبة تحت عنوانه «باب القول فى المجاز» فى كتابه: تأويل مشكل القرآن ١٠٣ - ١٣٤.

لايحصرها الاستقصاء[٧٢].

ونقدم فيما يلى، بعض التعريفات التى وردت عند علماء البلاغة:

– قال بدر الدين ابن مالك: «علم البيان» هو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة وبالنقصان؛ ليحترز بذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه[٧٣].

– قال يحيى العلوى: «إن علم البيان حاصله إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، فى وضوح الدلالة عليه كالاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها[٧٤].

– قال الخطيب القزوينى: «علم البيان» : علم يُعْرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه[٧٥].

ويتضح من تلك التعريفات أن علم البيان أساسه إيراد المعنى meaning بطرق مختلفة تؤدى إلى وضوح الدلالة. ويبدو أن المقصود بتلك الطرق المختلفة التراكيب النحوية التى يمكن إيرادها بعدة صور، من أهمها التشبيه والاستعارة والكناية، التى هى أساس التصرف فى القول.

وننتقل الآن إلى الحديث عن تعريف «علم المعانى» وعلاقة هذا بالأداء اللغوى

-٦-

قدم علماء البلاغة تعريفات كثيرة لعلم المعانى، وهذه بعضها:

– قال بدر الدين ابن مالك : «علم المعانى» هو تتبع خواص تراكيب الكلام وقيود دلالته؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما تقتضى الحال

---

(٧٢) الدلائل : ٥ ومابعدها.

(٧٣) المصباح : ١٠٣.

(٧٤) الطراز : ١١/١.

(٧٥) الإيضاح : ٣٢٦.

ذكره[٧٦].

– قال الخطيب القزويني: «هو علم يُعْرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال[٧٧].

– قال السكاكي: «هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره[٧٨].

ويتضح من تلك التعريفات أن أساس البحث في «علم المعاني» هو تتبع الخصائص التي تطبع التركيب النحوي كالحذف والزيادة والتقديم والتأخير والاتساع وسواها؛ ليكون هذا التركيب مطابقاً للحال نفسه؛ ومن هنا فإن هذا العلم يرتبط بالأداء اللغوي ارتباطاً مباشراً.

ونحاول النظر في بعض الخصائص التركيبية لإيضاح الصلة بين علم المعاني والأداء اللغوي وهي على النحو الآتي:

أولاً:

يعد الحذف deletion أحد الأبواب الرئيسية في علم المعاني، وهو يرتبط بالأداء اللغوي الذي يخلع عليه الحذف جمالاً، وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر في قوله: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذ لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبن» [٧٩].

وهناك مجموعة من العوامل اللغوية التي تخلع الجمال على الحذف، يأتي على رأسها ما يتصل بـ «سياق الحال» الذي يتفرع عنه المناسبة التي قيلت فيها الأبيات، ومن ذلك قول الأقيشر في ابن عم له موسرٍ، سأله فمنعه، وقال: كم

(٧٦) المصباح: ٧.

(٧٧) الإيضاح: ٨٤.

(٧٨) المفتاح: ١٦١.

(٧٩) الدلائل: ١٤٦.

أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لايغنيك والله لا أعطيتك. فتركه حتى اجتمع القوم فى ناديهم وهو فيهم، فشكاه إلى القوم وذمّه، فوثب إليه ابن عمه فلطمه؛ فأنشأ يقول:

سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يلطمُ وجهَه ... وليس إلى داعى النّدى بسريعِ
حريصٌ على الدنيا مضيعٌ لدينه ... وليس لما فى بيته بمضيعِ(٧٩)

ومما يخلع على الحذف جمالاً حين الأداء اللغوى أن يكون الشعر على شكل حوار، متضمناً أفعالاً تتولد من الجذر المعجمى (ق و ل)؛ وذلك كقول الشاعر:

قال لى : كيف أنت؟ قلت: عليل ... سهرٌ دائمٌ وحزن طويل(٨٠)

ويمكن إعادة تشكيل البيت على شكل حوار، وإن كان هذا سيؤدى إلى أن يفقد جماله، وهو كما يأتى:

قال: كيف أنت؟

قلت : عليل؛ حالى سهر دائم وحزن طويل.

مع ردّ العنصر المحذوف، وهو المبتدأ.

ومما يخلع جمالاً على الحذف حين الأداء اللغوى «القطع والاستئناف»؛ فمن عادة الشعراء البدء بذكر الرجل مع تقديم بعض ما يتصل به، ثم يدعون ذلك؛ أى يقطعونه ويستأنفون كلاماً أخر، تركيبه النحوى عبارة عن مبتدأ محذوف وبعده الخبر، ومن أمثلته قول أبى البرج القاسم بن حنبل المرى:

هُمُ حلُّوا من الشرف المعلى ... ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بناة مكارمٍ وأُساة كلمٍ ... دماؤهم من الكَلَب الشفاء(٨١)

والتقدير «هم بناة مكارم»

---

(٧٩) الإيضاح : ١١٠ وما بعدها.

(٨٠) السابق: ١٠٩ .

(٨١) الدلائل : ١٥٢ .

ثانيـــــاً:

من الظواهر التركيبية التى يهتم بها علم المعانى، ولها صلتها بالأداء اللغوى «التوكيد بإن»، وأساسه أن هذا التوكيد يأتى على أن فى الجملة السابقة عليها خبراً يتلقاه السامع وهو متحير، ويأتى التوكيد ليزيل ذلك. قال بدر الدين ابن مالك: «وكثيراً ما يخرجون الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ فيحلون المحيط بفائدة الخبر محل الخالى الذهن عنها لتجهيله. ويقيمون من لايسأل مقام من يسأل، إذا كانوا قدموا إليه ما يلوح بالخبر، فيستشرفون له استشراف الطالب المتحير. فيخرجون الجملة إليه مؤكدة(٨٢) ويمكن تطبيق هذا على قول بشار:

بكّرا صـاحبى قـبل الهـجـيـر ... إنّ ذاك النجــاحَ فى التــبكيــر

فإنه لما خاطب بـ «بكرا» محرضاً صاحبيه على التشمير فى شأن السفر، تصورهما حائمين حول : هل التبكير يثمر النجاح؟ فتلقاهما بـ «إن».

والذى يلفت النظر أن بشاراً كان مدركاً لهذه التركيب النحوى الذى لجأ إليه فى عجز البيت؛ فحين سمع خلف الأحمر البيت من بشار، قال له: لو قلت – يا أبا معاذ – مكان «إن ذاك النجاح»: بكرا فالنجاح، كان أحسن؛ فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : إن ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت : بكرا فالنجاح، كان هذا كلام المولدين، ولايشبه ذلك الكلام، ولايدخل فى معنى القصيدة. قال الأصمعى: فقام خلف فقبل بين عينيه(٨٣) .

ثالثـــــاً:

مما يطبع الأداء اللغوى «التقديم والتأخير» وقد قال عنه عبد القاهر: «هو باب كثير الفرائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفتر لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدم فيه شئ، وحُول اللفظ عن

---

(٨٢) المصباح : ١٠ وما بعدها.

(٨٣) الإيضاح : ٩٥.

مكان إلى مكان[٨٤].

وقد درس عبد القاهر جمال الاستعارة فى ضوء التقديم والتأخير، ومن ذلك قول سبيع بن الخطيم التيمى لزيد الفوارس الضبى:

سالتْ عليه شعابُ الحيِّ حين دعا أنصـــارَه بوجـــوهٍ كـــالدنانيــر

قائلا: «فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى، بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف، فأزل كلاًّ منها عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه، فقل: سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تُعْدم أريحتيك التى كانت؟ وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها[٨٥].

رابعـــاً:

نظر البلاغيون فى أساليب الكتاب العزيز، وقارنوا بين الآيات الكريمة من حيث النظر فى العناصر النحوية وربطوا ذلك بالدلالة، وذلك كما حـدث حيـن تعرضوا للإنكار؛ إذ إننا نقول: «إنى صادق» لمن ينكر صدقك، ولكنه لم يبالغ فى إنكاره، ونقول: «إنى لصادق» لمن ينكر صدقـك كذلك، ولكنـه يبالـغ فى هذا الإنكار. والعناصر النحوية للتركيبيين واحدة، ماعـدا وجـود اللام المزحلقـة فى التركيب الثانى، وتفيد الدلالة على التوكيد فى ضوء السياق الذى وقعت فيه.

وعليه قوله تعال: (واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم

---

(٨٤) الدلائل: ١٠٦.

(٨٥) الدلائل: ٩٩.

لمرسلون)[٨٦]. فقد قال فى المرة الأولى: (إنا إليكم مرسلون) وفى الثانية: (إنا إليكم لمرسلون)، ويعود السبب فى إلحاق اللام (لمرسلون) إلى أنه قبل المرة الثانية، وردت بعض الكلمات الدالة على النفى؛ نحو (ما أنتم إلا بشر مثلنا) و(ما أنزل الرحمن من شئ) و (إن أنتم إلا تكذبون) بالاضافة الى وجود القصر فى (ما) مع (إلا)، ووجود (من) الزائدة قبل المفعول به (من شئ) وكلها عناصر نحوية تؤدى إلى التأكيد على النفى؛ لذلك لابد من التأكيد أيضاً على الإرسال؛ فوردت اللام فى (لمرسلون).

لذلك قارن العلماء بين التراكيب النحوية التى تصيبها «الاتساع» expansion، الذى يؤدى إلى اختلاف الدلالة كما يأتى:

عبد الله قائم ←―――― إخبار عن قيامه (ابتدائى)

إن عبد الله قائم ←―――― جواب عن سؤال سائل (طلبى)

إن عبد الله لقائم ←―――― جواب عن إنكار منكر (إنكارى)

وإخراج الكلام على هذه الوجوه يسمى إخراجاً على مقتضى الظاهر[٨٧].

وهناك موضوعات أخرى تندرج تحت «علم المعانى» وهى عبارة عن معالجة لغوية للتركيب النحوى كالفصل والوصل، والقصر وسواهما، وننتقل الآن إلى الحديث عن «علم البديع».

•

أشار الجاحظ إلى البديع[٨٨] إذ إنه أورد أبياتاً للأشهب بن رميلة، وهى قوله:

وإن الألى حانت بفلج دماؤهم ... هم القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ
هم ساعدُ الدهر الذى يتقى به ... وما خير كفٍّ لا تنوءُ بساعدِ
أسودُ شرى لاقتْ أسودَ خفيةٍ ... تساقوا على حردٍ دماءَ الأساودِ

(٨٦) يونس / ١٣ - ١٦ .

(٨٧) انظر الإيضاح : ٩٣ .

(٨٨) البيان والتبيين : ٢٥٤/٣ .

ثم علق عليها قائلاً : قوله: هم ساعد الدهر، إنما هو مثل، وهذا الذى تسميه الرواة البديع، وقد قال الراعى:

هم كـاهلُ الدهرِ الذى يتـقى به ومنكبـهُ إن كـان للدهرِ منكبُ

وقد جاء فى الحديث: موسى الله أحد وساعد الله أشد. البديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان ....».

واتخذ ابن المعتز من «البديع» عنواناً لكتابه، وقد قال فى مقدمته: «قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه فى القرآن واللغة وأحاديث رسول الله (ﷺ) وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع؛ ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف زمانهم حتى سمى بهذا الاسم، فأعرب عنه ودل عليه»(٨٩). والأبواب التى عالجها الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها والمذهب الكلامى، وهى خمسة أبواب، جعلها ابن المعتز أساس كتابه. وربما يعترض معترض على أساس أن تلك الأبواب تقل أو تكثر؛ لذلك رد على هذا الاعتراض بقوله: «قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا، وكأنى بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال: البديع أكثر من هذا، وقال: البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التى قدمناها، فيقل من يحكم عليه؛ لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر، يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم؛ فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولايدرون ما هو، وما جمع فنون البديع ولاسبقنى إليه أحدٌ، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين»(٩٠).

وحين درس ابن رشيق البديع، تعرض لمصطلحين آخرين هما «المخترع» و«التوليد»، حتى يصل إلى مفهوم للبديع، قال: «وأما البديع فهو الجديد، وأصله

(٨٩) البديع : ١.

(٩٠) السابق : ٥٧ وما بعدها.

فى الحبال ؛ وذلك أن يُفْتل الحبل جديداً، ليس من قوى حبل نقضت ثم فُتلت فتلاً آخر ..... والبديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة .... »ويذكر الأقسام الخمسة التى ذكرها ابن المعتز[٩١].

ولم يقدم السكاكى تعريفاً لعلم البديع، وإنما أشار إلى أنه قسمان: البديع المعنوى، ويتضح من التسمية أنه يرجع إلى المعنى والموضوعات التى تندرج تحته هى المطابقة والمقابلة والمشاكلة ومراعاة النظير واللف والنشروالمزاوجة ... وسواها. والبديع اللفظى، ويتضح من التسمية أنه يرجع إلى اللفظ، والموضوعات التى تندرج تحته التجنيس بأنواع المختلفة والسجع والترصيع وسواها[٩٢].

وعرّف الخطيب القزوينى علم البديع بأنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة. وهذه الوجوه ضربات ترجع إلى اللفظ والمعنى[٩٣].

وقال عنه ابن خلدون: «النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق؛ إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك[٩٤].

ويتضح من التعريفات السابقة أن مباحث علم البديع تنصرف إلى التعامل مع اللفظ والمعنى، ومن أمثلة ذلك ما يأتى:

١ - مما يتصل باللفظ والمعنى حديث العلماء عن المطابقة أو الطباق أو التضاد، وهى الجمع بين المتضادين، أى معنيين متقابلين فى الجملة. وهذا الجمع يأتى عن طريق:

- الاسم مع الاسم. قال تعالى: (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود)[٩٥].

---

(٩١) العمدة: ١/ ١٧٥ - ١٧٨.

(٩٢) المفتاح: ٤٢٣ - ٤٣٢.

(٩٣) الإيضاح: ٤٧٧.

(٩٤) المقدمة: ٥٥١.

(٩٥) الكهف / ١٨.

– الفعل مع الفعل. قال تعالى: (تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء)[٩٦].

وقال الرسول (ﷺ) للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع».

– الحرف مع الحرف: قال تعالى: (لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت)[٩٧].

– استعمال لفظين من نوعين. قال تعالى: (أو من كان ميتاً فأحييناه)[٩٨]: أى ضالاً فهديناه[٧٩].

٢ – ومما يتصل بالدلالة ويندج تحت «علم البديع» حديث العلماء عن «مراعاة النظير»، وتسمى أيضاً التناسب والائتلاف والتوفيق أيضاً، وهى أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لابالتضاد؛ قوله تعالى: (الشمس والقمر بحسبان)[١٠٠]. وقال ابن رشيق:

أصحُّ وأقوى ماسمعناه فى النّدى ... من الخبرِ المأثورِ منذ قديم
أحاديث ترويها السيولُ عن الحيا ... عن البحرِ عن كفّ الأمير تميمِ

فإنه ناسب فيه بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور والأحاديث والرواية، ثم بين السيل والحيا والبحر وكف تميم، مع ما فى البيت الثانى من صحة الترتيب فى العنعنة؛ إذ جعل الصاغر عن كابر، كما يقع فى سند الأحاديث؛ فإن السيول أصلها المطر، والمطر أصله البحر على ما يقال، ولهذا جعل كف الممدوح أصلاً للبحر مبالغة[١٠١].

وقد أطلق ابن أبى الإصبع[١٠٢] على «مراعاة النظير» اسم «الاستقصاء» وربطه

(٩٦) آل عمران / ٢٦.
(٩٧) البقرة/ ٢٨٦.
(٩٨) الأنعام/ ١٢٢.
(٩٩) الإيضاح: ٤٧٨.
(١٠٠) الرحمن / ٥.
(١٠١) الإيضاح: ٤٤٨ وما بعدها.
(١٠٢) تحرير التحبير: ٢٩٠ وما بعدها.

بالدلالة ربطاً مباشراً؛ إذ إن الاستقصاء هو أن يتناول الشاعر معنى فيستقصيه، ومثل له بقول البحترى فى صفة الإبل الأنضاء التى أنحلها السير:

كالقسى المعطفاتِ بل الأسهمِ مبريةً بل الأوتار

فقد شبه الإبل بالقسى، وأراد أن يكررالتشبيه، وكان يمكن أن يشبهها – مثلا – بالعراجين، أو نون الخط؛ لأن المعنى واحد فى الانحناء والرقة ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار لما تقدم من ذكر القسى.

٣ – وذكر العلماء ضمن مباحث علم البديع «المشاكلة» وحين ننظر فى تعريفها نجد تتصل بالدلالة اتصالاً مباشراً؛ إذ إنها ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً؛ فالأول كقوله تعالى:(تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك)[١٠٣]؛ حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى لوقوعه فى صحبة نفسى. وقال الشاعر:

قالوا: اقترح شيئاً نجد له طبخة ... قلتُ: اطبخوا لى جبَّةً وقميصا

كأنه قال: خيطوا لى والثانى نحو قوله تعالى: «صبغة الله»[١٠٤] فـ (صبغة) مصدر مؤكد لقوله (آمنا بالله)، ومعناها: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس فعبر عن الإيمان بالله بـ (صبغة الله») لوقوعها فى حبة الإيمان[١٠٥].

٤ – اهتم العلماء بالحديث عن حسن الخروج أو الاستطراد[١٠٦] والمقصود به أن يأخذ المتكلم فى معنى، وقبل أن يتمه يأخذ فى معنى، ومن أمثلته قول حسان بن ثابت:

إنْ كنتِ كاذبَة الذى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارثِ بن هشامِ
تَرَكَ الأحبةَ أن يقاتل دونهم ... ونجا برأسِ طمرةٍ ولجامِ

---

(١٠٣) المائدة / ١١٦.

(١٠٤) البقرة / ١٣٨.

(١٠٥) الإيضاح: ٤٩٣ وما بعدها.

(١٠٦) انظر كتاب البديع لابن المعترض ٦١؛ إذ إنه أطلق على «الاستطراد» اسم «حسن الخروج».

فالبيت الأول يبدأ بالشرط بـ «إن» ولم يأت حسان بالجواب ولكنه استطرد وأحسن الخروج، فأخذ يحكى هذا الذى فعله الحارث بن هشام، أى إنه خرج من الغزل إلى هجاء الحارث بن هشام.

وبعد فإن مصطلحات العلوم الثلاثة: البيان والمعانى والبديع ترتبط فى مجملها بالتركيب اللغوى من حيث الأصوات والتركيب والدلالة؛ لذلك حق للمرحوم أستاذنا الدكتور السيد أحمد خليل أن يطلق على تلك العلوم الثلاثة اسم «علم الجمال اللغوى». قال: «ونحن لا يهمنا من هذا العلم «يقصد علم الجمال بصفه عامة» فى حديثنا، أو بعبارة أدق فيما يتصل بالجانب اللغوى الذى نقول فيه، سوى علم الجمال اللغوى، إذ صح أن نسميه بهذه التسمية. ويظهر أن القدماء من علمائنا أحسوا أو شعروا بضرورة أن يكون لهذا الجانب من دراسة علم الجمال تسمية خاصة به، وإن كانوا قد أسرفوا فى هذه التسمية، فسموا ما يتصل بالعمل الجمالى الخاص بالتركيب، بملاحظة حال المخاطب، علم المعانى. وسموا التصرف فى فنون القول وضروبه للتعبير عن الفكرة التى يُراد أداؤها بعلم البيان، كما سموا أنواع الزخرف التى يصطنعها الأدباء بعلم البديع، وهذه التسميات جميعها تشكل تحديداً إصلاحياً لعلم الجمال اللغوى[١٠٧].

ونختم هذا العرض بمحاولة ربط بعض مصطلحات العلوم الثلاثة التى تشكل علماً واحداً هو «علم الجمال اللغوى» ببعض مصطلحات علم اللغة الحديث.

- ٨ -

تتصل المصطلحات البلاغية، فى بعض جوانبها بـ «اللغة المنطوقة» spoken language، ومن بين خصائص تلك اللغة وجود حوار بين شخصين أو أكثر، وقد تنبه علماء البلاغة إلى ذلك ولفتوا إليه حين تحدثوا عما أسموه «المراجعة»[١٠٨]؛ وهى أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ومحاورة فى الحديث جرت بينه وبين

(١٠٧) دراسات فى القرآن: ٣١.

(١٠٨) أطلق الرازى على المراجعة عبارة «السؤال والجواب». انظر نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز: ١٤٩.

غيره، بأوجز عبارة وأرشق سبك وأسهل لفظ إما فى بيت واحد أو فى أبيات أو جملة واحدة[١٠٩]، ومن أمثلتها قول عمر بن أبى ربيعة:

بينمـــا ينعتننـــى أبصرننـــى ... مثل قيدِ الرمحِ يعـــدو بىَ الأغـــر
قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى؟ ... قالت الوسطى لها: هـذا عمـــر
قـالت الصـغرى وقـد تيَّمْتهَا ... قد عرفْنَاه. وهل يخفى القـمر؟

والحوار ها هنا بين ثلاث فتيات، حددهن عمر بالكبرى والوسطى والصغرى، ويمكن تنظيم الحوار على النحو الآتى:

الكبرى: ترى من ذا الفتى؟

الوسطى: هذا عمر.

الصغرى: قد عرفناه وهل يخفى القمر؟

وقد بدأ الحوار بسؤال للكبرى، وكانت إجابته عند الوسطى، وجاءت الصغرى لتؤكد على الإجابة. وورد مثل هذا الحوار فى أبيات لأبى نواس وهى قوله:

قال لى يومـــاً سليمـــانُ وبعض القـولِ أشنـــعْ
قال : صفنـى وعليّـــا، أيُّنا أبْقَـــى وأنفـــعْ
قلت : إنـــى إن أقـــل مافيكمـــا بالحـــقّ تجزعْ
قال: كلا، قلت: مهلاً، قال : قل، قلتُ فاسمـــع
قال: صِفهُ، قلت: يعطى، قال: صِفْنى، قلت: تَمْنَعْ

ويمكن تنظيم ما فى تلك الأبيات من حوار على النحو الآتى:

سليمان: صفنى وعليا؛ أينا أبقى وأنفع؟

أبو نواس: إنى إن أقل ما فيكما بالحق تجزع

سليمان: كلا

---

(١٠٩) تحرير التحبير: ٥٩٠.

أبو نواس: مهلاً.

سليمان: قل.

أبو نواس: فاسمع

سليمان: صفه

أبو نواس: يعطى

سليمان: صفنى

أبو نواس: تمنع.

وهذا الاهتمام من قبل البلاغيين العرب بالحديث عن «المراجعة» أو «السؤال والجواب» له رواج خاص فى الدراسات اللغوية؛ إذ إن هناك مبحثاً يطلقون عليه اسم «تحليل الخطاب» discourse analysis، ومن بين اهتماماته تتبع اللغة الخاصة بـ «المحادثة» conversation، والسياق الاجتماعى الذى يؤثر فيها والعوامل التى تؤدى إلى نجاحها أو فشلها؛ وذلك كأن يحتاج المشاركون فيها إلى الإحساس بأنهم يساهمون بشئ فيها، ويجدون شيئا خارجاً عنها فى الوقت نفسه. وأصبحت عبارة Convrsation Analysis لها استخدام يفيد الدلالة على تحليل التركيب النحوى للمحادثة.

ومما يتصل باللغة المنطوقة وجود بعض المصطلحات البلاغية المتصلة بالأداء الصوتى، وهناك الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك، ومن بينها حديث العلماء عن «السجع» وهو اتفاق الفاصلتين فى الحرف الأخير. والفاصلة هى الكلمة الأخيرة من كل فقرة، وذلك كقول الثعالبى: «الحقد صدأ القلوب، واللحاج سبب الحروب». والسجع فى الشعر اتفاق الفواصل فى القافية فى البيت من الشعر؛ وذلك كقول أبى تمام:

تجلى به رشــدى وأثْرَتْ به يدى وفـاضَ به ثمـدى وأورى به زندى

ويتصل بالسجع ما أطلقوا عليه اسم «السجع المرصع» الذى تتساوى الفقرتان أو أكثر ما فيهما فى الوزن والتقفية، كقول امرئ القيس:

الماء منهـمـرٌ والشـدّ منحـدر　　　والقصب مضطمر والمتن ملحوبُ

فلفظ «ملحوب» مختلف عن منهمر ومنحدر ومضطمر، فى الوزن والتقفية، غير أن أكثرها فى فقر البيت وقال الحريرى: «فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه». ويمكن بيان الكلمات المتساوية والعبارات المتفقة كما يأتى:

يطبـع ويقـرع ــــــ› يفعـل

الأسجاع والاسمـاع ــــــ› الأفعال

جواهـر وزواجـر ــــــ› فواعـل

لفـظ ووعـظ ــــــ› فعـل

وتحدثوا عن «السجع المطرف» وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان فى الوزن كقوله تعالى: (مالكم لاترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً)(١١٠) فإن «وقاراً» و«أطواراً» مختلفتان وزنا كما يأتى:

وقـار ــــــ› فَعَال

أطـوار ــــــ› أَفْعَال

ولكنهما متفقتان فى الانتهاء بصوت الراء.

ومن المصطلحات البلاغية المتصلة بالأداء الصوتى «التطريز»(١١١) الذى عرفوه بأن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن قال أبو تمام:

أعوام وصـلٍ كـاد ينسـى طولها　　　ذكـر النـوى فكأنهـا أيـامُ
ثـم انبـرت أيـام هجـرٍ أردفـتْ　　　نجـوى أسـى فكأنهـا أعـوامُ
ثم انقـضت تلك السنون وأهلُها　　　فكأنهـا وكـأنهـم أحـلامُ

والكلمات: أيام وأعوام وأحلام وزنها الصرفى واحد هو «أفعال».

(١١٠) : نوح / ١٤.

(١١١) الطراز: ١٥٣/٢

ويتصل حديث البلاغيين عن «السجع» و«التطريز» بما فى الدرس الصوتى من عرض لما يتصل بمصطلح Harmony ، والمقصود به التناغم والتآلف فى الأصوات حين النطق، ويكون هذا فى الكلمة المفردة والعبارة، مما يؤدى إلى حسن الوقع فى السمع.

واهتم علماء البلاغة باللفظ والمعنى، يدلنا على ذلك تلك المصطلحات الخاصة بهما؛ فقد أشاروا إلى «المساواة»، ويقصد بها حين الأداء اللغوى أن يكون مساوياً للمعنى حتى لايزيد عليه ولاينقص عنه، وهذه هى البلاغة التى وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه؛ أى هى مساوية لها لايفضل أحدهما على الآخر. وهناك عدة شواهد لها كقوله تعالى: (ولايحيق المكر السيئ إلا بأهله) [١١٢] وقوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره)[١١٣].

وقال النابغة:

فإنك كالليل الذى هو مُدْركى وإنْ خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسعُ

وقال زهير:

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خَليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

ويتصل بتلك المساواة حديثهم عن، «الاقتصاد» فى التعبير، ومعناه أن يكون المندرج تحت العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه مساوياً له من غير زيادة فيكون إفراطاً ولانقصان فيكون تفريطاً[١١٤].

ويرتبط هذا الحديث عن المساواة والاقتصاد بمصطلح له دلالة مغايرة فى الدرس اللغوى وهو redundancy إذ إنه يشير إلى أن «الموقف الكلامى» يتضمن أحياناً الكثير من الألفاظ والعبارات والمعلومات التى يمكن الاستغناء عنها، مع

---

(١١٢) فاطر / ٤٣.

(١١٣) الأنعام/٦٨.

(١١٤) الطراز: ٧٣/٣.

وضوح الدلالة فى الوقت نفسه، ويعود هذا الاستخدام للحشو إلى مقدرتنا على تكوين إسنادات أكثر من طبيعة الكلام، معتمدين فى ذلك على خبرتنا اللغوية الواضحة فى التعبير ومعرفتنا بالمتكلم ومادة الموضوع.

وإذا كان البلاغيون قد تحدثوا عن المساواة والاقتصاد فى التعبير؛ فإن هناك ما أطلقوا عليه مصطلح «الاحتراس» ومفهومه أن يأتى المتكلم بمعنى يتوجه فيه دخل؛ أى شبهة، فيفطن لذلك حال العمل فيأتى بما يخلصه من ذلك. ومن أمثلته قوله تعالى: (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء)[١١٥] فقوله تعالى: «من غير سوء» احتراس من البرص وغيره. ومن أمثلته فى الشعر العربى قول الخنساء فى أخيها صخر:

ولولا كثرةُ الباكيــــن حولـــى   على إخوانهـم لقتلـــتُ نفســـى
ومــا يبكون مــثلَ أخى ولكن   أعــــزِّى النفسَ عنه بالتَّأسِّى

فالخنساء تخيلت أن هناك من يظن مساواة أخيها لغيره من الهالكين، فلجأت إلى هذا الاحتراس الدلالى خلال تركيبين «ومايبكون مثل أخى» و «أعزى النفس عنه بالتأسى».

وقد اهتم البلاغيون بدراسة الزيادة التى بها يتم المعنى، والمقصود بالزيادة ها هنا إضافة بعض المفردات أو التراكيب النحوية التى تؤدى إلى إزالة اللبس أو الغموض الذى يصيب الدلالة، ومن أمثلته التركيب «غير مفسدها» فى بيت طرفة بن العبد:

فــسقى ديارِكِ غـيرَ مُفْسِـدِها   صــوبُ الربيعِ وديمةٌ تهـــمى

ولعله من المفيد الإشارة إلى اهتمام الدرس اللغوى الدرس اللغوى بالحديث عن «اللبس» ambiguity الذى ينشأ عن احتمال المفردات أو التراكيب النحوية لمعان متعددة؛ فهو يتصل بالنحو والدلالة.

والذى يلفت النظر تعمد بعض الشعراء للإبهام فى شعرهم؛ بل إن هناك مصطلحاً بلاغياً هو «الإبهام»، وقد عرفه ابن أبى الإصبع بأن يقول المتكلم كلاماً

---

(١١٥) النمل / ١٢.

يحتمل معنيين متضادين لا يتميز أحدهما عن الآخر، ولايأتى فى كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ذلك؛ بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصداً، ومن أمثلته قول محمد بن حازم:

بـــارك اللـــه للحســـن ولـبـوران فـــى الختـــن
يا إمـــامَ الهـــدى ظفـــرت ولــكــن بـبـنـت مـــن[116]

والتركيب النحوى «ببنت من» يحتمل نوعين من الدلالة كل واحدة منهما عكس الأخرى تماماً، وهما المدح والذم.

وإذا كان ابن أبى الإصبع قد تحدث عن «الإبهام» حسب؛ فإن يحيى العلوى تحدث عن «الإبهام والتفسير»[117] وقد شرحها بقوله: «إن المعنى المقصود إذا ورد فى الكلام مبهماً فإنه يفيده بلاغة ويكسبه إعجاباً وفخامة؛ وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام فإن السامع له يذهب فى إبهامه كل مذهب، ومصداق هذه المقالة قوله تعالى: (وقضينا إليه ذلك الأمر)[118] ثم فسره بقوله: (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين)، وهكذا فى قوله تعالى: (إن الله لايستحى أن يضرب مثلاً ما)[119] فأبهمه أولاً، ثم فسره بقوله: (بعوضة فما فوقها).

ومن المصطلحات البلاغية المتصلة بالأداء اللغوى «النزاهة» ويقصدون بها نزاهة ألفاظ الهجاء وغيره من الفحش حتى يكون الهجاء كما قال أبو عمرو بن العلاء: «تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح عليها». والذى دفع أبا عمرو إلى هذا أن بعض الشعراء يستعمل أحياناً ألفاظاً تؤدى إلى الفحش فى القول، ولكن يمكن ذيوع هذا الهجاء وانتشاره، ويمكن أيضاً أن تنشده العذراء فى خدرها إذا كانت ألفاظه بعيدة عن هذا الفحش منزهة عنه.

---

(١١٦) تحرير التحبير: ٣٠٥.

(١١٧) الطراز: ٢ ,٧٨.

(١١٨) الحجر/٦٦.

(١١٩) البقرة/٢٦.

وهذا الذى نصح به البلاغيون الشعراء بالابتعاد عنه حين الهجاء يمكن ربطه بما فى الدرس اللغوى من حديث عن ألفاظ «اللامساس» taboo وهى مجموعة من المحظورات اللغوية الخاصة ببعض الصيغ والكلمات المرفوضة من المجتمع لما لها من إيحاءات غير محبوبة، ولاتتقبلها النفس الإنسانية.

ويقول أولمان: «ويطلق (اللامساس) على كل ما هو مقدس أو ما يحرم لمسه أو الاقتراب منه لأسباب خفية، سواء أكان ذلك إنساناً أم كلمة أم شيئاً آخر، فإذا ما اصطدمت كلمة ما بحظر الاستعمال تحت تأثير عامل اللامساس حلت محلها كلمة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى، وهذه العادة ليست مقصورة بحال من الأحوال على المجتمعات البدائية فهى معروفة فى كل البيئات، وفى كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة»[١٢٠].

وإذا استعمل الشاعر ألفاظ اللامساس فى هجائه؛ فإن الاستهجان وعدم القبول هو نصيبه من هجائه بالاضافة إلى عدم ذيوعه وانتشاره على الألسنة وقد أشار قدامة ابن جعفر إلى أهمية الابتعاد عن الفحش، والنظر فيما يتصل بالفضائل . قال: «ومن خبث الهجاء.....

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحلفوا

يغدوا عليك مرجلين كأنهم لن يفعلوا

فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعمد أضداد الفضائل على الحقيقة فيهم؛ لأن الغدر ضد الوفاء، والفجور ضد الصدق، والبخل ضد الجود، ثم أتى – بعد ذلك – بضد جل الفضائل وهو العقل؛ حيث قال:

يغدوا عليك مرجِّلين كأنهم لم يفعلوا

لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال الجهل والبهيمية والقحة التى هى من عمى القوة المميزة ....»[١٢١].

---

(١٢٠) دور الكلمة فى اللغة: ١٩٣

(١٢١) نقد الشعر:٩٣ وما بعدها.

ونختم هذا العرض الذى نحاول فيه التعرف على الصلة بين بعض المصطلحات البلاغية ومصطلحات علم اللغة بالتوقف أمام «السياق» context .

يؤدى «السياق» دوراً مهما فى الحكم على العمل الفنى، وهو يسمح للمتكلم بالحرية فى استخدام الألفاظ والتصرف فى معانيها وتركيبها النحوى، وقد تنبه البلاغيون إلى أهميته حين التعريف ببعض المصطلحات. وهناك الكثير من التطبيقات على المصطلحات النظرية التى عرفوا بها وتوضح تلك المصطلحات دور السياق فى الأداء اللغوى وبيان «كفاءة» competence المتكلم؛ فقد تحدث البلاغيون عما أسموه «المجاورة» ويقصدون بها تردد لفظتين فى البيت ووضع كل واحد منهما بجانب الأخرى أو قريباً منها، من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها، كقول أبى تمام:

إنا أتيناكم نصور مآربا   يستصغرُ الحدثَ العظيمَ عظيمُها(١٢٢)

فقد استخدم لفظة «عظيم» مرتين، ولم يكن هذا الاستخدام سيئاً أو لغواً على الرغم من وقوع اللفظتين متجاورتين، والذى ساعد على ذلك التركيب النحوى لبيت الشعر؛ فإن أبا تمام استخدم «العظيم» فى المرة الأولى صفة، وفى الأخرى فاعلاً، مع الاختلاف فى تعريفها:

العظيم ← معرفة بالألف واللام

عظيمها ← معرفة بالإضافة

ومما يتصل بالسياق حديث علماء البلاغة عما أسموه «التفريق» وهو إظهار التباين بين أمرين من نوع واحد كقول رشيد الدين الوطواط:

ما نوالُ الغمامِ وقتَ ربيعٍ   كنوالِ الأميرِ وقتَ سخاءِ
فنوالُ الأميرِ بدرةُ عينٍ   ونوالُ الغمامِ قطرةُ ماءِ

وحين ننظر فى البيتين نجد الشاعر قد استخدم لفظة «نوال» أربع مرات مضافة إلى ««الغمام» و«الأمير» وعلى الرغم من وقوعها ثلاث مرات مبتدأ فإن الشاعر

(١٢٢) كتاب الصناعتين: ١٣٥ .

استطاع خلع بعض الأحكام على نوعى النوال معتمداً على السياق كما يأتى:

نوال الغمام ←—— قطرة ماء

نوال الأمير ←—— بدرة عين

وحدد وقت النوال كما يأتى

نوال الغمام ←—— وقت ربيع

نوال الأمير ←—— وقت سخاء

ونلاحظ أن الشاعر لجأ إلى الإضافة مع لفظة «وقت»؛ فهى مضافة إلى «ربيع» و«سخاء».

وإذا كان البلاغيون قد تحدثوا عن التفريق، فإن هناك مبحثاً يدور حول «الجمع مع التفريق» ويعرفونه بأنه يشبه شيئان بشئ واحد، ثم يفرق بين وجهى المشابهة بينهما؛ فقد قال الوطواط:

فـوجـهك كـالنارِ فى ضـوئهـا   وقلبى كـالنارِ فى حـرها

فقد شبه وجه الحبيب وقلب نفسه بالنار، ولكن وجه الشبه فى التشبيه الأول الضوء، وفى الثانى الحر (١٢٣).

وعرضوا لـ «الجمع مع التقسيم» والمقصود بذلك وجود متعدد يصدر عليه الشاعر حكماً ثم يلى ذلك ما لكل جزء على حدة، فقد قال المتنبى:

حتى أقـام علـى أرباضِ خرشنـةٍ   تشقـى بـه الـرومُ والصلبان والبيعُ

للسبى ما نكحوا والقتل ما ولدوا   والنهب ماجـمعوا والنار مازرعوا

والتقسيم الذى ورد يمكن تنظيمه كما يأتى:

للسبى ←—— ما نكحوا

للقتل ←—— ما ولدوا

---

(١٢٣) تحرير التحبير: ٢٩٠

للنهب ــــــــ، ماجمعوا

للنــار ــــــــ، ما زرعوا

والذى اشترك فيه هذا كله الشقاء.

ويؤدى السياق دوراً مهماً فى إضفاء الجمال على الكلمة. قال عبد القاهر: «ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر، كلفظ «الأخدع» فى بيت الحماسة:

تلفتُّ نحو الحى حتى وجدتنى ... وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأخدعا

وبيت البحترى:

وإنى وإنْ بلّغتنى شرفَ الغنى ... وأعتقْتَ من رقّ المطامعِ أخدعى

فإن لها فى هذين المكانين ما لايخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام:

يا دهرُ قومْ من أخدعيك فقد ... أضججْتَ هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة[١٢٤].

وقد تطورت الدراسات اللغوية فى السنوات الأخيرة تطوراً مهماً حين ظهر فى حقل تلك الدراسات مصطلح Pragmatics، ونحاول التعريف به لبيان دوره فى السياق الخاص بالنص الأدبى. ولكن قبل الدخول فى هذا التعريف نشير الى أن من بين الترجمات المقترحة له «التداولية»، ولكنها لاتعطى الدلالة الحقيقية لمفهومه لذلك يمكن الاكتفاء بتعريبه «البراجماتية»[١٢٥].

---

(١٢٤) الدلائل : ٤٦ وما بعدها؛ وانظر ما كتبه حازم القرطاجنى عن القوى العشر التى تؤدى إلى التمكن من «النظم» منهاج البلغاء ١٩٩ وما بعدها.

(١٢٤) انظر:

-The Cambridge Encyclopedia of Language, P.P. 120-121.

- Levinson, Pragmatics, P.1.

تهتم البراجماتية بدراسة العوامل التى تؤثر فى اختيار الشخص للغة وتأثير هذا الاختيار فى الآخرين؛ إذ إننا من الناحية النظرية نستطيع أن نتكلم بأى شئ نحبه، ولكن من الناحية العملية هناك قدر ضخم من القوانين والأعراف الاجتماعية التى تقيد الطريقة التى نتكلم بها؛ فعلى سببيل المثال لايوجد قانون يحتم على الشخص ألا يقول نكتة أو قفشة أثناء إحدى الجنائز، ولكن هذا لايحدث على وجه العموم، وهنا يظهر دور القوانين والأعراف الاجتماعية التى تمنع هذا وتقيده. ومن أمثلة ذلك أيضاً وجود معايير للشكليات والأدب نعرفها بالبديهة، وتحكم تلك المعايير حديثنا مع من هم أكبر سناً منا، أو مع الجنس الآخر .... وهكذا.

وتؤدى العوامل البراجماتية دوراً مهماً فى اختيارنا للأصوات والتراكيب النحوية والمفردات من داخل اللغة نفسها. فاللغات – مثلاً – تختلف فيما بينها حين استعمال الألفاظ والعبارات الخاصة بالشكليات والذوق العام والأدب، وتؤدى بعض الألفاظ إلى مفهومات مغايرة تماماً لمفهومها فى لغات أخرى، ويمثلون لذلك ببعض المفردات والعبارات من اللغتين الإنجليزية والفرنسية؛ فإذا قال لك أحد الأشخاص؟Would uou like some more cake فإن الإجابة بقولنا Thank you معناها Yes بينما قولنا بالفرنسية merci معناه No.

وللبراجماتية صلتها بعدة موضوعات لغوية؛ لذلك يمكن دراسة تلك الموضوعات فى ضوء الصلة فيما بينها، وهى كما يأتى:

١ – علم الدلالة Semantics .

٢ – علم الأسلوب Stylistics .

٣ – علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics .

٤ – علم اللغة النفسى Psycholinguistics .

٥ – تحليل الخطاب Discourse Analysis .

* * *

وبعد هذا العرض الذى حاولنا فيه التعرف على العلاقة بين المصطلحات البلاغية والأداء اللغوى نتوقف بالحديث عن «علم الجمال الصوتى»، وهو موضوع الفصل التالى.

الفصــل الثالث

علــم الجمـــال الصوتى

اللغة عبارة عن مجموعة من الأصوات التى تتشكل فيما بينها لتكوّن الكلمات، ومن مجموع تلك الكلمات تنتج الجمل التى يجب أن يكون لكل واحدة منها معنى مفيد حتى تصلح لأن نطلق عليها اسم « الجملة ». وقبل الخوض فى الحديث عن « علم الجمال الصوتى » هناك بعض الأمور التى نريد التأكد عليها وذلك خلال النقاط الآتية:

١- الصوت يقابل الحرف عند القدماء من العلماء العرب؛ فالهمزة - مثلاً- صوت، وليست حرفاً، لأن الحرف هو القسم الثالث من أقسام الكلمة،وإن كنا سنجارى القدماء فى استعمال الحرف للدلالة على الصوت فى بعض الاحيان.

٢- كلمة« عين» - مثلاً - يمكن تصنيفها نحوياً على أنها حرف من حروف الجر، وهو مختص بالأسماء حسب، وهو مكون من صوتين: العين والنون.

٣- لايوجد صوت جميل وآخر قبيح؛ لذلك من الخطأ أن نحكم على أ ى صوت مفرد بالجمال أو القبح؛ فالدال - مثلاً - ليست بأجمل من الجيم، ولا الصاد بأجمل من الطاء... وإنما يرد هذا إلى التركيب النحوى أو بناء الجملة.

٤- ليس المقصود بالحديث عن علم الجمال الصوتى دراسة الجمال فى الصوت المفرد، بل هناك بعض الظواهر الصوتية التى تساعد فى الجمال حين الأداء اللغوى، وتلك الظواهر جزء من السياق العام.

واهتم القدماء من علماء النقد والبلاغة بالجمال حين الأداء الصوتى، والدليل على ذلك ما أشاروا إليه من قلة عدد الحروف، وسهولة المخرج والسلامة من التكلف، والطلاقة حين التعبير، وكلها تتصل بالأداء اللغوى فى جانبه المتصل بالأصوات. وقد كان هذاواضحاً عند المعتزلة، ومن أمثلة ذلك ما قاله ثمامة بن أشرس (ت ٢١٣هـ) عن جعفر بن يحيى من أنه كان « أنطق الناس » ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة. وقال مرة : ما رأيت أحداً كان لا يتحبسُ ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا

يرتقب لفظاً قد ا ستدعاه من بُعْد ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصىّ عليه طلبه، أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى »وتلك الصفات التى ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ثمامة قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمت-كما يقول الجاحظ - أنه كان فى زمانه قروى ولابلدى كان بلغ من حُسْن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه فى وزن إشارته، ومعناه فى طبقة لفظه. ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك. قال بعض الكُتّاب معانى ثمامة الظاهرة فى ألفاظه الواضحة فى مخارج كلامه كما وصف الخُريمى شعر نفسه فى مديح أبى دُلَف حيث يقول :

لـه كـلمٌ فيـكَ معـقـولة إزاءَ القلوبِ كـركْبٍ وقـوفْ[1]

ومن هنا فقد مدح النقاد والبلاغيون الأداء الصوتى vocal performance الذى يتسم بالجمال، ونوّه بذلك الشاعر فى قوله:

ألاَ رُبَّ صـوتٍ رائـع من مشـوَّه قـبيـحِ المحيـاَ واضـعِ الأب والجـد
يروعـك مـنه صـوتهُ ، ولعـله إلىَ أمـةٍ يُعـزى مـعـاً وإلى عبْدِ

ويؤدى هذا الجمال الصوتى إلى سرعة دخول المعنى للقلب والعقل؛ لأن الأذن تلذه وترتاح إليه؛ لذلك يقول ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) :

« إن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن، والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الحسنة». ويقول أيضاً: « إن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة المحمولة فيهون عليه الحداء» ثم يشير ابن القيم إلى أن الصوت الطيب نعمة من العلى القدير على صاحبه، وزيادة فى خلقه؛ لذلك ذمّ - سبحانه - الصوت الفظيع فقال:(إن أنكرالأصوات لصوت الحمير)[2]، ووصف- سبحانه - نعيم أهل الجنة فقال فيه: (فهم فى روضة

(١) البيان والتبيين: ١٠١/١ وما بعدها.
(٢) الزخرف/ ١٥.

يحبرون)[١] ،وهو السماع الطيب فى الجنة[٢].

وحين ننظر فى اللحن العربى للكلام نجده ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الواسع، والمتوسط، والضيق. والواسع ما نتيجة إثارة أقوى للأوتار الصوتية بواسطة الهواء المندفع من الرئتين، فيسبب ذلك اهتزازاً أكبر فى الأوتار الصوتية ومن ثم يعلو الصوت. ومن أمثلة استعماله الخطابة والتدريس لأعداد كبيرة من الطلاب والصياح الغاضب ونحو ذلك. والتوسط يستعمل للمحادثات العادية وهو أقل تطلباً لكمية الهواء وما يصحبها من علو صوت. وأما الضيق فهو المستعمل فى العبارات اليائسة الحزينة وفى الكلام بين شخصين يحاولان ألا يسمعها ثالث على بُعْد قليل منها. فالسعة والتوسط والضيق تتصل باصطلاحات علو الصوت وانخفاضه هنا[٣].

وقد ربط القدماء من العلماء العرب الأداء العربى للكلام الذى يتصل بطبقة الصوت من حيث العلو والانخفاض بالحالة التى عليها المتكلم من حيث الغضب أو الخوف أو الحزن أو غير ذلك، ويأتى على رأس أولئك فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) الذى قال: « إننا نشاهد الإنسان حال استيلاء الغضب عليه يصير صوته صوتاً غليظاً جهيراً، وعند استيلاء الخوف يصير صوته حاداًغليظاً» . وقد علل ذلك بأنه عند استيلاء الغضب عليه تخرج الحرارة الغريزية من الباطن إلى الظاهر فيسخن ظاهر البشرة، والحرارة توجب توسيع المنافذ وتفتيح السدد فى آلات الصوت، وهذه الأحوال توجب صيرورة الصوت ثقيلاً غليظاً، وأما عند الخوف فإن الأمر يكون بالعكس من ذلك، وذلك يوجب صيرورة الصوت حاداً خفيفاً. وإذا عرفت الكلام فى هذين المثالين فاعتبر فى سائر الأحوال، فإذا ضبطنا الأحوال النفسانية ثم تأملنا أن الحادث عند حدوث كل نوع منها أى منها أى أنواع الأصوات علمنا حينئذ أن بين تلك الحالة النفسية وبين ذلك الصوت المخصوص مناسبة واجبة وملازمة تامة[٤]» .

---

(١) لقمان /١٩ .

(٢) مدارج السالكين: ٥٢١/١ وما بعدها.

(٣) الدكتور تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ٢٢٩ .

(٤) كتاب الفراسة: ١١٠ .

ولعله مما يتصل بالحديث عن حالة المتكلم وعلاقتها بطبقة الصوت توقف الرازى أيضا أمام العلاقة بين درجة الصوت أو طبقته والصفة التى عليها الجهاز التنفسى للإنسان، وتوقفه كذلك أمام دلالة الصوت على ما يتمتع به صاحبه من صفات. قال: «الصوت العظيم يدل على قوة الحرارة، فإن الحرارة توجب توسيع قصبة الرئة، وتوسيعها يوجب عظم النفس(بفتح الفاء)، وتوجب سعة الصدر، وذلك يوجب الشجاعة، فالصوت العظيم الغليظ يدل على الشجاعة. أما الصوت الصغير الرقيق فذلك ربما يكون لضيق الحنجرة، وذلك إنما يحصل عند البرد ، وذلك يوجب صغر النفس وضيق الصدر، وذلك من علامات الضعف. أما الصوت الصافى فإنه يدل على اليبس، والصوت الذى يكون معه بحة، وكلما تكلم صاحبه جرت معه فضول فى مخرجه، فذلك يدل على رطوبة الرئة . أما الصوت الأملس فقال بعضهم إنه يدل على الاعتدال؛ لأن ملاسة الصوت تابعة لملاسة قصبة الرئة، وملاستها تابعة لاعتدالها، وخشونة الصوت تابعة لخشونة القصبة، وخشونة القصبة تابعة ليبسها، وإنما تصير قصبة الرئة يابسة من قبل يبس الأعضاء البسيطة التى تركبت القصبة منها[(١)]».

وبعد هذا الحديث عن الأداء العربى للكلام وصلتة بالحالة التى يكون عليها الإنسان نشير إلى أن « الصوت» هو آلة اللفظ، وهو الجوهر الذى يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف[(٢)]. وقد اهتمت العرب بالألفاظ التى هى عبارة عن مجموعة من الأصوات المفردة؛ فإنها؛ أى الألفاظ، لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها ، وبالغوافى تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها فى السمع، وأذهب بها فى الدلالة على القصد؛ ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذّ سامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفسُ به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها

---

(١) السابق: ١٢٠

(٢) البيان والتبيين:١/ ٨٠.

باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله[١].

وقد أدى اهتمام العرب بألفاظها إلى تحقق الوزن فى الكثير من الكلام المنثور الذى يتعاملون به فى حياتهم اليومية، ولكنه ليس شعراً. وقد لفت إلى هذا الجاحظ فى قوله: « اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل: مستفعلن فاعلن كثيراً، وليس أحد فى الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً، ولو أن رجلاً من الباعة صاح: مَنْ يشترى باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام فى وزن: مستفعلن مفعولان! فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ فى جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذى يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً. . وسمعت غلاماً لصديق لى، وكان قد سقى بطنه[٢] يقول لغلمان مولاه: اذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى. وهذا الكلام يخرج وزنه: فاعلاتن مفاعلن، مرتين. وقد علمت أن الغلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبداً، ومثل هذا كثير لو تتبعته فى كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته».[٣]

وهناك الكثير من الموضوعات التى عرفتها البلاغة ويمكن دراستها فى ضوء ما يتصل بالجمال فى الأصوات، ونبدأ بالحديث عن:

---

(١) الخصائص : ٢١٥/١ وما بعدها.

(٢) سقى بطنه : يعنى أصابه مرض بالاستسقاء.

(٣) البيان والتبيين : ٢٣٥/١

(١)

أوزان الشـــعر العربـــى

من الموضوعات المتصلة بعلم الجمال الصوتى « الأوزان» لذلك يقولون عن الوزن إنه أعظم أركان حد الشعروأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة؛ بل إنهم عرفوا الشعر بعدة تعريفات من بينها أنه الكلام الموزون المقفى الدال على معنى ويؤدى إلى الجمال الفنى مع تحقيق الموسيقى التى يحسها كل من المتكلم والمستمع، أو المبدع والمتلقى. ومن هنا يقول الدكتور إبراهيم أنيس: «فالشعر جاء منذ القدم موزوناً مقفى،والشعر لايزال فى جل الأمم موزوناً مقفى، نرى موسيقاه فى أشعار البدائيين وأهل الحضارة، ويستمتع بها هؤلاء وهؤلاء ويحافظ عليها هؤلاء وهؤلاء . فليحاول النقاد ما شاءت لهم المحاولة التفتيش عن كل أسرار الشعر، وليصوروها لنا ما شاء لهم التصوير، وليكشفوا لنا عما قد يكون فيه من أخيلة واستعارات وتشبيه ومجاز، وليؤلفوا من مثل هذا علما أو فناً للناس، غير أنا نطمع منهم أن يضعوا موسيقى الشعر فى محلها الأسمى؛ وألا يقرنوها بشئ آخر قد يعثرون عليه فى بعض الأشعار، أو يتعثرون فى البحث عنه والتنقيب، فليس الشعر فى الحقيقة إلا كلاما موسيقياً تنفعل لموسيقاه النفوس، وتتأثر بها القلوب»[١] .

ولقد توقف الدكتور محمد مندور أمام « الشعر الغنائى » والدور الذى تؤديه الموسيقى؛ حتى إن بعض النقاد جعل الشعر موسيقى قبل أى شئ آخر. قال: « إذا كان هذا النوع من الشعر (الغنائى) قد تطور فى الشرق والغرب من الغناء إلى الإنشاد، بل إلى القراءة الصامتة؛ فإن العنصر الموسيقى المتمثل فى الوزن والإيقاع والانسجامات الصوتية لايزال بالغ الأهمية فى هذا الشعر، بل أخذت أهميته تزداد فى أواخر القرن التاسع عشر حتى رأينا الرمزيين يقولون: إن الشعر موسيقى قبل كل شيء ، وإن العنصر الموسيقى فيه يبذ فى الأهمية المعانى والعواطف والصور الشعرية

(١) موسيقى الشعر: ١٨

ذاتها، باعتبار أن الموسيقى هى أقوى أداة للإيحاء، والشعر عندهم إيحاء أكثر منه تعبيراً لغوياً صريحاً واضحا»[١] ومن هنا فقد كان من أقدم تعريفات الشعر عند العرب أنه قول موزون مقفى على نحوما أشرنا، وقد انتقل ذلك التعريف من أديب عربى إلى آخر حتى عصرنا الحديث؛ فدار حوله صراع عنيف يدل فيما يدل على أنه مازال يحتفظ بسلطانه. ولست أريد أن أبعد فى البحث عن تفسير لهذا التعريف، بل أقصد عامداً إلى زمن قريب[٢]، فأجد الشاعر العراقى الرصافى يقول: « إن الغناء والرقص غريزتان من غرائز الإنسان، كما أن النطق غريزة فيه.وما الشعر إلا وليد هاتين الغريزتين فإن النطق – وهو أسنى مظهر من مظاهر الشعور – لما اقترن بالغناء تولد الشعر. فالشعر لا يقال إلا لينشد، وبعبارة أخرى ليتغنى به. فلا بد فيه من الوزن والقافية؛ لأن الغناء نغم وإيقاع، وهما لا يكونان إلا على تقاطيع متوازنة من الكلام»[٣].

وقد اهتدى الخليل بن أحمد إلى علم لم يُسْبَقْ إليه، يختص بأوزان الشعر العربى ، وهو « علم العروض » الذى عَّرفه الخطيب التبريزى (ت ٥٠٢ هـ) بقوله: « اعلم أن العروض ميزان الشعر، بها يُعرف صحيحه من مكسوره، وهى مؤنثة، وأصل العروض فى اللغة الناحية، من ذلك قولهم : أنتَ معى فى عروضٍ لا تلائمنى؛ أى فى ناحية. قال الشاعر (عبد الله بن الحجاج):

فـإنْ يُعرضْ أبـو العبـاس عنـى ... ويـركبُ بى عَروضاً عـن عـَروضِ

ولهذا سُميت الناقة التى تعترض فى سيرها عروضاً؛ لأنها تأخذ فى ناحية دون الناحية التى تسلكها، فيحتمل أن يكون سُمى هذا العلم عروضا؛ لأنه ناحية من علوم الشعر. وقيل: يحتمل أن.يكون سُمى عروضاً؛ لأن الشعر معروض عليه، فما

---

(١) فن الشعر : ٢٢.

(٢) الدكتور حسين نصار: القافية فى العروض والأدب٣٣.

(٣) الدكتور أحمد مطلوب: النقد الأدبى الحديث فى العراق ٢٣٠

وافقه كان صحيحاً، وما خالفه كان فاسدا[١]». ومن هنا فإن علم العروض فى اصطلاح المشتغلين به هو ميزان الشعر العربى الذى يعرف به صحيح الأوزان وفاسدها والمنكسر منها، وما يدخل تلك الأوزان من الزحافات والعلل.

وقد حصر الخليل بحور الشعر العربى فى خمسة عشر بحرا هى: الطويل المديد، البسيط، الوافر، الكامل، الهزج، الرجز، الرمل، السريع، المنسرح، الخفيف، المضارع، المقتضب، المجتث، المتقارب. وهناك بحر زاده الأخفش (أبو الحسن سعيد بن مسعدة) وهو « المتدارك» الذى يطلق عليه أيضاً اسم المحدث والمخترع، وبذلك تصبح بحور الشعر العربى ستة عشر. وقد سُمى كل وزن من تلك الأوزان بحراً تشبيها له بالبحر الحقيقى الذى لايتناهى مهما أخذ من مائه، كذلك بحر الشعر يوزن به مالايتناهى من الشعر.

والشعر كله مركب من « سبب» « وتد» و «فاصلة». أما السبب فمعناه اللغوى: الحبل الذى تُربط به الخيمة ومعناه العروضى: كل مقطع يتكون من حرفين، وهو قسمان:

(١) السبب الثقيل: وهو عبارة عن حرفين متحركين، نحو :لَكَ، بِكَ، لِمَ، مَعَ.

(٢) السبب الخفيف: وهو عبارة عن حرفين، أولهما متحرك والآخر ساكن، نحو: قَدْ، لَنْ، بَلْ، عَنْ.

والوَتد معناه اللغوى: الخشبة التى تُشدُّ بها الأسباب، ومعناه العروضى: كل مقطع يتكون من ثلاثة أحرف، وهو قسمان:

(١) الوتد المجموع: وهو عبارة عن حرفين متحركين، بعدهما حرف ساكن، نحو: قَضَى،دَعَا، لدى، نَعَمْ.

---

(١) الكافى فى العروض والقوافى. ١٧

(٢) الوتد المفروق: وهو عبارة عن حرفين متحركين، بعدهما حرف ساكن ،نحو: كَيْفَ، قَبْلَ، بَعْدَ.

والفاصلة معناها اللغوى: الحاجز، أو الفاصل فى الخيمة، ومعناها العروضى: ثلاثة أو أربعة متحركات يليها ساكن، وهى قسمان:

(١) الفاصلة الصغرى: وهى ثلاثة أحرف متحركة، بعدها حرف ساكن، نحو: عَلِمَا، ضَرَبَا، فَرِحَتْ.

(٢) الفاصلة الكبرى: وهى أربعة أحرف متحركة، بعدها حرف ساكن، نحو: ضَرَبَتَا، عَلِمَتَا.

وهناك جملة مشهورة فى علم العروض تجمع الأسباب والأوتاد والفواصل، وهى قولهم: لَمْ أَرَ عَلَى ظَهْرِ جَبَلٍ سمكةً، وتوضيحها كما يأتى:

- لـم: سبب خفيف – ٥
- أر: سبب ثقيل – –
- على: وتد مجموع – – ٥
- ظهر: وتد مفروق –٥ –
- جبل: فاصلة صغرى – – – ٥؛ لأنها تُكتب عروضياً: جَبَلُنْ.
- سمكة: فاصلة كبرى – – – – ٥؛ لأنها تكتب عروضيا: سَمَكَتُنْ.

والأمثلة التى يُقطع بها الشعر ثمانية، يُطلق على كل واحدة منها اسم« التفعيلة »، وهى فعولن، فاعلن، مفاعيلن، فاعلاتن، مستفعلن، مفاعلن، متفاعلن، مفعولاتُ. وما جاء بعد هذا فهو زحافٌ له أو فرع عليه. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن الأسماء التى أطلقت على بحور الشعر احتوت على بعض التعليلات الصوتية التى جعلتنا نطلق على بحر اسماً دون آخر كما يأتى:

١ – سُمِّى الطويلُ لمعنيين، أحدهما أنه أطول الشعر؛ لأنه ليس فى الشعر ما يبلغ عددُ حروفه ثمانية وأربعين حرفاً غيره، والثانى أن الطويل يقع فى أوائل أبياته الأوتاد، والأسباب بعد ذلك، والوتد أطول من السبب، فسمى لذلك طويلاً.

٢- سُمّى المديد مديداً لأن الأسباب امتدت فى أجزائه السباعية، فصار أحداهما فى أول الجزء والآخر فى آخره، فلما امتدت الأسباب فى أجزائه سُمّى مديداً.

٣- سُمّى البسيط بسيطاً لأن الأسباب انبسطتْ فى أجزائه السباعية فحَصَلَ فى أول كل جزء من أجزائه السباعية سببان ، فسُمّى لذلك بسيطاً، وقيل سمى بسيطاً لانبساط الحركات فى عروضه وضربه.

٤- سمّى الوافر وافراً لتوفر حركاته؛ لأنه ليس فى الأجزاء أكثر حركات من «مفاعلتن»، وما يُفك منه وهو « متفاعلن ».

٥- سمّى الكامل كاملاً لتكامل حركاته وهى ثلاثون حركة، ليس فى الشعر شئ له ثلاثون حركة غيره، والحركات وإن كانت فى أصل الوافر مثل مافى الكامل فإن فى الكامل زيادةً ليست فى الوافر؛ وذلك أنه توفَّرتْ حركاتهُ وجاء على أصله، فهو أكمل من الوافر فسُمى لذلك كاملاً.

٦- سُمى الهزج هزجاً لتردد الصوت فيه، والتهزُّج تردد الصوت. يقال هذا يهزج فى نفسى؛ فلما كان الصوت يتردد فى هذا النوع من الشعر سمى هزجاً، أو يقول لما كان التهزج تردد الصوت وكان كل جزء منه يتردد فى آخره سببان سُمى هزجاً.

٧- سُمى الرجز رجزاً لأنه يقع فيه ما يكون على ثلاثة أجزاء. وأصله مأخوذ من البعير إذا شُدّت إحدى يديه فبقى على ثلاث قوائم. وأجود منه أن يقال: مأخوذ من قولهم: ناقة رجزاء، إذا ارتعشت عند قيامها لضعف يلحقها أو داء، فلما كان هذا الوزن فيه اضطراب سُمى رجزاً تشبيها بذلك.

٨- سُمى الرَّمَل رَمَلاً لأن الرمل نوع من الغناء يخرج من هذا الوزن فيسمى بذلك، وقيل: سُمى رَمَلاً لدخول الأوتاد بين الأسباب، وانتظامه كرمل الحصير الذى نُسُجَ. يقال رَمَلَ الحصيرَ إذا نسجه، والمرمول منه رَمْلٌ كأنه يقال للطرائق التى فيه رَمْلٌ.

٩- سُمي السريع سريعاً لسرعته فى التذوق والتقطيع؛ لأنه يحصل فى كل ثلاثة أجزاء منه ما هو على لفظ سبعة أسباب؛ لأن الوتد المفروق أول لفظه سببٌ، والسبب أسرع فى اللفظ من الوتد، فلهذا المعنى سمى سريعاً.

١٠- سُمي المنسرح منسرحاً لانسراحه مما يلزم أضربه واجناسه؛ وذلك أن« مستفعلن» متى وقعت ضرباً فلا مانع من مجيئها على أصلها، ومتى وقعت « مستفعلن» فى ضربه لم تجئ على أصلها، لكنها جاءت مطوية، فلا نسراحه مما يكون فى أشكال سمى منسرحا.

١١- سُمي الخفيف ضعيفاً لأن الوتد المفروق اتصلتْ حركته الأخيرة بحركات الأسباب فخفّت، وقيل: سمى خفيفاً لخفته فى الذوق والتقطيع؛ لأنه يتوالى فيه ثلاثة أسباب، والأسباب أخف من الأوتاد.

١٢- سُمى المضارع مضارعاً لأنه ضارع الهزج بتربيعه وتقديم أوتاده، ولم يسمع المضارع من العرب، ولم يجيء فيه شعر معروف.

١٣- سُميَّ المقتضَب مقتضباً لأن الاقتضاب فى اللغة هو الاقتطاع، ومنه سُمى القضيب قضيباً، وليس فى دائرة من الدوائر بحر يفك من بحرفيحصل فى البحرالثانى الأجزاء التى فى البحر الأول بلفظها وعينها إلا فى دائرة المجتلب [1]، فلما كان يقع فى هذه الأجزاء الدائرةالمنسرحُ وهو:مستفعلن مفعولات مستفعلن مرتين، وهذه الأجزاء بعينها على لفظها تقع فى المقتضب، وإنما تختلف من جهة الترتيب فقط، فكأنه فى المعنى قد اقتضِبَ من المنسرح؛ إذ طُرح « مستفعلن» من أوله و« مستفعلن» من آخره، وبقى: مفعولات مستفعلن؛ فسُمى لذلك مقتضباً.

١٤- سمى المجتث مجتثاً لأن الاجتثاث فى اللغة الاقتطاع كالاقتضاب، ويقع فى « دائرة المشتبه» الخفيف وهو: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن، ويقع المجتث وهو: مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن، فلفظ أجزائه يوافق لفظ أجزاء الخفيف بعينها، وإنما يختلف من جهة الترتيب فكأنه قد اجْتُثَّ من الخفيف.

١- هناك خمس دوائر تجمع خمسة عشر بحراً، وتلك الدوائر هى: المختلف، المؤتلف، المشتبه، المجتلب، المتفق.

١٥- سمى المتقارب متقاربا لتقارب أوتاده بعضها من بعض؛ لأنه يصل بين كل وتدين سبب واحد فتتقارب الأوتاد، فسمى لذلك متقارباً.

وهناك اتصال بين الأوزان وأغراض الشعر . قال حازم القرطاجنى: « ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها يقصدبه البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس. فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد فى موضوع قصداً هزليًا أو استخفافاً وقصد تحقير شىءأو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك فى كل مقصد. وكانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزناً يليق به ولا تتعداه فيه إلى غيره[1]». وتوقف حازم أمام بحور الشعر وأطلق عليها بعض الأحكام المتصلة بالأداء اللغوى خلال جانبه الصوتى. قال:

« ومن تتبع كلام الشعراء فى جميع الأعاريض وجد الكلام الواقع فيها تختلف أنماطه بحسب اختلاف مجاريها من الأوزان، ووجد الافتنان فى بعضها أعم من بعضها. فأعلاها درجة فى ذلك الطويل والبسيط، ويتلوهمـا الوافر والكامل، ومجال الشاعر فى الكامل أفسح منه فى غيره ،ويتلو الوافرَ والكاملَ عند بعض الناس الخفيفُ. فأما المديد والرمل ففيهما لين وضعف، وقلما وقع كلام فيها قوى إلا للعرب وكلامهم مع ذلك فى غيرهما أقوى، وقد نبه على هذا فى المديد أبو الفضل ابن العميد. فأما المنسرح ففى اطراد الكلام عليه بعض اضطراب وتقلقل، وإن كان الكلام فيه جزلاً. فأما السريع والرجز ففيهما كزازة. فأما المتقارب فالكلام فيه حسن الاطراد إلا أنه من الأعاريض الساذجة المتكررة الأجزاء، وإنما تستحلى الأعاريض بوقوع التركيب المتلائم فيها. فأما الهزج ففيه مع سذاجته حدة زائدة. فأما المجتث والمقتضب فالحلاوة فيهما قليلة على طيش فيهما. فأما المضارع ففيه كل قبيحة، ولا ينبغى أن يعد من أوزان العرب، وإنما وضع قياساً، وهو قياس

(١) منهاج البلغاء: وقد قال ابن سينا: « واليونانيون كانت لهم أغراض محددة فيمايقولون الشعر، وكانوا يخصون كل غرض بوزن على حدة، وكانوا يسمون كل وزن باسم على حدة» كتاب المجموع: ٣٠.

فاسد؛ لأنه من الوضع المتنافر».

ونلاحظ من هذا النص أن حازماً وضع بحور الشعر فى درجات حسب الافتنان فى بعضها دون بعضها الآخر، وجعل الطويل والبسيط أعلاها، ويليها الوافر والكامل. وأطلق على بعض البحور أحكاماً من حيث الأداء اللغوى المتصل بها؛ ففى الرمل والمديد لين وضعف، وفى السريع والرجز كزازة، وفى الهزج سذاجة وحدة زائدة... ولحازم القدرة على تذوق بحور الشعر؛ لذلك المضارع فيه كل قبيحة، ولا يعد من أوزان العرب، ولكن القياس هو الذى قاد إليه. ويواصل حازم إطلاقه لتلك الأحكام حتى نصل إلى قوله: « فالعروض الطويل تجد فيه أبداً بهاء وقوة، وتجد للبسيط سباطة وطلاوة، وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد، وللخفيف جزالة ورشاقة، وللمتقارب سباطة وسهولة، وللمديد رقة وليناً مع رشاقة، وللرمل ليناً وسهولة. ولما فى المديد والرمل من اللين كانا أليق بالرثاء وما جرى مجراه منها بغير ذلك من أغراض الشعر. والذى يلفت النظر أن حازماً عقد صلة بين الأوزان والأداء اللغوى عند بعض الشعراء. قال:

« إن الشاعر القوى المتين الكلام إذا صنع شعراً على الوافر اعتدل كلامه وزال عنه ما يوجد فيه مع غيره من الأعاريض القوية من قوة العارضة وصلابة النبع. واعتبر ذلك بأبى العلاء المعرى فإنه إذا سلك الطويل توعر فى كثير من نظمه حتى يتبغض، وإذا سلك الوافر اعتدل كلامه وزال عنه التوعر. وما شئت أن تجد شاعراً إذا قال فى المديد والرمل ضعف كلامه وانحط عن طبقته فى الوافر كانحطاطها فى الوافر عن الطويل إلا وجدت. فهذا يدلك على صحة ما ذكرته. فأما الضعفاء فكلامهم فى الوافر وما أشبهه من الأعاريض المتوسطة أقل قبحاً. فأما الأعاريض الطويلة التى تفضل عن المعانى فيعتبرون فيها بركاكة الحشو وقبح التذييل وتخاذل بعض أجزاء الكلام عن بعض لطوله. وأما الأعاريض القصيرة التى تفضل المعانى عنها فيضطرون فيها إلى التكلف والحذف المخل، فلذلك كان حالهم فى نظم الشعر مضاداً لحال الأقوياء من الشعراء[1]».

---

(١) منهاج البلغاء: ٢٦٨ وما بعدها.

وقد اهتم علماء النقد والبلاغة بما أطلقوا عليه « نعت الوزن» ، ويقصدون بذلك أن يكون سهل العروض من أشعار يوجد فيها ذلك، وإن خلت من أكثر نعوت الشعر كما يقول قدامة بن جعفر الذى قدم عدة نماذج لحسان بن ثابت،وطرفة بن العبد، والمنخَّل بن عبيد اليشكرى، وكعب بن الأشرف اليهودى، وهذا هو النموذج الخاص بحسان:

ما هـاج حسـانَ رسـومُ المُقـامْ ... ومظعـنُ الحى ومبنى الخيـامْ
والنـؤىُ قـد هـدَّم أعضـادَه ... تقـادم العهـدِ بـوادِ تهـامْ
قـد أدرك الواشـون مـا أمَّلـوا ... والحبـلُ مـن شعثـاءَ رث الـرِّمـام
كـأن فاهـاً ثغـبٌ بـاردٌ ... فى رصفٍ تحت ظلال الغمام [(١)]

واهتموا كذلك بهذا الشعر الذى يحمل الكثير من المعانى الحسنة، ولكن الزحاف المستكره أدى إلى فقدان المعنى للكثير من حسنه، ومثلوا لذلك بقول امرىء القيس:

وتعـرفُ فيـه مـن أبيـه شمائـلاً ... ومن خالـه ومن يزيـدَ ومـن حجـرْ
سـمـاحـةَ ذا، وبرَّذاَ، ووفـاءذا ... ونائـلَ ذا، إذا صحـاَ وإذا سكـر

الذى علق عليه ابن رشيق بقوله: « فهذا أجمع العلماء بالشعر أنه ما عمل فى مثله، إلا أنه على ما تراه من الزحاف المستكره...» [(٢)] وهناك موضـوع نـال اهتمام النقاد والبلاغيين أيضاً، وعدوه من نعـوت الأوزان، ودرسوه بالتفصيـل، وهو:

---

(١) نقد الشعر : ٣٥ وما بعدها. والرسوم : آثار الديار، والمظعن : مصدر ظعن؛ أى سار ورحل، ومبنى الخيام : مكان بنائها وإقامتها، والنؤى : حفر تحتفر حول الخباء لئلا يدخله ماء المطر، وأعضاده : نواحيه وجنباته، والثغب : الغدير فى ظل جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه، والرصف : الحجارة المتراصفة المتدانية.

(٢) العمدة: ١/ ٩١ .

الترصيع فى الشعر: قبل الدخول فى تعريف « الترصيع» عند علماء البلاغة نتوقف أمام مفهوم الجذر المعجمى (ر ص ع) فى اللغة. رصّع الشيء: عقده عقداً مثلثاً متداخلاً، وإذا أخذت سيراً فعقدت فيه عقداً مثلثة فذلك الترصيع.

والترصيع: التركيب، يقال: تاج مرصع بالجواهر، وسيف مرصع؛ أى محلى بالرصائع، وهى حلق يحلى بها الواحدة رصيعة. ورصع العقد بالجوهر: نظمه فيه وضمّ بعضه إلى بعض[١]. ويرى بعض العلماء أن «الترصيع» مأخوذ من رصيعة اللجام، وهى العقدة التى تكون على صدغ الفرس من الجانبين، ولايجوز أن تكون إحدى العقدتين معقودة والأخرى محلولة، ولا أن تكون إحداهما حالية والأخرى عاطلة[٢].

أما الترصيع عند علماء البلاغة فهو «أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به أو جنس واحد فى التصريف»[٣]، كما يقول قدامة الذى عرفه تعريفا آخربقوله: فالترصيع أن تكون الألفاظ متساوية البناء، متفقة، وسليمة الانتهاء من عيب الاشتباه، وشين التعسف والاستكراه، يتوخى فى كل جزئين منها متواليين أن يكون لهما جزءان متقابلان يوافقانهما فى الوزن، ويتفقان فى مقاطع السجع من غير استكراه ولا تعسف[٤] وهناك تعريفات أخرى للترصيع منها ما قاله أبو هلال العسكرى: «هو أن يكون حشوا البيت مسجوعا[٥] وما قاله ابن سنان الخفاجى: «وهو أ ن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت المنظوم، أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة، وكأن ذلك شبّه بترصيع الجوهر فى الحلى. وأشار الباقلانى إلى ضرب من الترصيع يسمى «المضارعة» كقول الخنساء:

---

(١) اللسان (ر ص ع).
(٢) ابن شيث القرشى : معالم الكتابة ٧١.
(٣) نقد الشعر : ٤٠ .
(٤) جوهر الألفاظ: ٣٠ .
(٥) سر الفصاحة: ٢٢٣.

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهـ ـــدى الطريقة، نفّاعٌ وضرّارُ
جوّابُ قاصية جزازُ ناصية عقاد ألوية للخيل جرّار(١)

ومن الأبيات التى ذكرها علماء البلاغة على أنها شاهد للترصيع فى الشعر قول أبى صخر الهذلى:

وتلك هيكلةٌ خَوْدٌ مُبتّلة صفراءُ رَعْبَلَة فى منصب سَنِم
عذب مُقبلها جَدْلٌ مخلخلُها كالدِّعْص أسفلُها مخضوبة القدم
سودٌ ذوائبها بيضٌ ترائبها محض ضرائبها صيغت على الكرم
سَمْحٌ خلائقها دُرْمٌ مرافقها يروى معانقها من بارد شَبِم
كأنْ معتقةٌ فى الدنّ مغلقةٌ صفرا مصفقةٌ من رابىء رذمَ
شيبتْ بموهبةٍ من رأس مرْقبة جرداء مهيبةٍ فى حالق شَمِم(٢)

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن ابن الأثير قد توقف أمام الترصيع وعرّفه بقوله: «هو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية.»(٣)، ولكنه نفى أن يكون الترصيع فى الكتاب الكريم لما فيه من زيادة فى التكلف، وقال إنه قليل فى الشعر، وإذا جىء به فيه لم يكن عليه محض الطلاوة التى تكون إذا جىء به فى الكلام المنثور، ومن ذلك قوله بعضهم:

---

(١) إعجاز القرآن: ١٤٦.

(٢) خود: حسنة الخلق شابة، مبتلة: حسنة الخلق تامة، رعبلة: ذات خلقان، والمخلخل: موضع الخلخال، والدعص: كثيب الرمل المجتمع، مخضوبة: مصبوغة بالخضاب، والترائب: الصدور، أو ماتحت العنق، ومحض ضرائبها: خالصة الأخلاق، ودرم مرافقها: مستوية مرافقها، ومهيبة: يهاب فيها، والشمم: البعد.

(٣) المثل السائر: ١/٢٦٤.

فمكارمٌ أوليتها متبرِّعا وجرائمٌ ألغيتها متورِّعا

ف« مكارم» بإزاء « جرائم» ، و« أوليتها» بإزاء « ألغيتها» ، و« متبرعا » بإزاء « متورعا» .
ولكن بعض علماء البلاغة أشار بوقوع الترصيع في القرآن الكريم، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: (إنّ إلينا إيابهم. ثم إنّ علينا حسابهم) .[١]، ومن أولئك ابن منقذ والرازي والسكاكي.[٢] وبعد هذا الحديث عن الترصيع نتوقف أمام:

ائتلاف اللفظ مع الوزن: قال قدامة: « وهو أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بنيت، لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المؤلفة منها، وهي الأقوال، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها، ولا اضطر أيضا إلى إضافة لفظة أخرى يلتبس المعنى بها، بل يكون الموصوف مقدما والصفة مقولة عليها... ومن هذا الباب أيضا ألا يكون الوزن قد اضطر إلى إدخال معنى ليس الغرض في الشعر محتاجا إليه، حتى إنه إذا حذف لم تنقص الدلالة لحذفه، أو إسقاط معنى لا يتم الغرض المقصود إلا به، حتى إن فقد قد أثر في الشعر تأثيراً بان موقعه» .[٣] ولم يأت قدامة بأمثلة لائتلاف اللفظ مع الوزن؛ لأن كل شعر سليم يعد مثالاً لذلك.

ائتلاف المعنى والوزن: قال قدامة: « أن تكون المعاني تامة مستوفاة، لم يضطر الوزن إلى نقصها عن الواجب، ولا إلى الزيادة فيها عليه، وأن تكون المعاني أيضاً مواجهة للغرض لم تمتنع من ذلك ولم تعدل عنه من أجل إقامة الوزن والطلب لصحته» .

ولم يأت قدامة بأمثلة لائتلاف المعنى والوزن أيضاً؛ لأن كل شعر سليم يعد مثالاً لذلك.

---

(١) الغاشية: ٢٥و٢٦ .

(٢) انظر الطراز: ٣٧٣/٢ .

(٣) نقد الشعر: ١٦٦ وما بعدها.

(٢)

القافية فى الشعر العربى

القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية، والقوافى هى التى فصلت بين الكلام والشعر؛ لأنه قد يقع الوزن فى الكلام ولايسمى شعراً حتى يقفّى. وتعد القافية العلمْ الذى يضبط الموسيقى الظاهرة فى الشعر، ولابد من معرفتها والإلمام بها حتى يمكن أن نتوصل إلى النسق الذى يسير عليه الشعر العربى. وكلمة « القافية» من كلمات المألوفة فى ديوان العرب؛ لذلك وردت على ألسنة الشعراء منذ أقدم العصور، وعلى رأسهم عبيد بن الأبرص الذى قال:

سـلِ الشعـراءَ هـل سبحوا كسبحى بحـورَ الشعـر أو غاصـوا مغـاصـى
لسـانى بالنشـيـر وبالقـوافى وبالأسـجـاع أمـهـرُ فى الغـيـاصِ

وكلمة «قافية» وزنها الصرفى«فاعلة» مأخوذة من قولهم: قفايقفو إذا تبع، فهى تابعة؛ أى إن اسم الفاعل على أصله، وربما يكون المقصود به اسم المفعول؛ فتكون القافية بمعنى « مفقوة» ؛ أى متبوعة.

وقال صاحب (المصباح المنير) :« قفوتُ أثره قفواً: من باب قال: تبعته، وقَفَّيْتُ على أثره بفلان: أتبعته إياه، والقفا مقصور: مؤخر العنق، وفى الحديث: « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد، فإذا قام من الليل فتوضأ انحلت عقدة» ... يعنى بالقافية: القفا.

وقال صاحب (مختار الصّحاح) :« قفا أثره: تبعه، وبابُه عدا وسما، وقفّى على أثره بفلان؛ أى أتبعه إياه، ومنه قوله تعالى: (ثم قفينا على آثارهم برسلنا)[1]وقد كان لكلمة القافية وصيغة الجمع« القوافى» عدة معانٍ؛ وذلك قبل أن يضع العرب علمى « العروض والقوافى» وبعد وضعهما؛ فبعض العلماءيقول: القافية هى القصيدة والدليل على ذلك قول الخنساء:

وقافيةٍ مثـلِ حدّ السّنـانِ تبْقَى ويذهبُ مَنْ قـالَهـا

---

(١) الحديد / ٢٧.

وقال بعضهم: القافية البيت، واحتج بقول سحيم عبد بنى الحسحاس:

أشـارتْ بمدارها وقـالتْ لِتِرْبِهـا أعبدَ بنى الحسحاس يزجى القوافيا

وبقول حسان:

فنحكمُ بالقـوافى مَنْ هجانا ونضـربُ حين تخـتلف الدمـاءُ

وقال قوم: القافية الكلمة الأخيرة وشيء قبلها، واحتج بأن أعرابياً سئل عن القافية فى قوله:

بنـاتُ وطّاءٍ علـى خـدِّ الليـلْ

فقال: «خدّ الليل». وقال سعيد بن مسعدة: القافية الكلمة الأخيرة، واحتج بأن قائلاً لو قال لك: اجمع لى قوافى تصلح مع «كتاب» لأتيت له ب« شباب ورباب».

وقال أبو موسى الحامض: القافية ما يلزم الشاعر تكريره فى كل بيت من الحروف والحركات.

وقال قطرب: القافية حرف الروى، وأدخلت الهاء عليه كما أدخلت على «علامة ونسابة»، ولأن القائل يقول: قافية هذه القصيدة دال أو ميم[١].

أما التعريف الذى أجمع العلماء على قبوله فهو الذى وضعه الخليل بن أحمد؛ إذ قال عن القافية: إنها من آخر حرف فى البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع المتحرك الذى قبل الساكن[٢]. وعلى هذاالتعريف الذى قال الخليل تكون القافية بعض كلمة، أو كلمة، أو كلمتين أيضاً.

فحين يقول المتنبى:

شـمسُ ضـحـاها، هلالُ ليلتـهـا دُرٌ تقـاصـيـرها، زبرجـدها

نجد القافية «برجدها». وقال الشاعر:

تزودْ إلى يوم الممـات فـإنه ولو كـرهتـه النفسُ آخـر مَوْعِدِ

(١) التنوخى: كتاب القوافى ٥٨ وما بعدها.

(٢) الأخفش: كتاب القوافى ٦.

نجد القافية كلمة « موعد» بتمامها. وقال الشاعر:

لكل مـــــا يؤذى وإن قلّ ألمْ   مـــا أطولَ الليلَ على مَنْ لم ينم

نجد القافية كلمتى « لم ينم» معاً.

وقد ربط القدماء من علماء النقد والبلاغة الإبداع فى النص بالقافية؛ لذلك نجد أبا هلال العسكرى يقول: « إذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعانى التى تريد نظمها فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها، وقافية يحتملها. فمن المعانى مايتمكن من نظمه فى قافية، ولايتمكن منه فى أخرى. أو تكون فى هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه فى تلك. ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجىء سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق، خير من أن يعلوك فيجىء كزاً فجاً ومتجعداً جلفاً» .

وقد ضرب أبو هلال لهذا الأرتباط بين الإبداع الشعرى والقافية مثلاً بأبيات للنابغة. قال: « وينبغى أن تأخذ فى طريق تسهل عليك حكايته فيها، وتركب قافية تطيعك فى استيفائك له، كما فعل النابغة فى قوله:



واحكمْ كحكم فتاة الحى إذا نظرتْ   إلى حمام سراعٍ واردِ الثَّمَدِ

يحفُّه جانبا رنيقٍ وتتبعه   مثلَ الزجاجة لم تُكحلْ من الرمدِ

قالتْ ألا ليتما هذا الحمام لنا   إلى حمامتنا أو نصفُه فَقَدِ

فكمَّلتْ مئةً فيها حمامتها   وأسرعتْ حسبةً فى ذلك العددِ

فحسَّبوه فألفوْه كما حسبتْ   تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد [1]

فهذا أجود ما يذكر فى هذا الباب وأصعب ما رامه شاعر منه؛ لأنه عمد إلى حساب دقيق، فأورده مشروحاً ملخصاً وحكاه حكاية صادقة. ولما احتاج إلى أن يذكر العدد والزيادة والثمد، بنى الكلام على قافية فاصلة الدال، فسهل عليه طريقه، واطرد سبيله» [2] .

---

(١) احكم بحكم فتاة الحى: أصب كإصابتها، والثمد جمع ثماد وهو الماء القليل فى أرض رخوة أو حجر، والنيق: الجبل، وفقد: حسب.

(٢) كتاب الصناعتين: ١٣٩ و١٤٧.

واهتم اللغويون بالقافية أيضا؛ فإن التوزى (عبد الله بن محمد بن هارون ت ٢٣٠هـ) سأل الأصمعى (عبد الملك بن قريب ت ٢١٠ هـ) عن أشعر الناس؛ فقال: «من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً أو ينقضى كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى. وقد طلب التوزى من الأصمعى أن يقدم له بعض الأمثلة؛ فقال: نحو ذى الرمة، حيث يقول:

قفِ العيسَ فى أطلالِ ميةَ فاسأل   رسوماً كأخلاقِ الثيابِ المُسلسلِ

فتم كلامه قبل «المسلسل» ثم قال «المسلسل» فزاد شيئاً. واستشهد الأصمعى على ذلك أيضاً بقول الأعشى:

كناطح صخرة يوما ليفلقَها   فلم يُضرْهَا وأوهى قرْنَه الوَعِلُ

فتم مثله إلى قوله«قرنه» فلما احتاج إلى القافية قال« الوعل» فزاد معنى. وقد سأله التوزى: فكيف صار الوعل(وهو تيس الجبل) مفضلاً على كل ما ينطح؟ فأجاب الأصمعى بقوله: لأنه ينحط من قلة الجبل على قرنيه فلا يضيره.

نعود إلى موقف النقاد والبلاغيين من القافية فنجد قدامة بن جعفر يتوقف أمام ما أسماه «نعت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت» قائلاً: « أن تكون القافية معلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملائمة لما مر فيه» .

ومن أنواع الائتلاف ما أطلق عليه قدامة اسم « التوشيح» الذى عرفه بقوله: «وهو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته، ومعناها متعلقاً به، حتى إن الذى يعرف قافية القصيدة التى البيت منها،إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته، مثال ذلك قول الراعى:

وإن وُزِنَ الحصى فوزنتُ قومى   وجدتُ حَصَى ضريبتِهم رَزِينا[1]

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت، وقد تقدمت عنده قافية القصيدة، استخرج لفظة قافيته؛ لأنه يعلم أن قوله: وُزِنَ الحصى، سيأتى بعده: رزين، لعلتين: إحداهما أن قافية القصيدة توجبه، والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه؛ ولأن الذى يفاخر

(١) الحصى: جمع حصاة، العقل والرأى، والضريبة: الطبيعة والسجية، الرزين: أصيل الرأى.

برجاحة الحصى يلزمه أن يقول فى حصاه إنه رزين. وقول العباس بن مرداس:

هُمُ سوَّدُوا هُجناً وكل قبيلة ... يبين عن أحسابها من يسوده[1]

فمن تأمل هذا البيت وجد أوله يشهد بقافيته. وقول نُصيب:

وقد أيقنتُ أنْ ستبينُ ليلى ... وتحجبُ عنكَ إنْ نفع اليقينُ[2]

ومما يتصل بائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ما أطلق عليه قدامة اسم «الإيغال» الذى عرفه بقوله: «وهو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صُنْع، ثم يأتى بها لحاجة الشعر فى أن يكون شعراً إليها، فيزيد بمعناها فى تجويد ما ذكره فى البيت، كماقال امرؤ القيس:

كأنَّ عيونَ الوحشِ حول خبائنا ... وأرحلنا الجزعُ الذى لم يثقَّب

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملاً قبل القافية، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع، ثم لما جاء بالقافية أوغل بها فى الوصف ووكده، وهو قوله: الذى لم يثقب، فإن عيون الوحش غير مثقبة،وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه. وقال زهير:

كأن فُتاتَ العهن فى كل منزلٍ ... نزلْنَ به حَبُّ الفنَا لم يُحطَّم

فالعهن: هو الصوف الأحمر ، والفنا: حب تنبته الأرض أحمر، فقد أتى على الوصف قبل القافية، لكن حب الفنا إذا كسر كان مكسره غير أحمر فاستظهر فى القافيةلما أن جاء بها، بأن قال: لم يحطم، فكأنه وكد التشبيه بإيغاله فى المعنى. وقال امرؤ القيس:

إذا ما جرى شأوَيْن وابتلَّ عِطْفُهُ ... تقوم هزيزُ الريح مرَّتْ بأثأبِ

فقدتم الوصف والشبيه قبل القافية؛ لأنه يكفى أن يشبِّه حفيف جرى الفرس بالريح، فلما أتى بالقافية أوغل إيغالاً زادبه فى المعنى، وذلك أن الأثأب شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف شديد[1]

---

(١) الهجن: جمع هجين، اللئيم، أو الذى أبوه عربى وأمه أمة غير محصنة

(٢) نقد الشعر: ١٦٨ وما بعدها.

وهناك أسماء تطلق على القوافي في ضوء ما تضمه من الحروف واختلافها مابين الساكن والمتحرك، وتلك الأسماء خمسة، وهي على النحو الآتي:

١ - المتكاوس : وهي القافية التي يقع بين ساكنيها أربع حركات، وهناك شاهدلها متداول في كتب العروض والقافية والنقد والبلاغة وهو قول العجاج من مشطور الرجز:

قَدْ جَبَرَ الدينَ الإلهُ فَجَبَرْ

فالقافية «لاه فجبر» وبين ساكنيها أربع حركات خاصة بالهاء والفاء والجيم والباء.وهناك عدة تعليلات لإطلاق « المتكاوس» على تلك القافية؛ فقيل إنَّ اشتقاق الاسم من « تكاوس الإبل» أي اجتماعها وازدحامها على الماء، وينتج عن هذا كثرة حركات الإبل، ولما كانت الحركات تكثر في تلك القافية فقد أطلقوا عليها هذا الاسم. وقيل إنه مشتق من « كاس البعير» : إذا فقد إحدى قوائمه فحبا على ثلاث، ولما كانت تلك القافية قد خالفت المعتادبوقوع أربع حركات شُبهت بالبعير الذى خالف المعتادفي المشي.

وقيل إن الاسم(أي المتكاوس) مأخوذ من قولنا «تكاوس البيت» ؛ أي ميل بعضه على بعض، ولما كانت الحركات في تلك القافية ينضم بعضها إلى بعض ويميل إليه أطلق عليها هذا الاسم.

٢ - المتراكب: وهي القافية بين ساكنيها ثلاثة أحرف متحركة، وإنما سُميت بهذا الاسم لأن الحركات توالتْ فركب بعضُها بعضاً ومن أمثلتها قول الشاعر من البحر البسيط:

ومـــا نـــزلتُ من المكروهِ منزلـةً إلا وثقت بأنْ ألقى لها فَرَجَا

الذى وردت فيه كلمة «فرجا» بين الألف الساكنة في «لها» والمد الأخير.
وقال الشاعر:

ياليـــتـــنى فـــيـــهـــا جـــذَعْ أخـــبُّ فـيـهـــا وأضـــعْ

فالقافية هي« ها وأضع» والأحرف الثلاثة المتحركة هي الواو والهمزة والضاد.

٣- المتدارك: وهي القافية التي يقع بين ساكنيها حرفان متحركان، وإنما سُميت بهذا الاسم لتوالي حرفين متحركين، ولم يقع بينهما ساكن يؤدى إلى إعاقتهما عن ذلك. والتدارك دون التراكب؛ لأن الخيل وغيرها إذا جاءت متداركة كان أحسن من أن يركب بعضها بعضاً. ومن أمثلتها قول زهير بن أبي سلمى:

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلهِ على قومه يُستغْن عنه ويُذْمَمِ

الذي وردت فيه الميمان بين الذال الساكنة والمد الأخير. وقال عنترة:

يدعون عنتر والرماحُ كأنها أشطانُ بئــرٍ في لَبَانَ الأدهم

وقافيته«أدهمي» على أساس إشباع كسرة الميم، والحرفان المتحركان هما الهاء والميم.

٤- المتواتر: وهي القافية التي يقع بين ساكنيها حرف متحرك واحد، وإنما سُميت بهذا الاسم؛ لأن الساكن الثاني جاء بعد الساكن الأول بتراخ بينهما بسبب توسط المتحرك، فأشبه تواتر الإبل؛ أي مجيء شيء منها ثم شيء آخر مع انقطاع بينهما.ومن أمثلتها قول الشاعر:

القلبُ منها مستريح سالم والقلْب مني جاهد مجهودُ

الذي وردت فيه الدال المتحركة منفردة بين الواو الساكنة والسكون الناتج عن إشباع ضمة الدال. وقال الشاعر:

حمدتُ إلهي بعد عروةَ إذْ نجا خراشٌ وبعضُ الشـرِّ أهونُ منْ بَعْضِ

الذي وردت فيه الضاد المتحركة منفردة بين العين الساكنة والسكون الناتج عن إشباع كسرة الضاد.

٥- المترادف: وهي القافية التي يجتمع في آخرها الساكنان، وإنما سُميت بهذا الاسم لترادف الساكنين؛ أي اتصالهما وتتابعهما. ويختص المترادف بما هو مقيد من القوافي؛ أي الساكنة، ويندرج تحته نوعان:

أ- ما اتصل بحرف من أحرف اللين، وهى الألف، والواو المسبوقة بضمة، والياء المسبوقة بكسرة، ومن شواهده قول الشاعر:

مَنْ عائدى الليلةَ أم مَنْ يصيحْ   بتُّ بهمٍّ ففؤادى قريحْ

ب - مالم يتصل بحرف لين؛ ولذلك يسمى « المُصْمت» ، ومن أمثلته ما سُمع من بعض العرب يوم فتح مكة:

رفّعْنَ أذيالَ الحُفِىِّ واربعْنْ
مَشْىَ حَيِيَّاتٍ كأنْ لم يَفْزَعْنْ
إن يُمْنَعِ اليومَ نساءٌ تُمْنَعْنْ

وبعد هذا العرض لألقاب القافية الخمسة نشير إلى أنه يمكن اجتماع لقبين أو أكثر فى القصيدة الواحدة، وإن كان ابن رشيق قدقال: « ولا يجتمع نوعان من هذه الأنواع فى قصيدة إلا فى جنس من السريع؛ فإن المتواتر يجتمع فيه مع المتراكب، إذا كان الشعر مقيداً، كقول المرقش فى بيت:

النشرمسكٌ، والوجوه دنا   نيرٌ، وأطرافُ الأكفِّ عَنَمْ

وفى بيت آخر:

....   قد قلت فيه غيرَ ما تَعْلَمْ(١)

وذكر غيره أن المتدارك والمتراكب يجتمعان فى القصيدة من السريع، وأنهما يجتمعان مع المتكاوس فى الأرجوزة[٢] .والحق أن الحكمين قاصران؛ فقد ذكر غيرهما أن المتدارك والمتراكب يجتمعان فى القصيدة من البسيط والرجز والكامل والرمل والخفيف والخبب (المتدارك)، وأنهما مع المتكاوس تجتمع فى البسيط والرجز، وأن المتواتر والمتدارك والمتراكب والمتكاوس اجتمعت فى ألفية ابن مالك، وأن الأضرب الخمسة اجتمعت فى سُلَّم الأخضرى فى المنطق.وسمى أبوالعلاء

(١) العمدة:١/١١٤.

(٢) الأب الغوسطاوى: الجدول الصافى فى علم العروض والقوافى ٧٨.

٣- التنوخى: كتاب القوافى ٦٢

المسرى الأرجوزة التي يجتمع فيها المتدارك والمتراكب والمتكاوس« المُثفَّاة» باسم المرأة المثفاة التي تزوجت ثلاثة رجال. ومثالها قول الراجز:

املأ ركابى فضة وذَهَبا
فقد قتلت الملك المحجَّبَا
ومن يصل القُبلتين فى الصِّبا
وخيرهم إذ يذكرون نَسَبَا
قتلت خيرَ الناس أمًّا وأبَا

فقافية البيت الأول والرابع متكاوسة، والثانى والثالث متداركة، والخامس متراكبة[١]

ولكن ما الجمال الصوتى الذى تخلعه القافية على القصيدة؟ يرى بعض المحدثين أن القافيةإيقاع، ويُعرَّف هذا الإيقاع بأنه تنظيم الأصوات المكونة لأى لحن إلى وحدات زمنية متساوية، ولا مانع أن تنقسم هذه الوحدات أيضا إلى أجزاء متساوية أو مختلفة النسب من حيث الطول والقصر، فإذا صحّ أن القافية إيقاع انطبق عليها التعريف، وإنه لمنطبق، فما هو إلا صورة موسيقية للصورة الأدبية التى وضعها الدكتور إبراهيم أنيس فى قوله: « ليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر فى أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكوّن جزءاً هامًّا من الموسيقى الشعرية، فهى بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذى يطرق الآذان فى فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن[٢] ».

وليس هذا بدعًا من القول؛ فأكثر الذين يتحدثون عن أولية عامة الشعر لا يفرقون بينه فيها وبين الموسيقى؛ لأنهم يتصورونه غناءً خالصًا أحيانًا، ومصحوبًا بالآلات أحيانًا، ويجتمعان والرقص فى أحايين ثالثة، ومن يتحدثون عن الشعر

(١) انظر القافية فى العروض والأدب للدكتور حسين نصار. ٣.

(٢) موسيقى الشعر : ٢٤٦.

العربى خاصة يفعلون ذلك أحياناً، ويتصورن القافية أحد الآثار المتخلفة عن هذه المرحلة[١]. ويقول الدكتور شوقى ضيف : «نظم شعراء الجاهلية شعرهم فى جو غنائى، فقد كان الشاعر يغنى شعره، وقد يوقع هذا الغناء على بعض الآلات الموسيقية، وقد يقوم له بالغناء فى شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف فى أثنائه. ويظهر أن الشعر أخذ فى أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ... ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، ولعل القافية هى أهم هذه البقايا التى احتفظ بها؛ فهى بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف»[٢].

وقد توقف هنرى لانتس Henry Lanz أمام القافية محاولاً تحليلها صوتياً وموسيقيًّا فى دراسة عنوانها «الأسس الطبيعية للقافية» The Physical Basis of Rime ، وأشار إلى أن وظيفة القافية الإيقاعية تتمثل فى الحرف الصائت، وتتجلى فى ضبط مقادير الأبيات، وذلك أمر ضرورى؛ لأن تحديد عدد المقاطع فى البيت جزء من الشكل الشعرى، فالشاعر – فى الشعر النبرى – قلما يتبع نظاماً صوتياً صارماً، ولذلك يحتاج إلى أداة تعيد الإيقاع الأصلى للوزن؛ ذلك الإيقاع الذى يعد جزءاً ثابتاً من الشكل الشعرى، وليست تلك الأداة إلا القافية.

ولما كان الشعر العربى كمياً، يقوم على تساوى عدد المقاطع التى تحتوى عليها أبيات القصيدة الواحدة، خرج الدكتور شكرى عياد بأن القافية ليست ضرورية له. ولكن البيت العربى طويل بل شديد الطول؛ فأطول الأوزان الأوربية قديماً وحديثاً هو السداسى الذى لا يتجاوز اثنى عشر مقطعاً، على حين يضم بحر الكامل ثلاثين مقطعاً، والطويل ثمانية وعشرين، والرمل أربعة وعشرين ... إلخ، فاستلزم هذا الطول وجود قافية موحدة تضبط البيت. وعندما اجتزأ الشاعر العربى البحور الطويلة حافظ على القافية لا لحاجته إليها؛ وإنما لأنها تسربت إليه من البحور الطويلة، ولأنه تصورها ركناً لا يستغنى عنه فى الشعر.

---

(١) القافية فى العروض والأدب : ٣٥.

(٢) العصر الجاهلى : ١٩٣.

وأضاف هنرى لا نتس إلى الوظيفة الإيقاعية للقافية وظيفة أخرى ربما لم تتضح فى كتابات القدماء، فالأصوات الموسيقية تعتمد على عدد من السلالم الموسيقية التى تضم كل واحد منها سلسلة من النغمات المتعاقبة المتقاربة فيما تحتوى عليه من الذبذبات. ويعتمد التأليف الموسيقى على استخدام عدد من نغمات أحد هذه السلالم؛ فإن كانت النغمات ذات طبيعة تلذ السمع، وروعى فى إيرادها التعاقب الزمنى كان التأليف هارمونياً. ويتخذ الموسيقى فى هذه المصنفات إحدى النغمات أساساً لمصنفه يفتتحه بها، ويعدها العمود الفقرى له، وتسمى مفتاح اللحن. وذهب لانتس إلى أن القافية تؤدى فى الشعر ما يؤديه مفتاح اللحن فى الموسيقى، وسمى ذلك الوظيفة الهارمونية للقافية، وتتمثل فيما تحتوى عليه من حروف اللين، وهى بذلك تعطى القصيدة جوها الانفعالى[(١)].

ولما كانت القافية أساس الموسيقى فى الشعر العربى اشتدت العناية بها؛ لأن القدماء نظروا إلى الدور الذى وُضع الشعر من أجله وهو الغناء والحُداء والترنم، وأكثر ما يقع ترنمهم فى آخر البيت؛ لذلك عرف النحو نوعاً من التنوين يُطلق عليه اسم «تنوين الترنم» وهو الذى يلحق القوافى المطلقة بحرف علة، ومن شواهده قول جرير :

أقلّى اللومَ – عـاذلَ – والعـتـابَنْ   وقـولى – إن أصبت – لقـد أصـابَنْ

وتؤدى أصوات المد واللين دوراً مهماً فى الغناء لما فيها من مدّ الصوت، وأنه يمكن فيها ذلك ما لا يمكن فى غيرها. وشاركت الهاء تلك الأصوات فى الوصل لخفائها، ولأنها تبين بها الحركة كما تبين بالألف. ومن هنا فقد وضع القدماء قاعدة تقول : «إذا نُطق بالشعر على سبيل الحُداء والغناء والترنم، فقد أجمع على إلحاق الألف والواو والياء؛ لأن الترنم يُمدُّ فيه الصوت أكثر من مده فى النشيد، والمقصود به وبالغناء والحداء المد فيقولون :

قفـانبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلى   بسقط اللّوى بين الدّخول فحوملى

(١) للتعرف على ما كتبه لا نتس انظر : (موسيقى الشعر العربى) للدكتور شكرى محمد عياد و(القافية فى العروض والأدب) للدكتور حسين نصار.

وقال النمر بن تولب :

يسـرُّ الفـتى طولُ السـلامـة والغنى فكيف ترى طولَ السلامةِ تفعلُ [١]

بإشباع ضمة اللام فى «تفعل» ، ويؤدى هذا إلى إنتاج الواو.

وهناك عدة ظواهر صوتية تطبع أداء الشعر عند المنشدين؛ فمنهم من يقف على الروى بالسكون، فينشد قول جرير :

أقلى اللومَ عـاذل والعـتـابْ وقـولى إن أصـبتُ لقـد أصـابْ

ويفعل ذلك فيما هو مضموم ومجرور. فإذا أتى فى القصيدة المنصوبة ما هو منون من مصدر أو غيره وقفوا بالألف كقول جرير :

ووجـد قـد طويتُ يكاد منه ضـميـرُ القلب يلتـهبُ التـهـابا

فإن «التهاباً» مفعول مطلق، وهو منون، ولكن تم الوقف بالألف . ويختارون الوقوف بالألف فى الوزن القصير كقوله :

أعطـى عطـاءً حسـناً ورزقـا

وأشار العلماء أيضاً إلى الأداء الصوتى عند بعض العرب؛ فأهل الحجاز ينشدون القصيدة من أولها إلى آخرها ولا ينونون شيئاً. ومنهم من يعطى كل قافية قسطها فينون المنون ويجرى ما ليس منوناً على صلاته فينشد :

قـفانبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخولِ محوملنْ

وينشد :

فـتوضح فـالمقـراة لم يعفُ رسمـها لما نسـجـتـها من جنوبٍ وشمألنْ

وينشد :

إذا التـفـتتْ نحوى تضـوّع ريحـها نسيم الصبـا جـاءتْ بريًّا القرنفلنْ

ومنهم من يخذف واو الجماعة، فينشد :

---

(١) كتاب القوافى ١١٢

لا يبـعـدُ اللهُ جـيـراناً لنا ظعنوا   لم أدرِ بعـد غـداة البينِ مـا صَنَعُ

يريد «ما صنعوا»، وينشد أيضاً قوله :

جـزيتُ ابنَ أوفى بالمدينة قـرضَه   وقـلـتُ لـشُفَّاع المـديـنـة أَوْجِفُ

يريد «أوجفوا». ومنهم من يحذف الياء على الرغم من أنها أصل، فينشد :

ولأنتَ تَفْرِى مـا خلقت وبعـ   ـضُ القـوم يخلق ثم لا يَفْرِ

بحذف الياء من «يفرى». ومنهم من يحذف ياء الضمير، فينشد :

وهم وردوا الجِفـارَ على تميم   وهـم أصحابُ يـوم عـكاظَ إنِّ

يريد «إنى». ومن العرب من ينون ما يجوز فيه التنوين وما لا يجوز، فينشد :

أفـاطم مـهـلاً بعضَ هذا التـدللنْ   وإن كنتِ قد أزمعْتِ صرمى فأجملنْ

ويحكى أن رؤبة أنشد قصيدته التى أولها :

وقـائـمِ الأعمـاقِ خـاوى المختـرقْ

فنون جميع قوافيها[1].

حروف القافية : وهى عبـارة عن مجموعة من الأصـوات التى تعطى الشـعر رنينه وإيقاعه حتى يتحقق الجمال حين الأداء الصوتى له؛ لأن الشـاعر يختـم بها أبيـات قصيدته، ملتزماً بعضـها بعينه، وملتزماً بعضـها الآخر بنظيره، وهى ستة حروف أعطى العلماء لكل منها اسماً خاصّاً به، وهى حسب تتابعها فى القافية : التأسـيس، والدخيل، والرِّدْف، والرَّوِىّ، والوصل، والخـروج؛ لذلك حين يقـول الشـاعر :

مَنْ لا يمتْ عَبْطةً يمتْ هَرَمـا   للمـوتِ كـأس فـالمرءُ ذائقـهـا

فالقـافيـة «ذائقـها»، والألف تأسيس، والهـمزة دخيل، والقـاف روى، والهـاء وصل، والألف خـروج، ولم يرد فى تلك القـافـيـة الردف؛ لأنه لا يجتـمـع مع

(١) السابق : ١١٣ وما بعدها.

الدخيل. وتتفاوت قيمة هذه الحروف تبعاً لتفاوت قيمها الصوتية، ووجوب التمسك بها؛ فأهمها دون منازع الروى، ثم الوصل والخروج، وأخيراً التأسيس والدخيل والردف[١]. وقد عبّر ابن جنى عن ذلك تعبيراً واضحاً فى قوله: «آخر السجعة والقافية أشرف عندهم من أولها، والعناية بها أمسّ، والحشد عليها أو فى وأهمّ، وكذلك كلما تطرف الحرف فى القافية ازدادوا عناية به، ومحافظة على حكمه»[٢]. ولذلك عدلوا فى تناولهم إياها عن ترتيبها على حسب مواضعها إلى تربيتها بحسب أهميتها.

١- الروى: هو الحرف الذى تُبنى عليه القصيدة وإليه تنسب، فيقال: قصيدة دالية أو رائية أو ميمية أو نونية ... لذلك حين يقول الشنفرى:

أقيموا بنى أمى صدورَ مطيكم   فإنى إلى قومٍ سواكم لأَمْيَلُ

نقول «لامية الشنفرى» وحين يقول ابن زيدون:

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا   وناب عن طيبِ لُقيانا تجافينا

نقول «نونية ابن زيدون». وحين يقول شوقى:

وُلد الهدى فالكائناتُ ضياءُ   وفمُ الزمانِ تبسُّم وثناءُ

نقول «همزية شوقى». وقد قال علماء القافية عن الروى: «وفى الروى من التمكن ما ليس فى غيره من الحروف اللازمة؛ لأننا قد نجد تارة شعراً خالياً من التأسيس، وتارة شعراً خالياً من الردف، ويوجد ما هو خالٍ من الصلة والخروج، ولا يوجد شعر يخلو من الروى؛ فلهذا المعنى، والله أعلم، خُصَّ بالاسم المشتق من الرواية، ووقع به التمييز فقيل: لامية امرىء القيس، ودالية النابغة، وميمية زهير»[٣].

---

(١) القافية فى العروض والأدب: ٤٠.

(٢) الخصائص: ١ / ٨٤.

(٣) كتاب القوافى: ٧٥.

وقد كانت هناك عدة تعليلات لتسمية هذا الحرف بالروى؛ فيقال سُمِّى روياً أخذاً له من الروية، وهى الفكرة؛ لأن الشاعر يرويه؛ فهو (أى الروى) وزنه الصرفى «فعيل» بمعنى «مفعول». ويقال: هو مأخوذ من الرِّواء، وهو الحبل يضم شيئاً إلى شيء؛ فكأن الروى شدَّ أجزاء البيت ووصلَ بعضَها ببعض، أو كأنه ربط أبيات القصيدة بعضها ببعض ربطاً شكليًا متمثلاً فى الموسيقى الظاهرة. ويقال: الروى من قولهم: للرجل رُواء؛ أى منظر حسن فسمى روياً؛ لأن به عصمة الأبيات وتماسكها، ولولا مكانه لتفرقت عصباً ولم يتصل شعراً واحداً.

٢ – الوصل: وهو الحرف الذى يجيء بعد الروى المتحرك، وقد سُمِّى بذلك لأنه وصل حركة حرف الروى؛ أى أشبعها، أو لأنه موصول به. وهناك أربعة أحرف تصلح لأن تكون وصلاً هى أحرف المد الثلاثة: الألف، والواو، والياء، ومعها الهاء. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن «الوصل» حرف ليس ضرورياً فى البيت، ولكنه إذا وُجد لزم فى القصيدة كلها.

وحين تقع الألف وصلاً نجدها مختلفة من حيث علاقتها ببنية الكلمة أو تركيب الجملة، وهذا الاختلاف يؤدى إلى تلُّون الأداء الصوتى لبيت الشعر؛ فتكون الألف للإطلاق، وتسمى ألف الترنم أو الإشباع أيضاً، فى قول جرير:

أقلى اللومَ عاذل والعتابا   وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

وتكون الألف من أصل بنية الكلمة فى قول الشاعر:

بما بجفنيكِ من سِحْرٍ صلِى دَنِفاً   يَهْوَى الحياةَ وإما إنْ صددتِ فَلاَ

وقول الشاعر:

فقالتْ صدقْتَ ولكننى   أريدُ أعرِّفُهـا مَنْ أنا

فالألف فى «أنا» لبيان حركة بناء الكلمة. وتكون الألف مبدلة من تنوين المنصوب عند الوقف فى قول شوقى:

قُمْ للمعلمِ وَفِّه التبجيلا   كاد المعلمُ أن يكونَ رسولا

فالألف فى «رسولا» وصل. وتكون مبدلة من نون التوكيد الخفيفة عند الوقف

أيضاً فى قول الأعشى:

وإياكَ والميتات لاتقربنّها ولاتعبد الشيطانَ والله فاعبدا

فالألف فى «فاعبدا» وصل، وأصلها نون التوكيد الخفيفة: «فاعبدَنْ» وقد تم إبدالها ألفاً حين الوقف.

وحين تقع الواو وصلاً نجدها مختلفة أيضاً من حيث علاقتها ببنية الكلمة أو تركيب الجملة؛ فتكون الواو من أصل بنية الكلمة فى قول الشاعر:

نصحتُك علماً بالهوى والذى أرى مخالفتى فاختر لنفسك مايحلو

وتكون الواو للإطلاق، وتسمى واو الترنم أو الإشباع، فى قولى القطامى:

قد يدركُ المتأنى بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجلِ الزللُ

فضمة اللام فى «الزلل» يؤدى إشباعها إلى إنتاج الواو: «الزللُو» ومن أمثلتها كذلك قول جرير:

متى كان الخيامُ بذى طُلوحٍ سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيامُ

أى «الخيامو». وتكون الواو واو جماعة مضموماً ماقبلها؛ لذلك تكون وصلاً كما فى قول القطامى

فلاهُم صالحوا مَنْ يبتغى عَنَتِى ولاهُم كدَّروا الخيرَ الذى فعلوا

وقول الشاعر:

تَمسَّك بأذيالِ الهوى واخلع الحيا وخلِّ سبيلَ الناسكين وإن جلُّوا

وتكون واو الوصل لاحقة للضمير كما فى الشاعر:

تجنَّوا كأنْ لاوُدَّ بينى وبينهم قديماً وحتى ماكأنَّهمُ هُمُو

فالواو فى «همو» وصل. نأتى إلى الياء وهى الحرف الثالث من أحرف المد واللين؛ فتكون من أصل بنية الكلمة فى قول امرىء القيس:

ألا انعمْ صباحاً أيها الطللُ البالى وهل يَنعمنْ مَنْ كان فى العصُرِ الخالى

وهى أصلية كذلك فى قول الشاعر:

أسيلةُ مجرى الدمع أما وشاحُها فيجرى وأمّا الحِجْلُ منها فما يجرى

وأما الياء التى للترنم فكقول امرىء القيس:

ولو أننى أسعى لأدنى معيشةٍ كفانى -ولم أطلب- قليل من المال

فكسرة اللام فى «المال» يؤدى إشباعها إلى إنتاج الياء: «المالى». وتكون الياء ضمير المتكلم كما فى قول امرىء القيس:

ففاضتْ دموعُ العينِ منى صبابةً على النحرِ حتى بلَّ دمعىَ مِحْملى

وقول حافظ إبراهيم:

رجعتُ لنفسى فاتهمتُ حَصَاتى وناديتُ قومى فاحتسبتُ حياتى

رمونى بُعقمٍ فى الشباب وليتنى عَقِمتُ فلم أجزعْ لقول عُداتى

أنا البحر فى أحشائه الدُّر كامن فهل ساءلوا الغواصَ عن صدفاتى

فالقصيدة تائية والياء وصل. نأتى إلى الياء المخففة من الهمزة فنجد العلماء يشيرون إلى وقوعها وصلاً كما فى قول المتنبى:

كلما رمتَ لونَه منع الناظرَ موج كأنه منكَ هازى

فأصل «هازى» هو «هازىء»، وقد أنكر ذلك ابن جنى، ولكن أبا العلاء المعرى أبطل إنكاره[1].

وآخر الحروف التى تقع وصلاً «الهاء»، ولها عدة استعمالات؛ فحين يقول الشاعر:

بالفاضلين أولى النُّهى فى كلِّ أمرِك فاقتده

الهاء فى «اقتده» هى هاء السكت. وحين يقول زهير بن أبى سلمى:

صَحَا القلبُ عن سلمى وأقتصرَ باطلُه وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبا ورواحله

١- كتاب القوافى: ٩٢ ومابعدها.

الهاء فى«رواحله» وصل، وهى ضمير محرّك ماقبله. وحين يقول الشاعر:

ثلاثة ليس لهـــــا رابع الماءُ والحـــسناءُ والخـــضـــرهْ

الهاء فى «الخضره» وصل، وأصلها تاء التأنيث المتحركة. وقال الإمام الشافعى:

أحبُّ الصـــالحين ولستُ منهم لعلى أن أنالَ بهم شـــفـــاعـــهْ

الهاء فى «شفاعه» وصل.

٣- الخروج: وهو حرف المد المتولد من إشباع هاء الوصل المتحركة، وقد سُمى خروجاً لخروجه وتجاوزه الوصلَ التابعَ للروى. ووضع العلماء للخروج قانوناً إجبارياً يقول إنه لازم لايجوز تغييره، فيجب تسليمه فى جميع القصيدة على ما ابتدأه الشاعر فى البيت الأول كما قال لبيد:

عفتِ الديار محلُّها فمقامُها بمنى تأبّد غوْلُها فرجامـهـا

فسلمها على الفتحة إلى آخرها. ومن هنا فإن الهاء إذا كانت مفتوحة كان خروجها ألفاً كقول الشاعر:

يوشك مَنْ فرّ من منيـــتـــه فى بعضِ غِرّاته يوافـــقـــهـــا

فالقاف روى، والهاء وصل، والألف خروج. وإذا كانت الهاء مكسورة كان خروجها ياءً كقول الشاعر:

وإنْ بابُ أمـــرٍ عليك التـــوى فـشـــاورْ لبـيــبـاً ولاتَعـصـهِ

فإن «تعصه» حين إشباع كسرة الهاء تصبح حين كتابتها عروضياً «تعصهى»؛ فالصاد روى، والهاء وصل، والياء خروج. وإذا كانت الهاء مضمومة كان خروجها واواً كقول الشاعر:

مـــــولاى وروحى فى يَده قدْ ضـــيَّعـــهـــا سلِمَتْ يَدهُ

فإن «يده» حين إشباع ضمة الهاء تصبح حين كتابتها عروضياً «يَدُهُو»؛ فالدال روى، والهاء وصل، والواو خروج.

٤ – الرِّدف: وهو الألف والواو والياء التى قبل الروى دون حاجز بينهما، وإنما سُمّى رِدفاً لأنه ملحق فى التزامه، وتحمل مراعاته بالروى، فجرى مجرى الردف للراكب؛ أى يليه لأنه ملحق به. ومن القواعد المتصلة بالردف أنه إذا كان ألفاً وجب الالتزام به فى أبيات القصيدة كلها؛ لأنها أوضح حروف المدّ صوتاً. قال جرير:

إذا غـضـبتْ عليك بنو تميم   وجـدتَ الناسَ كلهم غـضـابا

وقال حافظ:

الأمّ مـدرسـة إذا أعـددتهـا   أعـددت شـعـباً طيبَ الأعـراقِ

أما إذا كان الردف واواً أو ياءً صحَّ أن يتبادلا كما فى قول شوقى:

قـم للمعـلم وفّـه التبجيـلا   كـاد المعـلمُ أن يكـون رسـولا
أرأيت أعظمَ أو أجـلَّ من الـذى   يبـنى ويـنشىء أنـفساً وعـقولا
أخرجتَ هذا العقلَ من ظلماته   وهديتَه النورَ المبينَ سـبـيـلا

فالبيتان الأول والثانى الردف فيهما واو، والبيت الثالث الردف فيه ياء.

ويأتى الردف واواً قبلها ضمة كقول الفرزدق:

فلستُ لإنسيٍّ ولكن لملأكٍ   تحـدَّدَ من جـو السـمـاء يصُوب

وقول الشاعر:

لو حبـا اللهُ خلقَه بالتـساوى   لرأينا الثـمـارَ فى كل عُودِ

ويكون واواً قبلها فتحة كقول رويشد بن كثير الطائى:

يا أيهـا الراكبُ المزجى مطيـتَه   سَائلْ بنى أسـدٍ مـاهذه الصَّوتُ

وقول الشاعر:

لئن كنتَ ماتدرى متى أنت ميتٌ   فـإنك تدرى أنَّ عـايَتك الموتُ

ويأتى الردف ياءً قبلها كسرة كقول الشاعر:

وكـائنْ رأينا من غنى مـذمَّم   وصعلوكِ قومٍ مات وهو حميدُ

وقول عبيد بن الأبرص:

من يسألِ الناسَ يحرموه   وسائلُ اللهِ لايخيبُ

ويكون ياءً قبلها فتحة:

يمنعها شيخ بخديه الشيبْ   لايحذرُ الريبَ إذا خيف الريب

وهناك ردف بالواو والياء المفتوح ماقبلهما كقول بشار بن برد فى جاريته:

ربابةُ ربةُ البيت   تصبُّ الخلَّ فى الزيت

لها عشرُ دجاجات   وديكٌ حسنُ الصوتِ

ويأتى الردف منفصلاً عن الروى كما فى قول أبى العتاهية:

أتته الخلافةُ منقادةً   إليه تجررُ أذيالها

فلم تكُ تصلحُ إلا له   ولم يكُ يصلح إلا لها

وقول ابن المعتز:

غبَّروا عارضَه بالمسكِ فى خد أسيلِ

تحت صُدغين يشيران إلى وجه جميلِ

عندىَ الشوقُ إليه والتنائى عنده لى

بقى أن نشير إلى تساؤل لابن منظور حول الدرف وترتيبه فى القافية وعلاقته بما اشتق منه.. قال «فإن قلت:فإن الردف يتلو الراكب، والردف فى القافية إنما هو قبل حرف الروى لابعده، فكيف جاز لك أن تشبهه به. والأمر فى القضية بضد ماقدمته؟ فالجواب أن الردف وإن سبَقَ فى اللفظ الروىَّ فإنه لايخرج مما ذكرته؛ ذلك أن القافية كما كانت وهى آخر البيت وجهاً له وحلية لصنعته فكذلك أيضاً آخر القافية زينة لها ووجه لصنعتها، فعلى هذا مايجب أن يقع الاعتداد بالقافية

والاعتناء بآخرها أكثر منه بأولها، وإذا كان كذلك فالروى أقرب إلى آخر القافية من الردف فبه وقع الابتداء فى الاعتداد، ثم تلاه الاعتداد بالردف، فقد صار الردف كما ترون وإن سبق الرويَّ لفظاً، تبعاً له تقديراً ومعنى، فلذلك جاز أن يُشبَّه الردف قبل الروى بالردف بعد الراكب»[1].

٥- **التأسيس**: ألف المد التى بينها وبين الروى حرف متحرك، ولابد من الالتزام بها فى سائر أبيات القصيدة، وقد سُميت بذلك لتقدمها على جميع حروف القافية فأشبهت أسَّ البناء. قال الشاعر:

ألاَ ياديارَ الحى بالأخضرِ اسلمى   وليس على الأيام والدهرِ ســالمُ

فألف «سالم» تأسيس واللام دخيل[2]، والميم روى. وقال النابغة:

كلينى لهمٍّ يا أمـيـمـة ناصبِ   وليلٍ أقـاسـيـه بطىءِ الكواكب

ألف «ناصب» تأسيس والصاد دخيل، وكذلك ألف «الكواكب» تأسيس، والكاف دخيل، والباء روى. فإن كان بين هذه الألف وبين الروى حرفان أو أكثر فليست تأسيساً مثل «عقابيل» و «حيازيم» و «قناديل».

ويجب الالتزام بألف التأسيس إذا كانت فى الكلمة التى فيها الروى، ومن ذلك قول النابغة:

دَعَاكَ الهوى واستجهلتْك المنازلُ   وكيف تصابى المرءِ والشيب شاملُ

ويجب الالتزام بها أيضاً إذا كانت كلمة الروى مشتملة على ضمير مجرور بالإضافة كما فى «غلامك»؛ فالألف تأسيس ويجب الالتزام بها؛ لأن الكاف، وهى حرف الروى، لاتنفصل من الغلام. ومن شواهد ذلك قول طرفة بن العبد:

قفى قبلَ وَشْكِ البينِ يابنةَ مالكِ   وعوجى علينا من صدورِ جمالك

فالألف فى «جمالك» تأسيس. فإن كان الضمير متصلاً بحرف جر كقول

---

١ - اللسان: ردف.

٢ - سيأتى التعريف بالدخيل فى موضعه.

سحيم عبد بنى الحسحاس:

ألا نادِ فى آثارهن الغــوانيــا سُقين سـمـامـاً مـالهن ومـاليـا

فهى تأسيس أيضاً، وقد قيل إنها ليست بتأسيس. ويرى بعض العلماء وجوب الالتزام بالألف فى تلك الحال، كما فى قول زهير:

ألا ليت شعرى: هل يرى الناسُ ما أرى من الدهـــر أو يـبدو لهم مابدا ليا
بدا لىَ أنى لستُ مـدركَ مـامـضى ولاسـابقـاً شـيـئـاً إذا كـان جـائيـا

فالتزم الألف. وهذه صور مختلفة لألف التأسيس خلال قول الشاعر:

يقولـون: ليـلى بالعـــراق مريـــضـــةٌ فياليـتنى كنـــتُ الطبـــيبَ المداويا
فيـــارب إذ صـيرت ليـــلى هى المنى فـــزنِّى بعينيـــها كـــما زنتـــها ليا
فـشـاب بنو ليلى وشـاب بنوابنهـا وحرقةُ ليلى فى الفـؤاد كـما هيا

ويمكن إيضاح تلك الصور كما يأتى:

أ- فى البيت الأول اجتمعت ألف التأسيس وحرف الروى فى كلمة واحدة هى «المداويا» فوجب التزامها.

ب- وفى البيت الثانى جاءت ألف التأسيس فى كلمة غير كلمة الروى هى كلمة «زنتها» ولكن الروى جاء ضميراً وهو ياء المتكلم التى قويت بتحركها بالفتح فى قوله «ليا» فوجب التزام ألف التأسيس.

جـ- وفى البيت الثالث نرى ألف التأسيس فى كلمة غير كلمة الروى هى كلمة« كما» ولكن الروى جاء جزءاً من الضمير، وهو الياء من ضمير الغائبة «هى»؛ إذ مجموع الحرفين: الهاء والياء هما الضمير؛ لذا وجب التزام ألف التأسيس[1].

٦- الدخيل: هو الحرف المتحرك الذى يقع بين التأسيس والروى، وقد

١- الدكتور أمين على السيد: فى علمى العروض والقافية: ١٩٣.

سُمّى بذلك لأنه يقع بين حرفين يخضعان لبعض الشروط، فى حين أنه لايخضع لشروط مشابهة، فشابه الدخيل فى القوم. والدخيل ليس من الحروف الضرورية فى القافية، ولكنه إذا ورد فيها وجب الالتزام به، دون أنْ يكون بذاته، وإنما بنظيره من الحروف الأخرى، ومن أمثلته قول بشار:

إذا كنتَ فى كلِّ الأمور معاتباً   صديقَك لم تَلْقَ الذى لاتعاتبهْ
فعشْ واحداً أوصلْ أخاك فإنه   مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبُهْ
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئت وأىُّ الناسِ تصفو مشاربه

وقد اختلف الدخيل فى تلك الأبيات الثلاثة فهو التاء، والنون، والراء على التوالى. والباء روى، وهى موصولة بالهاء الساكنة فلاخروج بعدها. ومن أمثلته أيضاً قول جميل بثينة:

وقالت: ترفَّق فى مقالة ناصح   عسى الدهرُ يوماً بعد نأىٍ يساعفُ
فإنْ تدنُ منّا يرجعِ الودُّ راجعٌ   وإلا فقد بان الحبيب الملاطف
فوليتُ محزوناً وقلتَ لصاحبى   هو الموتُ إنْ بان الحبيبُ المؤالف

وقد اختلف الدخيل؛ فهو العين فى البيت الأول، والطاء فى الثانى، واللام فى الثالث، والألف تأسيس، والفاء روى.

وبعد هذا العرض لحروف القافية نشير إلى أننا نلاحظ غلبة حروف اللين عليها؛ فهى تأتى تأسيساً وخروجاً دائماً، ووصلاً وردفاً فى أكثر الأحيان، ورويًا فى بعض الأحيان. فلاينفرد الحرف الصحيح إلا بالدخيل. ويؤكد لنا ذلك ماتبينه (لانتس) لهذه الحروف من قيم موسيقية خاصة تحدث تأثيراً نفسيًا شبيهاً بالتأثير الذى يحدثه اللحن الموسيقى، وما تبينه الدكتور شكرى عياد من التزام صوتين لينين فى أكثر القوافى العربية التى اعتمدت على التكرار أو التقابل تعويضاً لها عما فقدته من تنوع. ومثَّل للتكرار بقول أحمد شوقى:

أنادى الرسم لو ملَكَ الجوابا   وأجزيه بدمعى لو أثابا

وللتقابل بقوله أيضاً:

وُلد الهدى فالكائناتُ ضياء وفم الزمان تبسُّم وثناء[1]

تحديد حرف الروى: الروى هو الحرف الذى يتكرر فى أبيات القصيدة كلها وإليه تُنسب. وهناك بعض الحروف لاتصلح لأن تكون روياً؛ بالإضافة إلى أن بعضها الآخر وقع روياً أكثر من غيره. وتصلح كل حروف المعجم لأن تقع روياً ماعدا بعضاً منها نقدمه على النحو الأتى:

الألف: ليست الألف غير صالحة على الإطلاق لأن تقع رويًّا؛ إذ إنها تكون كذلك فى موضعين:

١ –أن تكون الألف من أصل بنية الكلمة كما فى قول الراجز:

ذكرتُ والأهواء تدعو للهوَى

والعيسُ بالركب يجاذبْنَ البُرَى

فالألف فى «الهوى» و «البُرَى»[2] أصلية؛ لذلك تكون روياً. ومن ذلك مقصورة ابن دريد التى يقول فيها:

مَنْ ظلم الناسَ تحاشَوْا ظلمه وعزَّ فيهم جانباه واحتمى

وهم لمن لان لهم جانبُه أظلمُ من حيات أنباث السَّفَا

والناسُ كلاًّ إن بحثْتَ عنهم جميعَ أقطار البلاد والقرى

عبيدُ ذى المال وإن لم يطعموا من غمره فى جَرْعة تشفى الصَّدَا

٢ – أن تكون الألف زائدة للتأنيث مثل «ليلى» و «حبلى»، أو للإلحاق مثل «أرطى» و «علقى».

أما الألف التى لاتصلح لأن تكون رويًا فيمكن تقديمها خلال النقاط الآتية:

١ – الألف التى تسمى ألف الإطلاق أو الإشباع أو الترنم، ومن شواهدها قول

---

١ – القافية فى العروض والأدب:٧٣ ومابعدها؛ وموسيقى الشعر العربى: ١١٣.

٢ – البُرَى: جمع بُرة، وهى الحلقة التى تُعلق فى أنف الجمل

الشاعر:

أقلّى اللومَ عــاذل والعـتــابا　　وقــولى إن أصـبتُ لقــد أصــابا

وقول الشاعر:

لاأرى الموتَ يســبقُ الموتَ شئٌ　　نَغّصَ الموتُ ذا الغنى والفـقـيـرا

٢- الألف التى تبين حركة بناء الكلمة كالألف التى فى «أنا» من قول الشاعر:

فــقــالتْ: صــدقْتَ، ولكننى　　أريدُ أعْرفــــهـــــا مــن أنا

وقول عمرو بن مَعْدى كرب:

قــد علمتْ سلمى وجــاراتُها　　مـــا قطّر الفـــارسَ إلا أنا [1]

٣- الألف المبدلة من تنوين المنصوب حين الوقف. قال شوقى:

قم للمـعلم وفّه التـبـجـيـلا　　كـــاد المعلمُ أن يكون رســولا

٤- الألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة عند الوقف، ومن شواهدها قول الأعشى:

وإياك والميـتــاتِ لاتقــربنّهــا　　ولاتعبـدِ الشـيطانَ والله فـاعـبـدا

أراد «فاعبدَنْ». وقال المتنبى:

بادٍ هواك، صبـرتَ أم لـم تصبـرا　　وبكاك إن لـم يجـرِدمعك أو جـرى

أراد «تصبَرنْ».

٥- ألف الاثنين كــمــا فى «ذهبا» لاتكون رويًا، وإنما هى وصل والحرف السابق عليها هو الروى.

الياء: وليست الياء على إطلاقها غير صالحة لأن تكون رويًا ؛ إذ إنها تكون كذلك فى المواضع الآتية:

١ -تكون ياء النسب المشددة رويًا كما فى قول سُديف محرضاً السفاح على

١- قطّر الفارس: صرعه.

الأمويين:

فضع السيفَ وارفع السوطَ حتى ... لاترى فـــوقَ ظهـــرها أمـــوياً

وهناكَ ياء مشددة ليست للنسب، ولكنها تكون روياً كما فى قول الشاعر:

تأنَّ فى الشىء إذا رمـــتـــه ... فـــتـــدركَ الرشـــدَ من الغىِّ

٢- الياء المتحركة على أن تكون مسبوقة بحرف متحرك كما فى قول الشاعر:

يقـــولون: ليـــلى بالعـــراق مريضة ... فياليـــتنى كنـــتُ الطـــبيبَ المـــداويا

فشاب بنو ليلى وشاب بنوابنها ... وحُرقةُ ليلى فى الفؤاد كـمـاهيـا

٣- تكون الياء متحركة أو ساكنة فتقع روياً على أن تكون مسبوقة بحرف ساكن كما فى قول الشاعر:

أجلُّ الناسِ- إن فخروا - نصابا ... وأكرمهم - إذا اختُبروا - سجايا [1]

٤- الياء الساكنة الواقعة بعد ساكن كما فى «عصاىْ» و «هواىْ».

٥- ياء المخاطبة المفتوح ماقبلها مثل «اخشَىْ».

ولعله من المفـيـد الإشـارة إلى أن هناك ياءً تصلح لأن تكون روياً أو وصـلاً؛ وذلك فى المواضع الآتية:

١- حين تخفيف ياء النسب يجوز أن تكون روياً أو وصلاً. قال الشاعر:

أشابَ الصـغـيـرَ وأفنى الكبـيـر ... كـــرُّ الغـــداةِ ومـــرُّ العـــشىْ

٢- الياء الأصلية أو المنقلبة عن أصل، والأحسن أن تكون وصلاً لا روياً. قال الشاعر:

نـــروح ونغـــدو لحـــاجـــاتـــنا ... وحـــاجةُ مـــَنْ عـــاش لاتنقـــضى

تموت مع المرء حـــاجـــاتُه ... وتبـــقى له حـــاجـــةٌ مـــابقى

٣- هناك كلمات وزنها الصرفى «فعيل»، وتصلح الياء الأولى لأن تكون روياً أو وصلاً كما فى قول الراجز:

١- النصاب: الحسب.

ألم تكن حلفت بالله العلىّْ

أنّ مطاياك من خير المطىّْ

أما الياء التى تمتنع أن تكون رويًا فأشهرها الياء التى تأتى للإطلاق أو الترنم أو الإشباع. قال شوقى:

ريمٌ على القـاع بين البـان والعلمِ   أحلَّ سفكَ دمى فى الأشهر الحرمِ

فالميم روى، والياء للإشباع؛ لأن «الحرم» حين كتابتها عروضياً تصبح «الحرمى». والدليل على أن الميم روى قول شوقى فى القصيدة نفسها:

لمّارناَ حـدثتنى النفسُ قـائلة: ياويحَ جنبِك بالسهم المصيبِ رُمِى

وكذلك إذا كانت الياء ضمير المتكلم امتنعت أن تكون رويًا، وهى وصل كما فى قول حافظ:

رجعتُ لنفسى فاتهمتُ حصاتى   وناديتُ قومى فاحتسبتُ حياتى

الواو: تصلح الواو لأن تكون رويًا فى المواضع الآتية:

١ - الواو المتحركة، ومن أمثلتها قول الشاعر:

إذا مـاترعـرع فـينا الغـلامُ   فـمـا إن يقـال له: مَنْ هُوَهْ؟

٢ - تكون الواو من أصل بنية الكلمة كما فى «صَفْو» و «حُلْو» و «بَهْو» ... وفى تلك الحال تكون رويًا بشرط أن يكون الحرف السابق عليها ساكناً كما فى قول الراجز:

إنى إذا ماخذلتنى دلوى

سقيتُ من حوضٍ غزير الصّفْوِ

مالم يكن فى طرفٍ من شكو

٣- أن تكون واو الجماعة الساكنة المفتوح ماقبلها كما فى قول الراجز:

حدَّثنا الراوون فيما رووْا

أن شرارَ الناسِ قوم عَصَوْا

٤ – الواو المشددة كقوله:

وإن من شرائط العُلُوّ

العطفَ في البؤس على العدوّ

وقبل أن نترك الحديث عن الواو التي تقع رويًا نشير إلى أن واو الجماعة المضموم ماقبلها منع العلماء وقوعها رويًا، ولكن وردت أبيات لمروان بن الحكم جعلها كذلك، وهي قوله

هل نحن إلا مثلُ من كان قبلنا ... نموتُ كما ماتوا، ونحيا كما حيُوا
وينقص منا كلُّ يومٍ وليلة ... ولابد أن نلقى من الأمر مالقُوا
نؤمِّل أن نبقى، وكيف بقاؤنا؟ ... فهلاَّ الألى كانوا مَضَوا قبلنا بقوا
فنُوا وهُمُ يرجون مثل رجائنا ... ونحن سنفنى مرةً مثل مافنوا
لنا ولهم يومَ القيامة موعد ... سنُدعى له يوم الحساب إذا دُعوا
ويُحبس منا من مضى لاجتماعنا ... بموطن حقٍّ ثم نُجزى إذا جُزوا
فمنُهم سعيدٌ سعدةً ليس بعدها ... شقاء، ومنهم بالذى قدموا شقوا
عَمُوا عن هُدى قصد السبيل عمى الذى ... رآه وقرن قد خلا قبلهم عَمُوا

قال أبو العلاء المعرى: «وإذا كانت للإضمار في مثل: فعلوا وقتلوا، وكان ماقبلها مضموماً ولم تكن مثل: عَصَوْا ورَمَوْا؛ فإنها تكون وصلاً لاغير. فإن جاء غير ذلك حُسبَ من عيوب الشعر التي تسمى الإكفاء والإجازة ونحو ذلك. وقد وجدتُ في أشعار قريش شعراً منسوباً إلى مروان بن الحكم قد جعل الواو فيه رويًا، في مثل: دَعُوا ولقُوا، فإن صحَّ ذلك فليس بأبعد مما بنى على الألف، وذلك قليل نادر. والواو المضموم ماقبلها في مثل: فعلوا، لاتكون إلا وصلاً، وليس على الشذوذ تعويل. ولا أعرف لأحدٍ من أهل الفصاحة مثل أبيات مروان» [(١)]. فالواو المضموم ماقبلها لاتكون إلا وصلاً عند أبي العلاء، وهذا الشعر الذى ورد عن مروان بن

---

١ – شرح لزوم مالايلزم: ٤٣/١.

الحكم قليل مثاله، نادر وجود في ديوان العرب؛ لذلك لايُعول عليه، وقد انتهى أبو العلاء إلى أن «مابنى على الواو قليل جداً؛ لأن العرب إنما كانت تتبع أشرف الكلم في السمع»[١].

نأتى، بعد ذلك، إلى الواو التى لاتصلح لأن تكون روياً، ويأتى على رأسها الواو التى للإطلاق أو الإشباع أو الترنم والتى ماقبلها مضموم، ومن أمثلتها قول شوقى:

من أىِّ عـهـدٍ فى القـرى تتـدفَّقُ وبـأىِّ كـف فـى المـدائـن تُغْدِقُ

فالواو ناتجة من إشباع ضمة القاف وهى وصل، وليست روياً. وقد توقف الأخفش أمام تلك الواو؛ بالإضافة إلى الألف والياء موضحاً العلة فى عدم صلاحيتها لتكون روياً قائلاً: «وإنما منعهن أن يكنّ روياً أنهن ليس لهن أصول فى الكلام؛ وإنما هن مزيدات على ماقبلهن لتمام الشعر، وإنما زادوهن من بين الحروف؛ لأن الشعر وُضع للغناء والترنم، وأكثر مايكون ذلك فى آخر البيت، فزادوا حروفاً يجرى فيها الصوت؛ وذلك أن الصوت لايجرى إلا فى حروف المد واللين، وهن الياء والواو الساكنتان والألف»[٢]. وتنتمى إلى هذا النوع الواو اللاحقة بالفعل المعتل المجزوم بحذف حرف علته مثل «لم يغزو» والواو اللاحقة للضمير مثل «ضربتموه» و «غلامهو»[٣].

ولاتصلح الواو لأن تكون روياً إذا كانت ضمير جمع (واو الجماعة) وماقبلها مضموم، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

قـومٌ إذا حـاربوا ضـرُّوا عـدوَّهم أوحاولوا النفعَ فى أشياعهم نفعُوا

فواو الجماعة فى «نفعوا» ليست روياً؛ بل هى وصل، والروى العين. ويندرج تحت الواو التى لاتصلح لأن تكون روياً تلك التى تلحق الضمير، ومن أمثلتها قول الشاعر:

---

١ – السابق: ٧٣/١. وقد قال التنوخى: «وأما الواو التى تكون للجميع مثل واو «فعلوا فلا تكون روياً. وقد وردت أبيات شاذة رويها الواو فى نحو «شقُوا وحبُوا». كتاب القوافى: ٧٩.

٢ – القوافى: ٧٨.

٤ – الدكتور حسين نصار: القافية ٥٠.

تجنّوا كــأنْ لاودَّ بيني وبينهم قــديماً وحــتى مــاكــأنهمُ هُمُو

فالواو في «همو» وصل، وليست روياً.

النون: تصلح النون لأن تكون روياً، ولكن هناك حالتين يمتنع فيهما ذلك هما:

١- من المعروف أن «التنوين» عبارة عن نون ساكنة تلحق آخر الكلمة نطقاً لا كتابة، ولاتصلح نون التنوين تلك لأن تكون روياً.

٢- لاتكون نون التوكيد الخفيفة روياً؛ لذلك حين يقول الشاعر:

وإياك والميــتــاتِ لاتقــربنّهــا ولاتعبدِ الشيطانَ والله فاعبدنْ

فالنون في «اعبدن» ليست روياً، بل الروى هو الدال. ويرى أبو العلاء المعرى أن السبب في عدم صلاحية تلك لأن تكون روياً قلبها ألفاً حين الوقف. قال: «فأما النون الخفيفة فلايجوز أن تُجعل روياً؛ لأن القافية موضع وقف، وهذه النون تصير في الوقف ألفاً. فإن أريد بها الثقيلة، إلا أنها خُففت للقافية كما تخفف لام (أضلّ) و دال (أشدّ)، فلا بأس أن تجعل روياً؛ لأنها في نية المثقلة»[١].

الهاء: هناك ثلاثة أحوال لايجوز فيها أن تكون الهاء روياً، وتلك الأحوال هي:

١- هاء السكت وهي التي يُوقف عليها لتبين حركة الحرف السابق عليها، ومن أمثلتها قول الشاعر:

بالفــاضلين أولى النُّهى في كل أمــرك فــاقــتــدهْ

فالهاء في «فاقتده» هي هاء السكت، وتكون وصلاً، أما الدال فهي حرف الروي. ومن أمثلتها أيضاً قول بعض جواري العرب:

يا أبتــي ويا أبــهْ
حسَّنْــتَ إلا الرقبهْ
فزيِّنَهــا يــا أبــهْ
كيما يجيء الخطبهْ
بإبــلٍ مقرَّبــهْ
للفحل فيها قبقبهْ [٢]

١- شرح لزوم مالايلزم :٤٩/١.

فالهاء فى الأبيات الثلاثة الأولى للسكت، وفى الثلاثة الأخيرة للتأنيث.

٢ – الهاء المنقلبة عن تاء التأنيث المتحركة، ومن أمثلتها قول الإمام الشافعى:

أحبُّ الصـــالحين ولستُ منهـم   لعلى أن أنال بهـم شــفــاعــهْ

فالهاء فى «شفاعه» أصلها تاء «شفاعة»، وهى فى البيت وصل، والعين روى.

وقال الشاعر:

ثلاثةٌ ليـس لـهـــــا رابعٌ   الماءُ والحـــسناءُ والخُضــــرهْ

فالهاء فى «الخضره» وصل، والراء الروى.

٣ – أن تكون هاء الضمير سواء أكان ساكناً أم متحركاً، ومن أمثلتها قول زهير بن أبى سلمى:

صحا القلبُ عن سلمى وأَقْصَرَ باطله   وعُرِّىَ أفــراسُ الصِّبـــا ورواحلُه

فالهاء الساكنة فى «رواحله» وصل، واللام السابقة عليها روى. ومثل ذلك قول الشاعر:

أخ مـاجـد لم يُخْزِنى يومَ مـشـهـدٍ   كما سيفُ عمروٍ لم تَخُنْهُ مضاربُهْ

فالهاء الساكنة فى «مضار به» وصل، والباء السابقة عليها روى. وقال الشماخ:

حـمـامـة بطنِ الواديين ترنّمى   سقـاكِ من الغُرِّ الغوادى مطيرُها

فالهاء المتحركة وصل والراء روى.

وبعد هذا الحديث عن تحديد حرف الروى نشير إلى أنّ القدماء عرضوا لهذا الحرف فى بعض القصائد مع ربطه بالإبداع فى العمل الفنى، وعرضوا أيضاً لما أسموه بالتطوع بمالايلزم ، ومن أولئك ابن جنى الذى قال عن هذا التطوع أن : «هذا أمر قد جاء فى الشعر القديم والمولّد جميعاً مجيئاً واسعاً. وهو أن يلتزم الشاعر مالايجب عليه؛ ليدل بذلك على غزره وسعة ماعنده. فمن ذلك ما أنشده الأصمعى لبعض الرجاز:

وحسَّدٍ أو شلْت من حِظاظها
على أحاسى الغيظ واكتظاظها

وبعد أن يورد ابه جنى بعض الأبيات يعلّق عليها قائلاً: «فالتزم فى جميعها ما تراه من الظاء الأولى مع كون الروى ظاءً، على عزة ذلك مفرداً من الظاء الأولى، فكيف به إذا انضم إليه ظاء قبله. وقلما رأيت فى قوة الشاعر مثل هذا»[١].

ويوسع ابن جنى دائرة حديثه عن الروى وذلك حين توقف أمام بعض القصائد التى التزم الشاعر فيها تصغير قوافيها قائلا: «وأنشد الأصمعى أيضاً من مشطور السريع رائية طويلة التزم قائلها تصغير قوافيها فى أكثر الأمر إلا القليل النزر. وأولها:

عــزٌ على ليلى بذى سُدَير ... ســوءُ مــبــيــتى ليلة الغُمــيْر

وبعد أن يورد عدة أبيات من القصيدة يعلّق عليها بقوله: «أفلا ترىَ إلى قلة المصغر فى قوافيها. وهذا أفخر ما فيها، وأدله على قوة قائلها، وأنه إنما لزم التصغير فى أكثرها سباطة وطبعاً، لاتكلفاً وكرهاً؛ ألا ترى أنه لوكان ذلك منه تجشُّماً وصيغة لتحامى غير المصغر ليتم له غرضُه، ولاينتقض عليه ما اعتزمه»[٢].

واهتم أبو العلاء المعرى بالروى من حيث النظر فى دواوين بعض الشعراء والتعرف على ما استعمله روياً من حروف المعجم. قال: «فأما المتقدمون فقلما ينتظمون بالروى حروف المعجم، لأن ماروِى من شعر امرئ القيس لانعلم فيه شيئاً على الطاء والظاء،ولا الشين ولا الخاء، ونحو ذلك من حروف المعجم. وكذلك ديوان النابغة ليس فيه روى بُنى على الصاد ولا الضاد ولاالطاء، ولاكثير من نظائرهن. وهذا شئ وليس بخفى ... وهذا أبو عبادة (البحترى) وله شعرجم، ولا أعلم فيما رُوى له - شيئاً على الخاء ولا الغين ولا الثاء، إلا أن يكون شاذاً لم يثبت فى أكثر النسخ. وإذا اتفق لهم أن يجيئوا بالحرف فقلما يستوعبون مجيئه على كل الحركات. وإن استعملوه فى حال الحركة جاز أن يُلغوه من حال الإسكان. مثال ذلك أن أبا الطيب (المتنبى) استعمل الهمزة المضمومة والمكسورة، ولم يستعمل المفتوحة ولا الساكنة، واستعمل السين المكسورة دون المفتوحة والمضمومة

١- الخصائص: ٢٣٤/٢ ومابعدها.

٢- السابق: ٢٣٨/٢ ومابعدها.

والساكنة، وكذلك جرى أمر الشعراء المتقدمين والمحدثين»[1].

وإذا كان اهتمام المعرى بالقوافى أعظم من اهتمام غيره بها بسبب ما التزمه فيها خرج من تجاربه فيها بتصنيف يقسّم الروى ثلاثة أنواع:

١ – القوافى الذُّلل: وهى التى كثر دورانها على الألسن قديماً وحديثاً.

٢ – القوافى النُّفُر: وهى التى قل استعمالها عن سابقتها، كالجيم والزاى.

٣ – القوافى الحوش: وهى المهجورة التى تكاد لاتستعمل.

والأمر الذى يُؤسف له أن أبا العلاء لم يفرق حروف الهجاء على هذه الأقسام الثلاثة التى أتى بها، ولكن ما فاته قام به الدكتور عبد الله الطيب فى العصر الحديث؛ فقد تمسّك بتصنيف المعرى، ثم وزع عليه الحروف على النحو الآتى:

١ – القوافى الذلل: ء ب ت جـ حـ د ر س ع ف ق ك ل م ن يا.

٢ – القوافى النفر: ز ص ض ط هـ و.

٣ – القوافى الحوش: ث خ ذ ش ظ غ.

وقسّم الدكتور إبراهيم أنيس الحروف فى مجيئها رويّاً أربعة أقسام:

١ – الكثيرة الشيوع، وإن اختلفت نسبة شيوعها فى أشعار الشعراء، وهى:

ر ل م ن ب د.

٢ – المتوسطة، وهى : ت س ق ك ء ع ح ف ى ج.

٣ – القليلة، وهى : ض ط هـ.

٤ – النادرة، وهى : ذ ث غ خ ش ص ز ظ و.

ووُفق كثيراً حين حاول أن يعلل هذه الظاهرة فقال: «ولاتُعزى كثرة الشيوع أو قلتها إلى ثقل فى الأصوات أو خفة بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها فى أواخر كلمات اللغة، فالدال – مثلاً – تجئ فى أواخر كلمات اللغة العربية بكثرة، ولكن

١– شرح لزوم مالايلزم: ٣٩/١. ونشير إلى أن ديوان امرىء القيس فيه أبيات طائية، وديوان البحترى فيه

شيوعها فى اللغة عامة ليس بالكثير، بل ربما قل عن العين والفاء، ومع هذا فمجئ الدال رويًا يزيد كثيراً على مجئ كل من العين والفاء. وليست تتطلب الزاى جهداً عضليا يبرز ندرة ورودها رويًا»[١].

ويكمل هذا الحديث عن الروى التوقف أمام مواضعه وطريقة تعيينها، وقد أحسن التعبير عن ذلك السيد محمد الدمنهورى فى كتابه (الإرشاد الشافى على متن الكافى)؛ إذ قال: «إذا جاءك بيت فانظر إلى آخر حرف منه، فإن كان واحداً مما لايجوز أن يكون رويًا فتجاوزه إلى الذى قبله، فإن لم يكن واحداً منها فاجعله رويًا. وإن كان واحدا منها فتجاوزه إلى ما قبله، فإنه لابد أن يكون رويًا؛ لأنه لايمكن أن يلحق بعد حرف الروى أكثر من حرفين: الأول الوصل، والثانى الخروج. مثلاً. بيت رؤبة وهو:

وقاتم الأعماقِ خَاوِى المُخْتَرَقْ

آخره القاف، وليست واحداً من الحروف المستثناة فهى حرف الروى، والقصيدة لذلك قافية، وبيت زهير بن أبى سُلمى وهو:

صحا القلبُ عن سَلمى وأقصر باطلُهْ وعُرِّىَ أفـراسُ الصِّبـا ورواحلُهْ

آخره الهاء، إلا أنها من الحروف المستثناة، ألاتراها هاءَ إضمار متحركاً ما قبلها، فلا تكون رويًا بل وصلاً، فقد اضطررت إلى اعتبار ما قبلها وهو اللام، وليست من الحروف المستثناة، فهى الروى، والقصيدة لذلك لامية. وبيت الأعشى وهو:

قطعتُ إذا خَبَّ ربعـانُهـا بعـرفـاءَ تنهضُ فى آدها [٢]

آخره الألف، ولاتكون رويًا بل خروج، لأنها تابعة لهاء الإضمار، فقد اضطررت إلى اعتبار ما قبل الهاء وهو الدال، وليست من الحروف المستثناة، فهى

---

١ – انظر القافية للدكتور حسين نصار ٥٥؛ والمرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور عبد الله الطيب ٤٤/١ ومابعدها؛ وموسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ٢٤٧ ومابعدها.

٢ – ربعان جمع رَبَاع، يقال: فرس رباع؛ أى ألقى رباعيته؛ أى بعد سبع سنين، والناقه العرفاء التى تشبه الجمال، وقيل لها عرفاء لطول عرفها، والآد مخففة من الآدّ: الأمر الفظيع.

إذن الروى، والقصيدة لذلك دالية، وقِسْ.

ثم ما يجوز أن يكون رويًا ووصلاً... قد يتعين أن يكون وصلاً، إذا كان فى الأبيات ما لايصلح أن يكون رويًا، مثل : قفلت كارها، ومررت بدارها، فإن هاء (كارها) وإن جاز كونها رويًا لكن لما جاء بعدها فى آخر بيت مالايصلح أن يكون رويًا، وهو هاء (دارها) تعنيت هى للوصـل.

وقد يتعين أن يكون رويًا إذا لم يلتزم الحرف الذى قبله فى آخر كل بيت من أبياته كما فى : ثُلْتى، ولمتى، وليلتى ، فإن تاء التأنيث وإن جاز كونها وصلاً لكن لما لم يلتزم الحرف الذى قبلها تعينت هى للروى هنا، وقس على ذلك.

أما ما عدا هذه الأحرف .... فلا يكون إلا رويًا».

* * *

أنواع القافية

يرتبط الحديث عن أنواع القافية بحركة الروى، وقد صنف العلماء تلك الأنواع إلى ما يأتى:

القوافى المقيدة : وهى ثلاثة أنواع:

١ - المجردة من التأسيس والردف، كقول حسان بن ثابت:

إذا قـتلتم مـاجـدًا ذا مـرة ... واضح السنة مـعـروف النسبْ

وقول الشاعر:

النشـرُ مـسك والوجـوه دنا ... نيـــرُ وأطراف الأكفِّ عَنَمْ

وقول لبيد:

إنَّ تقـــوى ربنا خـــيرُ نَفَلْ ... وبـإذنِ الـلـهِ ريـثـى وعَجَلْ

٢ - المردوفة كقول الشاعر:

لايَغُرَّنْ امـــرأً عـــيـــشةٌ   كلُّ عـــيشٍ صـــائر للزوالْ

وقول القاسم بن معن:

أنْ تهـــبطين بلادَ قـــو   م يرتعـــون من الطلاح

وقول طرفة:

مَنْ عائدى الليلة أم من يصيحْ؟   بتُّ بهم فـفـؤادى قـريحْ

٣ - المؤسسة كقول الشاعر:

نَهْنهْ دمـــوعَك إنّ مَنْ   يبكى من الحَدَثان عـاجـزْ

وقول عبيد:

وإذا تبـاشـرُك الهـموم   فـإنهـا كـال وناجـزْ

وقول الشاعر:

وغـــررْتنى وزعــمْتَ أنك   لابنٌ فى الصـيفِ تامـرْ

وقد أشار الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن هذا النوع من القوافى قليل الشيوع فى الشعر العربى لايكاد يجاوز ١٠ ٪، وهو فى شعر الجاهليين أقل منه فى شعر العباسيين؛ لأن الغناء فى العصر العباسى انسجم مع هذا النوع وتناسب كثيراً[١].

القوافى المطلقة:

القافية المطلقة هى التى يكون فيها حرف الروى متحركاً؛ أى إن الصوت أطلق به، وتلك القافية ستة أنواع هى:

١ - مجردة من التأسيس والردف موصولة باللين كقول حاتم الطائى:

يرى البخيلَ سبيلَ المال واحدةً   إن الكريم يرى فى مـاله سُبُلا

١- موسيقى الشعر: ٢٦٠

اللام روى، والألف وصل. وقال الشاعر:

حمدتُ إلهى بعد عروةَ إذْ نجا   خراشٌ وبعض الشرِّ أهونُ من بَعْضِ

الضاد روى، والياء و صل لأن الكتابة العروضية لـ «بعض» هى «بَعْضِى».

وقال الشاعر:

تهونُ علينا فى المعالى نفوسُنَا   ومن يخطب الحسناءَ لم يُغْلِها المَهْرُ

الراء روى، والواو وصل لأن الكتابة العروضية لـ «المهر» هى «المهرُو».

٢ - مجردة من التأسيس والردف موصولة بالهاء كقول طرفة:

للفتى عقلٌ يعيشُ به   حيثُ تهدى ساقَه قَدَمُهْ

الميم روى، والهاء وصل. وقال الراجز:

ألا فتًى لاقى العُلا بهمَّهْ   ليس أبوه بابنِ عمِّ أمِّهْ

الميم روى والهاء وصل.

٣ - المردوفة الموصولة باللين كقول الشاعر:

ألا قالتْ بثنيةُ إذْ رأتْنى   وقد لاتَعْدَمُ الحسناءُ ذاما

الميم روى، والألف وصل، وقال أبو فراس الحمدانى:

أيا جارتا ما أنصف الدهرُ بيننا   تعالى أقاسمْكِ الهمومَ تعالى

اللام روى، والياء وصل.

٤ - المردوفة الموصولة بالهاء كقول طرفة:

إذا كنتَ فى حاجةٍ مرسلاً   فأرسلْ حكيماً ولاتوصِهِ

الصاد روى، والهاء وصل، والواو ردف. وقال أبو العلاء:

علّموهُنَّ الغَزْلَ والنسجَ والرَّدْ   نَ، وخلّوا كتابةً وقراءهْ

الهمزة روى، والهاء وصل، والألف ردف.

٥ – مؤسسة موصولة باللين كقول الشاعر:

كثيرُ حياةِ المرءِ مثلُ قليلها   يزولُ وباقى عيشه مثلُ ذاهبِ

الألف تأسيس، والباء روى، والياء وصل؛ لأن «ذاهب» كتابتها العروضية «ذاهبى». وقال النابغة:

كلينى لهم يا أميمةُ ناصبِ   وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكب

الألف تأسيس، والباء روى، والياء وصل «الكواكب = الكواكبى».

وقال لبيد:

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئه   يحورُ رماداً بعد إذْ هو ساطعُ

الألف تأسيس والعين روى، والواو وصل «ساطعُ = ساطعو».

٦ – مؤسسة موصولة بالهاء كقول الشاعر:

همُ قتلوه كى يكونوا مكانه   كما نذرتْ يوماً بكسرى مرازبُهْ

الألف تأسيس، والباء روى، والهاء وصل. وقال حسان:

المطعمون إذا سنون المَحْلِ تصبحُ راكدهْ

الألف تأسيس، والدال روى، والهاء وصل.

وبعد هذا العرض لأنواع القافية نتوقف بالدراسة التفصيلية أمام موضوع آخر هو:

حركات القافية

هناك ستة مصطلحات أطلقها العروضيون على حركات القافية، يمكن إيضاحها خلال النقاط الآتية :

١- الرَّسُّ :

وهو الفتحة قبل ألف التأسيس، نحو فتحة واو «الرواحل» ونون «المنازل»، وقال الشاعر :

يعقد في الجِيدِ عليه الرُّقَى من   خِيـفـة الأنفسِ والحـاسـد

ففتحة الحاد في «الحاسد» رس. وقال النابغة :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل   وكيف تصابى المرء والشيب شامل

ففتحة الشين في «شامل» رس، وهى قبل ألف التأسيس.وقد توقف العلماء أمام تعليل التسمية، فقالوا إن الرَّسَّ مأخوذ من «رسَ الحُمَّى» أى أولها، وسميت هذه الفتحة رَسًّا لأنه اجتمع فيها الخفاء والتقدم. أما التقدم فلتراخيها عن حرف الروى وبُعْدها عنه، و أما الخفاء فلأنها بعض حرف وهو الألف. وقالوا أيضاً : الرسُّ القلة و الخفاء، ومنه رسيس الهوى، فكأن حركة ما قبل الألف (حركة الرس؛ أى الفتحة) حسن خفى. قال الشاعر :

رس كرس أخى الحمى إذا غَبَرَتْ   يومـاً تأوبه منهـا عـقـابيل

ويري أبو عمر الجرمى أنه لا حاجة إلى ذكر الرس، لأن ما قبل الألف لايكون إلا مفتوحاً أبداً سواء أكان تأسيساً أم غير تأسيس.

٢- الحَذْوُ :

وهو حركة ما قبل الردف واواً كان أو ألفا أو ياءً. فإن كان الردف واواً فالحذو ضمة، وإن كان الردف ألفاً فالحذو فتحة، وإن كان ياءً فالحذو كسرة. وقد يجيء قبل الواو والياء فتحة، فالذى حذوه فتحة وردفه ألف مثل قول امرىء القيس :

ألا انعم صباحاً أيها الطللُ البالى   وهل يَنْعَمَنْ مَنْ كان فى العُصُرِ الخالى

فتحة الخاء حذو، والألف ردف، واللام روى وحركتها مجرى، والياء وصل.

وما كان حذوه ضمة فقول زهير :

مـتى تَكُ فى صـديق أو عـدو ... تخـبـرْكَ الوجـوه عن القلوبِ

وما كان حذوه كسرة فقوله :

فـإنْ تسـألونى بالنسـاء فـإننى ... خـبـيـر بأدواء النسـاءِ طبـيـبُ

وإما ما كان ردفه واواً مفتوحاً ما قبلها فمثل قوله :

يا أيهـا الراكبُ المُزجِى مطيـتـه ... سـائلْ بنى أسـدٍ ما هذه الصوتُ

وما كان ردفه ياء مفتوحاً ما قبلها فكقوله :

ذكـــرتُ أهـلَ دُجَيـلِ ... وأيـــن مـــنـــى دُجَيْلُ ؟

وكقول الراجز :

مـالى إلى جـاذبهـا صليبُ ... أكِبَر قـد غـالنى أم بيبُ

وسمى الحذو حذواً من قولك : حذوتُ فلاناً إذا جلست بحذائه، فكأنه محاذ للردف.

٣- الإشباع :

حركة الدخيل أية حركة كانت، مثل كسرة الهاء فى قول زهير :

وإذ أنت لم تُقْصِرْ عن الجـهلِ والغَنَىَ ... أصبْتَ حليماً أو أصابك جاهِلُ

وكضمة الباء فى قولَ النابغة :

سجوداً له غسَّانُ يرجون فضلهَ ... وتُرْكٌ ورهطُ الأعـجمين وكـابُلُ

وكفتحة اللام فى قول الشاعر :

إذا كـنـتَ ذا ثـروة مـن غـنـى ... فـأنت المســودُ فى العـالَم

وهذه الحركات تتعاقب، إلا أن الكسرة مع الضمة أخف كراهة من الفتحة مع إحداهما. واذا اختلفت حركات الإشباع سُمى ذلك سِناداً.

والإشباع مأخوذ من قولنا : أشبعت صبغ الثوب إذا أحكمته وقوّيته. ولا يمتنع أن يكون مأخوذاً من أن هذه الحركة لا يمكن فيها من الحذف ما يمكن فى حركة الروى وهاء الوصل اللتين بعدها، لأنهما قد تحذفان تارة وتثبتان أخرى. ولا يمكن فى حركة الدخيل الحذف، بل يأتى أبداً مشبعاً بالحركة.

٤- التوجيـــه :

وهو حركة ما قبل الروى المقيد، وذلك نحو حركة القاف من كلمة «قَط» فى قول الشاعر :

حـتّى إذا جَنَّ الظلامُ واخـتلط ... جاءوا بَمذْقٍ هل رأيت الذئب قَطْ

وحركة الراء من كلمة «الكرم» فى قول طرفة :

حين يحمى الناسُ نحمى سربَنَا ... واضحى الأوجهِ معروفى الكَرَمْ

وقد تجتمع حركتان فى التوجيه قال امرؤ القيس :

لاوأبيك ابنةَ العـــامـــرى ... لايدعى القـــــومُ أنى أفرّ
تميمُ بنُ مُرٍّ و أشـــيــاعُهـــا ... وكندةُ حولى جـميـعاً صُبُرْ
إذا ركبـوا الخيلَ واستلأموا ... تحرّقَتِ الأرضُ واليـــــومُ قُرّ

ولم يذكر أصحاب القوافى المتقدمون من أى شىء أُخذ التوجيه، وذكر بعض المتأخرين أنه مأخوذ من توجيه الفرس، وهو دون الصَّدَف الذى هو تباعد ما بين الفخذين فى تدان من العرقوبين فى ميل من الرسغين، فيكون أصل ذلك الاختلاف. ويرى ابن السراج أن التوجيه سُمى بذلك، لأنه كأنه واجه الروى المقيد واستقبله. ولكن الرأى الذى عليه أصحاب القوافى أنه مأخوذ من جَعْل الشىء ذا وجهين، قيل : «سُميت بذلك لما تقرر فى هذا الفن من أن الحركة قبل الساكن كالحركة عليه، فكأن الروى موجه بها ، أى مُصيَّر ذا وجهين : سكون وتحرك،

كالثوب الذى له وجهان، فمن حيث سكونه الحقيقى هو ساكن، ومن حيث تحريكه المجازى بالاعتبار المذكور هو متحرك».

بقى أن نشير إلى أن بعض العلماء يرى أن التوجيه فى الروى المطلق، وذلك كحركة اللام فى قول زهير :

بان الخليطُ ولم يأووا لمن تركوا   وزوَّدوك اشتياقاً أيةَ سَلَكُوا

ففتحة اللام فى «سلكوا» توجيه.

٥- المجرى :

وهو بفتح الميم مصدر من «جرى» وبضمها مصدر من «أجرى»، وهو حركة الروى المطلق، ويكون المجرى ضمة أو فتحة أو كسرة فتلتزم فى القصيدة كلها. وتأتى بعده واو إن كان متحركاً بالضمة كقول الشاعر :

قد يدركُ المتأنى بعضَ حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

وتأتى بعده ألف إن كان متحركاً بالفتحة كقول الشاعر :

إذا بلغ الرضيعُ لنا فطاماً   تَخِرُّ له الجبابرُ ساجدينا

وتأتى بعده ياء إن كان متحركاً بالكسرة كقول الشاعر :

قفانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسِقْطِ اللّوى بين الدخولِ فحوملِ

وقد سُمّى بذلك لأن الصوت يبتدئ بالجريان فى حروف الوصل منه، ألا ترى أنك إذا قلت :

قتيلان لم يعلمِ الناسُ مَصْرَعَا

فالفتحة فى العين هى ابتداء جريان الصوت فى الألف. وكذلك قولك :

يا دارَ مية بالعلياء فالسَّنَد

تجد كسرة الدال هى ابتداء جريان الصوت فى الياء. وكذا قوله :

هريرةَ ودِّعْها وإنْ لام لائمُ

نجد ضمة الميم منها ابتداء جريان الصوت فى الياء.

٦- النَّفَــاذ :

وهو حركة هاء الوصل بالضم والفتح والكسر، لأن الهاء كانت فى الأصل ساكنة فنفذت فيها الحركة. فالنفاذ بالضم كقوله.

وبلدٍ عاميةٍ أعماؤُهْ

وقوله :

فتى جميلٌ حَسَنٌ شبابهُ

والنفاذ بالفتح كقول بشر بن أبى خازم :

وغـيَّرها مـا غـيَّر الناس قـبلهـا   فبـانتْ وحـاجاتُ الفـؤاد تصيبـهـا

والنفاذ بالكسر كقوله :

إن الشراكَ قدٌّ من أديمهِ

الميم روى، وحركة الدال حذو، والياء ردف، وحركة الميم مجرى، والهاء وصل، وحركتها نفاذ.

والنفاذ سُميت بذلك لأن المتكلم نفذ بحركة هاء الوصل إلى الخروج، وهو الألف - مثلاً - التى بعدها.

وقيل : النفاد بالمهملة، ومعناه الانقضاء والتمام لأن هذه الحركة هى تمام الحركات، فيها وقع نفادها، أى انقضاؤها وتمامها.

* * *

بقى أن نشير إلى أن بعض النقاد المحدثين لاحظ أن الفتحة وأختها الألف أكثر أصوات اللين شيوعاً فى اللغة العربية، وتأتى بعدهما الكسرة فالضمة. ولكن الشعر يخالف لغة الكلام، فتتفوق فيه الكسرة والضمة على الفتحة، لأن الألف صوت لا لون له، على حين يهتم الشاعر اهتماماً شديداً، وخاصة فى قوافيه، بالقيمة الجمالية لكل صوت يستعمله، تلك القيمة التى تتحدد بأشياء كثيرة، منها النغمة

المميزة لكل صوت، وغنى الصوت بالنغمات الثانوية Timbre والإحساس الحركى المصاحب للنطق به [١].

وتوقف الدكتور إبراهيم أنيس أمام القافية وتقسيمها حسب ما فيها من كمال موسيقى إلى مراتب، فقال إن هناك مراتب تصاعدية :

١- تبدأ بالقافية المقيدة التى يُسبق رويها بحركة قصيرة، ولا تلتزم هذه الحركة فى أبياتها، وتلك هى أقصر صور القافية.

٢- يليها تلك القافية المقيدة التى تلتزم فى أبياتها الحركة القصيرة قبل الروى، وربما كانت القافية المطلقة التى لا تلتزم فيها هذه الحركة فى مستوى واحد معها من الناحية الموسيقية.

٣- يليها القافية المطلقة التى تراعى فيها الحركة القصيرة قبل الروى ومثلها فى مستوى واحد تلك التى يُسبق رويها بواو المد وياء المد مع التناوب بينهما.

٤- يليها تلك القافية التى يُسبق رويها بحرف مد معين يلتزم فى كل أبيات القصيدة [٢].

* * *

(٣)

السجع فى النثر العربى

السجع هو الفنُّ المعروف فى النثر العربى، وقد اهتم به علماء البلاغة لأصالته فى التعبير فى اللغة العربية منذ العصر الجاهلى، وأطلق عليه بعضهم مصطلح «التسجيع» أيضاً، ومن بينهم قدامة بن جعفر وابن الزملكانى وابن الإصبع ويحيى ابن حمزة العلوى. وكلا المصطلحين، أى السجع والتسجيع جذره المعجمى واحد هو (س ج ع)، لذلك نحاول التعرف على مفهومه اللغوى قبل بيان دلالته فى قاموس البلاغة.

١- الدكتور شكرى عياد : موسيقى الشعر ١١٢.

٢- موسيقى الشعر : ٢٦٨

يقال : سجَعَ يسْجَعُ سَجْعًا: استوى واستقام وأشبه بعضُه بعضاً. ويجمع السجع على أسجاع وأساجيع، واشتقاقه من قولهم : سجعت الناقة إذا مدّتْ حنينها على جهة واحدة، وسجعت الحمامةُ ردّدت صوتها، أو موالاة صوتها على طريق واحد. قال الشاعر :

طربْتَ فأبكتك الحمامُ السواجعُ   تميل بها ضَحْواً غصونٌ نوائع (١)

وسجع الحمام : هَدَلَ على جهة واحدة. وهناك عدة تعريفات للسجع عند علماء البلاغة، فإذا قيل : سَجَعَ الرجلُ معناه : نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن. وقالوا إن السجع تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد، أو اتفاق الفواصل فى الكلام المنثور فى الحرف أو فى الوزن أو فى مجموعهما.

والسجع فى النثر كالقافية فى الشعر، ولكن الفارق بينهما أن القافية غير مستغنى عنها لأن الشعر لا يستقيم بدونها، فى حين أن السجع مستغنى عنه، أى يستقيم النثر بدونه لأنه ليس من أسسه، لذلك قال أحد البلاغيين : «فأما أن يلزمه (أى السجع) الإنسانُ فى جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعِى من قائله» (٢).

وهناك بعض القضايا المتصلة بالسجع، نحاول التعرف عليها، ثم نتوقف – بعد ذلك – أمام الجمال الذى يحققه فى النثر العربى.

ونبدأ الحديث عن تلك القضايا بالتوقف أمام التطور التاريخى لاستعمال السجع فى النثر، فنجده الأسلوب الذى اختارته العرب فى الجاهلية، وتمسك به بعضهم، وبلغ درجة من الشيوع حتى قيل بأسبقية وجوده على الشعر، ومعرفة العرب به قبل أن يصطنعوا تلك البحور المقيسة، لذلك كان رجالات من العرب وقضاتهم فى الجاهلية يحكمون وينفرون بالأسجاع و من أولئك ضمرة بن ضمرة، وهرم بن

---

١ – النوائع : الموائل، من قولهم : جائع نائع، أى متمايل ضعفاً.

٢ – البرهان فى وجوه البيان : ٢٠٩.

قُطبة، والأقرع بن حابس، ونُفيل بن عبد العُزّى وربيعة بن حُذار وسواهم من الذين أشار إليهم الجاحظ الذى أضاف : «فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم. وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلم ينهوا منهم أحداً»[١].

ومع التطور الهائل الذى شمل كل مظاهر الحياة فى العصر العباسى أصبح السجع واحداً من الظواهر الصوتية التى تطبع الأداء اللغوى عند كتاب الرسائل، وفى الخطب، وحاول الكثيرون الالتزام به، ولكن دون تكلف. وقد أشار ابن سنان الخفاجى (ت ٤٤٦ هـ) إلى بعض الكتاب المحدثين الذين اهتموا به قائلاً : ومن الكتاب المحدثين من كان يستعمل السجع كثيراً ولا يكاد يخلُّ به، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى، وأبو الفرج المعروف بالببغاء، ومنهم من كان يتركه ويتجنبه وهو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد، وطريقته غير هؤلاء استعماله مرة ورفضه أخرى، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير أو الإكراه والتكلف، فأما عبد الحميد بن يحيى، وعبد الله بن المقفع، وأبو الربيع محمد بن الليث، وجعفر بن يحيى بن خالد، وإبراهيم بن العباس، وسعيد بن حميد، وأبو عثمان الجاحظ، وأبو على البصير، وأحمد بن يوسف، وإسماعيل بن صبيح، ومحمد بن غلاب، ومحمد بن عبد الله الأصفهانى،، وابن ثوابة، وأبو الحسين أحمد بن مسعود، وأبو مسلم محمد بن بحر وأشباههم، فإن السجع فيما وقفت عليه من كلامهم قليل، لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى اليسير من المواضع»[٢].

وقد أتى ابن سنان ببعض النماذج من السجع وعلق عليها بقوله : «وهذا كله سجع يتبع المعانى غير متكلف ولا مستكره، وأمثاله أكثر من أن تحصى»[٣].

١- البيان والتبيين : ١/ ٢٣٦.

٢- سر الفصاحة : ١٧٤ وما بعدها.

٣- السابق : ١٧٨.

ولكن الذى يلفت النظر أن بعض الكتاب بالغ فى استعمال السجع، ومن بينهم إسماعيل بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) الذى وصفه أبو حيان التوحيدى (ت ٤٠٠ هـ) بقوله : «وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول، عند الجد والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد، قلتُ لابن المسيبىّ : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل وكلفه صعبة وتجشم أمور وركوب أهوال لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويليها ، بل يأتى بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها» [١].

وقد أشار أبو حيان إلى أن محاولة إسماعيل بن عباد الالتزام بالسجع والكلف به والحرص عليه أدى الى عزل قاضى مدينة «قم»، فقد قال يوماً : أيها القاضى بقُم ... ثم حاول أن يكمل فأعنته ذلك فقال : قد عزلناك فقُمْ. وروى عن معاصر محمد بن الحسين بن العميد (ت ٣٦٠ هـ) قوله : «خرج ابن عباد من عندنا من الرىّ متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين .... فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لالشىء إلا ليكتب إلينا : «كتابى هذا من النوبهار، يوم السبت فى نصف النهار»[٢].

وأدى الإفراط فى طلب السجع والحرص عليه بابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) إلى مهاجمة أولئك الذين جعلوه هدفاً لهم فى كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم. قال : «وقد رأيت جماعةً من متخلفى هذه الصناعة يجعلون همهم مقصوراً على الألفاظ التى لا حاصل وراءها، ولا كبير معنى تحتها، وإذا أتى بعضهم بلفظ مسجوع على أى وجه، كان من الغثاثة والبرودة يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم، ولايشك فى أنه صار كاتباً مفلقاً. وإذا نظر الى كتاب زماننا وجدوا كذلك، فقاتل الله القلم الذى يمشى فى أيدى الجهال الأغمار، ولا يعلم أنه كجواد يمشى تحت حمار» [٣].

١- معجم الأدباء : ٦ / ٢٠٧.

٢- السابق : ٦ / ٢٢٠.

٣- المثل السائر : ٢ / ٦٣.

وبعد هذا العرض لاستعمال السجع فى النثر نحاول التعرف على أقسامه التى حددها علماء البلاغة فى أعمالهم العملية.

توقف ابن الأثير أمام السجع أو التسجيع، وقسّمه إلى ثلاثة أقسام هى :

الأول :

أن يكون الفصلان متساويين، لا يزيد أحدهما على الآخر، كقوله تعالى : (فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر)[١].

الثانـــى :

أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول كقوله تعالى : (بل كذّبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً. وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دَعَوا هنالك ثبوراً)[٢].

الثالـــث :

أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول وقد عابه ابن الأثير، وذلك أن السجع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول بحكم طوله، ثم يجىء الفصل الثانى قصيراً عن الأول، فيكون كالشىء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء الى غاية فيعثر دونها.

ثم قسّم ابن الأثير السجع بأنواعه المختلفة، وضروبه المتنوعة الى ضربين أو نوعين أساسيين هما :

الأول : السجع القصير

وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة .. وأحسنه ما كان مؤلفا من لفظين كقولة تعالى : (يأيها المدثر. قم فأنذر. وربَّك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر)[٣].

١- الضحى : ٩ / ١٠.

٢- الفرقان : ١١ - ١٣.

٣- المدثر / ١- ٥.

الثانى : السجع الطويـــل:

وهو ما تكون الأجزاء فيه مؤلفة من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة ... إلى العشرة كقوله تعالى : (والنجم إذا هوى. ما ضلَّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يُوحى)(١).

وأضاف الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ هـ) إلى هذين النوعين نوعاً ثالثاً سماه«السجع المتوسط»(٢) واستشهد عليه بقوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر. وإنَ يَرَوْا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)(٣).

ولعله من المفيد الإشارة الى أن القزوينى استخدم ثلاثة من المصطلحات تحدث فى إطارها عما أسماه «أضرب السجع» وهى : مُطرَّف، ومتواز، وترصيع. ثم يقول معرفاً بها : «لأن الفاصلتين إن اختلفتا فهو السجع المطرَّف كقوله تعالى : (ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً)(٤) وإلا ، فإن كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ، أو أكثر ما فيها، مثلُ ما يقابلة من الأخرى فى الوزن والتقفية فهو الترصيع كقول الحريرى : «فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه»، وكقول أبى الفضل الهمذانى : «إن بَعْدَ الكدر صفواً، وبعد المطر صحوا» وقول أبو الفتح البُستى:« ليكنْ إقدامُك توكُّلا، وإحجامك تأملاً» . وإلا فهو السجع المتوازى كقوله تعالى: (فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة)(٥) وفى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم:«اللهمَّ إنى أدرأبك فى نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم»(٦).

ونختم هذا الحديث عن السجع وأنواعه أو أضربه بتقديم المصطلحات الخاصة

---

(١) النجم / ١ – ٤.

(٢) الإيضاح فى علوم البلاغة :٥٤٧.

(٣) القمر / ١ – ٢.

(٤) نوح / ١٣.

(٥) الغاشية /١٣–١٤.

(٦) الإيضاح:٥٤٧.

به، مع الإشارة إلى بعض المصطلحات السابقة حتى يكون العرض أوضح.

١ - **التسجيع الحالى**: وهو كل كلمتين جاءتا فى الكلام المنثور على زنة واحدة تصلح أن تكون إحداهما قافية أمام صاحبتها كقولك: «فلان لاتدرك فى المجد غايته، ولا تنسخ من الفضل آيته». ويكفى فى ذلك كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعويذ الحسن والحسين عليهما السلام: «أعيذكما من الهامة والسامة وكل عين لامّة»؛ وكذلك قوله: «يرجعن مأزورات غير مأجورات». وبمقدار ماتتوازن اللفظتان ويلزم فيهما من تكرار الحروف يكون التبريز فى ذلك[١]. وسُمّى هذا النوع الحالى؛ لأنه حُلِّى بحسن العبارة ولطف الإشارة وبدائع التمثيل والاستعارة، وجاء من الأسجاع والفواصل مالم يأت فى التسجيع العاطل، وهو النوع التالى.

٢ - **التسجيع العاطل**: وهو أن تقابل اللفظة أختها ولاتجمع بينهما القافية، وكثير من الكتّاب البلغاء يقصده لخلوه من التكلف وجريانه على سجية الكلام دون التصنع، وهو إذا كان من القادر حسن، وإذا كان من العاجز قصور، وهو كقوله: «قلّ أهل الدين والأمانة فإلى من يسكن وعلى من يعوّل» فقال «يعوّل» فى قبالة «يسكن» فلو شاء قال «يظهر ويبطن» أو «فيما يسر ويعلن». فإذا كان الكاتب متمكناً من البلاغة عدَّ ذلك منه تنزلاً وطلباً للاختصار واعتناء بحصول المعنى إلى المخاطب بالألفاظ النقية من غير التفات إلى تصنيع السجع[٢]. وسمى هذا النوع العاطل لقلة تحليته بالأسجاع والفواصل، وهذا النوع هو الأصل، والتجمل بكثرة السجع فرع طارىء عليه[٣].

٣ - **التسجيع المتماثل**: وقد عرّفه السيوطى بقوله: «أن يتساويا فى الوزن دون التقفية، ويكون أفراد الأولى مقابلة لما فى الثانية، فهو إلى المرصّع كالمتوازن بالنسبة

---

١ - معالم الكتابة: ٦٩.

٢ - معالم الكتابة: ٧٠.

٣ - إحكام صنعة الكلام: ٩٦.

إلى المتوازى»[١]. ومنه قوله تعالى:(وآتيناهما الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم)[٢] فـ (الكتاب) و (الصراط) متوازنان، وكذلك (المستبين) و (المستقيم) واختلفا فى الحرف الأخير.

٤- التسجيع المتوازن: هو أن يتفقا فى عدد الحروف ولايتفقا فى الحرف الأخير، ومنه قوله تعالى: (ونمارق مصفوفة. وزرابى مبثوثة)[٣]. ويرى بعض المتأخرين من علماء البلاغة كالقزوينى أن هذا النوع يسمى «الموازنة» وأدرجوه ضمن المحسنات اللفظية، وقد قال عنه:«وهى أن تكون الفاصلتان متساويتين فى الوزن دون التقفية»[٤].

٥- التسجيع المتوازى: وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة مع نظيرتها فى الوزن والروى، كقوله تعالى: (فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة)[٥].

٦- التسجيع المرصّع: وسماه بعضهم الترصيع، وهو مقابلة كل لفظة بلفظة على وزنها ورويها، كقوله تعالى: (إن الأبرار لفى نعيم. وإن الفجار لفى جحيم)[٦].

٧- التسجيع المشطر: وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتى النصف الأخير، كقول أبى تمام:

تدبيـر مـعـتـصـمٍ بالله منتـقـم　　　لله مــرتغب فى الله مــرتقب

٨-التسجيع المطرف: وهو أن يأتى المتكلم فى أجزاء كلامه أو بعضها بأسجاع غير متزنة بزنة عروضية ولامحصورة فى عدد معين بشرط أن يكون روى الأسجاع روى القافية. ولابن القيم مصطلح آخر هو «المتطرف» وقال عنه: «هو أن

١- معترك الأقران: ١/٥٠.

٢- الصافات / ١١٧-١١٨.

٣- الغاشية / ١٥-١٦.

٤- الإيضاح: ٣٩٨.

٥- الغاشية / ١٣-١٤.

٦-الانفطار / ١٣-١٤.

تتفق الكلمتان الأخيرتان فى الحرف الأخير دون الوزن»[١]. ومن هذا الضرب قوله تعالى: (مالكم لاترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً)[٢].

وبعد هذا الحديث عن أنواع السجع والمصطلحات التى أطلقها المتأخرون على بعض تلك الأنواع نحاول التعرف على الجمال الذى يخلعه حين الأداء اللغوى.

إن السجع ظاهرة أسلوبية تدل على عناية العرب بألفاظها؛ لأنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها أصلحوها ورتبوها، وبالغوا فى تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها فى السمع، وأذهب بها فى الدلالة على القصد، ويرى ابن جنى أن السجع يؤدى إلى سرعة الحفظ للمثل لوجود الرنين الموسيقى فيه. قال:«ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالبْ أنفسها باستعمال ماوضع له، وجيء به من أجله»[٣].

والأصل فى السجع الاعتدال فى مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع. وشرط السجع الحسن أن يصفى من الغثاثة، وأن يكون اللفظ تابعاً للمعنى[٤]، وهو كما قال عبد القاهر:«ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أولاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعانى على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ. فإنها إذا تركت ومانريد مالم تكتسِ إلا مايليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا مايزينها، فإما أن تضع فى نفسك أنه لابد من أن يجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم». وقال أيضاً: « لاتجد تجنيساً مقبولاً ولاسجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق

١- الفوائد: ٢٢٦.

٢-نوح /١٣-١٤.

٣-الخصائص: ٢١٦/١.

٤- الدكتور أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية ١٤٨/٢.

نحوه، وحتى تجده لاتتبغى به بدلاً، ولاتجد عنه حولاً»[١] .واهتم ابن سنان الخفاجي أيضاً بالتركيز على خلو السجع من التكلف، وعبّر عن ذلك بقوله: «والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلاكلفة ولامشقة، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد فى نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولايكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه»[٢] .

وإذا كان عبد القاهر وابن سنان قد ركّزا على أهمية ابتعاد السجع عن التكلف، وأن تكون المعانى مرسلة على سجيتها فإن ابن الأثير توقف أمام الحديث عن سر خاص بالسجع، قال عنه: « واعلم أن للسجع سرّاً هو خلاصته المطلوبة، فإن عُرى منه فلا يعتد به أصلاً، وهذا شىء ولم ينبه عليه أحد غيرى... والذى أقول فى ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليها بدونها، وإذا وردت سجعتان يدلان على معنى واحد كانت إحداهما كافية فى الدلالة عليه. وجلُّ كلام الناس المسجوع جارٍ عليه[٣]» .

وهناك شروط وضعها علماء البلاغة تؤدى إلى جمال السجع وحسنه، وتبعده عن التكلف، وقد جمع تلك الشروط يحيى العلوى، وقدم لها بقوله: « إن المقصود بالتسجيع فى الكلام إنما هو اعتدال مقاطعه وجريه على أسلوب متفق؛ لأن الاعتدال مقصد من مقاصد العقلاء، يميل إليه الطبع، وتتشوق إليه النفس، لكنه لايحسن كلّ الحسن، ولايصفو مشربه إلا باجتماع شرائط أربعة» . ويمكن تقديم تلك الشرائط على النحو الآتى:

١- ويرجع الشرط الأول إلى المفردات، وهى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق رطبة طنّانة، صافية على السماع حلوة طيبة رنانة، تشتاق إلى سماعه

١- أسرار البلاغة: ١٠ .

٢- سر الفصاحة: ١٧١ .

٣- المثل السائر: ١٩٨/١ .

الأنفس، ويلذ سماعها على الآذان، مجنبة عن الغثاثة والرداءة، ونعنى بالغثاثة والرداءة أن الساجع يصرف نظره إلى مؤاخاة الأسجاع وتطابق الألفاظ، ويهمل رعاية حلاة اللفظ، وجودة التركيب وحسنه، فعند هذا تمسه الرداءة، وتفارقه الحلاوة.

٢- ويرجع الشرط الثانى إلى التركيب، وهى أن تكون الألفاظ المسجوعة فى تركبها تابعة لمعناها، ولايكون المعنى فيها تابعاً للألفاظ، فتكون ظاهرة التمويه وباطنة التشويه، والمقصود بذلك أنك إذا أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك ذلك، ولا سمحت قريحتك به إلا بزيادة فى ذلك اللفظ أو نقصان منه من غير حاجة إلى ذلك النقصان وتلك الزيادة، وإنما تأتى بالزيادة والنقصان من أجل تسوية السجع وإظهار جوهره لامن أجل المعنى، فما هذا حاله هو الذى يذم من التسجيع ويقبح، لما فيه من إصلاح اللفظ دون المعنى، ولما فيه من التكلف والتعسف المستغنى عنه، فأما إذا كان من غير تكلف فإنه يأتى فى غاية الحسن.

٣- أن تكون المعانى الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة ولامستنكرة ولا ركيكة مستبشعة؛ لأنها إذا كانت غريبة نفرت عنها الطباع وكانت غير قابلة لها، وإذا كانت ركيكة مجتها الأسماع، فكل واحدة من السجعتين دال على معنى حسن بانفراده، لكن انضمام إحداهما إلى الأخرى هو الذى ينافر من أجل التركيب.

٤-أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير للمعنى الذى دلت عليه الأخرى؛ لأنه إذاً يكون من باب التكرير فيكون على هذا لافائدة فيه[١].

وبعد هذا العرض لما يتصل بالجمال الذى يحققه السجع حين استعماله، نقدم بعض الأمثلة المتداولة فى كتب البلاغة للسجع، وهى على النحو الآتى:

١- قال الرسول صلى الله عليه وسلم: « اللهمَّ أعطِ منفقاً خَلَفاً، وأعطِ ممسكاً تلفاً».

١- الطراز: ٢٣/٣ ومابعدها.

٢- وقال: « ألاَ وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور» .

٣- وقال: «وقدر أيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود» .

٤- قال الإمام على - كرم الله وجهه - :«الحمد لله الذى عَلاَ بحوله، ودنا بطوله، مانحِ كل غنيمة وفضل، وكاشف كل كريهة وأزل، أحمده على عواطف كرمه، وسوابغ نعمه، وأومن به أولاً بادياً، وأستهديه قريباً هادياً، وأستعينه قاهراً قادراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً..» .

٥- قال أعرابى ذهب بابنه السيلُ:« اللهمَّ إن كنتَ قد أبليْتَ، فإنك طالما عافيتَ» .

٦- وقال أعرابى لرجلٍ سأل لئيماً: «نزلْتَ بوادٍ غير ممطور، وفناءٍ غير معمور، ورجل غير ميسور، فأقم بندم، أو ارتحل بعدم» .

٧-وقال أعرابى:«باكرنا وسمى، ثم خلفه ولى، فالأرض كأنها وَشْىٌ منشور، عليه لؤلؤ منثور، ثم أتتنا غيوم جراد، بمناجل حصاد، فجَرّدت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القوىَّ الأكول، بالضعيف المأكول»[1] .

٨- قال بديع الزمان الهمذانى فى كتاب له إلى صديقه:« كتابى والبحر وإن لم أره؛ فقد سمعت خبره، والليث وإن لم ألقَه، تصورتُ خلقه، والملك العادل وإن لم أكن لقيته، قد لقينى صيته، ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره» .

١- الوسمى: مطر الربيع الأول؛ لأنه يسم الأرض بالنبات، والولى: المطر الثانى، والمناجل: جمع منجل وهو مايحصد به، وجردت البلاد: جعلتها قاحلة سوداء.

٩- يرى بعد علماء البلاغة أن السجع ليس وقفاً على النثر؛ بل يكون فى النظم، كقول أبى تمام يمدح أبا العباس نصر بن بسام:

تجلّى به رُشدى، وأثرتْ به يدى وفاض به ثَمدِى، وأروى به زَنْدِى[1]

وقول الخنساء:

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهدى الطريقة نفّاع وضرّار
جوّاب قاصيةٍ جزّار ناصيةٍ عقاد ألويةٍ للخيل جرّار

وقول الشاعر:

ومكارم أوليتها متبرّعا وجرائم ألغيتها متورّعا

ونختم هذا العرض بقضية نالت اهتمام القدماء والمحدثين من المشتغلين بالدراسات النقدية والبلاغية وهى:

السجع فى القرآن الكريم: ذَمّ بعض العلماء السجع وحاول نفيه من القرآن الكريم، فى حين أن بعضهم الآخر لم يَرَ ذلك وقال بوجوده فى الكتاب العزيز مع استعمال مصطلح «الفاصلة» بدلاً من «السجع». ونتعرف على آراء كلا الفريقين، معتمدين على الباقلانى وغيره

عقد الباقلانى(أبى بكر محمد بن الطيب ٣٣٨-٤٠٣هـ) فى كتابه (إعجاز القرآن) فصلاً يدور حول «نفى السجع من القرآن» بدأه بقوله:«ذهب أصحابنا (يقصد الأشاعرة) كلهم إلى نفى السجع من القرآن، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى - رضى الله عنه - فى غير موضع من كتبه». ثم يشير الباقلانى إلى أولئك الذين قالوا بوجود السجع فى القرآن الكريم قائلاً:« وذهب كثير ممن

١-تجلى: تكشف وظهر، ورشدى: هداى، وأثرت: كثر مالها، والثمد: الماء القليل يتجمع شتاءً وينضب صيفاً، وأروى زندى: أخرج ناره، والزند: عود تستخرج النار بحكه فى عود آخر أسفله يسمى الزندة.

يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التى يقع فيها التفاضل فى البيان والفصاحة، كالتجنيس والالتفات، وما أشبه ذلك من الوجوه التى تُعرف بها الفصاحة. وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاقُ الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام، ولمكان السجع قيل فى موضع:(موسى وهارون)[١] .ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون، قيل: فى موضع:(هارون وموسى)[٢] ويستمر الباقلانى فى عرض آراء من قالوا بوجود السجع فى الكتاب العزيز، ويرد عليهم بما يأتى:

١ -لو كان القرآن الكريم سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولوكان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولوجاز أن يقال: هو سجع معجز لجاز أن يقال: شعر معجز.

٢- كان السجع مما يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن الكريم أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر؛ لأن الكهانة تنافى النبوات، وليس كذلك الشعر.

٣- ذَمَّ النبى صلى الله عليه وسلم السجع، وقد رُوِىَ أنه قال للذين جاءوه وكلموه فى شأن الجنين: كيف نَدِى من لاشرب ولا أكل، ولاصاح فاستهل، أليس دمُه قد يُطلُّ؟.

فقال:«أسجاعةً كسجاعة الجاهلية؟» وفى بعضها:« أسجعاً كسجع الكهان؟» وهذا دليل على قبح السجع فى الكلام والكراهية له من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤- وماقدروه على أنه سجع وهْم فى الحقيقة؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً؛ لأن مايكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع. وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن الكريم؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى.

١- طه / ٧٠

٢- الأعراف / ١٢٢.

٥- إذا كانت هناك مواضع يمكن التسليم بأنها من السجع فى القرآن الكريم وتؤدى إلى الاستراحة فى الخطاب لتحسين الكلام بها؛ فإن تلك المواضع عبارة عن اعتراض فى الخطاب، ولاتعد سجعاً.

٦- لو كان الذى فى القرآن الكريم على ماتقدرونه سجعاً لكان مذموماً مرذولاً؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه، كان قبيحاً من الكلام. وللسجع منهج مرتب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخلّ به المتكلم وقع الخلل فى كلامه، ونُسب إلى الخروج عن الفصاحة. كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً، وكان شعره مرذولاً، وربما أخرجه عن كونه شعراً.

٧- لو كان فى القرآن الكريم سجع لما تحيّر العرب فيه، ولكانت الطباع تدعو إلى المعارضة؛ لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم، فكيف تُنقض العادة بما هو نفس العادة، وهو غير خارج عنها ولامتميز منها؟. وقد عبّر الباقلانى عن ذلك تعبيراً آخر قائلا: « ولو كان ذلك عندهم سجعاً لم يتحيروا فيه ذلك التحير، حتى سماه بعضهم سحراً، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به ويصرفونه إليه ويتوهمونه فيه. وهم فى الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه، وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم» .

٨- ماذكروه من تقديم موسى على هارون - عليهما السلام - فى موضع، وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع وتساوى مقاطع الكلام، ليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه. وهى أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدى معنى واحداً من الأمر الصعب، الذى تظهر به الفصاحة، وتبين به البلاغة. وأعيد كثير من القصص فى مواضع كثيرة مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا[١].

١- الباقلانى: إعجاز القرآن ٥٧ ومابعدها.

وبعد هذا العرض لآراء الباقلاني التى نفى بها وجود السجع من القرآن الكريم نشير إلى أن هناك الكثيرين من علماء اللغة العربية على اختلاف اهتماماتهم العلمية كانوا يرون الرأى نفسه، ومع ذلك فهناك بعض علماء البلاغة الذين قالوا بوجود السجع فى الكتاب العزيز، ونقدم آراءهم فى هذا المجال.

يرى أبو هلال العسكرى أن السجع يؤدى إلى الجمال فى النثر إذا كان مزدوجاً، وأشار إلى وجوده فى الكتاب العزيز بقوله:«جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخلق».

وتوقف العسكرى أمام السجع فى أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأقواله موضحاً أن حديث «أسجعاً كسجع الكهان» الذى أشرنا إليه من قبل المقصود به النهى عن هذا النوع من السجع الذى يشبه سجع الكهان فى تكلفه وتعسفه، وانتهى أبوهلال العسكرى إلى قوله:«إذا سلم (السجع) من التكلف وبرىء من التعسف، لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه»[1].

وتوقف ابن سنان الخفاجى أمام السجع، ولم ينكر وجوده فى القرآن الكريم، وهو عنده من الظواهر البلاغية المحمودة فى النصوص على وجه العموم، ولكن لماذا لم يأت القرآن الكريم كله مسجوعاً؟ يقول ابن سنان مجيباً عن هذا السؤال:« إن القرآن أُنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم، وكان الفصيح من كلامهم لايكون كلهُ مسجوعاً، لَما فى ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، لاسيما فيما يطول من الكلام، فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم، ولم يخلُ من السجع لأنه يحسن فى بعض الكلام.. فلم يجز أن يكون عالياً فى الفصاحة وقد أخل فيه بشروط من شروطها، فهذا هو السبب فى ورود القرآن مسجوعاً وغير مسجوع».[2] ومن هنا فإن المذهب الصحيح – عند ابن

١ – كتاب الصناعتين: ٢٨٥ ومابعدها.

٢ – سر الفصاحة: ١٧٤.

سنان – أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلاكلفة ولامشقة، وبحيث يظهر أن لم يُقصد فى نفسه، ولا أحضره إلا صدقُ معناه دون موافقة لفظه، ولايكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه.

وتوقف ابن الأثير أيضاً أمام السجع ومَنْ ذَمَّه وأنكر وجوده فى القرآن الكريم قائلا:« وقد ذمه (يقصد السجع) بعضُ أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولاأرى لذلك وجهاً سوى عجزهم عن أن يأتوابه، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد فى القرآن الكريم فإنه أتى منه الكثير، حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعاً مسجوعةً كسورة الرحمن،وسورة القمر وغيرهما. وبالجملة فلم تخلُ منه سورة من السور» . ويرى ابن الأثير أن حديث «أسجعاً كسجع الكهان» لايتضمن النهى عن السجع على إطلاقه، أو النهى عن السجع نفسه، وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع، وينتهى ابن الأثير إلى أن السجع يخلع الفصاحة والبلاغة عن الأداء اللغوى «إذا كان محمولاً على الطبع، غير متكلف، فإنه يجىء فى غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام، وإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة، فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم، يستعبد كرائمها، ويستولد عقائمها وفى ذلك فليتنافس»[٢] .

ودافع حازم القرطاجنى (ت ٦٨٤هـ) عن السجع فى كلام العرب، والفواصل فى القرآن الكريم قائلاً:« وكيف يُعاب السجع على الإطلاق! وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع فى كلام العرب، وإنما لم يجىء على أسلوب واحد؛ لأنه لايحسن فى الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما فى الطبع من الملل عليه. ولأن الافتنان فى ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، فلهذا ورت بعض آى القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل»[٢] .

١– المثل السائر: ١/٢١٠ ومابعدها.

٢– منهاج البلغاء: ٣٣٨ ومابعدها.

واهتم يحيى العلوى (ت ٧٤٩هـ) بالعرض للجدل الذى ثار بين علماء البلاغة حول السجع فى الذكر الحكيم؛ وذلك فيما كتبه تحت عنوان «ذكر حكمه فى الاستعمال»، مشيراً إلى أن هناك مذهبين:

المذهب الأول: جوازه وحسنه، وهذا هو الذى عول عليه علماء أهل البيان، والحجة على ذلك هى أن كتاب الله تعالى، والسنة النبوية، وكلام أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) مملوء منه، وكلام البلغاء أيضاً .. فلو كان مستكرهاً لما ورد فى هذا الكلام البالغ فى الفصاحة كلَّ مبلغ، ولأجل كثرته فى ألسنة الفصحاء لايكاد بليغ من البلغاء يرتجل خطبة ولايحرر موعظة إلا ويكون أكثره مبنيًا على التسجيع فى أكثره، وفى هذا دلالة قاطعة على كونه مقولاً مستعملاً فى ألسنة الفصحاء فى المقامات المشهورة، والمحافل المعهودة.

المذهب الثانى: استكراهه (يقصد السجع)، وهذا شىء حكاه ابن الأثير، ولم أعرف قائله، ولاوجدته فيما طالعت من كتب البلاغة.

ويتوقف العلوى أمام حديث «أسجعاً كسجع الكهان» ويبين رأيه فيه قائلاً: «إنه لم ينكر السجع مطلقاً، وإنما أنكر سجعاً مخصوصاً وهو سجع الكهان؛ لأن أكثر أخبارهم عن الأمور الكونية، والأوهام الظنية، على جهة السجع وتطابق أعجاز الألفاظ ..» وينتهى العلوى فى حديث عن السجع إلى قوله: « والمختار قبوله، ولو لم يكن جائزاً فى البلاغة لما أتى عليه أفصح الكلام وهو التنزيل، ولَمَا جاء فى كلام سيد البشر، وكلام أمير المؤمنين؛ لأن هذه هى أعظم الكلام بلاغةً، وأدخلها فى الفصاحة، فلايمكن ترك هذا الأسلوب من الكلام لقصة عارضة من جهة الرسول، يمكن حملها على وجه لائق كما أشرنا إليه»[1].

وبعد هذا العرض للجدل الذى ثار بين العلماء حول وجود السجع فى القرآن الكريم من عدمه، نشير إلى أننا نتوسط فنقول بوجوده فى الكتاب العزيز على أن نطلق عليه مصطلح «الفاصلة» أو توافق رؤس الآيات؛ لأن أصل السجع من: سَجَعَ

١- الطراز: ١٩/٣ ومابعدها.

الطير، فشرّف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام آحاد الناس، ولأن القرآن من صفات الله عز وجل؛ فلايجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صح المعنى، ثم فرقوا بينهما فقالوا: السجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يحيل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني، ولاتكون مقصودة في نفسها[١].

والفاصلة (وجمعها فواصل) من المصطلحات الأصيلة في الدراسات اللغوية، فقد أشار الخليل بن أحمد إلى الفواصل مع ربطها بالسجع في قوله: «سَجَعَ الرجلُ: إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن»[٢]. وعرفها سيبويه أيضاً وقد قرنها بالقوافي[٣]. وعرف الفراء الفواصل، وأضاف إليها مصطلحاً آخر له الدلالة نفسها وهو «رؤس الآيات» ومن أمثلة ذلك توقفه أمام قوله تعالى: (والليل إذا يَسر)[٤] وماورد بإثبات الياء «يسري» في إحدى القراءات قائلاً: «وقد قرأ القراء (يسري) بإثبات الياء، و(يسر) بحذفها، وحذفها أحبُّ إليَّ لمشاكلتها رؤس الآيات، ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ماقبلها منها، أنشدني بعضهم:

كفّاك كفٌ ماتُليقُ درهماً جوداً، وأخرى تعط بالسيف الدما

وأنشدني آخر:

ليس تَخفَى يسارتي قدر يوم ولقد تُخْفِ شيمتي إعساري[٥]

وقال تعالى: (ماودَّعك ربُّك وماقلي)[٦] (وماقلي) يريد: وماقلاك، فألقيت الكاف كما تقول: قد أعطيتك وأحسنت، ومعناه: أحسنتُ إليك، فتكتفي بالكاف الأولى من إعادة الأخرى؛ ولأن رؤس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه[٧].

١- الزركشي: البرهان في علوم القرآن ٥٤/١.
٢- العين: ٢١٤/١.
٣- الكتاب: ١٨٤/٤ ومابعدها.
٤- الفجر /٤.
٥- معاني القرآن: ٢٦٠/٣.
٦- الضحى/٣.
٧- معاني القرآن: ٢٧٤/٣.

واهتم العلماء فى العصور المتأخرة بالفواصل وتعريفها ودورها الصوتى فى الكلام، وكيف تؤدى إلى تحسينه. يقول الزركشى (ت٧٩٤هـ) :«وتقع الفاصلة عند الاستراحة فى الخطاب لتحسين الكلام بها، وهى الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام. وتسمى فواصل؛ لأنه ينفصل عندها الكلامان؛ وذلك أن آخر الآية فَصَلَ بينها وبين مابعدها، ولم يسموها أسجاعاً» [1]. ومن هنا فالفواصل فى القرآن الكريم كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهم المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها، وهى على وجهين:

أحدهما: على الحروف المتجانسة كقوله تعالى:(طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى) [2]...الآيات؛ وكقوله: (والطورِ وكتاب مسطور) ....[3].الآيات

الآخر: على الحروف المتقاربة كالميم مع النون فى قوله تعالى: (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) [4]، والدال مع الباء نحو: (ق. والقرآن المجيد) ثم قال: (هذا شيء عجيب) [5]. وإنما حسن فى الفواصل الحروف المتقاربة؛ لأنه يكتنف الكلام من البيان مايدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع، لمافيه من البلاغة وحسن العبارة[6].

* * *

وبعد فهذه محاولة للتعرف على السجع فى النثر العربى، والجدل الذى ثار بين العلماء حول وجوده فى الكتاب العزيز من عدمه، وبيان مايقصدونه بمصطلح الفاصلة ورؤس الآيات.

وننتقل الآن إلى الحديث عن «علم الجمال التركيبى» وهو موضوع الفصل التالى.

١- البرهان: ١/٥٤.
٢- طه / ١ - ٣.
٣- الطور / ١ - ٢.
٤- الفاتحة / ٣ - ٤.
٥ - ق / ١ - ٢.
٦ - الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن ٩٨.

الفصل الرابع
علم الجمال التركيبي

السياق ودوره فى جمال النص

يعد «السياق context أساس علم الجمال التركيبى، ونعنى به هاهنا الأصوات والأبنية الصرفية والتراكيب النحوية التى تلتحم فيما بينها لتكون سياقاً لغويا، نستطيع أن نحكم عليه بالجودة أو الرداءة حسب معايير نقدية معينة؛ لذلك يقولون: «إن الغرض الذى يرمى إليه فن الأدب هو التعبير والتصوير والتوصيل، وليس الغرض من تأليف الأدب وإنشائه أن يكون جميلاً، وإنما نقضى له بالجمال إذا نجح فى الغرض الذى يرمى إليه»[(١)]. ونحاول التعرف على مفهوم السياق أو النظم عند القدماء من العلماء العرب.

ورد فى القرآن الكريم تحدّى العرب ببلاغته وفصاحته. قال تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله)[(٢)]، وقال تعالى: (قل فأتوا بعشر سور مثله)[(٣)]، وقال تعالى: (بسورة من مثله)[(٤)]، ولم يكن التحدى على مستوى اللفظة المفردة؛ لأنه ليست هناك كلمة جميلة وأخرى قبيحة، وإنما يُردُّ هذا كله إلى السياق أو «التركيب النحوى». قال عبد القاهر: «وإذا كان كذلك؛ فقد وجب أن يعلم أنه لايجوز أن يكون فى الكلم المفردة؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدى إلى المحال، وهو أن تكون اللفظة المفردة التى هى أوضاع اللغة قد حدث فى مذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن، لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزود القرآن، وتكون قد اختصت فى أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة فى القرآن، لايجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن»[(٥)].

وعبر عبد القاهر عن أهمية السياق فى إضفاء الجمال على الكلمة فى قوله:

---

(١) قواعد النقد الأدبى: ٤٦.

(٢) الإسراء / ٨٨.

(٣) هود / ١٣.

(٤) البقرة / ٢٣.

(٥) الدلائل: ٣٨٦.

«ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر، كلفظ «الأخدع» فى بيت الحماسة:

تلفتُّ نحو الحىِّ حتى وجدتُنى   وَجِعتُ من الإصغاء ليتاً وأَخْدَعَا(١)

وبيت البحترى:

وإنى وإنْ بلَّغْتَنى شرفَ الغنى   وأعتقْتَ من رِقِّ المطامع أخدعى

فإن لها فى هذين المكانين ما لايخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام:

يادهرُ قوِّم من أخدعيْكَ، فقد   أضججْتَ هذا الأنامَ من خُرُقك(٢)

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعافَ ما وجدت هناك من الرَّوْح والخفة، ومن الإيناس والبهجة».

«ومن أعجب ذلك لفظة «الشىء» فإنك تراها مقبولة حسنة فى موضع، وضعيفة مستكرهة فى موضع. وإن أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة المخزومى:

ومن مالئٍ عينيه من شئٍ غيرِه   إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمى

وقول أبى حيَّة:

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ   تقاضاه شئٌ لايَمَلُّ التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها فى بيت المتنبى:

لَوِ الفَلَكُ الدوَّارُ أبغضْتَ سعيَه   لعوَّقَه شئٌ عنِ الدورانِ(٣)

---

(١) البيت للصمة بن عبد الله القشيرى. والليت: صفحة العنق، والأخدع: أحد عرقين فى جانبى العنق، وهما الأخدعان.

(٢) الخرق: الجهل والحمق، ويجوز ضم الراء وتسكينها.

(٣) نشير إلى أن البيت من قصيدة مطلعها:

عدوك مذموم بكل لسان   ولو كان من أعدائك القمران

وقد خالف بعض النقادَ وشارحى ديوان المتنبى عبدَ القاهر فى حكمه على البيت. انظر شرح ديوان المتنبى: ٤/ ٢٤٧.

فإنك تراها تقل وتضؤل، بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم»[١].

ومن ذلك كلمة «الجسر» التى وردت فى ثلاثة أبيات من الشعر، ولكنها تتفاوت حسب السياق الذى ترد فيه. قال عبد القاهر: «إنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت فى عدة مواضع، ثم ترى لها فى بعض ذلك ملاحة لاتجدها فى الباقى. مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة «الجسر» فى قول أبى تمام:

لايطمعُ المرءُ أن يجتـابَ لُجَّتَه بالقولِ مالم يكن جسراً له العملُ[٢]

وقوله:

بَصُرْتَ بالراحةِ العظمى فلم ترها تُنال إلا على جسرٍ منَ التعبِ

فترى لها فى الثانى حسناً لاتراه فى الأول، ثم تنظر إليها فى قول ربيعة الرَّقِّى:

قولى نَعَمْ، ونعم إن قُلْتِ واجبةٌ قالتْ: عسى، وعسى جسرٌ إلى نَعَمِ

فترى لها لطفاً وخلابة وحسناً ليس الفضل فيه بقليل»[٣].

ويركز هذا الدرس التطبيقى الذى قدمه عبد القاهر لدور السياق فى الحكم على بلاغة كل بيت من تلك الأبيات، على اللغة التى استعملها الشعراء فى التعبير عن الدلالة التى يريدون توصيلها إلى السامع؛ لذلك فاللغة عنده ليست مجموعة من الألفاظ؛ بل مجموعة من العلاقات التى تنشأ فيما بين تلك الألفاظ التى «لاتفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب»[٤]. ولعله مما يؤكد على أهمية السياق عند عبد القاهر هذا التحليل اللغوى الذى ركز فيه على «معانى النحو» لبعض الآيات الكريمة وأبيات الشعر، ومن أمثلة ذلك توقفه أمام قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقُضِى الأمر واستوت على الجُودىّ وقيل بُعْداً للقوم الظالمين)[٥]

(١) الدلائل: ٤٦ – ٤٨.

(٢) يجتاب: يقطع، ولجة الأمر: معظمه.

(٣) الدلائل: ٧٨ و ٧٩.

(٤) أسرار البلاغة: ٢.

(٥) هود / ٤٤.

بالتحليل الذى ركز فيه على النواحى الآتية:

- أنْ نُوديت الأرض (يا أرض) ثم أُمرت (ابلعى).
- أن كان النداء بـ (يا) دون «أى» نحو «يا أيتها الأرض».
- إضافة الماء إلى الكاف (ماءك) دون أن يقال: «ابلعى الماء».
- أن أتبع نداءُ الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمرها كذلك بما يخصها.
- التعبير باستخدام الفعل المبنى للمجهول. قال عبد القاهر: «ثم أن قيل: (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة «فُعِلَ» الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر».
- التأكيد والتقرير بقوله تعالى: (وقُضِى الأمر).
- ذكر ما هو فائدة هذا الأمور، وهو (استوت على الجودى).
- إضمار السفينة قبل الذكر.
- مقابلة (قيل) فى الخاتمة بـ (قيل) فى الفاتحة[1].

وقد اهتم حازم القرطاجنى بـ «النظم» وصناعته، وحدّد بعض النواحى اللغوية التى تساعد على التمكن فيه. قال: «النظم صناعة آلتها الطبع. والطبع هو استكمال للنفس فى فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التى من شأن الكلام الشعرى أن يُنْحى به نحوها؛ فإذا أحاطت بذلك علماً قويت على صوغ الكلام بحسبه عملاً، وكان النفوذ فى مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف فى مذاهبه وأنحائه إنما يكونان بقوى فكرية واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء». وحدد حازم عشر قوى تساعد على التمكن من النظم وصناعته، وهى على النحو الآتى:

---

(١) الدلائلة: ٤٦. ونشير إلى أننا قد عرضنا لهذا التحليل حين حديثنا عن الكشف عن الإعجاز القرآنى ونشأة علم الجمال اللغوى، وأعدناه هاهنا حتى يكون عرض عبد القاهر للنظم ودوره فى جمال النص واضحاً.

١- القوة على التشبيه فيما لايجرى على السجية ولايصدر عن قريحة بما يجرى على السجية ويصدر عن قريحة.

٢- القوة على تصور كليات الشعر والمقاصد الواقعة فيها والمعانى الواقعة فى تلك المقاصد ليتوصل بهذا إلى اختيار ما يجب لها من القوافى ولبناء فصول القصائد على ما يجب.

٣- القوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وضع بعض المعانى والأبيات والفصول من بعض، بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح، وبالنظر إلى ما يجعل خاتمتها إن كانت محتاجة إلى شئ معين فى ذلك.

٤- القوة على تخيل المعانى بالشعور بها واجتلابها من جميع جهاتها.

٥- القوة على ملاحظة الوجوه التى بها يقع التناسب بين المعانى وإيقاع تلك النسب بينها.

٦- القوة على التهدى إلى العبارات الحسنة الوضع والدلالة على تلك المعانى.

٧- القوة على التحيل فى تسيير تلك العبارات متزنة وبناء مباديها على نهاياتها ونهاياتها على مباديها.

٨- القوة على الالتفات من حيز إلى حيز والخروج منه إليه والتوصل به إليه.

٩- القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض والأبيات بعضها ببعض وإلصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التى لاتجد النفوس عنها نبوة.

١٠- القوة المائزة حسن الكلام من قبيحه بالنظر إلى نفس الكلام وبالنسبة إلى الموضع المُوقَع فيه الكلام. فقد يتفق للشاعر أن ينظم بيتين قافيتهما واحدة فيكون أحدهما أحسن فى نفسه والآخر أحسن بالنسبة إلى المحل الذى يوقعه فيه من جهة لفظ أو معنى أو نظام أو أسلوب. ففى مثل هذا الموضع يصير المرجوح راجحاً والمفضول فاضلاً. وكثير ممن ليست له هذه القوة يسقط

أحسن مما يثبت بالنسبة إلى المحل[١].

وقد أفاد بعض علماء البلاغة الذين أتوا بأخرة مما كتبه عبد القاهر عن النظم ودوره فى جمال النص، ومن أولئك ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) الذى أشار إلى أن الخطيب والشاعر يحتاج إلى ثلاثة أشياء:

١- اختيار الألفاظ المفردة.

٢- نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجئ الكلام قلقاً نافراً عن موضعه.

٣- الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه.

ويعلق ابن الأثير على تلك الأشياء بقوله: «فهذه ثلاثة أشياءَ لابد للخطيب والشاعر من العناية بها، وهى الأصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر؛ فالأول والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة».

ويرى ابن الأثير أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن فى الاستعمال، وهما وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لايحسن استعمال هذه فى كل موضع تستعمل فيه هذه؛ بل يفرق بينهما فى مواضع السبك، وهذا لايدركه إلا من دَقّ فهمه وجَلّ نظره. ويمثل ابن الأثير لذلك بلفظتى (الجوف) و (البطن) فى قوله تعالى: (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)[٢] وقوله: (ربِّ إنى نذرتُ لك ما فى بطنى محرراً)[٣]؛ فاستعمل (الجوف) فى الأول والبطن فى الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء فى الدلالة، وهما ثلاثيتان فى عدد واحد، ووزنهما واحد أيضاً، فانظر إلى سَبْك الألفاظ كيف تفعل؟.

---

(١) منهاج البلغاء: ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) الأحزاب / ٤.

(٣) آل عمران / ٣٥.

ويوضح ابن الأثير الدور الذى يؤديه التركيب النحوى فى خلع الجمال على المفردات التى هى جزء من السياق اللغوى، ويشير إلى أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشق، ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومَنْ بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب. ويستشهد ابن الأثير على التركيب ودوره بالآية الكريمة التى عرض لها عبدالقاهر، وهى قوله تعالى: (وقيل يا أرضُ ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماءُ وقُضِى الأمر واستوتْ على الجودىِّ وقيل بعداً للقوم الظالمين)[١] وقد علّق عليها ابن الأثير بقوله: «إنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وكذلك إلى آخرها. فإن ارتبتَ فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو أُخذت من مكانها وأُفردت من بين أخواتها كانت لابسة من الحسن ما لبسته فى موضعها من الآية»[٢].

ويعرض لما عرض له عبد القاهر من مقارنة الألفاظ المتشابهة داخل السياقات المختلفة؛ فيقول: «إنك ترى اللفظة تروقك فى كلام، ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها، فهذا ينكره مَنْ لم يذق طعم الفصاحة، ولا عرف أسرار الألفاظ فى تركيبها وانفرادها». ويمثل ابن الأثير لذلك بلفظة وردت فى آية من القرآن الكريم، وبيت من شعر المتنبى، فجاءت فى الكتاب العزيز جزلة متينة، وفى الشعر ركيكة ضعيفة، فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين؛ أما الآية فهى قوله تعالى: (فإذا طَعِمتم فانتشروا ولامستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم واللهَ لايستحيى من الحق)[٣]، وأما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى من قصيدة له يمدح فيها الغيث بن على العجلى:

---

(١) هود / ٤٤.

(٢) المثل السائر: ١/ ١٥٢.

(٣) الأحزاب / ٥٣.

تَلَذُّ لَه المـــروْةُ وهـــى تـــؤذى   ومن يعـــشقْ يلذُّ له الغـــرامُ

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة، إلا أن لفظة «تؤذى» قد جاءت فيه وفى الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها، وحسن موقعها فى تركيب الآية الكريمة.

وعلى الرغم من محاولة ابن الأثير خلع الجمال على السياق أو التركيب فإنه عرض لما يتصل بفصاحة اللفظة المفردة، وأشار إلى أن بعض الألفاظ يحتمل الجمال فى نفسه، لذلك نجده يقول: «إن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تُتخيّل كأشخاص ذى دمائة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبى تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، واستلأموا (لبسو اللأمة وهى الدرع المحكمة الملتئمة) سلاحهم، وتأهبوا للطّراد، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبّغات بأصناف الحلى»[(١)].

* * *

وقد طرق علماء البلاغة موضوعات كثيرة تؤدى إلى الجمال فى النص، وهى تتصل بالتركيب النحوى اتصالاً مباشراً. ونحاول فى الصفحات التالية التعرف على تلك الموضوعات بالتفصيل خلال الجمع بين الجانبين النظرى والتطبيقى.

---

(١) المثل السائر: ١/ ١٨١.

ظاهـــرة الحــــــذف

الحذف deletion من «الظواهر العالمية» universals في اللغـات؛ إذ إنه ليس وقفاً على لغة دون أخرى. وهو يصيبها في أصواتها وتراكيبها للوصول إلى دلالة بعينها. وقد نال الحذف اهتمام القدماء من العلماء العرب؛ لأنه ورد في بعض آيات القرآن الكريم، وأشار إليه سيبويه في مواضع مختلفة من كتابه؛ لذلك نستطيع أن نقول إنه ظاهرة أصيلة في العربية من حيث الوجود والدراسة، وهو يصيب الجملتين الاسمية والفعلية؛ بالإضافة إلى الكلمة word والأبنية الصرفية morphological forms(١).

ويعرفه المحدثون من المشتغلين بالدراسات اللغوية بقولهم: Omitting an element of sentence structure أي إنه حذف أحد العناصر من بناء الجملة، ويمثلون له بإسقاط that من قولهم: I said he was ready(٢).

ولانريد الخوض في أسباب الحذف، وإنما نريد التركيز على علاقته بالجمال في التركيب النحوي، ومن الذين أشاروا إلى تلك العلاقة عبد القاهر في قوله: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنه ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن»(٣).

وهناك مجموعة من العوامل اللغوية وغير اللغوية التي تخلع جمالاً على الحذف، يأتي على رأسها ما يتصل بـ «سياق الحال» context of situation(٤) الذي يتفرع عنه المناسبة التي قيلت فيها الأبيات؛ إذ إنها تساعد في الوصول إلى

---

(١) حاولنا دراسة الحذف عند القدماء في كتابنا: قضايا التقدير النحوي بين القدماء والمحدثين: ٢٠٩ – ٢٥٣.

(2) The Cambridge Encyclopedia of Language, P. 418.

(٣) الدلائل: ١٤٦.

(٤) للتعرف على نظرية سياق الحال بين القديم والحديث، انظر كتابنا: فقه اللغة وعلم اللغة: نصوص ودراسات ٢٣٥ – ٢٤٤.

المعنى الذى أراده الشاعر، ومن ذلك قول الأقيشر فى ابن عم له موسر، سأله فمنعه، وقال: كم أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لايغنيك؟ والله لا أعطيتك. فتركه حتى اجتمع القوم فى ناديهم وهو فيهم، فشكاه إلى القوم وذمّه، فوثب إليه ابنُ عمه فلطمه فأنشأ يقول:

سريعٌ إلى ابن العمّ يلطمُ وجهَهُ   وليس إلى داعى النّدى بسريعِ
حريصٌ على الدنيا مُضيعٌ لدينه   وليس لما فى بيته بمضيعِ[1]

ويصور البيتان المناسبة التى قيلا فيها أصدق تصوير؛ وذلك من حيث استعمال بعض التراكيب النحوية ونفيها:

سريع ... ← ليس بسريع

مضيع ... ← ليس بمضيع

والتعبير عما حدث من لَطْم الوجه وعدم الإعطاء. ويأتى، بعد ذلك، الحذف للمبتدأ «هو» والذى أباح ذلك «المقام» نفسه؛ فهو دال على هذا الحذف.

ومما يتصل بالمناسبة التى جعلت الحذف يقع موقعاً حسناً قولُ عبد الله بن الزبير، يذكر غريماً له، قد ألح عليه:

عرضتُ على زيدٍ ليأخذَ بعض ما   يحاوله قبل اعتراضِ الشّواغلِ
فدبّ دبيبَ البغلِ يَألَمُ ظهره   وقال: تَعلّمْ، إننى غيرُ فاعلِ
تثاءب حتى قلتُ: داسعُ نَفْسه   وأخرج أنياباً له كالمَعَاوِلِ[1]

قال عبد القاهر معلقاً: «الأصل: حتى قلت هو داسع نفسه؛ أى حسبته من شدة التثاؤب، ومما به من الجهد، يقذف نفسه من جوفه، ويخرجها من صدره، كما يَدْسَع البعير جرّتَه. ثم إنك ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، وتباعده عن وهمك، وتجتهد أن لايدور فى خَلَدك، ولايعرض لخاطرك، وتراك

(١) الإيضاح: ١١٠ و ١١١.

(٢) دسع البعير دسعاً ودسوعاً: دفعها حتى أخرجها من جوفه إلى فِيهِ دَفْعة واحدة. والجرة: اللقمة.

كأنك تتوقاه توقى الشئ تكره مكانه، والثقيل تخشى هجومه»[١].

وربط عبد القاهر الحذف فى بعض آيات القرآن الكريم بالحال نفسه. قال تعالى: (ولَمَّا ورد ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أُمةً من الناس يَسْقُونَ ووَجَدَ من دونهم امرأتين تذودان قال ماخَطْبكما قالتا لانسقى حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولَّى إلى الظلِّ)[٢]. أما عن الحذف فهو يتصل بالمفعول به الذى حُذف فى أربعة مواضع:

- (وجد عليه أمة من الناس يسقون) أغنامهم أو مواشيهم.
- و (امرأتين تذودان) غنهما.
- و (قالتا لانسقى) غنمنا.
- (فسقى لهما) غنمهما[٣].

وعن ربط الحذف بالحال قال عبد القاهر: «ثم إنه لايخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يُتْرك ذكره (يقصد المفعول به) ويُؤْتى بالفعل مطلقاً، وماذاك إلا أن الغرض فى أن يُعْلَم أنه كان من الناس فى تلك الحال سَقْى، ومن المرأتين ذَوْدٌ، وأنهما قالتا: لايكون منّا سقى حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى. فأما ما كان المسقىُّ؟ أغنماً أم إبلاً أم غير ذلك، فخارج عن الغرض، وموهم خلافَه. وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: مالك تمنع أخاك؟ كنت منكراً المنع، لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن فى حذفه وترك ذكره فائدةً جليلة، وأن الغرض لايصح إلا على تركه»[٤].

(١) الدلائل: ١٥١.
(٢) القصص/ ٢٣، و ٢٤.
(٣) انظر الطراز: ٢/ ١٠٤.
(٤) الدلائل: ١٦١ و ١٦٢.

وقد لقى حذف المفعول اهتمام عبد القاهر بصفة عامة، مع ربط الحذف بالمعنى، ومن ذلك دراسته لقول البحترى:

إذا بَعُدَتْ أَبلتْ، وإن قَرُبَتْ شفتْ فهجرانُها يُبْلى، ولُقيانُها يَشْفِى

قال: «قد عُلِمَ أن المعنى: إذا بعدت عنى أبلتنى، وإن قربت منى شفتنى، إلا أنك تجد الشعر يأبى ذكر ذلك، ويوجب اطّراحه. وذاك لأنه أراد أن يجعل البِلى كأنه واجب فى بعادها أن يوجبه ويجلبه، وكأنه كالطبيعة فيه، وكذلك حال الشفاء مع القرب، حتى كأنه قال: أتدرى ما بعادها؟ هو الداء المضنى، وما قربها؟ هو الشفاء والبرء من كل داء. ولاسبيل لك إلى هذه اللطيفة وهذه النكتة، إلا بحذف المفعول البتة»[1].

واهتم عبد القاهر بحذف المفعول حين استعمال الفعل «شاء»، مع الربط بالجمال حين الأداء اللغوى، وقد طبّق ذلك على قول البحترى:

لو شئْتَ لم تفسد سماحةَ حاتمٍ كرماً، ولم تَهْدم مآثر خالد

فالأصل المقدر the underlying structure هو: لو شئت أن لاتفسد سماحة حاتم لم تفسدها، وهذا التركيب المحذوف «أن لاتفسد» يشكل مصدراً فى محل نصب وهو مفعول للفعل «شاء»، ولكن البحترى حذف هذا التركيب، والذى أباح ذلك الاستغناء بدلالته فى الثانى عليه. وقد ربط عبد القاهر الحذف بالجمال قائلاً: «ثم هو على ماتراه وتعلمه من الحسن والغرابة، وهو على ماذكرتُ لك من أن الواجب فى حكم البلاغة أن لايُنْطَق بالمحذوف ولايظهر إلى اللفظ. فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: لو شئت أن لاتفسد سماحة حاتم لم تفسدها صرت إلى كلام غث، وإلى شئ يَمُجُّه السمع، وتعافه النفس. وذلك أن فى البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له، أبداً لطفاً ونبلاً لايكون إذا لم يتقدم ما يحرك». وبعد هذا الشرح للحذف مع ربطه بالأداء اللغوى الذى يكتسب قدراً كبيراً من البلاغة؛ أى الجمال، يتوسع عبد القاهر فى دراسة الحذف

(١) الدلائل: ١٦٢.

مع «لو» و «شاء» خلال التطبيق فى القرآن الكريم. قال: «وأنت إذا قلت: لو شئت، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة فى المعنى بشئ، فهو يضع فى نفسه أن ههنا شيئاً تقتضى مشئيته له أن يكون أو لايكون. فإذا قلت: لم تفسد سماحة حاتم، عَرَفَ ذلك الشئ. ومجيئ المشيئة بعد «لو» وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة إلى شئ، كثير شائع؛ كقوله تعالى: (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى)[١] و (ولو شاء لهداكم أجمعين)[٢]، والتقدير فى ذلك كله على ماذكرت. فالأصل: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، ولو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم، إلا أن البلاغة فى أن يُجاء به كذلك محذوفاً»[٣].

ويدل هذا النص على أن الذى أباح حذف المفعول علْم السامع؛ إذ إنك حين تقول «لو شئت»؛ فإنه يدرك من فوره نطقك بشئ توقع عليه المشيئة، ولكن البحترى حذف المفعول وجاء ما فى البيت من قوله «لم تفسد سماحة حاتم» دليلاً عليه. وقد أشار عبد القاهر إلى أنه مما يطبع التركيب النحوى للجملة العربية استعمال الفعل «شاء» لازماً؛ أى ألاَّ يتعدى إلى المفعول به، وهذا يؤدى إلى البلاغة فى الأداء اللغوى.

ولكن عبد القاهر، بحسّه اللغوى والجمالى، لم ينْسَ أن يتوقف أمام بعض الأبيات التى ورد فيها ذكر المفعول مع الفعل «شاء» وهل يؤدى هذا الذكر إلى البلاغة أوْ لا؟؛ فقد قال الخُرَيْمى فى رثاء أحد قواد الرشيد:

ولو شئتُ أن أبكى دماً لبكيتهُ ... عليه، ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوسعُ

«فقياس هذا لو كان على حد (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أن يقول: لو شئتُ بكيتُ دماً، ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه؛ لأنها أحسن فى هذا الكلام خصوصاً. وسبب حسنه أنه كأنه بدْع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكى دماً. فلما كان كذلك، كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره فى نفس

(١) الأنعام / ٣٥.

(٢) النحل / ٩.

(٣) الدلائل: ١٦٤.

السامع ويؤْنسه به» .

وقد وضع عبد القاهر قاعدة بلاغية تُرَدُّ إلى الدلالة لذكر المفعول أو حذفه مع الفعل «شاء» المسبوق بـ «لو» . قال: «وإذا استقريت وجدت الأمر كذلك أبداً متى كان مفعول المشيئة أمراً عظيماً، أو بديعاً غريباً، كان الأحسن أن يذكر ولا يُضْمر. يقول الرجل يخبر عن عِزَّة: لو شئت أن أردّ على الأمير رددت، ولو شئت أن ألقي الخليفة كلَّ يوم لقيت. فإذا لم يكن مما يكبره السامع، فالحذف كقولك: لو شئت خرجت، ولو شئت قمت، ولو شئت أنصفت، ولو شئت لقلت، وفي التنزيل: (لو نشاء لقلنا مثل هذا)[1]، وكذا تقول: لو شئت كنت كزيد، قال:

لو شئْتَ كنتَ ككُرزٍ في عبادته ... أو كابنِ طارقَ حول البيت والحرمِ[2]

ومن هنا فإن الذكر وعدمه مع المشيئة يرتبط بالدلالة كما يأتي:

مفعول المشيئة أمر عظيم ← الذكر

مفعول المشيئة ليس مما يكبره السامع ← الحذف

ومما يخلع على الحذف جمالاً في الأداء اللغوي أن يكون الشعر على هيئة حوار متضمناً أفعالاً تتولد من «الجذر المعجمي» lexical root (ق و ل)، وذلك كقول الشاعر:

قال لي: كيف أنتَ، قلت: عليلٌ ... سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويل

ويمكن إعادة تشكيل البيت على هيئة حوار، وإن كانت تلك الإعادة ستسلبه جماله، وهو كما يأتي:

قال: كيف أنت؟

قلتُ: أنا عليل، حالي سهر دائم وحزن طويل.

وقد تم إعادة المبتدأ المحذوف. ويتصل بذلك قول الشاعر، يخاطب امرأته وقد لامته على الجود:

---

(١) الأنفال/ ٣١.

(٢) البيت لعبد الله بن شبرمة القاضي الفقيه يقوله لابن هبيرة، ويذكر فيه كرز بن وبرة الحارثي الجرجاني العابد، ومحمد بن طارق. الدلائل: ١٦٥ والهامش.

قالتْ سُميّةُ: قد غويْتَ، بأن رأتْ حقّاً تنـاوبَ مالَنـا ووفـودُ
غَـيٌّ لعمـرِكِ لاأزال أعـوده مـادام مـالٌ عندنا مـوجـودُ

والتقدير: قلت لها: ذاك غى، لا أزال أعود إليه. وورد الحذف فى أبيات لجميل بثينة. وبها حوار. قال:

إنى عشيةَ رُحْتُ وهى حزينةٌ تشكو إلىَّ صبابـةً لصبـورُ
وتقولُ: بتْ عندى، فديتُك ، ليلةً أشكـو إليـك، فإن ذاك يسيـر
غـرّاءُ مِبْسَامٌ، كـأنّ حديثها دُرٌ تحـدَّرَ نظمُـه منشـورُ
محطوطةُ المتنين، مضمرةُ الحشا ريّا الروادفِ، خلقُها ممكورُ(١)

وهناك ظاهرة نحوية تخلع على الحذف جمالاً هى **«القطع والاستئناف»**. فمن عادة الشعراء البدء بذكر الرجل، مع تقديم بعض ما يتصل به ثم يَدَعون ذلك، أى يقطعونه ويستأنفون كلاماً آخر، تركيبه النحوى عبارة عن جملة اسمية محذوفة المبتدأ. ومن ذلك قول جميل بثينة:

وهـل بثينـةُ، يالَلنّاسِ، قاضيتى دَيْنـى؟ وفاعلـةٌ خيـراً فأَجْزيهـا
ترنو بعينىْ مهـاةٍ أقصـدتْ بهمـا قلبـى عشيـةَ ترمينـى وأرميهـا
هيفاءُ مقبلـةً، عجـزاءُ مدبـرةً ريّا العظامِ، بلاعيـبٍ يُـرَى فيهـا
مـن الأوانـس مِكْسَالٌ، مُبَتّلـةٌ خَوْدٌ، غَذَاها بلين العيش غاذيها(٢)

والحذف فى البيت الثالث، والتقدير «هى هيفاء ...» وقد أورد عبد القاهر شواهد أخرى لهذا الحذف، من بينها أبيات جميل، وعلق عليها جميعاً بقوله: «فتأمل الآن هذه الأبيات كلَّها، واستقرها واحداً واحداً، وانظر إلى موقعها فى

(١) محطوطة المتنين: ليس فى جانبى ظهرها ارتفاع، بل هو ممتلئ مستوٍ مطمئن ممدود. «ممكور: مدمج غير مسترخ. انظر الدلائل : ١٥٠ – ١٥٢ والهامش.
(٢) هيفاء: دقيقة الخصر ضامرة البطن، والبَتَل : بُعْد مابين المنكبين، والخود: الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق.

نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظَّرْف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فلْيتَ[١] النفس عما تجد، وألطفْتَ النظر فيما تحس به. ثم تكلف أن تردَّ ماحذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه فى سمعك؛ فإنك تعلم أن الذى قلتُ كما قلت، وأن رب حذف هو قلادة الجِيد، وقاعدة التجويد»[٢].

* * *

(١) فليت : أطال التأمل والنظر.

(٢) الدلائل: ١٥١.

الإيجاز

قبل الدخول فى تقديم دراسة تطبيقية للإيجاز فى النصوص المختلفة نحاول التعرف على حدّه عند القدماء من العلماء العرب:

– يرى أبو الحسن على بن عيسى الرُّمانى (٢٩٦ – ٣٨٤هـ) أنّ البلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف ، والتضمين، والمبالغة، وحُسْن البيان.

ثم قال الرمانى عن الإيجاز : «تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يُعبّر عنه بألفاظ كثيرة فالألفاظ القليلة إيجاز. والإيجاز على وجهين: حذف وقِصَر؛ فالحذف: إسقاط كلمة للإجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام؛ والقِصَر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف»[١].

– وتأثر أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (–٤٠٣هـ) بالرمانى؛ إذ إنه أشار إلى أقسام البلاغة العشرة، ثم قال عن الإيجاز : «فأما الإيجاز فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى، فيأتى باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة».

«وذلك ينقسم إلى حذف وقصر»[٢]. ثم يمثل الباقلانى للنوعين كليهما.

– وتأثر ابن رشيق بالرمانى أيضاً فى حديثه عن الإيجاز، ولكنّ الذى يُذْكَر له إضافته لبعض المصطلحات مع توضيح المقصود بها، ومن ذلك «المساواة» وهى أن يكون اللفظ مطابقاً لمعناه لايزيد عليه ولاينقص عنه[٣]،وذلك كقول الشاعر:

الحمدُ لـه إنى فـى جـوارِ فتـى ... حامـى الحقيقـة نفّـاعٍ وضـرّارِ
لايرفعُ الطرفَ إلاّ عند مكرمـةٍ ... من الحيـاءِ ولايُغْضى على عـارِ

فهذا من الشعر الذى لايزيد لفظه على معناه ولامعناه على لفظه شيئاً.

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن: ٧٦. وهو منشور ضمن «ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن».

(٢) إعجاز القرآن: ٢٦٢.

(٣) المساواة هى «إيجاز القصر».

ومن مصطلحات ابن رشيق الداخلة في باب الإيجاز «الاكتفاء»، وهو داخل في باب المجاز، وفي الشعر القديم والمحدث منه كثير، يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقي عليه[١]، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ولو أنّ قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ أو قُطِّعتْ به الأرضُ أو كُلِّم به الموتى﴾[٢]. كأنه قال: «لكان هذا القرآن». ويستمر ابن رشيق في عرضه التطبيقي للإيجاز[٣].

وبعد هذا العرض نقول إن الإيجاز عند علماء البلاغة ينقسم إلى قسمين، نقدمها على النحو الآتي:

- **القسم الأول:**

«إيجاز القصَر» ويُعرَّف بأنه ماليس بحذف؛ أي إن النص حين يكون فيه إيجاز من هذا القسم لاتجد حذفاً في مكوناته النحوية. ومن الشواهد المهمة قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾[٤] الذى تعرض له معظم المشتغلين بالدراسات النقدية والبلاغية، ونقدم - فيما يلي - نصين يدوران حوله؛ أولهما للزمخشرى يوضح فيه المعنى، والآخر للقزوينى يقارن فيه بين الآية الكريمة وقول العرب: «القتل أنفى للقتل».

- قال الزمخشرى: «كلام فصيح لما فيه من الغرابة وهو أن القصاص قتل وتفويت الحياة، وقد جُعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة، لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعةَ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يَقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر؛ فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة

(١) الاكتفاء هو «إيجاز الحذف».

(٢) الرعد/ ٣١.

(٣) العمدة: ١٦٧/١ - ١٦٩.

(٤) البقرة / ١٧٩.

أى حياة ونوع من الحياة، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القتل؛ لأنه إذا همَّ بالقتل فعلم أنه يُقْتَصُّ منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القَوَد، فكان القصاص سبب حياة نفسين»[1].

– قال القزوينى: «وفضله (يقصد الآية الكريمة) على ما كان عندهم (يقصد العرب) أوجز كلام فى هذا المعنى، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل» من وجوه :

أحدهما: أن عدة حروف ما يناظره منه وهو (فى القصاص حياة) عشرة فى التلفظ، وعدة حروفه أربعة عشر.

وثانيها: ما فيه من التصريح بالمطلوب الذى هو الحياة بالنص عليها؛ فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاقتصاص.

وثالثها: ما يفيد تنكير (حياة) من التعظيم أو النوعية ...

ورابعها: اطراده، بخلاف قولهم؛ فإن القتل الذى ينفى القتل هو ما كان على وجه القصاص لاغيره.

وخامسها: سلامته من التكرار الذى هو من عيوب الكلام بخلاف قولهم.

وسادسها: استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم؛ فإن تقديره : القتل أنفى للقتل من تركه.

وسابعها: أن القصاص ضد الحياة؛ فالجمع بينهما طباق.

وثامنها: جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بإدخال (فى) عليه[2].

وهناك شواهد أخرى لإيجاز القصر. قال تعالى : ﴿هدى للمتقين﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[4]، وقال

---

(١) الكشاف: ١ / ٣٣٣.

(٢) الإيضاح : ٢٨٧و ٢٨٨.

(٣) البقرة / ٢. ،

(٤) الزلزلة / ٧ – ٨.

تعالى : ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾[١]؛ فهذا كلام مختصر وجيز دالٌ على معناه بحيث لايُدْرَك إيجازه ولايُنال كُنْهُه[٢]. ومن شواهده الشعرية قول امرئ القيس:

علـى لاحبٍ لايُهتَدى بمـنـارِه ... إذا سَافَهُ العودُ النباطيُّ جرجرا[٣]

وقال أوس بن حجر:

لايفـــزعُ الأرنبَ أهوالُهـــا ... ولاترى الضبَّ بهـا ينْجحـر[٤]

وقال أسماء بن خارجة الفزارى:

خُذِى العَفْوَ منى تستديمى مودّتى ... ولاتنطقى فى سورتى حين أغضب[٥]

وقال الشريف الرضى:

مـالوا إلى شُعَبِ الرِّحـالِ وأسندوا ... أيدى الطِّعانِ إلى قلوبٍ تخفقُ[٦]

- **القسم الثانى:**

من أقسام الإيجاز هو «إيجاز الحذف»، ويتضح من التسمية وجود حذف فى التركيب اللغوى، ويأتى على عدة وجوه:

١ - حذف أحد الأصوات المفردة من بنية الكلمة بقصد التخفيف وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ولم أكُ بغياً﴾[٧]؛ فقد تم حذف النون الساكنة:

﴿لم أكُ﴾ ←———— لم أكُنْ

تخفيفاً، وهى مقدرة لذلك حين الإعراب نقول إن الفعل مجزوم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف.

---

(١) النساء / ١٢٣.

(٢) الطراز: ٣ / ٣١٧.

(٣) لاحب : طريق واضح ، والمنار: العلامة، وسافه: شمّه، والعود النباطى: الجمل المسن الضخم، وجرجر: ضجّ ورغا.

(٤) أهوالها: الضمير يعود على الصحراء، وينحجر الضب: يدخل جحره.

(٥) السورة: شدة الغضب.

(٦) شعب الرحال: خشبها المتخذ من فروع الشجر، والطعان: التضارب فى القتال.

(٧) مريم/٢٠.

٢ – حذف حرف من الحروف التى تؤدى وظيفة «نحوية دلالية» مع وجود دليل فى النص أو السياق على هذا الحرف المحذوف، ومن ذلك «لا» الذى حُذف فى قوله تعالى: ﴿قال تالله تفتأُ تذكر يوسف﴾(١). وقال امرؤ القيس:

فقلتُ يمين الله أبرحُ قاعداً   ولو قطَّعُوا رأسى لديكِ وأوصالى

والحذف فى الآية الكريمة وبيت امرئ القيس يمكن الاستدلال عليه فى ضوء القاعدة المتصلة باستعمال الفعلين الناسخين «فتئ» و«برح» فى الجملة العربية؛ إذ لابد أن يكونا مسبوقين بالنفى أو شبه النفى كالدعاء مثلاً؛ لذلك فالتقدير:

تفتأ ←── لاتفتأ

أبرح ←── لاأبرح

وهناك حذف للحرف نفسه «لا» مع الاستدلال عليه من المناسبة التى قيلت فيها الأبيات؛ فقد قال أبو محجن الثقفى لما نهاه سعد بن أبى وقاص عن شرب الخمر وهو إذ ذاك فى قتال الفرس بموقعة القادسية:

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها   مناقبُ تهلك الرجلَ الحليما
فلا والله أشربُها حياتى   ولا أسقى بها أبداً نَديمَا

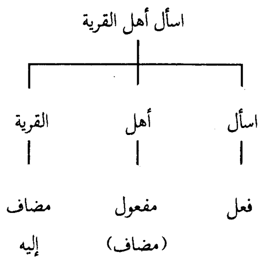
والتقدير: «لا أشربها».

٣ – مما يطبع التركيب النحوى للجملة العربية حذفُ المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وذلك كما فى قوله تعالى: (واسأل القرية التى كُنَّافيها والعِيرَ التى أقبلنافيها)(٢).

(١) يوسف / ٨٥.

(٢) يوسف/٨٢.

ويقول المفسرون إن التقدير:



وتم حذف المضاف «أهل» وإقامة المضاف إليه (القرية) مقامه؛ لذلك أصبحت كلمة (القرية) في الآية الكريمة مفعولاً به.

وهناك شواهد أخرى لهذا الحذف في القرآن الكريم. قال تعالى: (حُرِّمت عليكم الميتةُ)(١)؛ أي «تناول الميتة» لتعلق الحكم الشرعي بالأفعال دون الأجرام. وقال تعالى: ﴿حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم﴾(٢)؛ أي تناول طيبات أُحِلَّ لهم تناولها، وتقدير «التناول» أولى من تقدير «الأكل» ليدخل فيه شرب ألبان الإبل، فإنها من جملة ما حُرِّمت عليهم. وقال تعالى: ﴿وأنعامٌ حُرِّمَتْ ظهورها﴾(٣)؛ أي منافع ظهورها، وتقدير «المنافع» أولى من تقدير «الركوب» لأنهم حرموا ركوبها وتحميلها. وقال تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله﴾(٤)؛ أي رحمة الله. وقال تعالى: (يخافون ربَّهم)(٥)؛ أي عذاب ربهم(٦)؛ وقد ظهر هذان المضافان في قوله: ﴿يرجون رحمته ويخافون عذابه﴾(٧).

---

(١) المائدة / ٣.

(٢) النساء/ ١٦.

(٣) الأنعام / ١٣٨.

(٤) الأحزاب / ٢١؛ والممتحنة/٦.

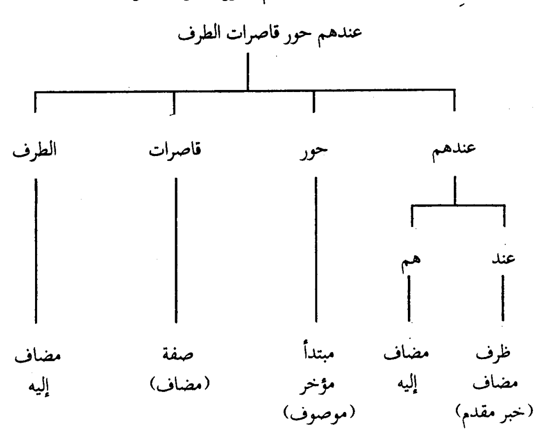
(٥) النمل/ ٥٠.

(٦) الإيضاح: ٢٩١.

(٧) الإسراء / ٥٧.

٤ – ومن «إيجاز الحذف» أن يكون المضاف إليه محذوفاً. قال تعالى: ﴿وواعْدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتم ميقاتُ ربّه أربعين ليلة﴾[1]: أى «بعشر ليال». وقال تعالى: ﴿لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ﴾[2]؛ أى من قبل ذلك ومن بعده، وقد بُنِيَ الظرفان (قبل) و(بعد) على الضم لانقطاعهما عن الإضافة من الناحية اللفظية لا الدلالية، فالمضاف إليه مقدر فى المعنى ولكن لم يتم التصريح بلفظه.

٥ – من أنواع الحذف فى الجملة العربية الذى اهتم به علماء البلاغة حذفُ الصفة وإقامة الموصوف مقامها وذلك كما فى قوله تعالى ﴿وعندهم قاصراتُ الطّرْفِ أترابٌ﴾[3] والتقدير: «وعندهم حور قاصرات الطرف»:

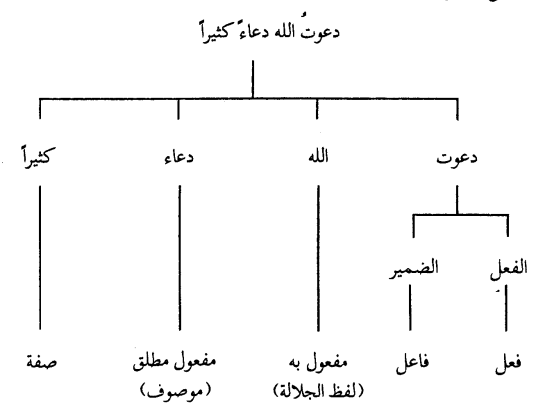


(١) الأعراف / ١٤٢.
(٢) الروم/٤.
(٣) ص / ٥٢.

وقد تم حذف الموصوف «حُور» وأُقيمت الصفة (قاصرات) مقامه؛ لذلك أصبحت (قاصرات) مبتدأ مؤخراً.

ومن شواهد حذف الموصوف قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً فظلموا بها﴾[1]؛ أي آية مبصرة ؛ لأنه لم يرد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء.

ومن المواضع التى يكثر فيها حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه «باب المصدر»؛ فإنك إذا قلت «دعوتُ الله كثيراً» : «كثيرا» مفعول مطلق أو نائب عنه، والأصل المقدر للجملة هو:



وقد تم حذف الموصوف «دعاء» وأقيمت الصفة «كثيراً» مقامه؛ لذلك أصبحت مفعولاً مطلقاً أو نائباً عنه. ومن شواهد هذا الحذف فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقَوْن غيّاً. إلا من تاب وآمن وعَمِلَ صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولايُظْلَمون شيئاً﴾[2].

(١) الإسراء/ ٥٩.

(٢) مريم/٥٩ -٦٠

فإن (صالحاً) نائب عن المفعول المطلق، والتقدير: «عمل عملاً صالحاً».

ويكثر الحذف كذلك فى باب النداء. قال تعالى: ﴿وقالوا يأيُّها الساحرُ ادعُ لنا ربَّك بما عَهِدَ عندك إننا لمهتدون﴾(١)؛ أى «يأيها الرجل الساحر»؛ وقال تعالى: ﴿يأيُّها الذين آمنوا﴾؛ أى «يأيها القومُ الذين آمنوا».

٦ – ومن إيجاز الحذف مايكون المحذوف صفةً. قال تعالى: ﴿أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملون فى البحر فأردتُ أنْ أعيبها وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينة غصباً﴾(٢)؛ أى «كل سفينةٍ صالحة» وتم حذف الصفة «صالحة»، وقد استدلّ العلماء على تلك الصفة المحذوفة بما ورد فى بعض القراءات من إثباتِ لها.

ونشير إلى أن هناك حذفاً للصفة يمكن الاستدلال عليه من شئ خارج المنطوق اللفظى نفسه؛ فقد قال المصطفى ﴿ﷺ﴾: «لاصلاة لجارِ المسجدِ إلا فى المسجد»؛ فإنه قد عُلم جواز صلاة جار المسجد فى غير المسجد من غير هذا الحديث؛ فعُلِمَ حينئذ أن المراد به الفضيلة والكمال؛ أى لاصلاة أفضل أو أكمل لجار المسجدِ إلا فى المسجد، وهذا شئ لم يُعْلَمْ من اللفظ نفسه، وإنما عُلِم من شئ خارج عنه.

٧ – هناك بعض المكونات النحوية التى تُعدُّ أساس «أسلوب الشرط» وإذا حُذف عنصرٌ منها وجب تقديره، وذلك مثل «جواب الشرط» كما فى قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم تُرْحَمون﴾(٣) وجواب (إذا) محذوف والتقدير: «أعرضوا»، ويمكن الاستدلال عليه من الآية الكريمة التالية لها: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾(٤)؛ لذلك علل البلاغيون هذا الحذف بأمرين:

---

(١) الزخرف / ٤٩.

(٢) الكهف / ٧٩.

(٣) يس / ٤٥.

(٤) يس / ٤٦.

- الاختصار.

- وجود القرينة وهى (معرضين).

وقال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايَهْدى القوم الظالمين﴾(١)، والجواب محذوف والتقدير: «ألستم ظالمين»، وتم الاستدلال عليه من آخر الآية الكريمة (الظالمين).

وهناك حذف للجواب للدلالة على أنه شئ لايحيط به الوصفُ، حتى تذهب النفسُ فيه كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، فلا يتصور مطلوباً أو مكروهاً إلا يجوِّز أن يكون الأمر أعظم منه، ولو عُيِّن شئ اقتُصِر عليه، وربما خَفَّ أمره عنده. قال تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا ربَّهم إلى الجنة زُمَرًا حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنَتُها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾(٢). ولهذا المعنى حُذفت الصلة من قول العرب: «بعد اللُّتيَّا والتى»(٣).

٨ - الحذف فى «أسلوب القسم»؛ فهناك حذف للقسم نحو: لأفعلَنَّ الخير، والتقدير: والله لأفعلنَّ الخيرَ. وهناك حذف لجواب القسم. قال تعالى: (ق والقرآن المجيدَ. بل عجبوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شئٌ عجيبٌ﴾(٤) والتقدير: «لتبعثُنَّ» والدليل على هذا التقدير ماورد فى الآية الكريمة التالية: ﴿أَ إذا متْنَا وكنا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيدٌ﴾(٥) ومن هذا الحذف للجواب أيضاً قوله تعالى: (والفجرِ. وليالٍ عشرٍ. والشَّفْعِ والوتْرِ. والليل إذا يَسْرِ﴾(٦) والتقدير: «لتعذبُنَّ ياكفَّار مكةَ».

(١) الأحقاف / ١٠.

(٢) الزمر/٧٣.

(٣) يجوز فى «اللتيا» فتح اللام وضمها، وقد قال السكاكى عن المعنى: «هى المحنة والشدائد، بلغت من شدتها وفظاعة شأنها مبلغاً يبهت الواصف معها حتى لايُحير ببنت شفة». المفتاح: ٢٨٠.

(٤) ق/١-٢.

(٥) ق/٣.

(٦) الحديد/١٠.

٩ - ما يكون المحذوف معطوفاً. قال تعالى ﴿ومالكم ألاَّ تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراثُ السموات والأرض لايستوى منكم مَنع أنفقَ من قبلِ الفتحِ وقاتل﴾[١]
والتقدير: «ومن أنفق من بعده وقاتل»، والدليل على ذلك قوله تعالى فى الآية الكريمة نفسها: ﴿أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بَعْدُ وقاتلوا﴾؛ فهذا يدل على أن الذى لايساوى الإنفاق قبل الفتح هو الإنفاق بعده.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالحذف والإيجاز؛ نحاول دراسة بعض ما يتصل بـ «الحذف عند النحاة» خلال التطبيق فى النصوص، معتمدين فى ذلك على ماكتبه ابن هشام فى (المغنى)[٢]، مع الحرص على عدم تكرار ما سبق العرض له فى الصفحات السابقة. ونبدأ تلك الدراسة بالتعرف على شروط الحذف.

لابد من وجود دليل «حالى» يغنى عن النطق بما هو محذوف، ويؤدى فى الوقت نفسه إلى الاستدلال عليه. ويناسب هذا الدليل الحالى الحياة تماماً؛ لأننا ننطق بالكثير من التراكيب النحوية التى أصابها الحذف معتمدين فى ذلك على الحال، ويمكن توضيح ذلك خلال الموقف الآتى:

تخيّل أن هناك شخصاً يجلس فى أحد المقاهى ويحتسى الشاى أو القهوة وفى تلك الحال مرَّ عليه أحدُ أصدقائه؛ فما الذى يحدث؟ إن هذا الشخص يقول لصديقه فور رؤيته إياه «قهوةً»، وهو يقصد «تفضل قهوة».

وتظهر «القرينة الحالية» فى الجلوس فى المقهى ومرور الصديق على صديقه الذى يحتسى الشاى أو القهوة فيقول له «قهوة». وتم حذف الفعل والفاعل لأن الجالس فى تلك الحال يريد أن يصل إلى هدفه بسرعة، وخلال تلك القرينة نصل إلى الأصل المقدر للمنطوق اللفظى[٣].

---

(١) الحديد / ١٠.

(٢) المغنى : ٧٨٦ - ٨٥٣ . ولن نلجأ إلى نقل ما كتبه ابن هشام ، وإنما نعتمد عليه فى معرفة الشواهد القرآنية والشعرية وسواها.

(٣) انظر كتابنا : قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين : ٢١٦ .

وقد استشهد ابن هشام على هذا الدليل الحالى بقوله تعالى : ﴿ولقد جاءتْ رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ﴾[١] ؛ أى : سلَّمْنَا سلاماً.

وربط ابن يعيش بين قرائن الأحوال وحذف العامل قائلاً: «إن قرائن الأحوال قد تغنى عن اللفظ وذلك أن المراد من اللفظ الدلالة على المعنى ، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق، فإن أتى باللفظ المطابق جاز وكان كالتأكيد ، وإن لم يؤْتَ به فللاستغناء عنه فلذلك يجوز حذف العامل »[٢].

ومما يبيح الحذف حين استعمال اللغة بواسطة المتكلم السامع المثالى وجودُ دليل «مقالى» يساعد فى التعرف على ماتم حذفه، وهذا الدليل يتصل - فى الأغلب الأعم - باللغة المنطوقة خاصة حين يكون الكلام استفهاماً؛ إذ إنّ إنساناً لوسأل آخر لايعرف اسمه : ما اسمك؟ فإنه سيقول له: محمد، دون أن يقول اسمى محمدٌ أو : محمدٌ اسمى؛ لأنه يمكن الاستدلال على ذلك من السؤال نفسه. والذى يلفت النظر أن هذا الدليل «عالمى» universal، فلو قال شخص إنجليزى لآخر: What is your name? فسيقول : David، دون أن يقول: My name is David لذلك قلنا إنه عالمى فى تعليل الحذف؛ أى إنه طريقة من طرق الأداء اللغوى بواسطة «ابن اللغة» الذى ينطق من فوره دون تكلُّف أو تصنُّع.

ومن شواهد الحذف لوجود دليل مقالى ما فى قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديثُ ضيف إبراهيمَ المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قومٌ منكرون﴾[٣]، ويمكن التمثيل للحذف كما يأتى:

سلام ← سلام عليكم (تقدير الخبر المحذوف)

قوم ← أنتم قوم (تقدير المبتدأ المحذوف)

ومن المفيد الإشارة إلى أن الحذف فى الجملة العربية ليس مباحاً على الدوام؛

---

(١) هود / ٦٩.

(٢) شرح المفصل:١/١٢٥.

(٣) الذاريات/ ٢٤-٢٥.

خاصة إذا كان حذف العناصر النحوية يؤدى إلى «اللبس» حين محاولة التوصل إلى الدلالة. ولتوضيح ذلك فإننا نعلم جواز حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه كما فى قوله تعالى: (وألنّا له الحديدَ. أن اعملْ سابغاتٍ)[١]؛ فكلمة (سابغات) مفعول به، وكانت فى الأصل صفة لموصوف محذوف والتقدير: «أن اعمل دروعاً سابغات» ولكن تم حذف الموصوف «دروعاً» والذى أباح ذلك تقدم ذكر (الحديد) فى الآية الكريمة. ولكن هذا الحذف ليس مباحاً؛ فإذا قلت: «رأيتُ رجلاً أبيضَ» من غير الصحيح نحوياً أن تقول:

* رأيتُ أبيض

لأن التركيب يحتمل عدة أنواع من التقدير لما هو محذوف نحو:

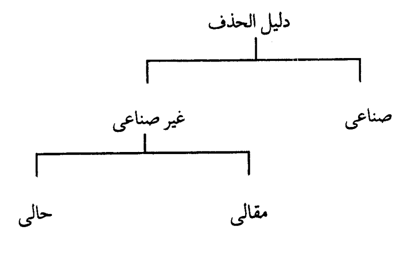
رأيتُ زهراً أبيـض

رأيتُ ثوبـاً أبيـض

رأيتُ حصاناً أبيض

وسواها من التراكيب؛ لذلك لايجوز حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه فى «رأيتُ رجلاً أبيض»، ويجوز أن تقول: رأيتُ كاتباً، وركبتُ صاهلاً[٢].

وبعد هذا العرض لما يتصل بالدليلين الحالى والمقالى نشير إلى أن دليل الحذف- بصفة عامة - نوعان، يمكن إيضاحهما كما يأتى:



(١) سبأ / ١٠ - ١١.

(٢) انظر كتابنا: منهج ابن هشام فى شرح «بانت سعاد» ٥٦ - ٥٨.

وقد عرضنا لما يندرج تحت الدليل «غير الصناعى»، ونعرف بـ «الصناعى». يرى العلماء أن النحو صناعة تحتاج إلى بعض الأدوات التى تساعد على التمكن منه والإتقان لما يندرج تحته من ظواهر لغوية، دون الوقوع فى الخطأ خاصة حين التأويل والتقدير ومعرفة المكونات الأساسية للتركيب، وقد جاء قولهم بالدليل الصناعى من جهة أنه يختص بمعرفته النحويون، لأنه إنما عُرِفَ من جهة الصناعة. وهناك الكثير من الشواهد القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، وأبيات الشعر، والأمثال والأقوال المأثورة التى تحتاج إلى دراية واسعة بالنحو وصناعته حتى يمكن التعرف على ما بها من حذف أو زيادة أو اتساع أو تقديم وتأخير أو غير ذلك، ونقدم بعض الأمثلة التوضيحية لدور النحو فى التأويل والتقدير:

– هناك قراءة قرآنية للآية الأولى من ﴿سورة القيامة﴾ بإسقاط الألف من (لا) وهى قراءة ابن كثير: ﴿لأُقْسِمُ بيومِ القيامةِ﴾[1]. ويرى ابن هشام أن التقدير: «لأنا أُقْسِم»، وذلك لأن فعل الحال لايُقْسم عليه.

– قال الأعشى ميمون بن قيس:

إنَّ مَنْ لام فى بنى بنتِ حسا نَ أَلُمْهُ وأعصِهِ فى الخطوب[2]

«إن» حرف توكيد ونصب واسمها ضمير شأن محذوف والتقدير «إنه» والذى دفعنا إلى هذا التقدير أن «من» اسم شرط ولايصحُّ أن يعمل فيه ما قبله ومثل بيت الأعشى قول المتنبى:

وما كنتُ ممن يدخلُ العشقُ قلبَه ولكنَّ مَنْ يُبْصِرْ جفونَكِ يعشقِ

وبعد هذا العرض لما يتصل بكل من الدليل الصناعى والدليل غير الصناعى ننتقل إلى الحديث عن **شرط ثان** من شروط الحذف.

هناك بعض العناصر النحوية التى ترد محذوفة لغرض دلالى بلاغى، ولكن لابد من تقديرها حتى نستطيع التوصل إلى المعنى، فحين يقول الشاعر:

(١) حجة القراءات: ٧٣٥؛ وانظر مشكل إعراب القرآن: ٧٧٦/٢؛ والمغنى: ٧٨٩.

(٢) حسان: أحد تبابعة اليمن القدماء، ويتصل نسب ممدوح الأعشى فى هذا البيت ببنته، وهو قيس ابن معد يكرب

لَعَمْرُك مـا أهويتُ كـفّى لريبـة ولاحملتنى نحو فاحشةٍ رجلى

يجب تقدير الخبر المحذوف؛ أى «لعمرك قسمى» حتى يكتمل ركنا الجملة الاسمية. وحين تقرأ قوله تعالى: (ولئن سألْتَهم مَنْ خلقهم ليقولُنّ اللهُ)[١]؛ فلفظ الجلالة فاعل فعله محذوف يستدل عليه من السياق؛ أى «خلقنا الله». وقد أشار ابن هشام إلى حذف الفعل مع فاعله، ولكن السياق يدل على ما هو محذوف أيضاً. قال تعالى: (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربُّكم قالوا خيراً)[٢]؛ أى «أنزل ربُّنا خيرا».

ويتحدث ابن هشام - بعد ذلك - عن بعض شروط الحذف الأخرى، ولكن دون الدخول فى تفصيلات كثيرة كما فعل من قبل، ومن تلك الشروط ما يأتى:

- ألاّ يؤدى الحذف إلى اختصار المختصر؛ فلا يُحذف اسم الفعل دون معموله؛ لأنه اختصار للفعل. وتوقف ابن هشام أمام بيت الشعر:

يا أيُّهـــا المائحُ دلوى دُونكا إنى رأيتُ الناسَ يحـمـدونكا[٣]

مشيراً إلى أنه ورد عن سيبويه أن التقدير «دونك دلوى»، وهو يريد بذلك تفسير المعنى لا الإعراب، وإنما التقدير «خُذْ دلوى». ويجوز فى «دلوى» أن يكون مبتدأ و«دونك» خبره.

- لايجوز حذف الضعيف من العوامل النحوية وذلك كحروف الجر وجوازم المضارع ونواصبه، إلا فى مواضع قويت فيها الدلالة وكثر فيها استعمال تلك العوامل، ولايجوز القياس عليها.

وبعد هذا العرض لشروط الحذف، يتوقف ابن هشام أمام بعض خصائص التركيب النحوى للجملة العربية حين يرد فيها الحذف، مع بيان «القوانين» Rules

(١) الزخرف / ٨٧.

(٢) النحل/ ٣٠.

(٣) المائح: الذى ينزل إلى البئر ليملأ منها بيديه حين يقل ماؤها.

المتصلة به، ويمكن بيان حديثه خلال النقاط الآتية:

١ - هناك بعض الشواهد التى أصاب الحذف بعضَ عناصرها النحوية، وحدث خلاف بين النحاة حول تقدير ما هو محذوف، ويرى ابن هشام أنه يجب تقليل كمية التقدير على قدر المستطاع، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (وأشربوا فى قلوبهم العجلَ)(١) وتقديره «حُبَّ عبادة العجلِ»، ولكن ابن هشام يرى الاكتفاء بـ «حب العجل» حسب.

وقوله تعالى: (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعْنَ حملهن)(٢) تقديره: «واللائى لم يحضن كذلك» اكتفاءً بما هو مذكور فى الآية الكريمة.

٢ - إذا كان التركيب النحوى يستدعى عدة عناصر محذوفة فلابد أن يُقدَّرَ هذا الحذف على التدريج لادفعة واحدة؛ فقوله تعالى: (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يُغْشَى عليه من الموت)(٣) تقديره: «كدوران عينِ الذى يُغشى عليه»، وها هنا حذف لـ «دوران» و«عين» وهما مضافان، وحذفهما على التدريج. وقال امرؤ القيس:

إذا قامتَا تضوَّع المسْكُ منها   نسيمَ الصبا جاءتْ بريَّا القَرَنْفُلِ

تقديره: «تضوَّع .. تضوعاً مثلَ تضوعِ نسيم الصبا»، وهو هنا حذف لموصوف وصفة مضافة.

وقال تعالى: (واتقوا يوماً لاتَجْزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً)(٤) تقديره: «لاتجزى فيه»، وها هنا حذف لجار ومجرور مضمر عائد على ما يحتاج إلى الرابط.

وقد درس ابن هشام تلك الشواهد الثلاثة فيما كتبه عن «بيان كيفية التقدير»

(١) البقرة/٩٣.

(٢) الطلاق/٤.

(٣) الأحزاب/١٩.

(٤) البقرة/٤٨.

ومهّد لتلك الدراسة بقوله: «إذا استدعى الكلامُ تقديرَ أسماء متضايفة، أو موصوف وصفة مضافة، أو جار ومجرور مضمر عائد على ما يحتاج إلى الرابط، فلا يُقدَّر أن ذلك حذفٌ دفعة واحدة، بل على التدريج».

٣ - حدث خلاف بين العلماء حول سؤال يقول: إذا دار الأمر بين كون المحذوف مبتدأ وكونه خبراً فأيها أولى؟

قال الواسطى (أبو محمد القاسم بن القاسم ت ٦٢٦هـ): الأولَى كونُ المحذوف المبتدأ؛ لأن الخبر محطُّ الفائدة. وقال العبدى (أبو طالب أحمد بن بكرت ٤٠٦هـ): الأولى كونه الخبرَ؛ لأن التجوز أواخر الجملة أسهل.

ومن الشواهد المتصلة بهذا الحذف قوله تعالى: (قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ)[1] الذى يحتمل تقديرين هما: «شأنى صبر جميلٌ» أو «صبر جميل أمثلُ من غيره».

* * *

وقد توقف ابن هشام أمام موضوع تعليمى يدور حول «ذكر أماكن من الحذف يتمرن بها المُعْرِب»، ومن أمثلتها حذف الاسم المضاف، والموصول الاسمى، والصلة ... وسواها.

---

(١) يوسف / ١٨، ٨٣.

الفصل والوصل

حين طرح الجاحظ سؤاله المشهور: ما البلاغة؟ جمع له عدة إجابات، من بينها إجابة الفارسى الذى عرفها بأنها «معرفة الفصل من الوصل»(١)، ويعلق عبد القاهر على تلك الإجابة بقوله: «ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لايكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة».(٢) ولكن ما الذى يقصده البلاغيون بهذين المصطلحين؟ قال يحيى العلوى مجيباً عن السؤال: «أما الفصل فهو فى لسان علماء البيان عبارة عن ترك الواو العاطفة بين الجملتين ... وأما الوصل فهوعطف الجملة على الجملة، والمفرد على مثله».(٣) ويؤكد الخطيب القزوينى على صعوبة التمييز بينهما بقوله: «وتمييز أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فن منها عظيم الخطر، صعب المسلك، دقيق المأخذ ، لايعرف على وجهه ولايحيط علماً بكنهه إلا من أوتى فهم كلام العرب طبعاً سليماً، ورزق فى إدراك أسراره ذوقاً صحيحا»(٤).

نأتى، بعد ذلك إلى النظر فى التعليلات التى قدمها علماء البلاغة للفصل والوصل فى النصوص المختلفة.

يعلل الفصل فى ضوء ما يسمى «مقام المحادثة» كالذى يجئ فى قصة فرعون– عليه اللعنة – وفى ردّ موسى – عليه السلام عليه كقوله تعالى: ﴿قال فرعون ومارب العالمين. قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمَنْ حوله ألا تستمعون. قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأوّلين. قال إن رسولكم الذى أُرْسل إليكم لمجنون. قال ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون. قال لئن اتخذْتَ إلهاً غيرى لأجعلنَّك من المسجونين. قال أو لوجئتك بشيئ مبين. قال فأتِ به إن كنت من الصادقين﴾(٥). جاء ذلك كله، والله أعلم، على تقدير السؤال

(١) البيان والتبيين: ٨٧/١.
(٢) الدلائل: ٢٢٢.
(٣) الطراز: ٣٠٤/٣ – ٣١٠.
(٤) الإيضاح: ٢٤٦.
(٥) الشعراء / ٢٣ – ٣١.

والجواب كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقين، فما كان السامع منّا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال: (ومارب العالمين) وقع فى نفسه أن يقول : فما قال موسى له؟ أتى قوله: (قال رب السموات والأرض) مأتى الجواب مبتدأ مفصولاً غير معطوف. وهكذا التقدير والتفسير أبداً فى كل ما جاء فيه لفظ (قال) هذا المجئ، وقد يكون الأمر فى بعض ذلك أشد وضوحاً»(١).

ومما يتصل بمقام المحادثة قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المُكْرَمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قومٌ منكرَون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال أَلا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخفْ وبشّروه بغلام عليم﴾(٢). ونحاول التعرف على ما تدور حوله الآيات الكريمة، فإن ﴿هل أتاك﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما عرفه بالوحى، و «الضيف» للواحد والجماعة، وكانوا اثنى عشر ملكاً. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل، وقيل : ثلاثة جبريل وميكائيل وملك معهما وجعلهم ضيفاً؛ لأنهم كانوا فى صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيمُ عليه السلام، أو لأنهم كانوا فى حسبانه كذلك، و﴿قوم منكرون﴾ أنكرهم للسلام الذى هو علم الإسلام، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، أو كان هذا سؤالاً، كأنه قال: ﴿أنتم قوم منكرون﴾ فعرفونى من أنتم، ﴿فراغ إلى أهله﴾ فذهب إليهم فى خفية من ضيوفه، والهمزة فى ﴿ألا تأكلون﴾ للإنكار،؛ أنكر عليهم تَرْكَ الأكل أو حثهم عليه(٣).

نأتى إلى ما يتصل بالفصل، فقد جاءت الآيات الكريمة على ما يقع فى أنفُس المخلوقين إذا قيل لهم: دخل قوم على فلان فقالوا كذا، أن يقولوا: فما قال هو؟، ويقول : قال كذا، أخرج الكلام ذلك المخرج، لأن الناس خُوطبوا بما يتعارفونه، وسُلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه. وكذلك قوله: ﴿قال ألا

(١) الدلائل: ٢٤١؛ وانظر الطراز: ٣٠٦/٣؛ والكشاف : ١٠٩/١.

(٢) الذاريات/ ٢٤ – ٢٨.

(٣) الكشاف: ١٧/٤ و ١٨.

تأكلون﴾ وذلك أن قوله: ﴿فجاء بعجل سمين. فقر به إليهم﴾ يقتضى أن يُتْبَعَ هذا الفعل بقول، فكأنه قيل – والله أعلم– : فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم؟ فأتى قوله: ﴿قال ألا تأكلون﴾ جواباً عن ذلك. وكذا قوله : ﴿قالوا لاتخف﴾ لأن قوله: ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ يقتضى أن يكون من الملائكة كلام فى تأنيسه وتسكينه مما خامره، فكأنه قيل: فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة؟ فقيل: ﴿قالوا لاتخف﴾[1].

وقال تعالى: ﴿واضربْ لهم مثلاً أصحابَ القرية إذ جاءها المرسَلُونَ. إذ أرسلْنَا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزّزْنَا بثالثٍ فقالوا إنا إليكم مرسَلُون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلُنَا وما أنزل الرحمن من شئ إنْ أنتم إلاّ تكذبون. قالوا ربُّنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغُ المبين. قالوا إن تطيَّرْنَا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنَّكُمْ وليمسنَّكم منا عذابٌ أليمٌ. قالوا طائركم معكم أئن ذُكِّرْتم بل أنتم قومٌ مسرفون. وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون﴾[2]. قال يحيى العلوى: «فالاتّباع الثانى ﴿اتبعوا من لايسألكم﴾ وارد على جهة الإيضاح، وهكذا القول فى كل جملة أتت عقب أخرى على الإبدال منها؛ فإنها تأتى من غير واو».

والحقيقة أن للبدل دوراً مهماً فى باب الفصل والوصل. قال تعالى: (بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أئذا متْنَا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون)[3]؛ فصل (قالوا أئذا متنا) عن (بل قالوا) لقصد البدل؛ فالقول الأول هو الثانى، أُورد على جهة الشرح

---

(١) الدلائل: ٢٤٠. وقد قال ابن هشام: «ويخص البيانيون الاستئناف بما كان جواباً لسؤال مقدر نحو قوله تعالى: (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون) فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدر تقديره: فماذا قال لهم؟ ولهذا فُصلت عن الأولى فلم تعطف عليها. المغنى: ٥٠٠ وما بعدها.

(٢) يس/١٣-٢١.

(٣) الطراز: ٣٠٧/٣؛ وانظر الكشاف: ٣٤١٧/٣ وما بعدها.

والبيان لما دلّ عليه الأول. وقال تعالى: (واتقوا الذى أمدّكم بما تعملون. أمدكم بأنعام وبنين. وجناتٍ وعيون)[١]؛ فالإمداد الثانى شرح للأول وإيضاح له وتقوية لأمره[٢].

ومما خُرّج على البدل قول الشاعر:

أقولُ له ارحلْ لاتقيمنّ عندنا   وإلاّ فكن فى السرّ والجهر مسلما

فقد فصل «لاتقيمن» عن «ارحل» لقصد البدل، وهو يرتبط بالدلالة؛ لأن المقصود من كلامه هذا إظهار الكراهية لإقامته بسبب خلاف سرّه العَلَنَ، وقوله «لاتقيمن عندنا» أوفى بتأدية هذا المقصود من قوله «ارحل» لدلالة ذاك عليه بالتضمين مع التجرد عن التأكيد، ودلالة هذا عليه بالمطابقة مع التأكيد[٣]. وقد لجأ الشاعر فى هذا البيت إلى التنويع فى التعبير عن طلب الرحيل بواسطة العناصر النحوية، فبدأ بفعل الأمر «ارحل»، وهذا طريقة من طرق الأداء اللغوى، وعبرّ عن المعنى نفسه بواسطة التركيب النحوى «لاتقيمن» ومكوناته الأساسية immediate constituents «لا» الناهية والفعل المضارع ونون التوكيد، وتلك المكونات فى إطار سياق البيت أكثر تأكيداً فى طلب الرحيل؛ لأن قوله «لاتقيمن» تساوى «ارحل».

ومما جاء على الفصل دون الوصل أن يكون الكلام عبارةً عن إجابة لسؤال مقدر دون أن يكون هناك القول، ويُخرّج على القطع والاستئناف. ومن ذلك قول الشاعر:

زَعَمَ العواذل أننى فى غمرةٍ   صدقُوا، ولكنْ غمرتى لاتنجلى

لم يعطف «صدقوا» على «زغم العواذل»؛ لأنه حين أبدى الشكاية بقوله «زعم العواذل أننى فى غمرة» كان ذلك مما يحرك السامع عادة ليسأل: هل صدقوا فى ذلك أم كذبوا؟ فصار هذا السؤال مقتضى الحال، فبنى عليه تاركاً للعطف على ما

---

(١) الشعراء/ ١٣٢ - ١٣٤.

(٢) الطراز: ٣/ ٣٠٦.

(٣) المفتاح: ٢٦٦؛ وانظر المغنى: ٥٥٧.

هى عليه إيراد الجواب عقيب السؤال. ولو قال: زَعَمَ العواذل أننى فى عمرة وصدقوا، لكان يكون لم يضع فى نفسه أنه مسئول وأن كلامه كلامُ مجيبٍ.

وقال الشاعر جُندب بن عمار:

زَعَمَ العــواذل أن ناقــة جندبٍ ... بجنوب خَبْتٍ عُرِّيتْ وأُجَمَّتِ

كَذَبَ العــواذلُ لو رأيْنَ مُنَاخنَا ... بالقــادسيــة قُلْنَ : لَجَّ وذلَّتِ[1]

وقد زاد هذا أمرَ القطع والاستئناف وتقديرَ الجواب، تأكيداً بأن وضع الظاهر موضع المضمر، فقال «كذب العواذل» ولم يقل «كذبْنَ» وذلك أنه لما أعاد ذكر «العواذل» ظاهراً، كان ذلك أبين وأقوى؛ لكونه كلاماً مستأنفاً من حيث وَضَعَه وضعاً لايحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى به مأْتَى ماليس قبله كلام.

وقال أبو العلاء المعرى:

وقد غَرِضْتُ من الدنيا فهل زمنى ... مُعْطٍ حياتى لغر بعدما غَرِضَا

جربتُ دهرى وأهليه فما تركتْ ... لِىَ التجاربُ فى ودِّ امرئٍ غَرَضَا

أى : لِمَ تقول هذا وَيْحَك؟! وما الذى اقتضاك أن تطوى عن الحياة إلى هذا الحد كشحك. وقال الوليد بن يزيد:

عرفتُ المنـــزلَ الخـالــى ... عفـا مـن بعـد أحْــوال

عَفَـــاه كـــلُّ حَـــنّانٍ ... عَسُوفِ الــوبـــلِ هَطَّالِ[2]

فإنه لما قال «عفا» وكان العفاء مما لايحصل للمنزل بنفسه؛ كان مظنة أن يُسْأَل عن الفاعل؛ لذلك قدَّر كأنه قيل له: فماعفاه؟ فقال «عفاه كلُّ حنَّان».

---

(١) جندب : هو الشاعر أحد الذين شهدوا واقعة القادسية فى بلاد الفرس، وخبت: ماء لكلب، وعريت: الناقة من رحلها، وأجمت: تركت للراحة من الركوب والسير. ولج: أى لج جندب فى السير والتباعد، وذلت : الناقةُ من طول السفر.

(٢) عفا: درس وامّحى، والحنان: الرعد المصاحب للمطر، وعسوف : مطره شديد العسف، الوبل: المطر الشديد، والهطال: متتابع الوَدْق.

ومثل هذين البيتين قولُ المتنبى:

ومــا عَـفـتِ الرياحُ لَهُ مَحَلاًّ　　　عفـاه مَـنْ حَـدَا بهـمُ وسَاقَـا

لما نفى أن يكون الذى يرى به من الدروس والعفاء من الرياح، وأن تكون التى فعلت ذلك، وكان فى العادة إذا نُفى الفعل الموجود الحاصل عن واحد فقيل «لم يفعله فلان» أن يقال: «فمن فعله؟» قدَّر كأن قائلاً قال: «قد زعمت أن الرياح لم تَعْفُ له محلاًّ، فما عفاه إذن؟» فقال مجيباً له: «عفاه من حَدَا بهم وساقا».

ومن اللطيف فى الاستئناف على معنى جعل الكلام جواباً فى التقدير قول اليزيدى (أبى محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى):

ملَّكْتُـــه حبلـــى ولكنـــه　　　ألقاه من زُهْـدٍ عـلـى غاربـى
وقـال إنى فى الهـوى كـاذبٌ　　　انتـــقـم اللهُ من الكـاذبِ

استأنف قوله: «انتقم الله من الكاذب» لأنه جعل نفسه كأنه يجيب سائلاً قال له: «فما تقول فيما اتهمك به من أنك كاذب؟» فقال أقول: «انتقم الله من الكاذب».

وقد يُحْذَف الاستئناف كلُّه ويقام ما يدل عليه مقامه كقول مساور بن هند ابن قيس بن زهير بن حذيمة العبسي يهجو بنى أسد:

زَعَمْتُم أنّ إخـوتكم قـريشٌ　　　لـهـم إلـفٌ وليـس لكـم إلافُ

وذلك أن قوله: «لهم إلف» تكذيب لدعواهم أنهم من قريش، فهو إذن بمنزلة أن يقول: «كذبتم، لهم إلف، وليس لكم ذلك»، ولو قال «زعمتم أن إخوتكم قريش ولهم إلف وليس لكم إلاف» لصار بمنزلة أن يقول: «زعمتم أن إخوتكم قريش وكذبتم»، فى أنه كان يُخرج عن أن يكون موضوعاً على أنه جوابُ سائلٍ يقول له: «فماذا تقول فى زعمهم ذلك وفى دعواهم؟»[1].

* * *

(١) انظر النصوص والشواهد والأمثلة السابقة فى الدلائل: ٢٣٦ وما بعدها؛ والمفتاح: ٢٦٣؛ والمصباح: ٢٥٩؛ والطراز: ٤٧/٢.

الالتفات

يُعد الأصمعي (-٢١٤هـ) أول من أشار إلى «الالتفات»؛ فقد ذكر إسحاق الموصلي أنه قال له: «أتعرف التفات جرير؟ قلت: وماهو؟ فأنشدني:

أتنسى إذْ تودِّعُنا سُليمى ... بعُودِ بشامةٍ؟ سُقِي البَشامُ

ثم قال: أما تراه مقبلاً على شعره، إذ التفت إلى البشام فدعا له»[(١)].

وقبل الدخول في التعرف على شواهد الالتفات وأمثلته في الدرس البلاغي، نقدم مجموعة من التعريفات التي قال بها القدماء له:

– قال عبد الله بن المعتز: « باب الالتفات: وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة ومايشبه ذلك. ومن الالتفات الانصرافُ عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر»[(٢)].

– قال قدامة بن جعفر: « ومن نعوت المعاني الالتفات، وبعض الناس يسميه الاستدراك، وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، فكأنه يعترضه إمّا شك فيه أو ظنّ بأن راداً يردُّ عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً على ماقدمه؛ فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحلّ الشك فيه»[(٣)].

– قال ابن رشيق: « باب الالتفات: وهو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك، حكاه قدامة، وسبيله أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول»[(٤)].

ويتضح من تلك التعريفات أن الالتفات له مصطلحات آخران عند بعض العلماء هما «الاعتراض» و «الاستدراك»، وأنه يتصل بثلاثة من مستويات التحليل

١– العمدة: ٣٧/٢ و ٣٨. والبشامة: شجرة طيبة الريح والطعم صغيرة الورق لاثمر لها، وجمعها بَشَام.

٢– البديع: ٥٨.

٣– نقد الشعر: ١٤٦و ١٤٧.

٤– العمدة: ٣٦/٢.

اللغوى: الصرفى والنحوى والدلالى؛ لأن علماء البلاغة حين عرّفوه أشاروا إلى أنه عبارة عن الانتقال فى الكلام من صيغة Form إلى أخرى؛ أى إنه انتقال خاص بالصرف. وكذلك الانتقال من خطاب إلى غيبة ومن غيبة إلى خطاب وهذا خاص بالضمائر التى هى أحد أبواب النحو. ويرتبط هذا كله بالدلالة؛ لذلك فضّل يحيى العلوى حين عرفه أن يقال: « هو العدول من أسلوب فى الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول»(١)؛ لأنه يعمُّ سائر الالتفاتات كلها. وللالتفات علاقته بملتقى الخطاب أو اللغة؛ لأنه يكون إيقاظاً للسامع عن الغفلة وتطريباً له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر؛ فإن السامع ربما ملّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر تنشيطاً له فى الاستماع واستمالة له فى الإصغاء إلى مايقوله(٢).

وقد أشار علماء البلاغة إلى الكثير من الشواهد والأمثلة الخاصة بباب الالتفات، ويمكن تفسيرها فى ضوء الأداء اللغوى كما يأتى:

١- مما يطبع الأداء اللغوى فى باب الالتفات التحويلُ حين استعمال الضمائر من الغيبة إلى الخطاب. قال تعالى: (الحمد لله رب العالمين)(٣) ثم قال بعد ذلك: (إياك نعبد وإياك نستعين)(٤)؛ لأن ماتقدم من قوله تعالى: (الحمد لله) إنما هو للغائب، ولو أراد الخطاب لقال تعالى: «الحمد لك لأنك رب العالمين». قال الزمخشرى: « إنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يامن هذه صفاته، تخص بالعباد والاستعانة لانعبد غيرك ولانستعينه؛ ليكون الخطاب أدلّ على أن العبادة له لذلك التميز الذى لاتحق العبادة إلا به»(٥).

١- الطراز: ١٣٢/٢.

٢- الكشاف: ٦٤/١.

٣- الفاتحة /٢

٤- الفاتحة /٥.

٥- الكشاف: ٦٤/١ و ٦٥.

ومن الالتفات الخاص بالرجوع والعدول عن الغَيْبة إلى الخطاب قولُه تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً. لقد جئتم شيئاً إدّاً)؛ فقد قيل: (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر بعد قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن وإدّاً)[١] وهو خطاب للغائب، ولهذا الالتفات فائدته وهى زيادة التسجيل على قائلى هذا القول بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه منكراً عليهم وموبخاً لهم.

ومن هذا الالتفات المتصل بنقل الغيبة إلى الخطاب قول الحارث بن حلزة:

طرق الخيال لاكليلةِ مُدْلجِ ... سدكاً بأرحُلِنا ولم يتعرّجِ
أنى اهتديت لنا وكنتَ رجليةً ... والقومُ قد قطعوا متانَ السَّجْسجِ[٢]

فقد التفت فى البيت الثانى. وقال جرير:

متى كان الخيامُ بذى طلوحٍ ... سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيام

فالشاعر فى الشطر الأول يتحدث عن الخيام، ثم خاطبها فى الشطر الثانى داعياً لها بالسُّقيا، وهذا التفات. وقال القاضى الأرجانى:

وهل هى إلا مُهجةٌ يطلبونها ... فإنْ أرضتِ الأحبابَ فهى لهم فدى
إذا رمتمو قتلى وأنتم أحبّتى ... فماذا الذى أخشى إذا كنتمو عدى

والالتفات فى البيت الثانى الذى لجأ فيه الشاعر إلى الخطاب بواسطة الضمير فى «رمتم» و«كنتم». وقال جرير:

طَربَ الحمامُ بذى الأراكِ فهاجنى ... لازلتَ فى غَلَلٍ وأيكٍ ناضرِ[٣]

والالتفات فى قوله «لازلتَ» الذى يخاطب فيه الحمام.

١-مريم / ٨٨ - ٨٩.

٢- ديوان الحارث: ١٤؛ والمصباح:٣٣؛ والمفتاح: ٢٠٠. والمدلج: السائر بالليل، وسدكاً: ملازماً، ولم يتعرج: ولم يقم، ورجلية: القوية على المشى، والسجسج: المكان المستوى الصلب.

٣- انظر البديع: ٥٩؛ والعمدة: ٢/٣٨؛ وتحرير التحبير: ١٢٤؛ والمصباح: ٣٣.

٢- ومما يتصل بالأداء اللغوى فى باب الالتفات الرجوع أو العدول عن الخطاب إلى الغيبة. قال تعالى: (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفُلْك وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرحُوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلِّ مكانٍ وظنوا أنهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين)(١). فالخطاب فى (كنتم) والغيبة فى (بهم)، وقد قال ابن الأثير: «فإنه إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغَيْبة لفائدة وهى أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعى منهم الإنكار عليهم. ولو أنه قال: حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية، لذهبت تلك الفائدة التى أنتجها خطاب الغيبة»(٢).

ومن الالتفات الخاص بالعدول عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: (قل يأيها الناسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمىِّ الذى يؤمن بالله وكلماته واتَّبعوه لعلكم تهتدون)(٣)؛ فقد قال تعالى: (فآمنوا بالله ورسوله)، ولم يقل: «فآمنوا بالله وبى» بعد قوله: (إنى رسول الله إليكم)، وقد علل الزمخشرى ذلك قائلاً: «عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التى أُجْرِيت عليه، ولما فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيرى، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه»(٤).

وقال ابن النبيه:

مِن سِحْرِ عينيك الأمانَ الأمانْ ... قتلت ربَّ السيف والطيلسانْ
أسمرُ كالرمحِ له مُقْلَةٌ ... لو لم تكن كحلاء كانت سنانْ

١- يونس / ٢٢.
٢- المثل السائر: ١٤٦/١.
٣- الأعراف / ١٥٨.
٤- الكشاف: ١٢٣/٢.

فقد عدل عن الخطاب فى البيت الأول إلى الغيبة فى البيت الثانى حين قال «أسمر» ؛ أى «هو أسمر».

٣- هناك نوع من الالتفات أشار إليه البلاغيون يتصل بخطاب النفس أو الحكاية، وله عدة طرق لغوية، من بينها مايأتى:

- الالتفات بالرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس. قال تعالى: (ثم استوى إلى السماء وهى دُخَان فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهُنّ سبعَ سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزيّنّا السماءَ الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم)[١]. فإن قوله تعالى: (استوى) و(قضاهن) و (أوحى) للغيبة، و(زينا) لخطاب النفس أو الحكاية.

وقال تعالى: (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقْنَاه إلى بلدٍ ميّتٍ)[٢] ؛ فإن قوله تعالى: (والله الذى أرسل) للغيبة، و(سقناه) لخطاب النفس أو الحكاية.

- الالتفات بنقل الحكاية إلى الخطاب. قال تعالى: (ومالى لاأعبد الذى فطرنى و إليه تُرْجَعُونَ)[٣] ؛ فإن قوله تعالى: (ومالى لا أعبد) حكاية، و (إليه ترجعون) خطاب للجماعة.

- نقل الحكاية إلى الغيبة. قال تعالى (إنا أعطينا الكوثر. فصلِّ لربك وانحر[٤]). ولم يقل - سبحانه وتعالى- «فصلِّ لنا».

- نقل الخطاب إلى الحكاية. قال ربيعة بن مقروم:

تذكّرْتَ والذكرى تهيجك زينبا وأصبح باقى وَصْلها قد تقضّبَا[٥]

والشاهد فى قوله: «تهيجك زينبا» فهو خطاب، وحُوِّل إلى الغيبة فى

١- فصلت / ١١ و ١٢.

٢- فاطر / ٩.

٣- يس / ٢٢.

٤- الكوثر / ١و٢.

٥- تهيجك: تثيرك، وتقضّب: تقطع.

قوله: «وصلها» . وقال علقمة بن عَبَدَةَ:

طحابك قلب في الحسان طَروبُ ... بُعَيْـدَ الشباب عَصْرَ حان مشيبُ
يكلِّفُني ليلى وقد شطَّ وَلْيُها ... وعادتْ عوادٍ بيننا وخُطوبُ[1]

والشاهد في قوله: «بك» فهو خطاب، وحُوِّل إلى الغيبة في قوله: «يكلفني»[2] .

٤- هناك التفات خاص بالانتقال من صيغة فعلية إلى صيغة أخرى كما يأتي:

- الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر. قال تعالى: (قالوا ياهودُ ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركي آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين. إن نقولُ إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أُشْهِدُ الله واشهدوا أني بريءٌ مما تُشْرِكون)[3] . فالفعل (أشهد) مضارع و(اشهدوا) أمر،ولو أراد - سبحانه - المساواة بين الفعلين لقال: «أُشْهِدُ الله وأُشْهِدكم» . وقد تحدث الزمخشري عن بلاغة الالتفات في الآية الكريمة قائلاً: «فإن قلت: هلاَّ قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلتُ: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده. وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف مابينهما وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: اشهد علي أني لا أحبك، تهكماً واستهانة بحاله»[4] .

- الرجوع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر. قال تعالى: (قل أَمَرَ ربي بالقِسْط

١- طحابك: ذهب بك كل مذهب، وطروب: كثير الطرب وهو استخفاف القلب من فرح أو حزن، وشط وليها: بعد قربها، وعواد: العوادي جمع عادية، وعوادي الدهر نوازله.

٢- الشواهد في عدة مصادر منها المصباح: ٣١و٣٢؛ والإيضاح: ١٥٧-١٥٩ .

٣- هود / ٥٣ و ٥٤.

٤- الكشاف: ٢/٢٧٦ .

وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأ كم تعودون)[١]. فالفعل (أمر) ماضٍ و(أقيموا) أمر، ولوجاء على أسلوب واحدٍ لقال – سبحانه وتعالى – :« أمر ربى بالقسط وأمركم أن تقيموا وجوهكم».

– الرجوع عن الفعل الماضى إلى المضارع. قال تعالى:(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النُّشور)[٢]. فوسط قوله تعالى: (فتثير سحاباً) وجاء به على جهة المضارعة والاستقبال بين فعلين ماضيين وهما (أرسل) و(سقناه).

وقال تعالى: (ومن يشركْ بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفُه الطيرُ أو تَهْوى به الريحُ فى مكان سحيق)[٣]. فالفعل (خر) ماضٍ و(تخطفه) و(تهوى) مضارع.

وقال تعالى: (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجدِ الحرامِ الذى جعلناه للناس سواء العاكفُ فيه والبادِ ومن يُرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقْهُ من عذاب أليم)[٤]. فالفعل (كفروا) ماضٍ و(يصدون) مضارع ويفيد التعبير به الاستمرار فى الصدّ.

وقال تعالى:(ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرضُ مخضرةً إن الله لطيف خبير)[٥]. فالفعل (أنزل) ماضٍ و(تصبح) مضارع. قال الزمخشرى: «هلاّ قيل: فأصبحتْ، ولِمَ صُرف إلى لفظ المضارع. قلتُ: لنكتة فيه وهى إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم علىّ فلانٌ عام كذا فأروحُ وأغدو شاكراً له، ولو قلت: فرُحْتُ وغدوت لم يقع ذلك الموقع»[٦].

– الرجوع عن المضارع إلى الماضى. قال تعالى:(ويوم يُنْفَخُ فى الصُور ففزِعَ

---

١ - الأعراف / ٢٩

٢ - يس / ٢٢

٣ - الحج / ٣١

٤ - الحج ٢٥

٥ - الحج ٦٣

٦ - الكشاف ٣ / ٢٠

منَ فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء اللهُ وكل أتَوْه داخرين)[١] . فالفعل (ينفخ) مضارع و(فزع) ماضٍ، وعلل الزمخشرى ذلك بقوله:«لِمَ قيل (ففزع) دون فيفزع؟ قلت: لنكتة هى الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لامحالة واقع على أهل السموات والأرض؛ لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به»[٢] .

وقال تعالى:(ويوم نُسيِّر الجبالَ وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً)[٣] . فالفعلان (نسير) و(ترى) مضارعان و(حشرناهم) ماض.

٥- يختلف هذا النوع من الالتفات عن الأربعة السابقة التى كانت تتصل بالضمائر وصيغ الأفعال والتحويل فيها؛ إذ إنه يتصل بالمعنى. فقد يكون الشــاعر - مثلاً - يتغزل ويصف نفسه بالإفراط فى الرقة والصبابة، فيتوقع أن يظن ظان أن ذلك لضعف نفسٍ منه، فيلتفت إلى مايدرأ عنه ذلك الظنّ ويشير إلى مايدل على ذلك بلفظ مختصر يلحقه فى تضاعيف كلامه أوعقبه؛ وذلك مثل قول الشريف:

مـالُوا على شعبِ الرِّحالِ وأسندوا أيدى الطِّعـان إلى قلوبٍ تخـفق

فأشار إلى الشجاعة أثناء الوصف بالرقة بأوجز لفظ وهو قوله« أيدى الطعان»[٤] .
وقد أحسن قدامة بن جعفر حين ربط بين الالتفات والمعانى[٥]، وعده من نعوت تلك المعانى، وقد أوردنا من قبلُ تعريفه للالتفات ولابأس من إيراده مرة أخرى مع التعرف على ما أورده من شواهد للالتفات. قال «وهو أن يكون الشاعر آخذاً فى معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظنّ بأن راداً يردُّ عليه قوله، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيعود راجعاً على ماقدمه؛ فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يحل الشكّ فيه. مثال ذلك قول المُعَطَّل، أحد بنى رُهْم من هُذَيل:

١- النمل / ٨٧.
٢- الكشاف: ١٦١/٣.
٣- الكهف / ٤٧.
٤- منهاج البلغاء: ٣٥٥ و ٣٥٦.
[٥] الشعر ١٤٦-١٤٩

تَبِينُ صُلاةُ الحـــربِ منّا ومنهم   إذا مـا التـقـينا والمسـالمُ بادنُ

فقوله: «والمسالم بادن» رجوع على المعنى الذى قدمه حين بين أن علامة صلاة الحرب من غيرهم أن المسالم يكون بادناً والمحارب ضامراً. وقال ابن ميادة (الرماح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفانى المضرى):

فلا صَرْمُهُ يبدو، وفى اليأس راحةٌ   ولاوَصْلُه يصـــفـــو لنا فنكارمُهْ

وقد استدرك الشاعر ها هنا حين قال: «وفى اليأس راحة»؛ إذ إنه تخيل أن معارضاً يقول له: وماتصنع بصرمه؟ فقال: لأن اليأس راحة.

* * *

الإطناب

تحدث الرُّمّانى عن «الإطناب» موضحاً أنه يكون فى تفصيل المعنى وما يتعلق به، فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل، ثم قارن بينه وبين «التطويل» فأشار إلى أن الإطناب من مواطن الجمال حين الأداء اللغوى، فى حين أن التطويل عيب وعيٌّ؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب. وأما الإطناب فليس كذلك لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحمل فى الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب(١).

وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة التى أتى بها البلاغيون للإطناب ، وهى مأخوذة من القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم والشعر، ونقدم بعضها حتى يمكن التعرف على المقصود بالإطناب فى البلاغة العربية. ونبدأ بكتاب الله سبحانه وتعالى وبعض ماورد فيه من «صفة الجنة»(٢).

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون فيها أنهار من ماءٍ غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرٍ لذةٍ للشاربين وأنهار من عسلٍ مُصفى﴾(٣). وتقدم الآية الكريمة (مَثَل الجنة) ؛ أى صفاتها، وقد ذكر الحق – سبحانه وتعالى – أربعة أنهار:

– (فيها أنهار من ماء غير آسن) ؛ أى غير متغير، غير آجن.

– (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) لم يخرج من ضروع الإبل ولا الغنم

---

(١) الرمانى: النكت فى إعجاز القرآن ، منشور ضمن (ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) ٧٨و ٧٩ ويقول الجاحظ: «وقدْ بقيت – أبقاك الله تعالى – أبوابٌ توجب الإطالة، وتحوج إلى الإطناب ، وليس بإطالة مالم يجاوز مقدار الحاجة، ووقف عند منتهى البغية، وإنما الألفاظ على مقدار المعانى، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها». الحيوان: ٧/٦.

(٢) انظر الطراز: ٢٤٨/٢ وما بعدها.

(٣) محمد / ١٥.

برغوته، أو لايتغير كما تتغير ألبان الدنيا فلا يعود قارصاً ولاحاذراً ولامايكره من الطعوم.

– (وأنهار من خمر لذة للشاربين). قال الزمخشرى: «ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهابُ عقلٍ ولاخمار ولاصداع ولا آفة من آفات الخمر».

– (وأنهار من عسل مصفى) لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره[١].

وقال تعالى: ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً. متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولازمهريراً. ودانيةً عليهم ظلالُها وذُلّلت قطوفُها تذليلاً. ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرَا. قواريرَ من فضة قدروها تقديراً. ويُسقَون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً. عيناً فيها تسمى سلسبيلاً. ويطوف عليهم ولْدانٌ مُخلّدون إذا رأيتهم حَسِبتَهم لؤلؤاً منثوراً. وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً. عاليهَم ثيابُ سندسٍ خضرٌ وإستبرقٌ وحُلّوا أساورَ من فضة وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً﴾[٢].

ومن الإطناب الذى وقع موقعاً حسناً قوله صلى الله عليه وسلم: «لايكمُلُ إيمانُ العبد بالله حتى يكونَ فيه خمسُ خصالٍ: التوكل على الله، والتفويض إلى الله، والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والصبر على بلاء الله. إنه من أحبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنَع له فقد استكمل الإيمان». قال يحيى العلوى معلقاً على الحديث الشريف: «فانظر إلى ذكْره تلك الخصالَ الخمس التى جعلها أصلاً فى كمال الإيمان كيف أردفها بما هو كالثمرة لها، والمصداق لأمرها بقوله: إنه من أحب لله؛ لأن كل من كمُلَتْ فيه تلك الخصال فلاشك فى كون أعماله تكون لله من حب أو بغض أو إعطاء أو منع»[٣].

---

(١) انظر معانى القرآن: ٦٠/٣؛ والكشاف: ٥٣٤/٣.

(٢) الإنسان / ١٢ – ٢١.

(٣) الطراز: ٢٤٩/٢.

ويأتى الإطناب على أنواع مختلفة، نقدمها فيما يلى مع بعض الشواهد والأمثلة التى توضحها:

١ - الإيضاح بعد الإبهام:

ويؤدى هذا النوع من الإطناب إلى إظهار المعنى فى صورتين مختلفتين، مما يساعد على تمكين المعنى فى النفس؛ فإن المعنى إذا أُلْقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى مايرد بعد ذلك، فإذا أُلْقى كذلك تمكن فيها فضلَ تمكُّنٍ، وكان شعورها به أتم. ومن أمثله ذلك قوله تعالى ﴿وقضينْا إليه ذلك الأمْرَ أنّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصْبِحينَ﴾[1]. فقد تم تفسير (الأمر) بـ (أن دابر هؤلاء مقطوع)، وهو يؤدى إلى إيضاح ما فى لفظة (الأمر) من الإبهام وذلك لزيادة تقرير المعنى فى ذهن السامع بذكره مرتين، أولهما عن طريق الإجمال والإبهام، والأخرى عن طريق الإيضاح والتفصيل[2].

ومما يدخل تحت الإيضاح بعد الإبهام «التوشيع»، واشتقاقه من توشيع الشجرة وهو تفريع أصلها، وهو فى مصطلح علماء البيان: «عبارة عن أن يأتى المتكلم بمثنى يفسره بمعطوف ومعطوف عليه، وذلك من أجل أن التثنية أصلُها العطف، فيوسِّعُ الاسمَ المثنى بما يدل على معناه ويرشد إليه على جهة العطف»[3]. ومن أمثلة التوشيع قول الرسول ﴿ﷺ﴾ : «يشيب ابنُ آدمَ، ويشيب معه خصلتان: الحرصُ، وطولُ الأمل»؛ فإن التثنية فى «خصلتان» والتفسير بـ «الحرص» و«طول الأمل». وهذه بعض النماذج الشعرية للتوشيع.

قال عبد الله بن المعتز:

---

(١) الحجر/ ٦٦.

(٢) قال الزمخشرى : «وفَسَّر (ذلكَ الأمر) بقوله: (أن دابر هؤلاء مقطوع)، وفى إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له». الكشاف: ٢/ ٣٩٥.

(٣) الطراز: ٣/ ٨٩.

(٤) شبيهة خدها: هى الخمر.

سَقَتْنِىَ فى ليـلٍ شبيهٍ بشعرهـا ... شبيهــةَ خَدَّيْهــا بغيــر رقيــب

فمـازلتُ فى ليلَيْن: شعرٍ وظُلْمةٍ ... وشمسَيْنِ : من خمرٍ ووجه حبيبِ(٤)

وقال البحترى:

لما مشيْنَ بذى الآراك تشابهــتْ ... أعطــافُ قضبـــانٍ بـــه وقُـدود

فى حُلَّتَـىْ حِبَرٍورَوْضٍ فالتقـى ... وشْيَان: وَشْىُ رُبـى ووَشْــىُ بُــرود

وسفـرنَ فامتلأت عيونٌ راقهـا ... وَرْدَان: وردُ جَنًى ووردُ خـــدود(١)

وقال ابن الرومى يمدح عبد الله بن سليمان بن وهب:

إذا أبو قاسـم جــادتْ لنـــا يَدُهُ ... لم يُحْمَد الأجودان: البحـرُ والمطرُ

وإن أضــاءتْ لنـــا أنـوارُ غُرَّتِـه ... تضاءل النيِّـران: الشمس والقمـرُ

وإن نَضـا حَـدَّه أوسـلَّ عزمَتَـهُ ... تأخَّـر الماضيـان : السيـفُ والقدر

من لم يبت حَذِراً من سطو سطوته ... لم يدرِ ما المزعجان: الخوف والحَذَرُ

ينـــال بالظـن ما يعيـا العيانُ بـه ... والشاهـدان عليـه العيـن والأثَـــرُ

كــأنه وزمـــامُ الدهر فى يده ... يَدْرى عـواقبَ مـا يأتى ومـا يَذَرُ

وقال بعض المتأخرين:

يامَنْ له الأطيبـان: المجـدُ والكـرمُ ... ومـن لـه الماضيان: السيـــفُ والقلـمُ

ومَن خلائقُـه كالروض ضاحكة ... فطبعُه الأحسنـــان: الجُـــودُ والشِّيـم

أنت الجوادُ وأنت البدر لا كَـذبٌ ... يُمْحَى بك الأسودان : الظُّلْمُ والظُّلَمُ

هنَاكَ ربُّك مـــا أولاك مـن نعَـم ... لامسَّك المؤذيـــان السُّقْـمُ والألـم

وعَادَكَ الشـهـرُ أعـوامـاً مكررةً ... مـاعُظِّم الأشـرفـان: البيـتُ والحرَمُ

---

(١) الآراك: شجر، وذو الأراك : موضع بوجدبه، وأعطاف: جمع عِطْف؛ أى جانب؛ وقضبان: جمع قضيب وهى الأغصان، والحِبَر: جمع حبرة،؛ ضرب من البرود اليمنية، ووشى: نقش، وربى: جمع ربوة وهى ما ارتفع من الأرض.

قال يحيى العلوى معلقاً على تلك الأبيات: «فهذه الأبيات من أعجب ما يأتى فى أمثلة التوشيع، وهى من أرقّ الشعر وأمدحه، وأدخله فى حسن الانتظام وأفصحه»[١].

٢ - ذكر الخاص بعد العام:

وهو نوع من أنواع الإطناب يفيد الدلالة على فضل «الخاص» حتى كأنه ليس من جنس «العام» مما يؤدى إلى زيادة التنويه بشأنه. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾[٢]، ويمكن توضيح العام والخاص كما يأتى:

العـــام ←— ملائكته

الخاص ←— جبريل وميكال

وقال تعالى: ﴿حافظوا على الصلاة والصلاةِ الوسطى وقوموا لله قانتين﴾[٣]. والعام والخاص كما يأتى:

العـــام ←— الصلاة

الخاص ←— الصلاة الوسطى

٣ - ذكر العام بعد الخاص:

وهذا النوع من الإطناب عكس السابق عليه تماماً، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ربِّ اغفرْ لى ولوالدىَّ ولِمَنْ دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمناتِ ولاتزِد الظالمين إلاتباراً﴾[٤]. فإن:

(للمؤمنين والمؤمنات) ←— عام

يدخل تحته:

(١) الطراز: ٩١/٣.
(٢) البقرة/٩٨.
(٣) البقرة/٢٣٨.
(٤) نوح/٢٨. و(تبارا): أى هلاكاً.

(لى ولوالدىَّ) ←——— خاص

٤ – التكرير:

والمقصود به تكرار بعض التراكيب النحوية، وهذا التكرار له عدة دواعٍ ترتبط بالدلالة، وهى التى تؤدى إلى استعماله، ومن تلك الدواعى ما يأتى:

– تأكيد الإنذار. قال تعالى: ﴿كلاَّ سوف تعلمون. ثم كلاَّ سوف تعلمون﴾[1] .و(ثم) دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغُ من الأول وأشدُّ كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك لاتفعلْ؛ والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ماقدامكم من هول لقاء الله، وأن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم[2] .

– زيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقّى الكلام بالقبول. قال تعالى: ﴿وقال الذى آمن ياقومِ اتّبعون أهْدكم سبيل الرشاد. ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هى دار القرار﴾[3] . والتكرار فى الآية الكريمة لأسلوب النداء (ياقوم) .

– التحسُّر:

ومن ذلك قول الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة:

فيا قبر مَعْنٍ أنت أولُ حفرة ... من الأرض خُطَّتْ للسماحة موضعا
وياقبر معن كيف واريْتَ جُودَه ... وقد كان منه البرُّ والبحرُ مترعا

فقد كرر الشاعر النداء «ياقبر معن» لغرض دلالى هو إظهار التحسر والأسى على معن.

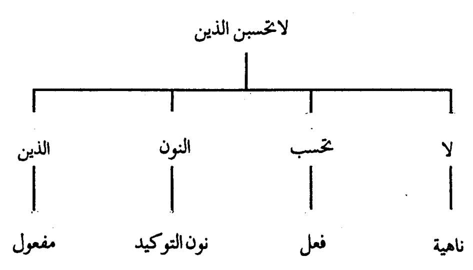
– طول الكلام:

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ثم إن ربك للذين عَمِلُوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ثم إن ربك للذين

(١) التكاثر/ ٣و٤ .
(٢) الكشاف: ٢٨١/٤ .
(٣) غافر/٣٨و٣٩ .
(٤) النحل / ١١٩ .

هاجروا من بعد ما فُتِنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.(١) والتكرار لـ (إن) واسمها المضاف إلى الضمير (إن ربك)؛ لأن الخبر (لغفور رحيم).

ويندرج تحت التكرار لطول الكلام «طولُ الفصل» قال تعالى: ﴿لاتحسبَنَّ الذين يفرحون بما أَتَوا ويحبون أن يُحْمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنَّهم بمفازةٍ من العذاب ولهم عذاب أليم﴾(٢) والتكرار للتركيب النحوى ﴿لاتحسبن الذين﴾ ومكوناته الأساسية المباشرة هى:



والتركيب نفسه مكرر، ولكن تم إحلال الضمير محلَّ الاسم الموصول: (لاتحسبنهم)؛ لأنه يعود على هذا الاسم، ويعود السبب فى هذا التكرار إلى أن «بمفازة من العذاب» متعلق بـ (لاتحسبن)، وجاء التكرار (فلا تحسبنهم) خشية أن يكون الذهن قد غفل عنه.

وقال الشاعر:

لقد علم الحيُّ اليمانون أننى ... إذا قلتُ: أمّا بعدُ، أنى خطيبها

وقال الحماسىُّ:

وإنَّ امرأً دامتْ مواثيقُ عهدِه ... على مثلِ هذا إنه لكريمُ

(١) النحل/١١٠.

(٢) آل عمران / ١٨٨.

– هناك تكرار لتعدد المتعلق كما كرر الله تعالى من قوله: ﴿فبأىِّ آلاء ربكما تكذبان﴾[١]؛ لأنه تعالى ذكر نعمةً بعد نعمة، وعقّب كلَّ نعمة بهذا القول ومعلوم أن الغرض من ذكره عَقيبَ نعمة غيرُ الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى.

فإن قيل : قد عقّب بهذا القول ماليس نعمة كما فى قوله: ﴿يُرْسَل عليكما شُواظٌ من نار ونُحاسٍ فلا تنتصران﴾[٢]؛ وقوله : ﴿هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميمٍ آن﴾[٣]. قلنا: العذاب وجهنم – وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى– فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصى، والترغيب فى الطاعات من آلائه تعالى.[٤] وسوف نقدم دراسة تفصيلية للتكرار.

٥ – الإيغال:

الإيغال فى أصل اللغة هو سرعة السير، ويستعمل فى المبالغة فى الشئ؛ يقال: فلانٌ يُوغل فى نظره وفى قراءته؛ أى يبالغ فيهما. وهو فى مصطلح علماء البيان: عبارة عن الإتيان فى مقطع البيت وعجزه أو فى الفقرة الواحدة بنعت لما قبله مفيد للتأكيد والزيادة فيه.[٥] ومن هنا فإن المعنى يتم دون اللجوء إلى الإيغال؛ ومع ذلك فهو يؤدى إلى الجمال حين الأداء اللغوى، ومن أمثلة ذلك قول الخنساء:

وإن صـخـراً لتـأتمُّ الهُداةُ به ... كـأنه علـمٌ فى رأسـه نار[٦]

فقولها: «فى رأسه نار» من الإيغال الحسن؛ لأنها لم تكتف بكونه جبلاً عالياً مشهوراً؛ بل زادت لكثرة إيغالها فى مدحه وشهرته بقولها «فى رأسه نار» لما فيه من

(١) الرحمن / عدة آيات.

(٢) الرحمن / ٣٥، و(شواظ) لهيب لادخان فيه.

(٣) الرحمن/٤٣و ٤٤.

(٤) الإيضاح: ٣٠٤و٣٠٥.

(٥) الطراز : ٣ / ١٣١.

(٦) صخر بن عمرو بن الشريد السلمى أخو الخنساء، وتأتم : تقتدى، والهداة: جمع هادٍ، وهو من يرشد غيره.

زيادة الظهور والانكشاف؛ لأن الجبل ظاهر فكيف به إذا كان فى رأسه نار، والنار ظاهرة فكيف حالها إذا كانت فى رأس جبل[١].

وقال امرؤ القيس:

كأن عيونَ الوحشِ حول خبائنا   وأَرْحُلنا الجَزْعُ لم يثـقّبِ[٢]

فإنه لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافية واحتاج إليها، جاء بزيادة حسنة فى قوله: «لم يُثقّب»؛ لأن «الجزع» إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون.

وقال امرؤ القيس أيضاً:

حملتُ ردينياً كأن سنانَه   سنالهبٍ لم يتصلْ بدُخَانِ

ويشبه الشاعر نصل رمحه وحديدته المركبة فى عامله بضوء النار غير المتصل بالدخان، وجاء بالتركيب النحوى «لم يتصل بدخان» بعد أن تم التشبيه إيغالاً.

وقال زهير:

كأن فُتات العِهْن فى كل منزلٍ   نزلْنَ به حَبُّ الفنا لم يُحَطَّمِ

فإن حب الفنا (عنب الثعلب) أحمر الظاهر أبيض الباطن؛ فهو لايشبه الصوف الأحمر (فتات العهن) إلا مالم يحطم. وقال ذو الرمة:

قف العيسَ فى إطلال ميةَ، واسأل   رسوماً كأخلاق الرداء المُسلْسَلِ
أَظنُّ الذى يجدى عليك سؤالُها   دموعاً كتبذير الجُمان المفَصَّل[٣]

ويشبه ذو الرمة فى البيت الأول الرسوم (وهى ما لصق بالأرض من آثار الديار) بأخلاق الثياب (وهى البالى من تلك الثياب)، وبعد أن تم التشبيه جاء بكلمة «المسلسل» (وهو ما كان فيه وَشْىٌ مخطط من الثياب) إيغالاً، وقد وقع وصف الرداء بالمسلسل موقعاً حسناً؛ لأن الشاعر يشبه الرسوم بالتركيب «أخلاق الرداء المسلسل» كله.

(١) الطراز: ١٣١/٣.
(٢) الجزع: الخرز فيه سواد وبياض.
(٣) تبذير: تفريق، والجمان: اللؤلؤ، والمفصل: المفصول.

٦ - الاعتراض:

ويطلق عليه بعض البلاغيين اسم «الحشو»، وهو أن يُؤْتى فى أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لامحل لها من الإعراب. ويعرفه يحيى العلوى بقوله: «أما الاعتراض فهو كلام أُدْخل فى غيره أجنبى؛ بحيث لو أُسْقط لم تختل فائدة الكلام»(١). ومن أغراض الإطناب بالاعتراض البلاغية ما يأتى:

– التنزيه:

وذلك نحو التعبير بالمفعول المطلق (سبحانه) فى قوله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه و لهم ما يشتهون﴾(٢). قال يحيى العلوى معلقاً: «فقوله (سبحانه) كلمة تنزيه أوردها اعتراضاً بين الجملتين مبالغة فى التنزيه عما نسبوه إليه من اتخاذ البنات ومبالغة فى الإنكار عليهم فى هذه المقالة، فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه اللفظة؛ أعنى قوله (سبحانه) من حسن الموقع بكونها واردة على جهة الاعتراض، وما تضمنته من الفوائد الشريفة والأسرار الخفية، من الإنكار والرد والتهكم، وإظهار التعجب من حالهم وغير ذلك من اللطائف، فسبحان الله لقد أنشأت هذه الآية للعارفين استطرافاً وعجباً، وحركتْ فى قلوبهم أشواقاً وطرباً، لما اشتملت عليه من عجائب الفصاحة التى لاينطق بها لسان، ومن غرائب البلاغة مالايطلع على فَجِّهاإنسان»(٣).

– الدعاء: ومن ذلك قول المتنبى:

وتَحْتقِرُ الدنيا احتقارَ مجرِّبٍ ... يرى كلَّ ما فيها – وحاشاك – فانيا

والدعاء فى قوله «وحاشاك». وقول عوف بن مُحلّم الشيبانى:

إن الثمانين – وبُلِّغْتَها – ... قد أحوجتْ سمعى إلى ترجمانْ

---

(١) الطراز: ١٦٧/٢.

(٢) النحل/٥٧.

(٣) الطراز: ١٧٠/٢.

وقال العباس بن الأحنف:

إن تمَّ ذا الهجرُ – ولاتم – فمالى فى العيش من أَرَب

–التنبيه:

ومن ذلك قول الشاعر:

واعلمْ – فعِلْمُ المرءِ ينفعُه – أن سوف يأتى كلُّ ما قُدِرا

وقول أبى خراش الهذلى:

تقولُ: أراه بعد عروةَ لاهياً وذلك أمر – لوعلمتِ – جليلُ
فلا تحسبى أنى تناسيتُ عهدَه ولكنَّ صبرى – يا أميم – جميلُ

وقول كثير عزة:

لو انَّ الباخلين – وأنت منهم – رأوك لعلَّمُوا الناسَ المطالاَ

فقوله: «وأنت منهم» اعتراض بين «لو» وجوابها، وفائدته التصريح بما هو المقصود من ذمه وتأكيد انصرف الذم إليه.

– التعظيم:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا أقسمُ بمواقع النجوم. وإنه لقسمٌ لوتعلمون عظيم. إنه لقرآنٌ كريمٌ﴾[1]. قال يحيى العلوى: «ففى هذه الآية اعتراضان؛ أحدهما بجملة اسمية ابتدائية، وهى قوله: (وإنه لقسم لوتعلمون عظيم) فأُتِىَ بها اعتراضاً بين القسم وجوابه، وإنما أُتى به على قصد المبالغة للمُقْسَم به واهتماماً بذكر حاله قبل جواب القسم، وفيه الإعظام له والتفخيم لشأنه، وذلك يكون أوقع فى النفوس وأدخل فى البلاغة. وثانيهما بجملة فعلية بين الصفة والموصوف تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره، كأنه قال: وإنه لقسمٌ لوعلمتم حاله أو تحققتم أمره، لعرفتم عظَمَه وفخامة شأنه؛ فهذان الاعتراضان قد اخُتصَّا بمزيد البلاغة وموقع الفخامة مبلغاَ لاينال.»[2]

(١) الواقعة / ٧٥–٧٧.
(٢) الطراز: ١٦٩/٢، و ١٧٠.

ونختم هذا العرض للاعتراض بتقديم بعض أمثلته غير ما ذكرناه، إكمالاً للفائدة:

– قال تعالى : ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرجٌ ماكنتم تكتمون فقلنا﴾[١]. فإن جملة (الله مخرج) اعتراضية، وهى مكونة من المبتدأ والخبر، وهناك بعض العلاقات السياقية فى الآية الكريمة المتصلة بالتركيب النحوى، فإن (ما) اسم موصول مفعول به لاسم الفاعل (مخرج)، وهذا الاسم الموصول يتطلب جملة تكون صلة له، وتلك الجملة مكونة من (كان) واسمها وخبرها (كنتم تكتمون)؛ لذلك كان (والله مخرج ماكنتم تكتمون) جملة اعتراضية؛ «وفائدتها التقرير فى نفوس السامعين بأن تدافع بنى إسرائيل فى قتل النفس ليس نافعاً لهم فى إخفائه وكتمانه؛ لأن الله تعالى مظهره وتعريف بأنه تعالى مطلع على كل خافية»[٢].

– قال تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهُنّ حتى يَطْهُرْنَ فإذا تطهرن فائتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحبُّ التوابين ويحب المتطهرين. نساؤكم حَرْثٌ لكم فائتوا حرثكم أنّى شئتم﴾[٣]. فإن ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ تفسير لـ ﴿فائتوهن من حيث أمركم الله﴾؛ أى إن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث، ودلالة على أن الغرض الأصلى فى الإتيان طلب النسل لامحض الشهوة،[٤] والاعتراض بقوله تعالى:﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾، وهو تركيب نحوى به عدة علاقات سياقية أدت إلى تعدد مكوناته الأساسية المباشرة، وهى (إن) واسمها (الله) وخبرها الجملة الفعلية (يحب) والمفعول به (التوابين)، وتم عطف جملة (ويحب المتطهرين) على تلك الجملة الفعلية، وهذا كله أدّى إلى تعدد تلك المكونات وهى أساس الجملة الاعتراضية.

---

(١) البقرة/٧٢.

(٢) انظر الكشاف: ٢٨٩/١؛ والطراز: ١٧/٢.

(٣) البقرة / ٢٢٢ – ٢٢٣.

(٤) المغنى: ٥١٤.

– قال تعالى: ﴿فلما وضعتْها قالت ربِّ إنى وضعتُها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتُها مريم وإنى أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾[١]. فإن ﴿والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى﴾ ليس من قول أم مريم. قال الزمخشرى مفسراً: «قال الله تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشئ الذى وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهى جاهلة بذلك لاتعلم منه شيئاً ؛ فلذلك تحسرت»[٢].

– قال تعالى: ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئْنَا لنفسد فى الأرض﴾[٣]. فإن (لقد علمتم) اعتراض بين القسم (تالله) وجوابه (ماجئنا) ، وإنما قالوا (لقد علمتم) فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم فى كرتى مجيئهم ومداخلتهم للملك، ولأنهم دخلوا وأفواه رواحلهم مكعومة لئلاتتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم[٤].

– قال تعالى: ﴿وإذا بدَّلْنَا آيةً مكانَ آية واللهُ أعلمُ بما ينزّل قالوا إنما أنت مُفْتَر﴾[٥]. والاعتراض بالجملة الاسمية (والله أعلم) وبعدها جار ومجرور متعلق بالخبر وهو (بما) ، و(ما) موصولة تحتاج لجملة الصلة وهى (يُنزِّل) ؛ لذلك الجملة الاعتراضية هى : (والله أعلم بما ينزل) ووقعت بين (إذا) وجوابها (قالوا) ، وفائدة هذا الاعتراض «تقرير لمصلحة التبديل، وتعريض بجهلهم بمعرفة ذلك، وإعلام لهم بأن الله تعالى هو المتولى لذلك؛ فهذه الجملة الابتدائية الواردة اعتراضاً قد قامت مقام ماذكرناه من هذه الأسرار»[٦].

---

(١) آل عمران/٣٦.

(٢) الكشاف: ٤٢٥/١.

(٣) يوسف / ٧٣.

(٤) الكشاف: ٣٣٤/٢.

(٥) النحل / ١٠١.

(٦) الطراز: ١٧١/٢ و ١٧.

– قال تعالى: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حُسْناً حملته أمُّه وَهْناً على وَهْنٍ وفصالُه فى عامين أن اشكر لى﴾[١]. فإن (حملته أمه) إلى (عامين) وارد على جهة الاعتراض بين الفعل ومتعلقه، وسرُّ ذلك هو أنه لما ذكر توصية الوالدين عقّبه بما يؤكد أمر الوصية، ويؤذن باستحقاقها من أجل ما تكابده الأم من المشاق فى حمل الولد وفصاله، وما فى أثناء ذلك من مشقة التربية والمزاولة لمصالحه، والحنو والتعطف عليه، وخصّ الأم بالذكر، تنبيهاً على اختصاصها بمزيد المشقة وتعاطى المباشرة له فى كل أحواله، فتوسطُ هذا الاعتراض بما ذكرناه، قد اشتمل على الإشارة إلى ما قررناه مع احتوائه على حسن الوصف وجودة السياق كما ترى[٢].

– قال امرؤ القيس:

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفانى – ولم أطلُب – قليلٌ من المالِ

وقوله «ولم أطلب» جملة اعتراضية بين الفعل «كفانى» وفاعله «قليل»؛ لأن هدف الشاعر ليس الأمر السهل، ولا أمر المعيشة، وإنما هدفه المجد المؤثل الذى صرح به فى قوله:

ولكنما أسْعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يدركُ المجدَ المؤثلَ أمثالى

– قال أبو تمام:

رددْتَ رونقَ وجهى فى صحيفته ردَّ الصقْال بهاءَ الصارمِ الخَذِمِ
وما أُبالى – وخيرُ القولِ أَصْدَقُه – حقنت لى ماءَ وجهى أم حقنتَ دمى

فإن «وخير القول أصدقه» اعتراض يحقق به الشاعر المماثلة بين صيانة الوجه وحَقْن الدم.

٧ – الاحتراس:

قبل الدخول فى تقديم تعريف البلاغيين نقدم مثالاً له يوضح المقصود به. قال طَرَفَة بن العبد:

---

(١) لقمان/١٤.

(٢) الطراز: ١٧١/٢؛ وانظر المغنى: ٥١٤.

فسقى ديارَكِ غيرَ مفسدِها ... صوبُ الربيعِ وديمةٌ تَهْمِي

افترض جدلاً أن الشاعر لم يأت فى بيته بالتركيب النحوى «غير مفسدها»، فيؤدى هذا إلى احتمال الإفساد من قبل المطر الدائم فى سكون ولايثنيه عن السيلان شئ، ولكن هذا التركيب أزال هذا الاحتمال، وهو الذى أدّى إلى وجود «الاحتراس» فى البيت الذى يُطلق عليه أيضاً اسم «التكميل» ويعرفونه بأن يُؤْتَى به فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه.

وليس للاحتراس أو التكميل موقع نحوى محدد؛ إذ إن طرفة أتى به فى وسط الكلام، وفعل الشئ نفسه كثير عزة فى قوله:

لو أنّ عزةَ خاصمتْ شَمْسَ الضُّحَى ... فى الحُسْنِ عند موفَّقٍ لقضى لها

فإن «عند موفق» احتراس وأصله المقدر «عند حاكم موفق»؛ وابن المعتز فى قوله:

صببْنَا عليهم ظالمينَ سياطَنَا ... فطارتْ به أيدٍ سراع وأرْجُلُ

والاحتراس فى قوله «ظالمين».

ويقع الاحتراس فى آخر الكلام كقوله تعالى: ﴿فسوف يأتى اللهُ بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾[1]؛ «فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتُوهِّم أن ذلتهم لضعفهم، فلما قيل: (أعزة على الكافرين) عُلِمَ أنها منهم تواضع لهم، ولذا عُدِّيَ بـ (على) لتضمينه معنى العطف، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع. ويجوز أن تكون التعدية بـ (على)؛ لأن المعنى: أنهم مع شرفهم وعُلوِّ طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم»[2]. ونقدم بعض الأمثلة للاحتراس:

– قال كعب بن سعد الغنوى:

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيَّن أهلَهُ ... مع الحلم فى عين العدو مَهِيبُ

(١) المائدة / ٥٤.

(٢) الإيضاح: ٣١٠ و ٣١١.

فإن «إذا ما الحلم زين أهله» احتراس يوضح أن حلمه ليس عن عجز أو ضعف منه.

– قال الحماسي:

وما مات منّا سيّدٌ فى فراشه ... ولاطُلَّ منا حيثُ كان قتيلُ[1]

فإنه لو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل إياهم لأوهم أن ذلك لضعفهم وقلتهم فأزال هذا الوهم بوصفهم بالانتصار من قاتلهم.

– قال المتنبى:

أشدُّ من الرياح الهُوج بطشاً ... وأسرعُ فى الندى منها هبوبا

البطش

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطن لأوهم ذلك أنه عنف كله ولالُطف عنده، فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة ولم يتجاوز فى ذلك كلّه صفة الريح التى شبهه بها[2].

٨ – التذييل:

ووزنه الصرفى «تفْعيل»؛ ويقال: «ذيَّل كلامَه»: إذا عقَّبه بكلام بعد كمال غرضه منه.

ويعرفه علماء البلاغة بأنه تعقيب الجملة بأخرى تشتمل على معناها، أو الإتيان بجملة مستقلة بعد إتمام الكلام لإفادة التوكيد وتقرير لحقيقة الكلام[3]. وقد قال عنه أبو هلال العسكرى: «وللتذييل فى الكلام موقع جليل ومكان شريف خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحاً والمقصد اتضاحاً. والتذييل هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لايفهمه ويتوكد عند من فهمه ... وينبغى أن يستعمل فى المواطن الجامعة والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطىء الفهم والبعيد الذهن والثاقب القريحة والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ

(١) طُلَّ: يقال طُلَّ الرجلُ؛ أى أهدر دمه.
(٢) الإيضاح: ٣١١.
(٣) الطراز: ٣ / ١١١.

على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن وصحّ للكليل البليد»[١].

والتذييل قسمان، يمكن العرض لهما على النحو الآتي:

أ – تذييل جارٍ مجرى المثل:

ويمكن التعرف عليه إن استقل معناه عما قبله، أو بأن يُقْصَد بالجملة الثانية حكمٌ كلى منفصل عما قبله؛ أى لايتوقف فهمه عليه. قال تعالى: ﴿وقل جاء الحقُّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾[٢]؛ فإن قوله تعالى: ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾إطناب بالتذييل يجرى مجرى المثل، وهو متصل بما قبله من النص الكريم لاشتماله على معناه توكيداً له وتقريراً، ويعد – فى الوقت نفسه – جملة مستقلة بمعناها لايتوقف فهمها على فهم ما قبلها؛ لذلك يستطيع الإنسان أن يتخذها وحدها حكمةً للتدبر والفهم. ومثله قوله تعالى: ﴿وما أبرى نفسى إن النفس لأمّارةٌ بالسوء﴾[٣] فإن قوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ إطناب بالتذييل يجرى مجرى المثل أيضاً.

ومن أمثلة هذا الإطناب بالتذييل من الشعر قول الحطيئة:

نزورُ فتىً يعْطِى على الحمد ماله ... ومَنْ يُعْطِ أثمـــانَ المكارم يُحْمَدِ

فالشطر الثانى من البيت مستقل بمعناه عن الشطر الأول؛ فهو يجرى مجرى المثل. وإن كان يحيى العلوى قد ربط بين شطرى البيت قائلاً: «فمفهوم قوله: يعطى على الحمد ماله، أنه لايعطى ماله إلا لأجل أن يُحمد، وقوله بعد ذلك: ومن يعط أثمان المكارم يحمد، محقق له ومؤكد لفائدته؛ فلأجل هذا كان ما هذا حاله تذييلاً»[٤].

---

(١) كتاب الصناعتين: ٣٧٣.
(٢) الإسراء / ٨١.
(٣) يوسف / ٥٣.
(٤) الطراز: ١٢٤/٣.

وقال النابغة الذبياني:

ولستَ بمُستبقٍ أخاً لاتلُمُّه ... على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المُهذَّب[١]

فقوله: «ولستَ بمستبق أخاً لاتلمه» دال من جَهة مفهومه على نفى الكامل من الرجال، ثم أكّد هذا المفهوم بقوله: «أى الرجال المهذب»؛ لأن معناه: أنا أستفهمك عنه فإنى لا أكاد أجده»، والإطناب فى قوله «أى الرجال المهذب» وهو جارٍ مجرى المثل. وقال الشاعر:

فإن أكُ مقتولاً فكنْ أنت قاتلى ... فبعضُ منايا القومِ أكرمُ من بعضِ

والإطناب بالتذييل فى الشطر الثانى من البيت. وقال إبراهيم بن المهدى يرثى ابنه:

تَبدَّل داراً غير دارى وجيرةً ... سواى، وأحداثُ الزمانِ تنوبُ

والإطناب فى قوله «أحداث الزمان تنوب» وهو يجرى مجرى المثل. وقال أبو نواس:

عَرَم الزمانُ على الذين عهدتهم ... بك قاطنين وللزمانِ عُرامُ[٢]

و الإطناب فى قوله «للزمان عرام».

ب – تذييل غير جارٍ مجرى المثل:

وهو الذى لايستقل بإفادة المراد، ولايُفْهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله قال تعالى: ﴿ذلك جزيْنَاهم بما كفروا وهل يُجَازى إلا الكفور﴾[٣]؛ لأن حاصل قوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ ظاهره وصريحه يدلان على أن الوجه فى استحقاقهم لما استحقوه من نزول العذاب إنما كان من أجل كفرهم؛ لأن قوله: (بما كفروا) تعليل للجزاء من أجل الكفر، فقوله بعده: (وهل يُجازى إلا الكفور) تقرير وتأكيد لما سبق من الجملة الأولى وتحقيق لها؛ لأنه دالٌ عليها ومحقق لفائدتها[٤].

(١) لاتلمه: لاتضمه إليك، وشعث: تلبد الشعر واغبراره، واستعاره الشاعر للعيوب المعنوية والخلقية.

(٢) العُرام: الشدائد.

(٣) سبأ/١٧.

(٤) الطراز: ٣ / ١١١ و ١١٢.

ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿وهل يجازى إلا الكفور﴾ إطناب بالتذييل، ولكنه ليس جارياً مجرى المثل، ومعناه: وهل نجازى ذلك الجزاء الذى ذكرناه إلا الكفور، وهذا المعنى لايفهم إلا بمعونة ما قبله من الآية الكريمة، بالإضافة إلى عدم استقلاله دلالياً.

وقال تعالى: ﴿ وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخُلْدَ أفإنْ متَّ فهم الخالدون﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ استفهام وارد على جهة الإنكار عليهم فى زعمهم الخلودَ، وأراد أنه لاتتصور أن تكون ميتاً وهم خالدون بعدك، فإذا كان لاخلود مع ما اختصصت به من المكانة والزُّلْفَة عند الله تعالى فهم أحق بالانقطاع والزوال لامحالة. وهو إطناب بالتذييل غير جارٍ مجرى المثل لعدم استقلاله عمّا قبله.

ومن أمثلة الإطناب بالتذييل غير الجارى مجرى المثل فى الشعر قول ابن نُباته السعدى:

لم يُبْقِ جودُك لى شيئاً أؤمِّلُه ... تركْتَنى أصحبُ الدنيا بلا أملِ

والشطر الثانى غير مستقل بنفسه، لأنه يتصل بالشطر الأول ويؤكده. وقال الحماسي:

فَدَعَوْا نزالِ فكنتُ أولَ نازلٍ ... وعَلامَ أركبُه إذا لم أَنْزِلِ[2]

والإطناب فى الشطر الثانى أيضاً، وكذلك فى قول المتنبى:

تُمسى الأمانىُّ صرْعَى دون مبلغِهِ ... فما يقول لشيءٍ: ليت ذلك لى[3]

* * *

(١) الأنبياء / ٣٤.

(٢) نزال: اسم فعل أمر بمعنى «انزلْ»، والمقصود به المنازلة فى الحروب، والضمير فى أركبه» يعود على الفرس.

(٣) انظر الإيضاح: ٣٠٨؛ والطراز: ٣ / ١١٣.

النكرة والمعرفة

اهتم القدماء من النحاة العرب بالعرض للقضايا اللغوية المتصلة بالنكرة والمعرفة ولعل من أشهر تلك القضايا حديثهم عما يسمى بـ«الأصل والفرع»، وقد انتهوا إلى أن:

النكرة ←——— أصل

المعرفة ←——— فرع

مقدمين بعض الأدلة اللغوية وغير اللغوية التي تؤيد هذا الذى انتهوا إليه[١].

واهتم علماء البلاغة بهما فى ضوء النظر فى الأداء اللغوى مع الربط بالجمال داخل النص نفسه؛ لأن التعبير بالنكرة قد يكون أبلغ من التعبير بالمعرفة، أو العكس، وهذا مانحاول الكشف عنه خلال التطبيق فى النصوص.

أشار البلاغيون إلى التعبير بالنكرة وكيف يؤدى إلى الجمال فى النص والوضوح فى الدلالة، ونبدأ بتنكير كلمة (حياة) فى قوله تعالى: (ولتجدنّهم أحرصَ الناس على حياة)[٢] الذى أوضحه عبد القاهر قائلاً: «إذا أنت راجعْتَ نفسك وأذكيْتَ حسّك، وجدت لهذا التنكير وأنْ قيل (على حياة) ولم يقل «علىَ الحياة» حسناً وروعة ولطفَ موقعٍ لايُقَادرُ قدْره، وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأرْيَحية والأنس إلى خلافهما. والسبب فى ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها، وذلك أنه لايحرص عليه إلا الحيُّ، فأما العادم للحياة فلايصح منه الحرصُ على الحياة ولا على غيرها. وإذا كان كذلك، صار كأنه قيل: ولتجدنهم أحرص الناس ولوعاشوا ماعاشوا على أن يزدادوا إلى حياتهم فى ماضى الوقت وراهنه حياةً فى الذى يَستَقْبل؛ فكما أنك لاتقول ههنا: أنّ يزدادوا إلى حياتهم الحياةَ، بالتعريف، وإنما تقول «حياة» إذ كان التعريف

١- انظر ماكتبناه عن«الأصلية والفرعية» فى كتابنا: قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين: ٢٥٥-٢٧٦.

٢- البقرة / ٩٦.

يصلح حيث تُراد الحياة على الإطلاق؛ كقولنا: كل أحد يحب الحياة ويكره الموت، كذلك الحكم في الآية. والذي ينبغي أن يُراعى: أن المعنى الذي يُوصَف الإنسان بالحرص عليه، إذا كان موجوداً حال وصفك له بالحرص عليه، لم يُتصوَّر أن تجعله حريصاً عليه من أصله. كيف؟ ولايُحْرص على الراهن ولا الماضي، وإنما يكون الحرص على مالم يوجد بَعْدُ»[1] .

وفي هذا النص الذي يحلل فيه عبد القاهر التعبير بالنكرة (حياة) تلتقي عدة مستويات لغوية لتحقيق البلاغة في الأداء اللغوي؛ فالحرص في الآية الكريمة ليس على أصل الحياة المعهودة، وإنما هو على الازدياد من الحياة في الأزمنة المستقبلة، فلديهم الحرص على أن يزدادوا حياة إلى حياتهم مهما عاشوا؛ لأنه من غير المقبول وصف الإنسان بالحرص على ماهو موجود معه حين تصفه، وهذه الدلالة لايمكن التوصل إليها إلا باستخدام النكرة. وقد وردت هذه النكرة منونة؛ لذلك يؤدي التنوين إلى معنى «حياة أي حياة» . وهاهنا تلتقي الأصوات (التنوين) والنحو (التنكير) والدلالة لتحقيق البلاغة؛ إذ إنه يجب عدم دراسة هذا التنكير لكلمة (حياة) خارج إطار السياق أو النص الكريم.

ووردت كلمة (حياة) نكرة أيضاً في قوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة)[2] . وقال عبد القاهر معلقاً على التنكير: «وذلك أن السبب في حسن التنكير، وأنْ لم يحسن التعريف أن ليس المعنى على الحياة نفسها، ولكن على أنه لما كان الإنسان إذا علم أنه إذا قَتَلَ قُتِلَ، ارتدع بذلك عن القتل، فسلم صاحبُه، صار حياةُ هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت، مستفادةً بالقصاص، وصار كأنه قد حَيِيَ في باقي عمره به. وإذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته، وجب التنكير وامتنع التعريف، من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها، وأن يكون القصاص قد كان سبباً في كونها في كافة الأوقات. وذلك-

---

١- الدلائل: ٢٨٨-٢٨٩.

٢- البقرة / ١٧٩.

خلاف المعنى وغير ماهو المقصود».

«ويبين ذلك أنك تقول:« لك فى هذا غنى» فتنكر إذا أردت أن تجعل ذلك من بعض مايستغنى به، فإن قلت: «لك فيه الغنى»، كان الظاهر أنك جعلتَ كلَّ غناه به».

«وأمر آخر، وهو أنه لايكون ارتداع حتى يكون هَم وإرادة، وليس بواجب أن لايكون إنسان فى الدنيا إلا وله عدو يَهُمُّ بقتله ثم يردعه خوفُ القصاص، فليس هو ممن حَيَّ بالقصاص. وإذا دخل الخصوص، فقد وجب أن يقال (حياة) ولايقال «الحياة»، كما وجب أن يقال (شفاء) ولايقال «الشفاء» فى قوله تعالى: (يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانهُ فيه شفاء للناس)[1]؛ حيث لم يكن شفاءً للجميع».

«واعلم أنه لايُتصوَّر أن يكون الذى هم بالقتل فلم يَقْتُلْ خوفَ القصاص داخلاً فى الجملة، وأن يكون القصاص أفاده حياةً كما أفاد المقصودَ قتلهُ. وذلك أن هذه الحياة إنما هى لمن كان يُقْتل لولا القصاص، وذلك محال فى صفة القاصد للقتل، فإنما يصح فى وصفه ماهو كالضدِّ لهذا، وهو أن يقال: إنه كان لايُخاف عليه القتل لولا القصاص. وإذا كان هذا كذلك، كان وجهاً ثالثاً فى وجوب التنكير»[2].

ويضع عبد القاهر أيدينا على الكثير من الحقائق المتصلة بتنكير كلمة (حياة)، منها أن الإنسان حين يعلم أنه إذا قَتَل قُتِل يرتدع -دون شك - عن القتل، مما يؤدى إلى أن يَسْلَم هو وصاحبه فتصير حياة كل واحد منها فى المستقبل مستفادةً من جهة القصاص مضمومة إلى الحياة الأصلية، ولايمكن التوصل إلى تلك الدلالة إلا عن طريق التعبير بالنكرة. ويلجأ عبد القاهر إلى تقديم بعض التراكيب النحوية التى تختلف دلالياً بسبب النكرة والمعرفة، ومن ذلك:

١- النحل / ٦٩.

٢- الدلائل: ٢٨٩-٢٩٠.

لك فى هذا غنى

لك فى هذا الغنى

والدلالة كما يأتى:

غنى ←——— إذا أردت أن تجعل ذلك من بعض مايستغنى به

الغنى ←——— إذا جعلت كلَّ غناه به

ويواصل عبد القاهر تحليل التنكير لكلمة (حياة) فيوضح أن الارتداع عن الفعل يشترط فيه وجود النية والهم والإرادة؛ بالإضافة إلى أنه ليس شرطاً وجود كل إنسان فى الدنيا وله عدو يهم بقتله، ويؤدى القصاص إلى حياته؛ لذلك فإنه ليس حياً بالقصاص. ويتصل بذلك تنكير كلمة (شفاء) فى قوله تعالى: (فيه شفاء للناس)؛ حيث لم يكن شفاءً للجميع، ومن هنا:

حياة ←——— خصوص

الحياة ←——— عموم

وقد ربط الزمخشرى تنكير (حياة) بتعريف كلمة (القصاص) قائلاً: «...ومن إصابة محزّ البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة؛ لأن المعنى: ولكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة؛ وذلك أنهم كانوا يقتلون الواحد بالجماعة ... فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة أو نوع من الحياة، وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القتل؛ لأنه إذا همّ بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين»[١].

ولعله من المفيد الإشارة إلى اهتمام الزمخشرى بالتنكير والتعبير به فى القرآن الكريم، ونقدم بعض نصوصه:

- قال تعالى: (أولئك على هدى من ربهم)[٢]. «نكر (هدى) ليفيد ضرباً

١- الكشاف: ١/ ٣٣٣.

٢- البقرة / ٥.

مبهماً لايُبْلَغ كنهه ولايُقَادر قدره، كأنه قيل: على أىّ هدى، كما تقول: لو أبصرْتَ فلاناً لأبصرْتَ رجلاً. وقال الهذلى:

فلا وأبى الطيرِ المرّبة بالضحى ... على خالدٍ لقد وقعْتَ على لحمِ[١]

– قال تعالى:(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)[٢]. «ومعنى التنكير (غشاوة) أن على أبصارهم نوعاً من الأغطية غير مايتعارفه الناس، وهو غطاء التعامى عن آيات الله»[٣].

– قال تعالى:(وجاء السَّحَرَةُ فرعونَ قالوا إنَّ لنا لأجراً إنْ كنا نحن الغالبين).[٤] «والتنكير (لأجراً) للتعظيم كقول العرب: إنّ له لإبلاً وإنّ له لغنماً؛ يقصدون الكثرة»[٥].

– قال تعالى: (اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم)[٦]. «أرضاً) أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نُصبتْ نَصْبَ الظروف المبهمة»[٧].

– قال تعالى (وأنزلنا من السماء ماءً بقَدَرٍ فأسكنّاه فى الأرض وإنا على ذَهَاب به لقادرون)[٨]. (على ذهاب به) من أوقع النكرات وأحزها للمفَصَّل، والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب وأنه لايتعايا عليه شئ إذا أراده، وهو أبلغ فى الإيعاد من قوله: (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء مَعين)[٩] فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ويخافوا نفادها إذا لم تُشْكر»[١٠].

١- الكشاف: ١/١٤٤و١٤٥. وخالد: هو خالد بن زهير الذى قُتل وقامت الطير عليه تأكله، وتنكير «لحم» للتعظيم.
٢- البقرة /٧.
٣- الكشاف: ١/ ١٦٥.
٤- الأعراف/ ١١٣.
٥- الكشاف: ١٠٢/٢
٦- يوسف / ١٢.
٧- الكشاف: ٣٠٥/٢.
٨- المؤمنون / ١٨
٩- الملك / ٣٠
١٠- الكشاف ٣/ ٢٨

– قال تعالى: (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كلَّ مُمزّقٍ إنكم لفى خلْقٍ جديد)[١]: «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً علَماً فى قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم؛ فما معنى قوله: (هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم) فنكّروه وعَرَضُوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول فى أمر مجهول؟ قلتُ (الزمخشرى): كانوا يقصدون بذلك الطَّنْزَ[٢] والسخرية، فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهى متجاهلين به وبأمره. أعَمُوا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لايقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عماهم فيه من ملكوت الله عز وجل، ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة»[٣،٤].

– قال تعالى: (إنا لما طغا الماءُ حملناكم فى الجارية. لنجعلها لكم تذكرةً وتعيَها أُذُنٌ واعية)[٥]. «لِمَ قيل: (أذن واعية) على التوحيد والتنكير؟ قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ولتوبيخ الناس بقلّة مَنْ يعى منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهى السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لايبالى بهم بالة وإن ملئوا مابين الخافقين»[٦].

وتدل تلك النصوص التى أخذناها عن الزمخشرى على اهتمامه بتتبع التعبير بالنكرة فى الكتاب العزيز، مع النظر فى الشعر العربى وبعض التراكيب النحوية التى وردت عن العرب واحتوت فى بنيتها استعمال النكرة. ولم يكن يفصل هذا التعبير عن سواه من الظواهر اللغوية؛ فقد ربط بين النكرة واستعمالها فى حالة الإفراد،

١– سبأ / ٧.
٢– الطنز: الاستهزاء.
٣– أصحاب الأيكة: قوم شعيب.
٤– الكشاف: ٣/٢٨١.
٥– الحاقة / ١١–١٢
٦– الكشاف: ٤ / ١٥١

والمعنى الذى يمكن التوصل إليه من التنكير بصفة عامة.

تعريف المسند إليه: اهتم علماء البلاغة بتتبع الجمال فى النصوص حين التعبير بالمعرفة ومن الموضوعات التى عرضوا لها «تعريف المسند إليه»؛ إذ إنهم درسوا شواهده وأمثلته وكشفوا عن الجمال فيها مع ربطها بالدلالة. ومن المعلوم أن الأصل فى التركيب النحوى للجملة العربية كونُ المبتدأ معرفةً، ولكن يستطيع الشاعر أو الأديب أو الفنان تلوين التعبير حين استعمال نوع معين من أنواع المعارف دون غيره؛ فهناك فرق بين أن يكون المبتدأ ضميراً أو اسماً موصولاً... ونحاول التعرف على الطرق المختلفة التى تُتّبع لتعريف المسند إليه مع ربطها بالمعنى، وهى على النحو الآتى:

١ -يُعرَّف المسند إليه بالإضمار؛ أى أن يكون المبتدأ ضميراً، ويتصل التعبير بالضمير فى بعض جوانبه بـ«اللغة المنطوقة» Spoken Language ، وذلك كما فى «مقام التكلم» وعلامته استعمال الضمير «أنا». قال المصطفى صلى الله عليه وسلم:«أنا النبىُّ لاكذب، أنا ابن عبد المطلب»، وقال بشار:

أنا المُرَعَّثُ لا أُخْفَى على أحـدٍ ... ذَرَّتْ بى الشمسُ للقاضى وللدانى[1]

ويتصل بتلك اللغة «مقام الخطاب» الذى يكون أحياناً على شكل حوار كالذى حدث بين ابن الدُّمَيْنَة (عبد الله بن عبد الله أو عبيد الله - ١٣٠هـ) وأُمامة الحماسية فقد قال:

وأنـتِ الـتى كلَّفْتنى دَلَجَ السُّرى ... وجـُـونُ القـطا بالجـلْهتَين جـُثُومُ

وأنتِ التـى قَطـَّعْـتِ قلبـى حَزَازةً ... وقرقْتِ قـرْحَ القـلـبِ وهـو كـليمُ

وأنتِ التى أحفظْتِ قومى فكلُّهم ... بعيدُ الرضى دانى الصدود كظيم[2]

---

١ - الرَّعَث: القُرْط، والمرعث: لقب أطلق على بشار لرعث كان له فى صغره، وذرت: طلعت.

٢ - الجون: الأسود، والجهلتان: ناحيتا الوادى وطرفان، وجثوم: يقال «جثم الطائر» إذا ألصق بالأرض صدره، والحزازة: شدة الوجد حتى إنه يقطع القلب، وقرّق: قشر الجرح الذى لم يندمل، وكليم: جريح، وأحفظ: أغضب، وكظيم: ممتلىء جوفه بالغضب.

وردت عليه أمامة على الوزن والروى نفسه:

وأنتَ الذىَ أخلفْتَنى ماوعدتنى ... وأشمتَّ بى مَنْ كان فيكَ يلومُ
وأبرزْتَنى للناس ثم تركْتَنى ... لهم غرضاً أُرْمى وأنت سليمُ
فلو أنّ قولاً يَكْلِمُ الجسمَ قد بدا ... بجسمى من قول الْوشاة كُلُومُ

ونستمر فى العرض لما يتصل بالضمير فنجد التعبير بواسطة «ضمير الغائب»، ولكن يشترط فيه تقدمُ مايدلُّ عليه. قال تعالى:(واصبر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)[1] ؛ فالضمير (هو) يعود على لفظ الجلالة (الله). وقال أبو تمام:

بيمنِ أبى إسحاق طالتْ يدُ العُلا ... وقامتْ قناةُ الدين واشتدَّ كاهلُه
هو البحْرُ من أىّ النواحى أتيته ... فلجتُه المعروفُ والبحرُ ساحلُه

فالضمير «هو» يعود على «أبى إسحاق». وقال أبو البرج القاسم بن جبل الشاعر الإسلامى:

مِن البيضِ الوجوهِ بنى سنانٍ ... لو انَّك تستضىءُ بهم أضاءوا
هُمُ حلّوا من الشَّرفِ المُعَلَّى ... ومن حَسَبِ العشيرةِ حيث شاءوا

فالضمير«هم» يعود على «بنى سنان». والضمير فى الآية الكريمة وشعر أبى تمام وأبى البرج يعود على ماهو مذكور لفظاً؛ أى هناك «دليل لفظى».

وربما يعود الضمير على ماهو مأخوذ من المعنى نفسه. قال تعالى:(وإنْ قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم)[2] ؛ فالضمير (هو) يعود على «الرجوع» المستفاد من قوله تعالى: (ارجعو فارجعوا)، وقال تعالى: (اعدلوا هو أقربُ للتقوى)[3] ؛ فالضمير (هو) يعود على «العدل» المستفاد من قوله تعالى: (اعدلوا).

وهناك بعض الملاحظات الأسلوبية الخاصة بالأداء اللغوى فى باب الضمير،

١- يونس / ١٠٩.
٢- النور / ٢٨.
٣- المائدة / ٨.

منها استعمال ضمير الخطاب على الرغم من أن المخاطب نَفْسَه غيرُ مشاهَد وذلك نحو الخطاب فى قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)[١]، ولكن الذى أباح ذلك استحضار عظمة الله سبحان وتعالى - علوّا كبيراً - فى القلب كأنه نصب العين.

ومن تلك الملاحظات أيضاً خطاب غير المعين، والذى يبيح هذا الخطاب أن ماهو مستعمل يجرى مجرى المثل، ومن ذلك قول المتنبى:

إذا أنت أكـرمْتَ الكريم ملكْتَه   وإن أنت أكـرمْتَ اللئـيمَ تمرَّدَا

وهو فى القرآن الكريم كثير؛ كقوله تعالى: (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم)[٢] أُخرج فى صورة الخطاب لما أُريد العموم؛ للقصد إلى تفظيع حالهم، وأنها تناهت فى الظهور حتى امتنع خفاؤها؛ فلا تختص بها رؤية راءٍ مختص به، بل كل من يتأتّى منه رؤية داخل فى هذا الخطاب[٣].

٢- تعريف المسند إليه بالعَلَمِيَّة لتحقيق بعض الأغراض المتصلة بالأداء اللغوى، وقبل الدخول فى بيان تلك الأغراض نشير إلى أن العَلَم - عند النحاة - هو الاسم الخاص الذى لا أخصَّ منه، ويُركّب على المسمى لتخليصه من الجنس بالاسمية؛ فيفرق بينه وبين مسميات كثيرة بذلك الاسم[٤].

ويحقق تعريف المسند إليه الكثير من الأغراض الدلالية والبلاغية، من بينها مايأتى:

- إحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداءً باسم مختص حتى يمتاز عماعداه، كقوله تعالى: (قل هو الله أحد)[٥]، وقوله تعالى: (وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل)[٦]. وقال المتنخل الهذلى:

أبو مـالك قـاصـر فـقـرَهُ   على نفـسـه ومـشـيع غناه

١- الفاتحة / ٥.

٢- السجدة / ١٢.

٣- انظر الإيضاح: ١١٤.

٤- شرح المفصل: ٢٧/١.

٥- الإخلاص / ١.

٦- البقرة / ١٢٧.

وقال الحارث بن هشام:

اللهُ يعلم ماتركتُ قتالَهم حتى علَوْا فرسى بأشقرَ مُزْبِدِ

– هناك أمر مألوف لدى البشر على اختلاف أجناسهم، وهو أن الإنسان يجد اللذة والسعادة حين يذكر اسم من يحبه. فى حين أنه يتجنب ذكر اسم من يكرهه أو يمقته؛ لذلك من العبارات المتداولة على ألسنة العوام قولهم «المَخْفِى» أو «اللى مايتسمَّى». وقد لفت إلى هذا المتنبى فى قوله:

أساميـاً لم تزدْه معـرفـةً وإنما لـذةً ذكـرناها

لذلك من أغراض تعريف المسند إليه بالعلمية تحقيق الاستلذاذ بذكره، على نحو مايفعل الشعراء حين يذكرون أسماء من يحبون، ومن أمثلة ذلك قول مجنون ليلى:

باللهِ ياظبيـاتِ القـاعِ قُلْنَ لنا ليلاىَ منكنَّ أم ليلى من البشرِ[1]

– تؤدى الكناية دوراً مهماً فى توصيل الكثير من المعانى؛ وذلك حين استعمالها بدلاً من الاسم، فقولنا «أبو الفضل» يحمل معنى الفضل والكرم والجود، وقولنا «أخو الحرب» يحمل معنى الشجاعة والإقدام والقدرة على مواجهة الأعداء؛ لذلك قال القُلاخ بن حزن بن جناب:

فإنْ تكُ فاتتك السماءُ فإننى بأرفعِ ماحولى من الأرض أطولا

أخا الحرب لباساً إليها جِلالَها وليس بولاَّجِ الخوالفِ أعْقَلاَ

وقد أشارعلماء البلاغة إلى أن تعريف المسند إليه بالعلمية يكون لتحقيق الكناية، وورد ذلك فى غير باب المسند إليه، قال تعالى: (تبَّتْ يدا أبى لهب)[2]، والكُنْية هاهنا معناها «جهنمى». وقد توقف الزمخشرى[3] أمام الآية الكريمة لبيان السبب فى التعبير بالكنية التى هى فى أصل وضعها اللغوى تدل على التكرمة،

١- كتاب الصناعتين: ٤١٢.

٢- المسد / ١.

٣- الكشاف: ٢٩٦/٤.

وانتهى إلى مايأتى:

أ- أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم؛ فقد يكون الرجل معروفاً بأحدهما، ولذلك تجرى الكنية على الاسم، أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أُريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمةً له ذُكِر الأشهر من علَميْه، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: (تبت يدا أبو لهب)[1] كما قيل: على بن أبو طالب، ومعاوية بن أبو سفيان؛ لئلا يُغيّر منه شيءُ فيشكل على السامع.

ب- أنه كان اسمه عبد العُزّى، فعدل عنه إلى كنيته.

جـ- أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب، وافقت حاله كنيته؛ فكان جديراً بأن يُذْكَرَ بها.

ولقد أضاف علماء البلاغة أغراضاً أخرى لتعريف المسند إليه بالعلمية، وهى مأخوذة من دلالة العلم نفسه وذلك بالنظر فى جذره المعجمى، ومن ذلك الدلالة على التفاؤل التى تؤخذ من أعلامٍ كسعد وسعيد، والتشاؤم والتطير ويؤخذ من أعلام كالسفاح والجراح، والتعظيم ويؤخذ من الأعلام التى تدل على المدح مثل صلاح الدين وسيف الدولة، والإهانة وتؤخذ من الأعلام الدالة على الذم نحو: صفوان وصخر.

٣- استعمال المسند إليه معرّفاً بالموصولية، ويعود السبب فى هذا الاستعمال إلى مايأتى:

- يؤدى التعبير بالاسم الموصول دوراً مهمًا فى مجال المحادثة Conversation إذ إن عدم علْم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة يوجب التعبير بهذا الاسم، ومن أمثلتهم: الذى كان معنا أمس رجل عالم، ومَنْ دخل هذا الحصنَ استحقّ أكبر ألقاب الشرف .... وهكذا. ولعله من المفيد الإشارة إلى مراعاة علم المخاطب أوجهله تشكل أساساً مهمّاً من أسس «تحليل الخطاب» Discourse Analysis خلال اللغة المنطوقة التى يعد فيها الحوارُ الجانب الرئيسى؛ بل هو أهم

١- انظر كتاب: مختصر فى شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه: ١٨٢.

جوانبها على الإطلاق.

– للتعبير بالاسم الموصول دوره فى مقام التفخيم؛ إذ إن استخدامه يؤدى إلى أن تذهب النفس فى تقديره كلّ مذهب، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: (فغَشِيهم من اليمّ ماغشيهم)[١]؛ فإن (ما) مع جملة الصلة (غشيهم) من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها بالمعانى الكثيرة؛ أى غشيهم ما لايعلم كنهه إلا الله سبحانه وتعالى[٢]. وقال أبونواس:

مَضَى بها ما مضى مِنْ عقلِ شارِبِها   وفى الزجاجة باقٍ يطلبُ الباقى

وهناك شواهد وأمثلة أخرى للدور الذى يؤديه التعبير بالاسم الموصول فى مجال التفخيم، ولكنها لاتندرج تحت باب المسند إليه، ومن ذلك قوله تعالى: (فغشّاها ماغَشى)[٣]، وقال دريد بن الصمة فى رثاء أخيه عبد الله:

صبَا ماصبَا حتى علا الشيبُ رأسَه   فلما علاه قال للباطلِ: ابْعَد

وقال أبو نواس:

ولقد نهزتُ مع الغُواة بدلوهم   وأسمتُ سَرْحَ اللحظ حيث أساموا
وبلغتُ مابلغ امرؤ بشبابه   فإذا عُصارة كلّ ذاك أثامُ[٤]

– يفيد التعبير بالاسم الموصول فى تنبيه المخاطب على الخطأ أو الغلط، ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب:

إنّ الذين تَرَوْنَهم إخوانَكم   يشفى غليلَ صدورِهم أنْ تُصْرَعُوا[٥]

فالشاعر يخاطب هؤلاء القوم موضحاً لهم الخطأ الذى وقعوا فيه حين ظنوا

١- طه / ٧٨.

٢- الكشاف: ٥٤٧/٢.

٣- النجم / ٥٤.

٤- نهز بالدلو فى البئر: ضرب بها فى الماء لتمتلىء، والمقصود: شاركتُ الغواة فى غيهم، وأسام لحظه: أرسله وأطلقه، وسرح اللحظ: انطلاقه.

٥- ترونهم: تظنونهم.

أولئك إخوانهم، على الرغم من أنهم يتمنون لهم الدمار والهلاك؛ لذلك فهم مخطئون حين ظنوهم إخوانهم.

– يؤدى التعبير بالاسم الموصول إلى زيادة التقرير للغرض الذى سيق لأجله الكلام. قال تعالى (وراودته التى هو فى بيتها)[١] فالغرض الذى سيق له الكلام نزاهة يوسف – عليه السلام – وبعده عن مظنة الريبة، وهذا التعبير أوضح فى الدلالة على هذا الغرض مما لوقيل «امرأة العزيز» أو «زليخا» أو نحو ذلك؛ لأنه إذا امتنع عن الفحشاء ولم ينخدع مع كونه غلامها وفى بيتها مع كمال قدرتها عليه، كان ذلك غاية النزاهة ونهاية الطهارة[٢].

– يفيد تعريف المسند إليه بالموصولية فى الإيماء أو الإشارة إلى الجانب الدلالى الذى بُنِىَ عليه الخبر من مدح أو ذم، أوعقاب أو ثواب، أو غير ذلك؛ بحيث إن الفَطِن يمكنه التوصل إلى خاتمة الكلام فى ضوء تدبر فاتحته وتفهمها، ويدرك ماتومىء إليه المقاصد، ومن ذلك قوله تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)[٣]؛ فإن الاستكبار عن عبادة العلى القدير إشارة إلى أن الخبر المترتب عليه من جنس الإذلال والعقوبة، وهو دخول جهنم صاغرين.

ويرى السكاكى [٤]أن الإيماء إلى وجه بناء الخبر تتفرع عنه اعتبارات لطيفة؛ فربما جُعِلَ ذريعة إلى التعريض بالتعظيم كقولك: «الذى يرافقك يستحقُّ الإجلال والرفع، والذى يفارقك يستحق الإذلال والصفع»، وربما جُعِلَ ذريعة إلى تعظيم شأن الخبر كقول الفرزدق:

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ

فهو مع كونه يشير إلى أن الخبر المبنى عليه من جنس الرفعة والبناء، يعّرض

١– يوسف / ٢٣.

٢– أحمد المراغى: علوم البلاغة ١١٧.

٣– غافر / ٦٠.

٤– مفتاح العلوم: ١٨٢.

بتعظيم بناء بيته؛ لأنه فعل من رفع السماء. وربما جُعِلَ ذريعة إلى تحقيق الخبر كقول عبدة بن الطبيب:

إن التى ضربت بيتاً مهاجرةً ... بكوفة الجند غالتْ وُدَّهَا غُولُ[1]

ففى ضَرْبِها البيتَ فى مكان المهاجرة تحقيق للحكم بزوال وِدِّها.

٤- يكون المسند إليه اسم إشارة لذلك يكون معرفة؛ وهناك عدة أغراض يمكن التوصل إليها حين التعبير باسم الإشارة، ولكن قبل الدخول فى بيانها نقول إن التعبير بالإشارة - بصفة عامة - طريقة من طرق الأداء اللغوى، لها وظيفة محددة هى توصيل المعنى، وتندرج تحت مايسمى بـ«اللغة الجانبية» Para Lan-guage، وقد قال القدماء «رُبَّ إشارةٍ أبلغُ من عبارة»، وقال الشاعر:

أشارتْ بطَرْفِ العينِ خيفةَ أهلها ... إشارةَ محزونٍ ولم تتكلمِ

فأيقنتُ أن الطرفَ قد قال مرحباً ... وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيمِ

نأتى، بعد ذلك، إلى التعبير باسم الإشارة الذى هو أحد أبواب المعارف فى النحو العربى فنجد أن هذا التعبير يصحُّ متى أمكن إحضار المسند إليه فى ذهن السامع بوساطة الإشارة إليه حساً كقول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيبانى وزير الخليفة العباسى المعتمد:

هذا أبو الصقر فرداً فى محاسنه ... من نسلِ شيبانَ بين الضَّالِ والسلمِ[2]

وقول الحطيئة:

أولئك قوم إنْ بَنَوْا أحسنوا البناَ ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدُّوا

وقال الشاعر:

وإذا تأمَّلَ شخصَ ضيفٍ مقبلٍ ... متسربلٍ سربالَ ليلٍ أغبرِ

١- غالت ودّها: أهلكته.

٢- الضال: واحدته ضالة، والسلم: واحدته سلمة، وهما من أشجار البادية، ويقصد ابن الرومى بذكرهما أنهم لم يفسدوا بالحضارة، وأنهم باقون على البداوة.

أومـــا إلى الكَوْمَاء: هذا طارقٌ   نحـرتْنيَ الأعـداءُ إنْ لـم تُنْحَرى [١]

وقال المتلمس (جرير بن عبد المسيح) خال طرفة بن العبد:

ولايقـيم عـلى ضَيْـمٍ يـُرادُ بـه   إلا الأذلأن عـيْرُ الحـيِّ والـوتـدُ
هذا على الخَسْفِ مـربوط برمَّته   وذا يُشَجُّ فـــلا يرْثى له أحَدُ [٢]

ومن هنا فإن الشواهد السابقة أدّى التعبير فيها بوساطة اسم الإشارة إلى إحضار المسند إليه فى ذهن السامع حسًا.

ومن أغراض استعمال المسند إليه اسمَ إشارة التعريضُ بغباوة السامع؛ إذ إن الأشياء لاتتميز عنده إلا بالإشارة الحسية، ومن ذلك قول الفرزدق يهجو جريراً ويفخر بآبائه:

أولئك آبائى فـجـئنى بمثلهم   إذا جـمـعـتْنَا ياجـريرُ المجـامع

وهناك بعض العناصر النحوية التى تدخل على اسم الإشارة «ذا»، وهى تفيد فى تحديد القرب أو البعد أو التوسط بالنسبة للمشار إليه؛ فقولنا «هذا» فيه الدلالة على القرب، و«ذلك» فيه الدلالة على البعد، والذى أفاد ذلك اللام فهى حرف دال على البُعْد حين الإعـراب؛ لذلك إذا لم ندخل اللام وقلنا «ذاك» دلَّ اسم الإشارة على التوسط. وهناك الكثير من الشواهد التى حلّلها علماء البلاغة فى ضوء ماورد فيهـا من أسـماء الإشارة، وربطوا هذا التحليل بالمعنى الذى يمكن التوصل إليه؛ لذلك قالوا ربما جُعِلَ البعدُ ذريعةً إلى التعظيم، كقوله تعالى: (ذلك الكتاب لاريب فيه)[٣] ذهاباً إلى بُعْد درجـتــه، ونحـوه: (وتلك الجنة التى أورثتموها)[٤]، ونحوه: (فذلكنَّ الذى لمتُنَّنى فيه)[٥] ولم تقل امرأة العزيز «فهذا»

١- متسربل: لابس السربال وهو القميص، وأوما: أصلها أومأ؛ أى أشار، والكوماء: الناقة الضخمة، والطارق: النازل ليلاً.

٢- الضيم: القهر والظلم، والعير: الحمار، والخف: الذل والهوان، ويشج: يكسر.

٣- البقرة/ ٢

٤- الزخرف / ٧٢.

٥- يوسف / ٣٢.

وهوحاضر (أى يوسف عليه السلام) رفعًا لمنزلته فى الحسن، وتمهيداً للعذر فى الافتتان به.

وإذا كان البعد فى الآيات الثلاث دالاً على التعظيم وبعد الدرجة ورفع المنزلة، فإنه يأتى فى بعض الآيات الكريمة دالاً على التحقير، كقوله تعالى: (فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم)[١]، ومن أمثلتهم: «ذلك اللعينُ فعل كذا».

ويأتى اسم الإشارة الدال على القرب للتعظيم كقوله تعالى: (إن هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم)[٢]، وربما جُعل القرب ذريعة إلى التحقير، كقوله تعالى: (وإذا رآك الذين كفروا إنْ يتخذونك إلا هُزُواً أهذا الذى يذكر آلهتكم)[٣]، وقوله تعالى: (وإذا رأوْكَ إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولاً)[٤]، وقوله تعالى: (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولَعب)[٥].

ويؤدى اسم الإشارة دوراً مهماً فى مجال التنبيه، إذا ذُكرَ قبل المسند إليه مذكور، وعُقّبَ بأوصاف، على أن مايرد بعد اسم الإشارة فالمذكور جدير باكتسابه من أجل تلك الأوصاف، ومن شواهد ذلك أنك تقرأ فى أوائل (سورة البقرة): (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أُنْزِلَ إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)[٦] ويأتى بعد تلك الآيات الكريمة مباشرة قوله تعالى: (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)[٧] وفى اسم الإشارة (أولئك) إيذان بأن مايرد عقيبه فالمذكورن قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التى عُدّدت لهم[٨].

١- الماعون / ٢.
٢- الإسراء / ٩.
٣- الأنبياء / ٣٦.
٤- الفرقان / ٤١.
٥- العنكبوت / ٦٤.
٦- البقرة / ٢-٤.
٧- البقرة / ٥.
٨- الكشاف: ١٤١/١.

ومن ذلك أيضاً قول حاتم الطائي:

وللـــه صعـلوك يُسـاورُ هـمـَّه ... ويمضى على الأحداث والدَّهر مُقْدما
فتى طَلَبَاتٍ لايـرى الخَمْصَ تَرْحَةً ... ولاشَبْعَـةً إنْ نالــها عَـــدَّ مَغْنَــمَا
إذا مارأى يوماً مـكارمَ أعـرضـتْ ... تَـيـمَّمَ كُبـراهـنَّ ثُمـَّتَ صـمـما
تـرى رمحـه ونَبْـلَـه ومـجـنَّـه ... وذا شطـَب عَضْـبَ الضـريبـة مِخْذَما
وأحـناءَ سَـرْجٍ قاتـرٍ ولجـامَـه ... عتـادَ أخـى هيـجا وطـرفاً مُسَـوَّمَا
فــذلك إنْ يَهْلِكْ فَحُسْنَى ثناؤه ... وإن عاش لم يقعد ضعيفاً مُذَمَّماً[١]

فعدّد له كما ترى خصالاً فاضلة، من المضاء على الأحداث مقدماً، والصبر على ألم الجوع، والأنفة من أن يَعُدَّ الشبعة مغنماً، وتيمم كبرى المكرمات، والتأهب للحرب بأدواتها، ثم عقب بذلك بقوله«فذلك إن يهلك..» فأفاد أنه جدير باتصافه بما ذكر بعده.

٥- تعريف المسند إليه باللام (أل التعريف): ويتصل هذا النوع من أنواع التعريف بالوظائف الدلالية التى تؤديها «أل» فى اللغة العربية؛ لأن علماء البلاغة عقدوا صلةً بين تعريف المسند إليه باللام وتلك الوظائف، ويمكن إيضاح ذلك خلال مايأتى:

– الإشارة إلى معهود بينك وبين مخاطبك، كما إذا قال لك قائل: جاءنى رجل من بلدة كذا؛ فتقول: مافعل الرجلُ؟ ومن شواهد ذلك قوله تعالى: (وليس الذكر كالأنثى)[٢]؛ «فالذكر»وإن لم يتقدم صريحاً، قد استفيد من (ما) فى قولها: (ربِّ إنى نذرتُ لك مافى بطنى محرَّرا)[٣]؛ لأن معنى (محررا): معتقاً لخدمة بيت

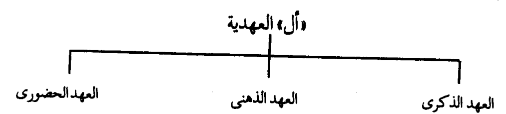
١– لله صعلوك: تركيب يفيد التعظيم والتعجب، ويساور: يغالب ويواثب، والطلبات: مايطلبه الإنسان، والخمص: الجوع، والترحة: الفقر والشقاء، وتيمم: قصد، والمجنّ: الترس، والشطب: مافى متن السيف من الخطوط والطرائق، والضريبة: حد السيف، والمخذم: القاطع، وسرج قاتر: جيد، والطرف المسوَّم: الجواد الأصيل المعلم لشهرته.

٢– آل عمران / ٣٦.

٣– آل عمران / ٣٦

المقدس، لايَدَ لي عليه، ولا أستخدمه ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعاً عندهم، ولايكون إلا للذكور.

وإذا كانت «أل» عهدية فهي على ثلاثة أقسام، أولها: أن يكون مصحوبها معهوداً ذكرياً نحو: (كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً. فعصى فرعون الرسول)(١)؛ ونحو: (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّى)(٢)، وثانيها: أن يكون مصحوبها معهوداً ذهنياً نحو (إذ يبايعونك تحت الشجرة)(٣)؛ ونحو: (إذهما في الغار)(٤)؛ أي الشجرة والغار المعهودين لك،وثالثا: أن يكون مصحوبها معهوداً حضورياً نحو: (اليوم أكملتُ لكم دينكم)(٥). ويمكن تلخيص ذلك كما يأتي:



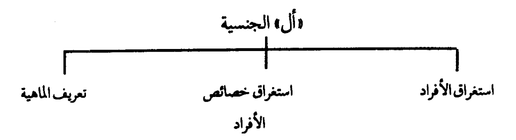
- تأتي «أل» للإشارة إلى الحقيقة دون الاهتمام بالنظر إلى العموم أو الخصوص، ويطلق عليها «أل» الجنسية، ومن أمثلتها قولك: الرجلُ خير من المرأة، وأهلك الناسَ الدينارُ والدرهمُ، وقال أبو العلاء المعرى:

والخِلُّ كالماءِ يبدى لى ضمائره مع الصفاءِ، ويخفيها مع الكَدَرِ

وعلى ذلك من غير باب المسند إليه قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حي)(٦)؛ أي جعلنا مبدأ كل شيء حي هذ الجنسَ الذى هو الماء. ونشير إلى أن «أل» إذا كانت جنسية فهي على ثلاثة أقسام، أولها: استغراق الأفراد وهي التي

١- المزمل / ١٥-١٦
٢- النور / ٣٥.
٣- الفتح / ١٨.
٤- التوبة / ٩.
٥- المائدة / ٣.
٦- الأنبياء / ٣٠

تصلح كلمة «كل» لأن تحل محلها نحو: (وخُلِقَ الإنسان ضعيفا)[١]؛ أى «كل إنسان»، وثانيا: استغراق خصائص الأفراد وهى التى تخلفها «كل» مجازاً نحو: «على الرجلُ علماً» أى الكامل فى هذه الصفة، ومنه قوله تعالى: (ذلك الكتاب)[٢]، وثالثها: تعريف الماهية وهى التى لاتصلح «كل» أن تخلفها لاحقيقة أو مجازاً كقوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شىء حى)[٣]. ويمكن تلخيص ذلك كما يأتى:



٦- تعريف المسند إليه بالإضافة، ويحقق هذا التعريف الكثير من المزايا فى الأداء اللغوى، من بينها مايأتى:

- أن تكون الإضافة أخصر طريق لإحضار المسند إليه فى ذهن السامع كقول جعفر بن علبة الحارثى أحد مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية:

هواى مع الرَّكْبِ اليمانين مُصْعِد جَنيب، وجُثمانى بمكةَ موثقُ

- أن تغنى إضافة المسند إليه عن التفصيل المتعذر أو المرجوح لجهة، كقول مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة الشيبانى:

بنو مَطَرٍ يومَ اللقاءِ كأنهم أسودٌ لها فى غيل خَفّان أشبلُ

وقول الحارث بن وعلة الجرمى الجاهلى:

قومى هُمُ قتلوا أُمَيْمَ أخى فإذا رميتُ يصيبنى سهمى[٤]

١- النساء / ٢٨.

٢- البقرة / ٢.

٣- الأنبياء / ٣٠.

٤- أميم: منادى مرخم أصله «أميمة».

– أن تتضمن الإضافة تعظيم شأن المضاف؛ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إن عبادى ليس لك عليهمْ سلطان﴾[١]، أو تعظيم شأن المضاف إليه نحو: «رسول السلطان زار فلانًا».

– أن تتضمن الإضافة الاستهزاء كقوله تعالى على لسان فرعون: ﴿إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون﴾[٢].

* * *

١– الحجر / ٤٢ والإسراء / ٦٥.

٢– الشعراء / ٢٧.

أسلوب القصر

هناك عدة معانٍ يدور حولها الجذر المعجمى (ق ص ر) من أهمها أن القَصْر: الحَبْس، وقد ورد هذا المعنى اللغوى فى الكتاب العزيز. قال تعالى: ﴿حورٌ مقصورات فى الخيام﴾[١]؛ أى محبوسات فيها. ولأبى زكريا الفراء (ت٢٠٧هـ) تفسير لغوى للآية الكريمة يوضح فيه بعض ما يتصل القصر، قال فيه: قوله: (حور مقصورات): قُصِرْن عن أزواجهن؛ أى حُبِسنَ، فلايُردْنَ غيرهم، ولا يطمحن إلى سواهم، والعرب تسمى الحَجَلَة[٢]: المقصورة والقصورة، ويسمون المقصورة من النساء: قصورة. وقال الشاعر:

لعمرى لقد حببتُ كلَّ قَصورةٍ ... إلىَّ ومـا تـدرى بـذاك القصائـرُ
عَنَيْتُ قصورات الحجال ولم أُرِدْ ... قصارَ الخُطـا، شرُّ النسـاء البحاتـرُ[٣]

والقصر أيضاً: كفُّك نَفْسَك عن أمرٍ، وكفها من أن تطمح به غَرْبَ الطمع[٤].

أما القصر فى اصطلاح علماء البلاغة فهو تخصيصُ شئ بشئٍ بطريق مخصوص؛[٥]؛ لذلك نجد أركان «أسلوب القصر» هى:

- المقصور : وهو الشئ المخصَّص.
- المقصور عليه : وهو الشئ المخصَّص به.
- الطريق المخصوص : وهى مجموعة من العناصر النحوية التى لابد من وجود واحدٍ منها للتوصل إلى تحقيق القصر فى الأسلوب، وتلك العناصر ستة: ضمير الفصل، تعريف ركنى الإسناد، العطف، النفى والاستثناء، إنما، التقديم.

---

(١) الرحمن / ٧٢.

(٢) الحجلة: ساتر كالقبة يُزيَّن بالثياب والستور للعروس، أو: ستْر يُضرب للعروس فى جوف البيت.

(٣) معانى القرآن: ٣ ١٢٠. والشعر لكثير عزة.

(٤) اللسان: (ق ص ر).

(٥) السيوطى : معترك الأقران فى إعجاز القرآن ١٨١/١

ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿ومامحمدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل﴾[١] عبارة عن أسلوب قصر، وأركانه هي :

- المقصور : محمد ﴿ﷺ﴾.
- المقصور عليه: رسول
- الطريق المخصوص: النفى والاستثناء (ما ... إلاّ...).

وقبل الد خول فى العرض للطرق المختلفة الخاصة بأسلوب القصر نتوقف أمام بعض الملاحظات المتصلة بهذا الأسلوب، وهى على النحو الآتى:

أولاً:

يعد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) أو من تحدث عن القصر، ولكنه لم يستعمل المصطلح، وإنما توقف أمام أحد التراكيب النحوية وأجازه؛ لأن فيه معنى القصر، وهو:

شيءٌ ما جاَءَ بك ←——— ما جاء بك إلا شيءٌ

وهذا نص سيبويه: «وأما قوله: شيء ما جاء بك، فإنه يحسن وإن لم يكن على فعل مضمر، لأن فيه معنى: ما جاء بك إلا شيء، ومثله مثل للعرب: شر أهرَّ ذا ناب»[٢].

ثانياً:

هناك قاعدة نحوية تصلح للتطبيق على الجملة العربية هى «الإحلال» ، والمقصود بها وضع عنصر نحوى مكان آخر، دون أن تتأثر الصحة النحوية الخاصة بالجملة، وقد أشار إلى تلك القاعدة سيبويه فى الصفحات الأولى من كتابه؛ إذ توقف أمام الإحلال بين الفعل المضارع واسم الفاعل؛ لذلك فقوله تعالى: ﴿وإنّ

---

(١) آل عمران / ١٤٤.

(٢) الكتاب: ٣٢٩/١. وأهره: حمله على الهرير، وهو صوت دون النباح، وذو الناب: الكلب هنا. والمثل يضرب فى ظهور أمارات الشرور ومخايله. انظر مجمع الأمثال. ٣٧٠/١

ربّك ليحكمُ بينهم﴾[١]؛ أى لحاكم[٢]. ولكن ما علاقة تلك القاعدة بأسلوب القصر؟ الحقيقة أن هناك بعض الأمثلة للقصر لايصلح الإحلال فيما بينها، والدليل على ذلك أن القصر الذى فى قوله تعالى:﴿ما من إلهٍ إلا الله﴾[٣] بواسطة (ما) مع (إلا) لايصلح أن نقول معناه: «إنما من إلهٍ اللهُ» باستعمال «إنما»، على الرغم من أن علماء البلاغة يرون أن «إنما» أفادت القصر – بصفة عامة – لتضمنها معنى «ما» مع «إلا» كما سيتضح فيما بعد.

ثالثاً:

يرتبط الأداء اللغوى فى بعض أساليب القصر بالدلالة، ومن أمثلة ذلك استعمال «إنما»؛ فحين تقول لأحد الأشخاص: «إنما محمدٌ صديقُك» لاتريد بذلك أن تقدم له خبراً يجهله، أو حقيقة لايعلمها، وإنما تريد تبصيره بحقّ الصداقة وما يجب عليه تجاه صديقه محمدٍ. هناك الكثير من الشواهد والأمثلة التى يمكن تفسيرها فى ضوء تلك القاعدة المتصلة بالدلالة، ومن ذلك قول المتنبى:

إنما أنت والدٌ، والأبُ القـــا طعُ أَحْنَى من واصلِ الأولاد[٤]

لم يرد أن يُعلم كافوراً أنه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكّره منه بالأمر المعلوم ليبنى عليه استدعاءَ ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد.

ومثاله من التنزيل قوله تعالى: ﴿إنما يستجيبُ الذين يسمعون﴾[٥] وقوله عز وجل ﴿إنما تنذرُ من اتبع الذكر وخشى الرحمنَ بالغيب﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿إنما أنت

(١) النحل / ١٢٤.
(٢) الكتاب: ١/١٥.
(٣) آل عمران/٦٢.
(٤) أحنى: أرحم وأعطف وأشد حنواً، والبيت من قصيدة يمدح فيها المتنبى كافوراً، ويذكر فيها الصلح بينه وبين مولاه ابن الأخشيد.
(٥) الأنعام /٣٦.
(٦) يس/ ١١.

منذرُ مَن يخشاها﴾[١]. كل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم؛ ؛ وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لاتكون استجابةٌ إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويُدْعَى إليه، وأنّ من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب. وكذلك معلوم أن الإنذار إنما يكون إنذاراً ويكون له تأثير، إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة، فأما الكافر الجاهل، فالإنذار وترك الإنذار معه واحد[٢].

ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه من عادة الشعراء حين المدح خلْع الكثير من الصفات على الممدوحين، ويرونها صفاتٍ ثابتةً معلومة للجميع، ومن أمثلة ذلك قول ابن قيس الرُّقيات:

إنما مُصعبٌ شهابٌ من اللهِ تجلّتْ عن وجهه الظلماءُ

ادّعى فى كون الممدوح بهذه الصفة، أنه أمر ظاهر معلوم للجميع، على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدّعوا فى الأوصاف التى يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم، وأنهم قد شُهِروا بها، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذى لايدفعه أحد، كما قال الحطيئة:

وتَعْذُلُنى أفناءُ سَعْد عليـــهم ... وما قلتُ إلا بالذى علمتْ سعدُ

وكما قال البحترى:

لا أدّعى لأبى العلاء فضيلةً ... حتى يسلّمها إليه عداه

ومثله قولهم: إنما هو أسد، وإنما هو نار، وإنما هو سيف صارم، إذا أدخلوا «إنما» جعلوا ذلك فى حكم الظاهر المعلوم الذى لايُنْكر ولايُدْفَع ولايَخْفَى[٣].

رابعاً:

هناك ظاهرة نحوية تطبع بعض أساليب القصر، وتؤدى إلى التأثير فى الدلالة،

(١) النازعات / ٤٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣ وما بعدها.

(٣) دلائل الإعجاز : ٣٣١ وما بعدها. وأبو العلاء فى بيت البحترى ليس الشاعر المعروف؛ فهو متأخر عن البحترى، وإنما المقصود به من يمدحه الشاعر.

ونعنى بها «التقديم والتأخير»، ومن أمثلته ما يتصل بالفاعل والمفعول؛ فإننا حين نقول: ما ضَرَبَ زيداً إلا عمرو، بتقديم المفعول كان الغرض بيان الضارب من هو والإخبار بأنه عمرو خاصة دون غيره. وحين نقول: ما ضَرَبَ عمرو إلا زيداً، بوضع الفاعل بعد الفعل حسب قواعد تركيب الجملة العربية، كان الغرض بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه زيد خاصة دون غيره.

وحين تقرأ قوله تعالى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾[1] تجده أسلوب قصر، تم فيه تقديم المفعول (لفظ الجلالة: الله) علي الفاعل (العلماء)؛ لذلك يعد تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يُبيِّن الخاشون مَنْ هم، ويُخْبَر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم. ولو أُخِّر ذكر اسم الله وقُدِّم (العلماء) فقيل: «إنما يخشى العلماءُ اللهَ» لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيانَ المخشيِّ من هو، والأخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورةً على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض فى الآية، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لايخشون غير الله تعالى[2].

وما دمنا بصدد الحديث عن التقديم والتأخير فى أسلوب القصر، فإننا نتوقف أمام ما يتصل بتأخير الفاعل والمفعول والجار والمجرور وسواها فى الجملة، مع بيان الفروق الدلالية. ويمكن تقديم ذلك خلال الأمثلة الآتية:

١ – ما ضَرَبَ إلا عمرو زيداً: الاختصاص فى الفاعل «عمرو»، والمعنى: الضارب عمرو لاغيره.

٢ – ما ضَرَبَ إلا زيداً عمرو: الاختصاص فى المفعول «زيدا»، والمعنى: المضروب زيدلا مَنْ سواه.

٣ – لم يَكْسُ إلا زيداً جُبَّةً: خَصَّ المتكلم زيداً من بين الناس بكسوة الجبة.

٤ – لم يَكْسُ إلا جُبَّةً زيداً: خَصَّ المتكلم الجبة من أصناف الكسوة.

---

(١) فاطر/ ٢٨.

(٢) دلائل الإعجاز : ٣٣٨ وما بعدها.

٥ – قال السيد الحميرى:

لو خُيِّر المنبرُ فُرسانَه   ما اختار إلا منكم فارسًا[١]

الاختصاص فى الجار والمجرور «منكم» ؛ لذلك لو قيل: «ما اختار إلا فارساً منكم» صار الاختصار فى «فارساً».

نخلص من التراكيب السابقة إلى قاعدة أو قانون يقول إن ما يقع بعد «إلا» هو الذى يقع عليه الاختصاص.

ولكن ما وجه الاختصاص فى باب المبتدأ والخبرحين التقديم والتأخير مع القصر بـ «إنما» ؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال نقدم بعض الأمثلة، ثم نبين القاعدة الخاصة بهذا الباب:

٦ – إنما هذا لك: الاختصاص فى الخبر «لك» بدلالة أنك تقول: إنما هذا لك لالغيرك.

٧ – إنما لك هذا : الاختصاص فى المبتدأ «هذا» بدلالة أنك تقول: إنما لك هذا لاذاك.

٨ – قال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾[٢] : الاختصاص فى المبتدأ الذى هو (البلاغ) و(الحساب).

٩ – قال تعالى: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك﴾[٣] : الاختصاص فى الخبر (على الذين).

نخلص من التراكيب السابقة إلى أنك إذا تركْتَ الخبر فى موضعه فلم تقدمه على المبتدأ كان الاختصاص فيه، وإن قدمته على المبتدأ صار الاختصاص الذى كان فيه فى المبتدأ.

---

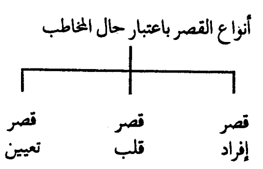
(١) من أبيات قالها لأبى العباس السفاح، لما استقر له الأمر، وقام إليه السيد الحميرى حين نزل عن المنبر، فأنشده أبياتاً منها هذا.

(٢) الرعد / ٤٠.

(٣) التوبة / ٩٣.

خامساً:

من الظواهر اللغوية التي تُحسب لعلماء البلاغة ربطهم أسلوب القصر بما أطلقوا عليه «حال المخاطب»؛ لأن هذا الربط يدل على أهمية الصلة بين الأسلوب والمتلقى؛ أى المخاطب، ، حين الدراسة، دونما عزلٍ لأى منهما عن الآخر؛إذ إن البلاغة – بصفة عامة – تتصل بالعوامل السياقية فى الاتصال الكلامى على نحو ما يعرف بـ «البراجماتية» Pragmatics ؛ فهى عبارة عن اتصال بين المتكلم والسامع، والأسلوب المستخدم فى هذا الاتصال إنما هو نص يتصل بموقف معين. واللافت للنظر أن علم اللغة يولى اهتماماً خاصاً حين دراسة «المحادثة» لما يسمى بـ «تحليل الخطاب» Discourse analysis، والمقصود بذلك ربط اللغة بحال المخاطب من حيث الظروف النفسية والاجتماعية والثقافية، والجهل والعلم، والطرق اللفظية وغير اللفظية المستخدمة حين المخاطبة وغير ذلك. ولكن ما صلة هذا المدخل النظرى بالقصر؟ لقد أشار علماء البلاغة إلى أن للقصر أنواعاً باعتبار حال المخاطب، يمكن تقديمها خلال الشكل الآتى:



أما قصر الإفراد فيستخدم حين يعتقد المخاطب الشركة بين شيئين فأكثر، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ﴾ الذى خُوطب به مَنْ يعتقد أن الله ثالثُ ثلاثة. والدليل على ذلك النظر فى الآية الكريمة كلها. قال تعالى: ﴿يأهلَ الكتاب لاتغْلُوا فى دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحقَّ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد﴾[1].

(١) النساء / ١٧١.

ولكن كيف عبّر علماء البلاغة عن قصر الإفراد؟ يقول الخطيب القزويني: «فالمخاطب بقولنا: مازيدٌ إلا كاتبٌ، مَنْ يعتقد أن زيداً كاتب وشاعر، وبقولنا: ما شاعرٌ إلا زيدٌ، من يعتقد أن زيداً شاعر، لكن يدّعى أن عمراً أيضاً شاعر، وهذا يسمّى قصر إفراد؛ بقطعه الشركة بين الصفتين فى الثبوت للموصوف، أو بين الموصوف وغيره فى الاتصاف بالصفة»[1].

بقى أن نشير إلى أن هذا القصر أضيف إلى كلمة «إفراد»؛ لأنه يأتى لقطع «الشركة» التى اعتقدها المخاطب.

نأتى، بعد ذلك، إلى ما أطلق عليه البلاغيون مصطلح «قصر قلب» فنجده يستخدم للردّ على المخاطب إذا كان يعتقد حكماً من الأحكام فتقلبه عليه، ومن أمثلة ذلك قولنا: «ما شاعرٌ إلا شوقى» ردًّا على من يزعم أن غيره أشعر منه.

وقد أضيف هذا القصر إلى كلمة «قلب»، لأنه يأتى لقلب الحكم على المخاطب.

وآخر أنواع القصر المتصلة بحال المخاطب ما يطلق عليه «قصر تعيين»، ويأتى حين يكون المخاطب متردداً فى حكمه، كقولنا: «ماشاعر إلا شوقى»[2] للردّ على من تردد فى إثبات الشعر له ولبعض الشعراء الآخرين.

وقد أُضيف هذا القصر إلى كلمة «تعيين»؛ لأنه يأتى لتعيين ما هو غير مُعيَّن عند المخاطب.

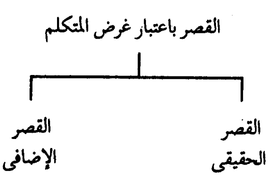
---

(١) الإيضاح: ٢١٤ . ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه ليس المقصود بالصفة، فى نص الخطيب، النعت النحوى المعروف، والأمر نفسه بالنسبة إلى الموصوف؛ لأن جملة «مازيد إلا كاتب» عبارة عن مبتدأ أو خبر. لذلك المقصود الصفة المعنوية لا النعت.

(٢) لعلنا نلاحظ أن المثال: ما شاعر إلا شوقى، مشترك بين قصر القلب والتعيين، والذى يفرق بين معناه حال المخاطب نفسه، من حيث اعتقاده حكماً من الأحكام، أو تردده فى حكمه؛ لذلك قلنا إنه مما يحسب لعلماء البلاغة هذا الربط بين أسلوب القصر وحال المخاطب.

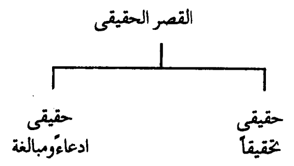
سادساً:

اهتم علماء البلاغة بالنظر فى أسلوب القصر خلال ربطه بـ «غرض المتكلم»، وانتهوا خلال هذا الربط إلى أن القصر باعتبار غرض المتكلم قسمان، يمكن إيضاحهما كما يأتى :



أما القصر الحقيقى فهو ما كان التخصيص فيه بحسب الحقيقة والواقع، نحو: «لامعبودَ بحقٍّ إلا الله»؛ إذ لامعبود بحق فى الواقع غير الله تعالى؛ ونحو: «ما خاتمُ الأنبياء والرُّسلِ إلا محمدٌ»، فالغرض تخصيص ختمهما بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقصره عليه؛ بحيث لايتجاوزه إلى غيره أصلاً.

والقصر الحقيقى قسمان؛ أولهما: حقيقى تحقيقاً، وهو ما كان التخصيص فيه بالنسبة للحقيقة؛ بحيث لايتجاوز المقصودُ المقصورَ عليه أصلاً، نحو: «إنما الله كاملٌ»؛ إذا لاصفة لله جامعة إلا الكمال فى الواقع. وثانيهما: حقيقى بحسب الادعاء والمبالغة، بفرض أن ماعدا المقصور عليه فى حكم المعدوم، نحو: «لاسيف إلا ذو الفقار» و«لافتى إلا على» ويمكن ايضاح هذين القسمين كما يأتى :



أما القصر الإضافى، وهو القسم الثانى من قسمى القصر بحسب غرض المتكلم، فهو ما كان التخصيص بحسب الإضافة إلى شئ آخر معين بالنسبة إلى

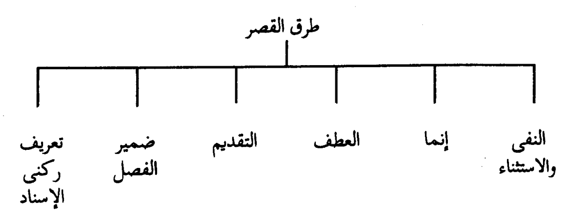
جميع ما عداه، نحو : «ما على إلا شجاع» أى إنه مقصور على صفة الشجاعة لايتجاوزها إلا الجبن، ولا إلى التهور مثلاً. ونحو : «ماعبد الحميد إلا كاتب» فالغرض تخصيص عبد الحميد بالكتابة وقصره عليها؛ بحيث لايتجاوزها إلى شئ آخر معين هو الشعر ؛ أى إن له صفة الكتابة، لاصفة الشعر، وهذا لاينافى أن يتجاوز الكتابة إلى صفات أخرى كالخطابة، أو التجارة، أو غيرهما؛ فالقصر إنما هو بالإضافة إلى الشعر فقط، لهذا سمّى قصراً إضافياً[١] .

وبعد هذا العرض لتلك الملاحظات المتصلة باستعمال أسلوب القصر، نحاول التعرف على موضوع آخر يتعلق به وهو:

طرق القصر فى الجملة:

حين ننظر فى الطرق التى أشار إليها القدماء من علماء البلاغة للقصر، نجدها مجموعة من الأنماط النحوية المتصلة بالنفى والاستثناء، وإنما، والتقديم لما يستحق التأخير وغيرها؛ لذلك تعد تلك الطرق بمثابة قوانين Rules للقصر فى الجملة العربية استطاع القدماء التوصل إليها فى ضوء الاستقصاء للشواهد المختلفة.

ويمكن تلخيص تلك الطرق كما يأتى:



وقد ركز علماء البلاغة فى حديثهم عن تلك الطرق على الأربع الأولى منها، وهذا عرض لها:

١ – النفى والاستثناء:

لابد من اجتماع «النفى» و «الاستثناء» حتى يكون الأسلوب دالاً على لاقصر؛ لأننا إذا قلنا : جاء الطلاب إلا خالداً، لانجد فى هذا القول أية دلالة على

(١) انظر: علوم البلاغة للمراغى١٥٥؛ والمنهاج الواضح لحامد عونى ٦ وما بعدها.

القصر لعدم وجود النفى، وكل ما نستطيع التوصل إليه استثناء أحد الأفراد من الحكم؛ أى استثناء خالد من المجئ، دون أن يكون فيه المعنى المنشود من القصر، وهو الدلالة على التوكيد.

ولكن إذا قلنا: لم يتخلف إلا خالد، تكوّن لدينا أسلوب قصر لوجود النفى فى صدر الجملة، وهو يفيد الدلالة على تأكيد الإنكار، وهذا يدركه أبناء اللغة بحسهم البلاغى، وذوقهم السليم للأساليب العربية الفصيحة.

ولعلنا نتساءل : كيف يتحقق القصر حين استعمال النفى والاستثناء؟ حين نقول : «ماخالد» نجده عبارة عن عنصرين نحويين هما «ما» النافية، والمسند إليه أو المبتدأ «خالد» ، والدلالة التى نتوصل إليها خلال هذا القول توجُّه النفى إلى وصف «خالد» دون ذاته، وحين لانزاع فى طوله ولاقصره ولا ما أشبه ذلك، وإنما النزاع فى كونه شاعراً أو كاتباً؛ فقد تناولهما النفىُ؛ فإذا قيل: «إلا شاعر» جاء القصر؛ أى إن الاستثناء بـ «إلا» الملغاة مع ذكر المسند أو الخبر «شاعر» أدّى إلى تحقق القصر فى الأسلوب : «ماخالدٌ إلا شاعرٌ».

وإذا قلت: «ماشاعر» توجه النفى إلى الشعر الذى لاخلاف فى ثبوته، وإنما النزاع فى الموصوف به: هل هو خالد أو محمد؛ فقد شملهما النفى باعتبار اتصافها بالوصف المذكور؛ فإذا قيل: «إلا خالد» تحقق القصر.

وهذه بعض الأمثلة للقصر عن طريق النفى والاستثناء:

– قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول﴾[1] ؛ أى هو ﴿ﷺ﴾ مقصور على الرسالة، لايتحاوز بها إلى البُعْد عن الهلاك، والقصر هنا قصر إفرادٍ.

– قال تعالى: ﴿وما أنزل الرحمنُ من شئ إنْ أنتم إلا تكذبون﴾[2] ؛ أى أنتم مقصورون على الكذب عندنا لاتتجاوزونه إلى احتمال حق، والقصر هنا قصر قلبٍ.

---

(١) آل عمران/١٤٤.

(٢) يس/١٥.

– قال تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿ما قلتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله﴾(١)؛ لأنه قال فى مقامٍ اشتمل على معنى أنك يا عيسى لم تقل للناس ما أمرتُك؛ لأن أمرتُك أن تدعوَ الناس إلى أن يعبدونى، ثم إنك دعوتَهم إلى أن يعبدوا مَنْ هو دونى، والدليل على ذلك ما قبله: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلتَ للناس اتخذونى وأمىَ إلهين مَن دون الله)(٢)، والقصر هنا قصرُ قلبٍ.

– قال الشاعر:

هلِ الجـودُ إلا أنْ تجـودَ بأنفسٍ ... على كلِّ ما ضى الشفرتين صقيلِ(٣)

بُنى القصر فى البيت على الادّعاء والمبالغة، وعليه قول الشاعر:

لا ســـيـفَ إلا ذو الـفقَا ... رِ، ولافـــتى إلا علىّ.(٤)

– قال عمر بن معدْ يكرب الزبيدى:

قـد علمتْ سلمى وجـاراتُهـا ... مـــا قطّر الفـــارسَ إلا أنا

قصر صفة التقطير على نفسه؛ أى إنه هو الذى صرع الفارس لا أحد سواه؛ لأن «قطّر» معناه: صرعه صرعةً شديدة.

٢ – «إنما»:

وقد لجأ علماء البلاغة إلى التوقف أمام بعض الظواهر التركيبية والدلالية للتوصل إلى إثبات إفادة «إنما» للقصر؛ فقالوا إنها تتضمن معنى «ما» و«إلا» فى قوله تعالى: ﴿إنما حرّمَ عليكم الميتةَ والدم﴾(٥)؛ أى ما حرم عليكم إلا المتية والدم.

ويرى القدماء من علماء اللغة والنحو أن «إنما» تأتى لإثبات ما يُذكَر بعدها ونفى ما سواه؛ لذلك يؤدى استعمالها مع بعض التراكيب إلى تحقيق القصر، نحو:

(١) المائدة/ ١١٧.

(٢) المائدة/ ١١٦.

(٣) الشفرتان: مثنى شفرة، وهى حد السيف، وصقيل : مجلو.

(٤) ذو الفقار: لقب سيف على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

(٥) البقرة / ١٧٣.

«إنما حسّان شاعرٌ» لإثبات شاعريته ونفى ما سواها من الخطابة والشجاعة وغيرهما، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾[1] لإثبات التذكر لذوى العقول، ونفى ما سواه من تذكُّر غيرهم.

ومن الأدلة التى قال بها القدماء لإثبات تضمن «إنما» معنى القصر صحةُ انفصالِ الضمير معها؛ فتقول: إنما يخلص أنا، كما تقول: ما يخلص إلا أنا، كما قال الفرزدق:

أنا الذائدُ الحامى الذمارَ وإنما ... يدافعُ عن أحسابهم أنا ومِثلى

المعنى: ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلى؛ لذلك يقول عبد القاهر الجرجانى معلقاً البيت: «ذاك لأن غرضه أن يخص المدافِع لا المدافَعَ عنه. ولو قال: «إنما أدافعُ عن أحسابهم» لصار المعنى أنه يخص المدافَع عنه، وأنه يزعم أن المدافعة منه تكون عن أحسابهم لاعن أحساب غيرهم، كما يكون إذا قال: «وما أدافع إلا عن أحسابهم»، وليس ذلك معناه، إنما معناه أن يزعم أن المدافِع هو لاغيره»[2].

ومن أمثلة القصر بـ «إنما» قول الشاعر:

وإنما المرءُ حديثٌ بعده ... فكنْ حديثاً حسناً لمن وَعَى

الذى يشير فيه إلى أن المرء مصيره الفناء، والاندثار، ويصبح حديثاً يُروى بعد مماته؛ لذلك يجب على كل إنسان أن يترك الذكرى الطيبة حتى يحكيها من يأتى بعده. وقال العباس بن الأحنف:

أنا لم أُرْزَقْ محبتها ... إنما للعبدِ ما رُزِقَا

الذى يشير إلى أنه لامطمع له فى وصلها؛ فقد أصابه اليأس منها، وهذا تعريض؛ لذلك يرى البلاغيون أن «الاستقراء» للأساليب الرفعية التى وردت فيها «إنما» يدل على أن أحسن موقع تستعمل فيه هو الدلالة على التعريض بأمرٍ هو مقتضى معنى الكلام بعدها، ومن أمثله ذلك قوله تعالى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون

(١) الرعد/١٩.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٤١ وما بعدها.

ربّهم بالغيب﴾[١] المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع، وقلب يعقل؛ فالإنذار معه كلا إنذار. وقال الشاعر:

ما أنتَ بالسبب الضعيف، وإنما ... نُجْحُ الأمور بقوة الأسباب
فاليومَ حاجتنا إليك، وإنما ... يُدْعَى الطبيبُ لساعة الأوصاب[٢]

يقول في البيت الأول: إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه، وفي الثاني: إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعناً بك فيما عرض لنا من الحاجة، وعوّلنا على فضلك، كما أن من عوّل على الطبيب فيما يعرض له من السقم، كان قد أصاب في فعله[٣].

٣ - العطف:

ويكون بثلاثة أحرف هي «لا» و«بل» و«لكن»، وقد قال عنه الخطيب القزويني: «العطف: كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفراداً: زيدٌ شاعر لاكاتبٌ، أو: ما زيدٌ كاتباً بل شاعرٌ، وقلباً: زيد قائم لاقاعدٌ، أو : مازيد قاعداً بل قائم. وفي قصر الصفة على الموصوف إفراداً أو قلباً بحسب المقام: زيد قائم لاعمرو، أو : ما عمرو قائماً بل زيد»[٤]. ومن أمثلته:

- قال عمروة بن الورد:

وما شاب رأسي من سنين تتابعتْ ... عليّ، ولكنْ شيبتني الوقائعُ

فقد قصر وصف الشيب على الوقائع، لاتعاقب السنين.

- قال الشاعر:

ليس اليتيمُ الذي قد مات والدُه ... بل اليتيمُ يتيمُ العلمِ والأدبِ

---

(١) فاطر / ١٨.

(٢) الأسباب: جمع سبب، وهي ما تتوصل بها إلى غايتك، والأوصاب: جمع وصب، وهي الأمراض والأوجاع التي لاتزول.

(٣) الإيضاح. ٢٢٢ وما بعدها

(٤) السابق ٢١٥

فقد قصر وصف اليتيم على مَنْ فقد العلم والأدب، لا من فقد أباه.

- قال ابن الرومى:

يهتزُّ عِطْفَاهُ عند الحمدِ يسمعه   من هِزّةِ المجـدِ لامن هزةِ الطربِ

فقد قصر اهتزاز العطف على هزة المجد، لاعلى هزة الطرب.

٤ - تقديم ما حقُّه التأخير:

هناك نظام معين لترتيب الكلام فى الجملة العربية من حيث التقديم والتأخير، ولكن الخروج على هذا النظام لتحقيق بعض الأغراض الدلالية والبلاغية لايؤدى إلى أن يصبح التركيب غير صحيح نحوياً Ungrammatical إلا إذا خالف القواعد أو القوانين التى وضعها العلماء للتقديم والتأخير، والدليل على ذلك تقديم الخبر على المبتدأ، والمفعول به على فعله وفاعله... وهكذا. وقد ربط علماء النحو تقديم ما حقه التأخير بالمعنى، ومن أمثلة ذلك قولهم: «تميمى أنا» الذى قُدِّم فيه الخبر على المبتدأ؛ لأنه أساس الاهتمام ومعقد الفائدة، قال ابن يعيش: «ألا ترى أن الفائدة المحكوم بها إنما كونه تميميا لا «أنا» المتكلم»[1]. ويتصل بذلك ما أشار إليه النحاة بخصوص تقديم (له) فى قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾[2]؛ لأنه معقد الفائدة؛ إذ ليس الغرض نفى الكفؤ مطلقاً؛ بل نفى الكفؤ له تعالى؛ فقدم اهتماماً بما هو المقصود معنى[3].

ويعد التقديم لما حقه التأخير طريقة من طرق القصر فى العربية، والمقصور عليه هو المقدَّم؛ فقولنا «مصرى أنا» كلمة «مصرى» مقصور عليه، ويفيد قصر المتكلم «أنا» على صفة المصرية لايتعداها إلى جنسية أخرى.

وهناك بعض الأمثلة لتحقيق القصر عن طريق التقديم، وذلك كقول الشاعر:

إلى اللهِ أشكو لا إلى الناسِ، إننى   أرى الأرضَ تبقى والأخلاء تذهبُ

الذى قصر فيه الشكوى على الله سبحانه وتعالى؛ فهو المشكو إليه لاغيره.

---

(١) شرح المفصل: ٩٢/١.

(٢) الإخلاص / ٤.

(٣) شرح الكافية: ٣٠١/٢

وقال الشاعر:

بك اجتمع، المُلْكُ المبددُ شملُه وضُمَّتْ قواصٍ منه بعد قواصى[1]

فالتقديم للجار والمجرور «بك» حقق القصر؛ لأننا لو قلنا: «اجتمع الملك المبدد شمله لك» لانجد أىَّ قصرٍ فى الجملة. وقال الشاعر:

راحلٌ أنتَ والليـــالى نزولُ ومضــرٌ بك البقــاءُ الطويلُ

وقد تحقق القصر عن طريق تقديم الخبر «راحل» على المبتدأ «أنت».

وقد أشار علماء البلاغة إلى أن دلالة التقديم على القصر يستطيع ابن اللغة التوصل إليه بناءً على القدرة التى يتمتع بها فى ذوق الأساليب الرفيعة؛ لأن القصر عن طريق التقديم يعتمد فى تحصيله على معرفة فحوى الكلام ومفهومه؛ بالإضافة إلى أن القصر بواسطة النفى والاستثناء، و«إنما»، والعطف طرق فى أصل وضعها اللغوى تفيد الدلالة على الحصر والقصر، على عكس التقديم.

* * *

(١) القواصى: جمع قاصية، وهى الناحية البعيدة.

التوكيد باستعمال (إن)

مما يتصل بالجمال فى التركيب النحوى للجملة استخدام التؤكيد بواسطة «إن» على أساس وجود خبر فى الجملة السابقة يتلقاه السامع وهو متحير، ويأتى التوكيد ليزيل ذلك. قال بدر الدين ابن مالك: «وكثيراً مايخرجون الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فيحلون المحيط بفائدة الخبر محلّ الخالى الذهن عنها لتجهيله. ويقيمون من لايسأل مقام من يسأل، إذا كانوا قد قدموا إليه مايلوح بالخبر، فيستشرف له استشراف الطالب المتحير، فيخرجون الجملة إليه موكّدة» ويمكن التطبيق على قول بشار:

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير ... إنّ ذاك النجاحَ فى التبكير

فإنه لما خاطب بـ«بكّرا» محرضاً صاحبيْه على التشمير فى شأن السفر تصورها حائمين حول: هل التبكير يثمر النجاح؟ فتلقاهما بـ«إن». والذى يلْفت النظر أن بشاراً كان مدركاً لهذا التركيب النحوى الذى لجأ إليه فى عجز البيت، والدليل على ذلك تلك الرواية التى وردت عن الأصمعى. قال: «كنت أشدو من أبى عمرو بن العلاء وخلفٍ الأحمر، وكان يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الإعظام، ثم يقولان: يا أبا مُعاذ، ما أحدثتَ؟ فيخبرها وينشدهما، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له، حتى يأتى وقت الزوال، ثم ينصرفان. وأتياه يوماً فقالا: ماهذه القصيدة التى أحدثتها فى سلم بن قتيبة؟ قال: هى التى بلغتكم. قالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب. قال: نعم، بلغنى أن سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببتُ أن أورد عليه مالايعرف. قالوا: فأنشدْناها يا أبا معاذ. فأنشدهما:

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير ... إنّ ذاك النجاحَ فى التبكير

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان «إن ذاك النجاح فى التبكير».

بكّرا فالنجاحُ فى التبكير

كان أحسن. فقال بشار: إنما بنيتها أعرابيةً وحشية فقلت: إن ذاك النجاح فى

التبكير، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: بكرا فالنجاح، كان هذا من كلام المولدين، ولايشبه ذاك الكلام، ولايدخل في معنى القصيدة. قال: فقام خلف فقبّل بين عينيه»[١].

وتؤدى «إن» في هذا البيت وظيفتين:

– التوكيد.

– الربط، وهو الوظيفة نفسها للفاء إذا قال بشار: «بكّرا فالنجاح».

وقد قال عبد القاهر: «واعلم أن من شأن «إن» إذا جاءت على هذا الوجه أن تغنى غناء الفاء العاطفة مثلاً، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً. فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف، ومقطوعاً موصولاً معاً. أفلا ترى أنك لو أسقطت «إن» من قوله: إن ذاك النجاح في التبكير، لم ترَ الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لاتتصل بالأولى ولاتكون منها بسبيل، حتى تجىء بالفاء فتقول: بكرا صاحبى قبل الهجير، فذاك النجاح في التبكير» [٢]. ونترك بيت بشار إلى قول بعض العرب:

فَغَنِّهَـــــــا، وَهْيَ لـكَ الـفَدَاءُ   إنَّ غِـنَـــاءَ الإبِـــلِ الحُدَاءُ[٣]

قال عبد القاهر معلقاً: «فانظر إلى قوله: إن غناء الإبل الحداء، وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبثه به وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه. ثم انظر إذا تركت «إن» فقلت: فغنها وهى لك الفداء، غناء الإبل الحداء، كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يُشْئم هذا ويُعْرق ذاك؟ حتى لاتجد حيلة في ائتلافهما حتى تجتلب لهما الفاء فتقول: فغنها وهى لك الفداء، فغناء الإبل الحداء، ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ماكان، وأن قد ذهبت الأَنَسَةُ التى كنتَ تجد، والحسنُ الذى كنت ترى»[٤].

١– الأغانى: ٣/١٩٠؛ والإيضاح: ٩٥.
٢– الدلائل: ٢٧٣.
٣– حدا الإبلَ حُداءً: حثها على السير بالحُداء.
٤– الدلائل: ٢٧٣ و ٢٧٤.

وربط البلاغيون التوكيد بـ«إن» بالحال نفسه كقول حجل بن نضلة:

جـاء شـقـيق عـارضـاً رُمْحَه   إنّ بنى عمك فـيـهـم رمـاحُ

فالشطر الأول من البيت يصور مجيئه هكذا مُدلاً بشجاعته، قد وضع رمحه عارضاً دليل على إعجاب شديد منه، واعتقاد أنه لايقوم إليه من بنى عمه أحد، كأنهم كلّهم عزل ليس مع أحد منهم رمح(١). وجاء عجز البيت فى أوله «إن» وبعدها اسمها «بنى» وخبرها «فيهم رماح» ردّاً على هذا الشقيق.

وكشف البلاغيون عن هذا الأسلوب الخاص باستخدام التوكيد بواسطة «إن» فى الكتاب العزيز. قال تعالى:(يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم)(٢)، وقال تعالى: (يابُنَىَّ أقم الصلاة وأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)(٣)، وقال تعالى: (خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم)(٤)، وقال تعالى: (ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون)(٥)، وقال تعالى: (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمّارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم)(٦).

ونختم الحديث عن التوكيد باستعمال «إنّ» بتلك الرواية التى وردت عن أبى بكر الأنبارى. قال:«ركب الكندىُّ إلى أبى العباس (ثعلب) وقال له: إنى لأجد فى كلام العرب حشواً! فقال له أبو العباس: فى أى موضع وجدتَ ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم؛ فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله

١- الإيضاح: ٩٥.

٢- الحج / ١.

٣- لقمان / ١٧.

٤- التوبة / ١٠٣.

٥- هود / ٣٧، والمؤمنون / ٢٧.

٦- يوسف / ٥٣.

قائم، جواب عن سؤالِ سائلٍ، وقوله: إنَّ عبد الله لقائم، جواب عن إنكارِ منكرٍ قيامَه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى. قال (ابن الأنبارى) : فما أحار المتفلسف جواباً».

وإذا افترضنا جدلاً صحة تلك الرواية فإنها تشير إلى إدراك أبى العباس ثعلب لما يُعرف الآن فى الدراسات اللغوية بالعوامل السياقية فى الاتصال الكلامى على نحو ماهو معروف فى «علم اللغة التداولى» Pragmatics ؛ إذ إن الإجابة تحتوى على عناصر نحوية معينة تتصل بحالة السائل وسؤاله، ويمكن إيضاح ذلك كما يأتى:

١- عبد الله قائم ←——— إخبار عن قيامه

٢- إن عبد الله قائم ←——— جواب عن سؤال سائل

٣- إن عبد الله لقائم ←——— جواب عن إنكار منكر قيامه

والجملة الأولى مركبة من المبتدأ والخبر، ولها وظيفة دلالية محددة هى الإخبار عن قيام عبد الله؛ لذلك لم يكن المتكلم فى حاجة لأية عناصر نحوية للتأكيد على تلك الدلالة والإخبار عنها. أما الجملة الثانية فهى ناتجة عن اتصال كلامى بين سائل ومسئول؛ أى إنه عبارة عن محادثة لذلك يحتاج السياق إلى التأكيد على الدلالة بواسطة «إن» . أما الجملة الثالثة فهى ناتجة عن إضافة عنصر جديد يؤدى إلى زيادة الدلالة توكيداً وهو اللام، والدافع إلى ذلك الإجابة عن إنكار منكر قيامه.

* * *

ظاهرة الاتساع

يعد «الاتساع» Expansion واحداً من العمليات التحويلية التى تطرأ على العبارات والتراكيب النحوية، ويعرفه المحدثون من المشتغلين بالدراسات اللغوية بأنه عملية نحوية، تأتى عن طريق إضافة بعض العناصر الجديدة إلى المكونات الأساسية دون أن تتأثر تلك المكونات كما فى المثال الآتى:

Cars

The Cars

The Big Cars

All The Big Cars

All The Big Cars in The Garage

ويتكون التركيب الأخير من عناصر ثلاثة:

- العنصر السابق لما أصابه التعديل All The Big :
- العنصر الرئيسى الذى أصابه التعديل Cars :
- العنصر التالى لما أصابه التعديل in The Garage :

ويلاحظ أن الاتساع يرتبط بالدلالة؛ لأنه عبارة عن إضافة بعض المفردات إلى التركيب الأساسى مما يؤدى إلى تحديده وبيان المقصود منه ؛ فإذا قلنا:

أطفال

أطفال مصريون

ثلاثة أطفال مصريين

ثلاثة أطفال مصريين معهم كلب

استطعنا تحديد المقصود بهؤلاء الأطفال من حيث البلد الذى ينتمون إليه،وعددهم؛ بالإضافة إلى وجود علامة مميزة «معهم كلب» تساعد فى هذا

التحديد.

والاتساع من المصطلحات التي ظهرت في المراحل الباكرة عند العرب، وقد ورد عند النحاة والبلاغيين، ولكن المفهوم يختلف عند كل منهما. أما النحاة فقد عقد سيبويه في كتابه[١] باباً حول «استعمال الفعل في اللفظ لافي المعنى لاتساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار»، وقد سوّى في هذا الباب بين الاتساع والإيجاز والاختصار، ولكنه لم يجمع بين المصطلحات الثلاثة معاً، وإنما يقول: «ومماجاء على اتساع الكلام والاختصار» أو «ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز». وحين ننظر في شواهد هذا الباب وتراكيبه النحوية، نجده عبارة عن دراسة تطبيقية لبعض التصرف في الكلام؛ وذلك نحو حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. قال تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها)[٢] إنما يريد: أهل القرية، فاختصر، وعَمِل الفعلُ في القرية كما كان عاملاً في الأهل لو كان هاهنا. وقد يكون الاتساع في الدلالة، والذي أباحه علْمُ المخاطب بالمعنى. قال تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء)[٣]. قال سيبويه: «فلم يُشبَّهوا بما ينعق، وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لايسمع ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى». ويكون الاتساع في حذف حرف. قال ساعدة بن جُؤيّة:

لَدْن بهــــزِّ الكفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ[٤]

يريد: عسل في الطريق.

نأتي، بعد ذلك، إلى مفهوم الاتساع عند المشتغلين بالدراسات النقدية والبلاغية؛ فنجد ابن رشيق يعقد له باباً في (العمدة)[٥] ويعرفه بقوله: «وذلك أن

١- الكتاب: ١/٢١١-٢١٦.
٢- يوسف / ٨٢.
٣- البقرة / ١٧١.
٤-اللدن: الناعم اللين، والضمير في «فيه» عائد عليه، والعسلان: سير سريع في اضطراب.
٥- العمدة: ٢/ ٧٥-٧٧.

يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل، فيأتى كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى». ويستشهد ابن رشيق على ذلك بقول امرىء القيس:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً   كجُلْمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من علِ [1]

ويقدم تفسيراً للمعنى بقوله: «فإنما أراد أنه يصلح للكر والفر، ويحسن مقبلاً ومدبراً، ثم قال «معاً»؛ أى جميع ذلك فيه. وشبهه فى سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطه السيلُ من أعلى الجبل، فإذا انحط من عالٍ كان شديد السرعة، فكيف إذا أعانته قوةُ السيل من ورائه.وذهب قوم إلى أن معنى قوله «كجلمود صخر حطه السيل من عل» إنما هو الصلابة؛ لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس والريح كان أصلب. وقال بعض من فسره من المحدثين: إنما أراد الإفراط فزعم أنه يرى مقبلاً ومدبراً فى حال واحدة عند الكر والفر لشدة سرعته، واعترض على نفسه واحتج بما يوجد عياناً فمثله بالجلمود المنحدر من قنة الجبل، فإنك ترى ظهره فى النصبة على الحال التى يرى فيها بطنه وهو مقبل إليك». ثم يعلق ابن رشيق على تلك التفسيرات بقوله: «ولعل هذا ما مرَّ قط ببال امرىء القيس، ولا خطر فى وهمه، ولا وقع فى خلده ولا روعه».

* * *

---

١ - البيت من معلقته:

قفانبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسقْطِ اللوى بين الدَّخُولِ فحوملِ

والكلمات «مكر مفر مقبل مدبر» مجرورات؛ لأنها صفة للفرس الذى تحدث عنه فى البيت السابق، وهو قوله

وقد أغتدى والطيرُ فى وُكناتها   بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ

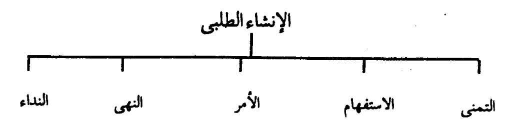
والجملود: الصخرة فى أعلى الجبل. انظر شرح القصائد السبع: ٨٢و٨٣.

أسلوب الإنشاء

تدور المعانى اللغوية للإنشاء حول الابتداء، أو الخلق، أو الابتداع ،ويقال: أنشأ اللهُ الخلق؛ أى ابتدأ خلقهم. وقد أشار الراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢ هـ) إلى أن الإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته، وأكثر مايقال ذلك فى الحيوان، قال تعالى: (هو الذى أنشأكم وجَعَلَ لكم السمع والأبصار)[١]، وقال تعالى: (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض)[٢]، وقال تعالى:(ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين)[٣]؛ فهذه كلها فى الإيجاد المختص بالله تعالى. وقوله تعالى: (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون)[٤] فلتشبيه إيجاد النار المستخرجة بإيجاد الإنسان، وقوله تعالى: (أو من يُنَشَّأُ فى الحلْية)[٥]؛ أى يربّى تربيةً كتربية النساء[٦].

وهناك عدة تعريفات للإنشاء فى مصطلح أهل البلاغة منها: الإنشاء كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، والسبب فى ذلك يعود إلى أن مدلول لفظه قبل النطق به ليس له وجود خارجى يطابقه أو لايطابقه؛ لذلك قال الشريف الجرجانى:«الإنشاء قد يقال على الكلام الذى ليس لنسبته خارج تطابقه أو لاتطابقه»[٧]. وهو ينقسم إلى قسمين:

١ – الإنشاء الطلبى: وهو مايستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، أو هو مايتأخر وجود معناه عن وجود لفظه، وهو خمسة أنواع:



١–الملك / ٢٣.
٢– النجم / ٣٢.
٣– المؤمنون / ٣١.
٤– الواقعة / ٧٢.
٥– الزخرف / ١٨.
٦– المفردات: ٤٩٤.
٧– التعريفات: ٣٢.

وقد نال هذا القسم عناية العلماء واهتمامهم؛ لأنه يقدم الفرصة للتصرف فى التعبير وفنون القول المختلفة، وللتلوين فى الأداء اللغوى؛ لخروجه عن الأغراض أو الأنواع السابقة وأداء معانى جديدة؛ لذلك نجد كتب البلاغة تجعل مبحث الإنشاء وقفاً على ماهو طلبى، وسوف نتوقف أمامه بالدراسة التفصيلية للتعرف على ما فيه من جمال فى التركيب، بعد أن نعرف بالقسم الثانى.

٢- الإنشاء غير الطلبى: وهو مالايستدعى مطلوباً، وله أساليب متعددة، وصيغ كثيرة، يمكن بيانها على النحو الآتى:

أ- استخدام صيغ المدح والذم، ومن بينها الفعلان الماضيان الجامدان «نعم» و «بئس». قال تعالى: (إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير)[١]، وقال تعالى: (ولدارُ الآخرة خير ولنعم دارُ المتقين)[٢]، وقال تعالى: (ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابذوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوق بعد الإيمان)[٣]. وقال زهير بن أبى سلمى فى مدح هرم بن سنان:

نعم أمــــراً هَرِمٌ لم تعْرَ نائبــــةٌ ... إلا وكـــان لمرتاعٍ لهــــا وَزَرا

وتستعمل «حبذا» للمدح و «لاحبذا» للذم. قال جرير:

ياحبذا جبلُ الريان من جبلٍ ... وحبذا ساكنُ الريان مَنْ كانا

وحبذا نفحاتٌ من يمانيةٍ ... تأتيك من قِبَلِ الريانِ أحيانا

وقال الشاعر:

ألاحبذا عاذرى فى الهوى ... ولاحبذا العاذلُ الجاهلُ

ب- يمكن التعبير بالإنشاء غير الطلبى عن طريق التعجب، وله صيغتان

١- البقرة / ٢٧١.

٢- النحل / ٣٠.

٣-الحجرات / ١١.

قياسيتان هما: «ماَ أَفْعَلَهُ» و «أَفْعِلْ بِهِ» قال تعالى: (قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره)[١]، وقال الشاعر:

بنفسى تلك الأرض ما أطيبَ الرُّبى ... وما أحسنَ المصطافَ والمتربعا

وقال الشاعر:

أولئك قومى بارك اللهُ فيهم ... على كل حالٍ ما أعفَّ وأكرما

وقال تعالى: (أَسمِعْ بهم وأبصِرْ يومَ يأتوننا)[٢].

جـ- ويتصل القسم بالإنشاء غير الطلبى؛ فهو طريقة من طرقه، ويكون القسم بمجموعة من الحروف التى تم تداولها فى النصوص المختلفة، وتلك الحروف هى: الباء، والتاء، والواو. قال تعالى (وتالله لأكيدنَّ أصنامكم)[٣]، وقال تعالى:

(تا لله لقد آثرك اللهُ علينا)[٤]، وقال تعالى: (والليلِ إذا يغشى. والنهارِ إذا تجلى وماخلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتى)[٥]، وقال تعالى: (والضحى والليلِ إذا سجى)[٦].

ومن صيغ القسم التى تكثر فى الأساليب العربية «لَعَمْر» مضافة إلى الاسم الظاهر أو الضمير. قال تعالى: (لَعَمْرُكَ إنهم لفى سَكْرتهم يعمهون)[٧]، وقال معن ابن أوس:

لعمرك ما أدرى وإنى لأوْجَلُ ... على أيِّنا تعدو المنيةُ أوَّلُ

وقال أيضاً:

لعمرك ما أهويتُ كفى لريبةٍ ... ولاحملتنى نحوَ فاحشةٍ رجلى

١- عبس / ١٧.
٢- مريم / ٣٨.
٣- الأنبياء / ٥٧.
٤- يوسف / ٩١.
٥- الليل / ١-٤.
٦- الضحى / ١و٢.
٧- الحجر / ٧٢.

وقال ابن الرومي:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... إذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاءُ العيشِ فيها وإنما ... يُنالُ بأسبابِ الفناءِ بقاؤها

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن «لعمرك» مكونة من ثلاث كلمات: لام الابتداء، والمبتدأ «عَمْرُ»، والمضاف إليه الكاف، وخبرها محذوف، والتقدير: لعمرك قسمي.

د- ومما يدل على الإنشاء غير الطلبي الرجاءُ، وهو طلب حصول أمر محبوب قريب الوقوع، وهناك حرف واحد يدل على الرجاء هو «لعل». قال تعالى: (فلعلك تاركٌ بعضَ مايُوحَى إليك وضائقٌ به صدرُك أن يقولوا لولا أُنْزِلَ عليه كَنْزٌ أو جاء معه مَلَكٌ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل)[1]. وقال ذو الرمة:

لعلَّ انحدارَ الدمعِ يعْقُبُ راحةً ... من الوجدِ أو يشفي نجيَّ البلابلِ

وهناك ثلاثة أفعال تدل على الرجاء هي: عسى، وحرى، واخلولق. قال تعالى: (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده)[2]، وقال الشاعر:

عسى فرجٌ يأتي به اللهُ إنه ... له كلَّ يومٍ في خليقته أمرُ

وقال الشاعر:

عسى الكربُ الذي أمسيتُ فيه ... يكون وراءه فرجٌ قريبُ

وقال الأعشى:

إنْ يقلْ هنَّ من بني عبدِ شمسٍ ... فحرى أن يكون ذاك وكانا

هـ- تندرج صيغ العقود تحت مايدل على الإنشاء غير الطلبي؛ وذلك نحو قولك: «بعت» و«اشتريت» و«وهبت».

وننتقل إلى الحديث عن الإنشاء الطلبي بالتفصيل؛ لأن علماء البلاغة قد

١- هود / ١٢.

٢- المائدة / ٥٢.

أولوه عنايتهم، لدوره المهم فى التفنن فى القول والأداء اللغوى كما أشرنا من قبل.

الإنشاء الطلبى: وقد عرفناه من قبلُ بأنه مايستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وقلنا إنه خمسة أنواع: التمنى، الاستفهام، الأمر، النهى، النداء، ونحاول دراسة تلك الأنواع بالتفصيل:

١ - التمنى: تمنّى الشيءَ: أراده، والتمنى: تشهّى حصول الأمر المرغوب فيه، أو هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة. وقد فرق علماء البلاغة بين نوعين من التمنى:

- طلب الأمرالمحبوب الذى لايُرْجَى حصوله لكونه مستحيلاً. قال تعالى: (ياليتنى كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيما)[1]، وقال الشاعر:

ألاَ ليت الشبابَ يعودُ يوماً ... فأخبره بما فعل المشيبُ

وقال الشاعر:

ليت الكواكبَ تدنو لى فأنظمها ... عقودَ مدحٍ فما أرضى لكم كلمى

وقال المتنبى:

ليت الحوادثَ باعتنى الذى أخذتْ ... منّى بحلمى الذى أعطتْ وتجريبى
فما الحداثةُ من حلمٍ بما نعةٍ ... قد يوجد الحلمُ فى الشبّان والشيب

- طلب الأمر المحبوب الذى لايُرْجى حصوله لكونه ممكناً غير مطموع فى نيله. قال تعالى: (ياليت لنا مثلَ ما أُوتى قارون)[2]، وقال تعالى: (ياليت بينى وبينك بُعْدَ المشرقين)[3]. وقال مروان بن أبى حفصة فى رثاء معن بن زائدة:

فليت الشامتين به فَدَوْه ... وليت العمرَ مدّله فطالا

ولعلنا نلاحظ خلال الشواهد والأمثلة السابقة احتواءها على الحرف «ليت»،

---

١ - النساء / ٧٣.

٢ - القصص / ٧٩.

٣ - الزخرف / ٣٨.

ويعود السبب فى ذلك إلى أنّ المتكلم حين يريد صياغة تركيب يدل على التمنى لابد أن يحتوى على هذا الحرف؛ لأنه فى أصل وضعه اللغوى دال على ذلك.

وهناك بعض الألفاظ التى يمكن استعمالها للدلالة على التمنى، على الرغم من أنها ليست موضوعةً فى اللغة العربية لذلك، ولكن السياق الذى تقع فيه هو الذى يدل على معنى التمنى، وتلك الألفاظ ثلاثة: هل، لو، لعلّ.

وتُستعمل «هل» للتمنى على أساس أنها للاستفهام، والمستفهم عنه غير حاصل وغير مطموع فى حصوله؛ لذلك تأخذ «هل» حكم «ليت» من حيث نصبُ المضارع الواقع بعدها بـ «أنْ» مضمرة بعد الفاء فى جواب التمنى، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: (فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا)[1]؛ أى: ليت لنا شفعاء. ولايصح حمل المعنى على الاستفهام الحقيقى؛ إذ يقتضى ذلك عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتاً أو نفياً، وهم كانوا يعلمون أن لاشفيع لهم، فحَمْلُ الكلام عليه يؤدى إلى التناقض، وإنما حُمِلَ على التمنى دون غيره من أنواع الطلب؛ لأن المتحسِّر على نفى الشيء الذى لايطمع فى حصوله يستلزم أن يكون متمنياً له، وإلا لم يتحزنْ عليه؛ لهذا كان الكلام تمنياً فى المعنى. وقد كان التعبير بـ«هل» أبلغ من التعبير بـ«ليت» فى الآية الكريمة لإبراز المتمنى فى صورة الممكن الذى لاجزم بانتفائه إظهاراً لشدة الرغبة فيه، وهذا المعنى حاصل مع الاستفهام؛ لأن المستفهم عنه ينبغى أن يكون ممكناً، غير مجزوم بانتفائه. ومن استعمال «هل» فى معنى التمنى قول الشاعر:

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربَها أو من سبيلٍ إلى نصرِ بن حجاج [2]

وقول الشاعر:

أيا منزلىْ سلمى سلامٌ عليكما هل الأزمنُ اللائى مضين رواجعُ

ويرتبط استعمال «لو» للتمنى بالدلالة الموضوعة لها فى اللغة العربية؛ إذ إن

١- الأعراف / ٥٣.

٢- انظر: المنهاج الواضح فى البلاغة ٦٢ ومابعدها.

المتكلم يريد إظهار مايتمناه فى صورة «الممنوع» لعزته وقدرته، ولما كانت «لو» حرفَ امتناع فهى تناسب المقام الخاص بالرغبة فى إظهار المتمنّى فى صورة الممنوع، ومن أمثلة ذلك قول تعالى: (لو أنّ لنا كرّةً فنكونَ من المؤمنين)[1]، وقال جرير:

ولى الشبابُ حَميدةً أيامُه　　　لوكان ذلك يشترى أويرجعُ

وقال مسلم بن الوليد:

واهاً لأيام الصبا وزمانه　　　لو كان أسعفَ بالمقام قليلا

نأتى، بعد ذلك، إلى استعمال «لعل» للتمنى على الرغم من أنها فى أصل وضعها اللغوى تفيد الترجّى، ويعود السبب فى ذلك الاستعمال الإشعار بأن المتمنّى قريبُ الحصول، وإظهاره فى صورة الممكن المتوقّع حصولُه لشدة الرغبة فيه، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (ياهامان ابنِ لى صرحاً لعلى أبلغُ الأسبابَ أسباب السموات فأطّلعَ إلى إلهَ موسى)[2]؛ فإن فرعون – عليه اللعنة – يدرك أن مايأمله بعيدَ الحصول، ولكن ماهو فيه من عتو وسفه، ورغبته العارمة فى الوصول إلى مايريده، خيّلا إليه أنه قريب الحصول وليس بعيداً؛ لذلك أمر هامانَ ببناء الصرح. وقال العباس بن الأحنف:

أسربَ القطا هل من يُعير جناحَه　　　لعلى إلى مَنْ قد هَويتُ أطيرُ

* * *

٢– الاستفهام: وهو أحد أنواع الإنشاء الطلبى، وتدور دلالته الاصطلاحية حول طلب العلم بشىء لم يكن معلوماً من قبل، أو أن يستفهم المتكلم عن شىء لم يتقدم له به علم حتى يحصل له به علم. والكلمات التى يتوصل بها للاستفهام فى العربية نوعان:

١– الأعراف / ٥٣.
٢– غافر / ٣٦ و٣٧.

– حرفان: وهما الهمزة و«هل».

– أسماء: ما، مَنْ، أى، كم، كيف، أين، أنّى، متى، أيّان.

ونحاول التعرف على تلك الكلمات، خلال بعض الأمثلة التوضيحية.

تأتى الهمزة لطلب التصديق، وهو إدراك النسبة؛ أى تعيينها نحو: أجاء خالد؟ ويكون الجواب عنها بـ«نعم» أو«لا». وتأتى أيضاً للتصور، وهو إدراك المفرد؛ أى تعيينه نحو: أقام خالد أم قعد؟ ويكون الجواب عنها بتحديد المفرد؛ أى قام أو قعد.

والمسئول عنه بالهمزة هو الذى بعدها؛ فتقول: أكتبْتَ المحاضرةَ؟ إذا كان الشك فى الفعل نفسه وأردت الاستفهام أن تعلم وجوده. وتقول أأنت كتبْتَ المحاضرة؟ إذا كان الشك فى الفاعل: مَنْ هو. وتقول: أالمحاضرةَ كتبت؟ إذا كان الشك فى المفعول: من هو.

وتأتى «هل» لطلب التصديق فحسب نحو: هل جاء محمد؟ والجواب عنها يكون بـ«نعم» أو «لا».

نأتى، بعد هذا التوضيح لاستعمال الهمزة و«هل»، إلى تقديم أمثلة لأسماء الاستفهام لبيان معانيها.

١ – مَنْ: للاستفهام عن الجنس، أو تعيين أحد العقلاء، نحو: مَنْ هذا؟ ومَنْ هزم الصليبيين فى حطّين؟

ولكن كيف درس البلاغيون استخدام «من» فى الجملة العربية؟ يقول السكاكى: «وأما (من) فللسؤال عن الجنس من ذوى العلم، تقول: مَنْ جبريل؟ بمعنى: أبَشرهو أم ملَك أم جِنّى؟ وكذا: مَنْ إبليس؟ ومَنْ فلان؟ ومنه قوله تعالى: (فمن ربُّكما ياموسى)[1] أراد: من ما لككما ومدبر أمركما؟ أملَك هو أم جنى أم بشر؟ منكراً لأن يكون لهما رب سواه لادعائه الربوبية لنفسه، ذاهباً فى سؤاله هذا إلى معنى: ألكما رب سواى؟ فأجاب موسى بقوله (ربُّنا الذى أعطى كلَّ شىء خلْقَه ثم هدَى)[2]. كأنه قال: نعم لنا رب سواك، وهو الصانع الذى إذا سلكتَ

١– طه / ٤٩.

٢– طه / ٥٠.

الطريقَ الذى بيَّن بإيجاده لما أُوجد، وتقديره إياه على ماقدَّر، واتبعتَ فيه الخرِّيت[١] الماهر، وهو العقل الهادى عن الضلال؛ لزمك الاعترافُ بكونه ربًا، وأن لارب سواه، وأن العبادة له منى ومنك ومن الخلق أجمع حق لامدفع له»[٢].

٢- ما: قال الخطيب القزوينى: «أما (ما) فقيل يُطلب به إما شرح الاسم كقولنا: مالعنقاء؟ وإما ماهية المسمى كقولنا: ما الحركة؟»[٣].

وقال السكاكى: «أما (ما) فللسؤال عن الجنس، تقول: ماعندك؟ بمعنى: أىُّ أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه: إنسان، أو فرس، أوكتاب، أو طعام؛ وكذلك تقول: ما الكلمة؟ وما الاسم؟ وما الفعل؟ وما الحرف؟ وما الكلام؟وفى التنزيل: (فما خطبكم)[٤] بمعنى: أى أجناس الخطوب خطبكم. وفيه:(ماتعبدون من بعدى)[٥] أى: أى من فى الوجود تؤثرونه فى العبادة؟ أو عن الوصف، تقول: مازيد وماعمرو؟وجوابه: الكريم، أو الفاضل، وماشاكل ذلك»[٦].

٣- أى: وتأتى للسؤال عما يميز أحد المتشاركَيْن فى أمرٍ يعمهما، نحو: أى البلدين أجمل القاهرة أم الإسكندرية؟ وقال تعالى: (أىُّ الفريقين خير مقاما)[٧] أى: أنحن أم أصحاب محمد؟ وقال تعالى: (أيكم يأتينى بعرشها)[٨] أى: الإنسى أم الجنىّ؟

و(أى) بحسب ماتضاف إليه، فيُسأل بها عن الزمان نحو: فى أىّ يوم تسافر؟ والمكان نحو: فى أى بلدٍ تقيم؟ والحال نحو: أى الطالبين أفضل على أم خالد؟ ويُسأل بـ (أى) عن العاقل وغير العاقل، كما هو واضح من الأمثلة السابقة.

١- الخريت: الدليل الحاذق بالدلالة.
٢- مفتاح العلوم: ٣١١ ومابعدها.
٣- الإيضاح: ٢٣٠.
٤- الحجر / ٥٧؛ الذاريات: ٣١.
٥- البقرة / ١٣٣.
٦- مفتاح العلوم: ٣١٠.
٧- مريم / ٧٣.
٨- النمل / ٣٨.

٤- **كم**: وهى للسؤال عن العدد نحو: كم كتاباً عندك؟ وقال تعالى: (قال قائل منهم كم لبثتم)[١] أى: كم يوماً أو كم ساعةً؟ وقال تعالى: (قال كم لبثتم فى الأرض عددَ سنين)[٢] وقال تعالى: (سلْ بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة)[٣]، ومنه قول الفرزدق:

كم عمةً لكَ ياجريرُ وخالةً   فَدْعَاءَ قد حلبتْ على عشارى[٤]

فيمن روى «عمة» بالنصب.

٥- **كيف**: وهى للسؤال عن الحال، ولابد من تعيينه؛ لذلك إذا قيل: كيف خالد؟ فجوابه: صحيح أو سقيم أوجذلان أوغير ذلك من الأحوال التى يمكن أن تعترى الإنسان.

٦- **أين**: وهى للسؤال عن المكان، نحو: أين المحاضرة؟ وأين تسافر؟ وأين كنْتَ؟

٧- **أنّى**: وتستعمل تارة بمعنى «كيف» كقوله تعالى: (فأتوا حرثكم أنّى شئتم))[٥] أى: كيف شئتم، وتارة بمعنى «من أين» كقوله تعالى: (أنّى لك هذا))[٦] أى: من أين، وتارة بمعنى «متى» نحو: أنّى يفيضُ نهرُ النيلِ؟ وأنّى تسافر؟ ويمكن التعرف على تلك الاستعمالات فى ضوء السياق الذى ترد فيه.

٨- **متى**: وهى للسؤال عن الزمان سواء أكان ماضياً أم مستقبلاً؛ فتقول: متى عدْتَ من السفر؟ ومتى تسافر؟.

٩- **أيّان**: ويُطلب بها تعيين الزمان المستقبل خاصة، وأكثر ماتكون فى مواضع

١- الكهف / ١٩.

٢- المؤمنون / ١١٢.

٣- البقرة / ٢١١.

٤- فدعاء: مؤنث أفدع، والفدعاء المعوجة اليدين من العمل.

٥- البقرة / ٢٢٣.

٦- آل عمران / ٣٧.

التفخيم؛ أى تلك المواضع التى يُقصد فيها تعظيمُ المسئول عنه والتهويلُ بشأنه، كقوله تعالى: (يسألُ أيانَ يومُ القيامة)(١)، و(يسألون أيانَ يومُ الدين)(٢).

بقى أن نشير إلى أن ألفاظ الاستفهام تخرج عن أصل وضعها، فيستفهم بها عن الشىء مع العلم به لأغراض تستفاد من سياق الحديث ودلالة الكلام؛ لذلك يقول القزوينى: «ثم هذه الألفاظ كثيراً ماتستعمل فى معان غير الاستفهام بحسب مايناسب المقام»، ومن هنا فإن علماء البلاغة يرون أن ماتقدم من معانى تلك الألفاظ إنما هى معانٍ نحوية، لاشأن لها بالبلاغة، وإنما ذكرت تمهيداً لما قد تستعمل فيه من المعانى المجازية التى يمكن التوصل إليها من القرائن، وتلك المعانى على النحو الآتى:

١ – الاستبطاء: كما فى قولك لمخاطب دعوته فأبطأ فى الإجابة: كم دعوتُك؟ فليس المراد الاستفهام عن عدد الدعوة؛ إذ لايتعلق به غرض، وإنما الغرض استبطاء الإجابة، وأن تكرر الدعوة قد باعد بين زمن الإجابة وزمن السؤال. وقال تعالى (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصرُ الله)(٣)؛ فالاستفهام عن زمان النصر مسبَّب عن الجهل بذلك الزمان، والجهل به مسبب عن استبعاده عادة، واستبعاده مسبب عن استبطائه. وقال المتنبى:

حتّامَ نحن نسارى النجمَ فى الظُّلَمِ ... ومــاسُراه على خُفٍّ ولاقَدَمِ(٤)

وقال البهاء زهير:

أمــولاى إنى فى هواك مــعــذَّبٌ ... وحتّام أبقى فى العذابِ وأمكثُ

٢ – التعجب: كما فى قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: (مالىَ لا أرى الهدهد)(٥)، والغرض من الاستفهام التعجب؛ لأن الهدهد ماكان يغيب عن

١ – القيامة / ٦.
٢ – الذاريات / ١٢.
٣ – البقرة / ٢١٤.
٤ – نسارى: من السرى، وهو مَشْى الليل. يقول: حتى متى نسرى مع النجم فى الليل، وهو لايسرى على خف كالإبل ولاعلى قدم كالناس، فلايتعب مثلنا ومثل مطايانا.
٥ – النمل / ٢٠

سليمان إلا بعلمه، فلما لم يبصره تعجب من حال نفسه وكيف أنه لم يره. والمتعجب منه فى الحقيقة هو غيبة الهدهد من غير إذن، وقد خرج الاستفهام إلى التعجب؛ لأن السؤال عن السبب فى عدم الرؤية يستلزم الجهل بهذا السبب. وقال تعالى:(مالهذا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويمشى فى الأسواقِ)[1]. وقال المتنبى وقد أصابته الحمَّى:

أبنتَ الدهرِ عندى كلُّ بنتٍ ... فكيف وصلْتِ أنتِ من الزِّحَامِ[2]

وقال أبو تمام:

ما للخطوبِ طغتْ عليَّ كأنها ... جهلتْ بأنَّ نداك بالمرصادِ

فهو يتعجب من تراكم الشدائد عليه فى حين أن ممدوحه لها بالمرصاد، يدفعها عنه بعطاياه ونداه وكرمه، ولذلك قال «كأنها جهلت بأن نداك بالمرصاد».

وقال المتنبى فى سيف الدولة وقد أصابته علة:

وكيف تُعلك الدنيا بشيءٍ ... وأنت لعلة الدنيا طبيبُ

وكيف تنوبُك الشكوى بداءٍ ... وأنت المستغاثُ لما ينوبُ

٣- النفى: ويتحقق ذلك عندما تأتى الكلمة الدالة على الاستفهام للنفى، لالطلب العلم بشيء كان مجهولاً، ومن ذلك قول البحترى:

هل الدهرُّ إلا غَمرةٌ وانجلاؤها ... وشيكاً وإلا ضَيقة وانفراجُها[3]

فهو لايسأل عن شيء مجهول بالنسبة إليه، وإنما يريد أن يقول: ما الدهر إلا شدة سرعان ماتنجلى، وماهو إلا ضيق يعقبه فرج؛ لذلك لم تأت «هل» للاستفهام عما هو مجهول، وإنما أتت بالنفى. وقال أبو فراس يرثى أمَّه:

١- الفرقان / ٧.

٢- بنت الدهر: يقصد الحمى التى أصابته، وبنات الدهر: شدائده ومصائبه. يقول للحمى: عندى كل نوع من أنواع الشدائد، فكيف لم يمنعك ازدحامها من الوصول إلىّ

٣- الغمرة: الشدة، وانجلاؤها: انكشافها، ووشيكاً: سريعاً.

إلى مَنْ أشتكى ولمن أناجى | إذا ضاقتْ بمافيها الصدورُ
بأىِّ دعاءِ داعيةٍ أوَقى | بأى ضياءِ وجهِ أستنيرُ
بمن يستدفعُ القدر الموفى | بمن يستفتح الأمْرُ العسيرُ

٤- التمنى: ومن ذلك قوله تعالى: (**فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا**)[١]، وقوله تعالى: (**لو أن لنا كرةً فتكون من المؤمنين**)[٢]، وقوله تعالى: (**ياهامان ابنِ لى صرحاً لعلى أبلغُ الأسبابَ السمواتِ فأطَّلعَ إلى إله موسى**)[٣]، والتمنى بـ(هل) و (لو) و (لعل) على الترتيب. وقال أبو العتاهية يمدح الأمين:

تذكّر أمينَ الله حقى وحرمتى | وماكنتَ تولينى لعلك تذكرُ
فمن لىَ بالعينِ التى كنتَ مرةً | إلىَّ بها فى سالفِ الدهرِ تنظرُ

وقال الشاعر:

هل بالطلولِ لسائلٍ ردٌّ | أم هل لها بتكلّمٍ عهدُ

وقد سبق العرض لبعض تلك الشواهد حين الحديث عن التمنى ببعض الألفاظ غير الموضوعة له.

٥- التقرير: والمراد به هاهنا حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه، وإلجائه إليه، إثباتاً أو نفياً لغرض من الأغراض، ويشترط أن يكون المقرر به واقعاً بعد همزة الاستفهام؛ وذلك كقولك: «**ألم تفعلْ ذلك؟**» إذا كنت تعلم أنه فعل، وتريد أن تحمله على الإقرار به. وقال تعالى: (**ألم نشرح لك صدرك**)[٤]، وقال تعالى: (**ألم يجدك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى**)[٥]. وقال البحترى:

١- الأعراف / ٥٣.
٢- الأعراف / ٥٣.
٣- غافر / ٣٦و٣٧.
٤- الشرح / ١.
٥- الضحى / ٦ - ٨.

ألستَ أعـمَّهم جـوداً وأزكـا ... هُمُ عوداً وأمضاهم حساما[1]

فهو يريد حمل ممدوحه على الإقرار بما ادعاه له من الفوق على بقية الخلفاء في الجود وبسطه الجسم والشجاعة، ولايقصد البحترى أن يسأله؛ لذلك الاستفهام تقريرى. وقال ابن الرومى:

ألستَ المرءَ يجبى كلَّ حمـدٍ ... إذا مالم يكن للحمـد جابِ[2]

فهو يريد حمل ممدوحه على الإقرار بما ادعاه من اجتماع المحامد له.

٦- التنبيه على الضلال: كقوله تعالى:(فأين تذهبون)[3]؛ فليس القصد الاستفهام عن مذهبهم؛ بل المراد التنبيه على ضلالهم، وأنه لامذهب لهم ينجون منه.

٧- الإنكار:كقولك: أتشربُ الخمرَ؟ وأتؤذى أباك؟ لمن تعلم أنه يشرب الخمر، أو يؤذى أباه؛ فالكلام إذاً ليس محمولاً على الاستفهام الحقيقى؛ إذ إن المستفهم عالم بما يستفهم عنه، وإنما هو محمول على إنكار الشرب، أو إنكار الأذى. وقال المتنبى فى المديح:

أتلتمسُ الأعداءُ بعد الذى رأتْ ... قيـامَ دليلٍ أو وضوحَ بيانِ

فهو ينكر على الأعداء الارتياب فى عُلا كافور والتماسهم البراهين والأدلة على ماكتبه الله من النصر واختصه به من الجد السعيد، بعد رؤيتهم تردى فى المهالك كل من أراد به شراً، وكيف يصيب الزمان كل من نوى له سوءاً؛ لذلك كان الاستفهام على سبيل الإنكار. وقال البحترى:

أأكفرُك النَّعْمَاءَ عندى وقد نمتْ ... علـىَّ نمـوَّ الفجرِ والفجرُ ساطعُ

وأنت الذى أعـززْتَنى بعـد ذِلتى ... فلا القولُ مخفوض ولاالطرف خاشعُ

١- أزكاهم عوداً : أقواهم جسماً.

٢- يجبى: يجمع

٣- التكوير / ٢٦.

فهو يقول لممدوحه إنه لايليق بى الكفر بنعمائك وقد غمرتنى بها غمراً، وبدلتنى بالذل عزّاً، وبالخضوع والخشوع عظمة وعلواً؛ ولذلك الاستفهام إنكارى

وقد ورد الاستفهام الإنكارى كثيراً فى آى الذكر الحكيم. قال تعالى: (**أفأصفاكم ربُّكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا**)[1]؛ أى: أخصّكم ربكم بالذكور وخصَّ نفسه بالبنات؟ أى إنه لم يفعل هذا لتعاليه عن الولد مطلقاً. وقال تعالى:(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرَ أتتخذُ أصناماً آلهة)[2]؛ فالمنكر هو الفعل نفسه؛ أى اتخاذ الأصنام آلهة.

٨- **التسوية**: كقوله تعالى: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون)[3]، والهمزة الأولى فى (أأنذرتهم) تسمى همزة التسوية، وقال تعالى:(سواء علينا أو عظْتَ أم لم تكن من الواعظين)[4]. وقال المتنبى:

ولستُ أبالى بعد إدراكىَ العُلا ... أكان تراثاً ماتناولت أم كسبا

٩- **التحقير**: كقولك لمن تعرفه: مَنْ هذا؟ فالاستفهام ليس محمولاً على حقيقته؛ لأنه يستعدى الجهل بالمسئول عنه، وأنت لاتجهله، فهو إذاً محمولا على التحقير بقرينة الحال. وقال الشاعر:

فدعِ الوعيدَ فما وعيدُك ضائرى ... أطنينُ أجنحةِ الذبابِ يضيرُ

وقال الشاعر:

أتظنُّ أنك للمعالى كاسبٌ ... وجنىُّ أمرِك شرَّةٌ وشَنَارُ[5]

١٠- **التهويل**: وذلك كقراءة ابن عباس لـ(من) الثانية على أنها اسم

١- الإسراء / ٤٠.

٢- الإنعام / ٧٤.

٣- البقرة / ٦.

٤- الشعراء / ١٣٦.

٥- الشرة: الشر والحرص والحدة، والشنار: أقبح العيب.

استفهام في قوله تعالى: (ولقد نجيْناَ بنى إسرائيل من العذاب الُمهين مَنْ فرعون)(١)؛ لأنه لما وصل الله تعالى العذاب بأنه مهين لشدته وفظاعة شأنه، أراد أن يصور كنهه فقال: (مَنْ فرعون)؛ أى أتعرفون من هو فى فرط عتوه وتجبره؟ ماظنكم بعذاب يكون هو المعذب به؟ ثم عرف حاله بقوله: (إنه كان عالياً من المسرفين).

١١- الاستبعاد: قال تعالى: (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون)(٢). فلايجوز حمل (أنى لهم الذكرى) على حقيقة الاستفهام لاستحالته من العلى القدير العالم بخفايا الأمور وظواهرها؛ فالمراد إذاً استبعاد تذكرهم بدليل قوله بعد: (وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه) فكأنه قيل: من أين لهم التذكر والرجوع إلى الحق، وقد جاءهم رسول يعلمون أمانته فأعرضوا عنه .وقال أبو تمام:

مَنْ لى بإنسانٍ إذا أغضبته ... وجهلت كان الحلم رد جوابه

* * *

٣- الأمر: وهو نقيض النهى؛ يقال: أمَرَه يأمُره أمراً وإماراً فائتمر؛ أى قبِلَ أمره.

والأمر فى مصطلح أهل البلاغة«هو صيغة تستدعى الفعل، أو قولٌ ينبىء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء»(٣). والمقصود بالاستعلاء أن الآمر ينظر لنفسه على أنه أعلى منزلةً ممن يخاطبه أو يصدر إليه الأمر، سواء أكان هذا الآمر عالياً فى الواقع أم لا.

وللأمر أربع صيغ يمكن التوصل بواسطتها إلى طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وتلك الصيغ هى:

١- فعل الأمر: كقوله تعالى:(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول)(٤) وقوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)(٥) وقوله تعالى: (واصنع الفلك بأعيننا)(٦) وقال الحطيئة:

١- الدخان/ ٣٠و٣١.
٢- الدخان/١٣و١٤.
٣- الطراز/٣/٢٨١.
٤- النور/٥٦.
٥- التوبة / ١٠٣.

دَعِ المكارمَ لاترحلْ لبغيتها واقعُدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

وقال الشاعر:

ذرينى فإنَّ البُخْلَ لايخلدُ الفتى ولايهلكُ المعروفُ مَنْ هو فاعلُه

٢ – المضارع المقترن بـ«لام الأمر» كقوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَيْنٍ إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل)[1]؛ وقوله تعالى: (لينفقْ ذو سَعَةٍ من سَعَته)[2]. وقال أبو تمام:

كذا فليجلَّ الخطب وليفدحِ الأمرُ فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

٣– اسم فعل الأمر كقوله تعالى: (عليكم أنفسَكم لايضركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم)[3]. وقال الأخطل:

فعليك بالحجاج لاتعدلْ به أحداً إذا نزلتْ عليك أمورُ

وقال الشاعر فى صفة السيوف:

تذرُ الجماجمَ ضاحياً هاماتُها بله الأكف كأنها لم تُخْلَقِ

وقال الشاعر:

رويد الذى محضته الود صافيا إذا ما هفا حتى يظل أخاً لكا

٤ – المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى:(وبالوالدين إحسانا)[4]؛ أى وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً؛ وقوله تعالى:(فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب)[5]؛ أى اضربوا الرقاب ضرباً. وقال قطرى بن الفجاءة:

فصبراً فى مجالِ الموتِ صبراً فما نيلُ الخلودِ بمستطاعِ

وهناك بعض المعانى التى يخرج إليها الأمر عن معناه الأصلى بحسب مناسبة

١– البقرة / ٢٨٢.

٢– الطلاق/٧

٣– المائدة/١٠٥.

٤– البقرة/٨٣.

٥ – محمد / ٤.

المقام، ومن ذلك مايأتى:

١ -الإباحة: كقولك فى مقام الإذن: جالس الحسن أو ابن سيرين. وقال تعالى: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر)[1]. وقال كثير عزة:

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومةً لدينا، ولامقليةً إن تقلَّت[2]

أى: لا أنت ملومة ولامقلية، ووجه حُسْن هذا البيت إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الأمر كأنه مطلوب؛ أى مهما اخترتِ فى حقىَ من الإساءة والإحسان؛ فأنا راضٍ به غاية الرضا، فعامليني بهما، وانظرى: هل تتفاوت حالى معك فى الحالين؟

٢- التهديد: وذلك حين استعمال صيغة الأمر فى مقام عدم الرضا بالمأمور به كما فى قوله تعالى:(اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير)[3]؛ فالأمر موجَّه لمن يلحدون فى آيات الله تعالىٰ. وقال الشاعر:

إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالى ولم تستحى فاصنعْ ماتشاءُ

٣- التعجيز: كقولك لمن يدَّعى أمراً تعتقد أنه ليس فى وُسعه: «افعله» وقال تعالى:(فأتوا بسورة من مثله)[4]. وقال الطغرائى:

حبُّ السلامة يثنى همَّ صاحبه عن المعالى ويُغرى المرءَ بالكسلِ
فإن جنحْتَ إليه فاتخذْ نفقاً فى الأرضِ أو سلماً فى الجوِّ فاعتزلِ

وقال الشاعر:

أرونى بخيلاً طال عمراً ببخلهِ وهاتوا كريماً مات من كثرةِ البذلِ

١- البقرة / ١٨٧.

٢- مقلية: بغيضة مكروهة، تقلت: تكرهت وتبغضت.

٣- فصلت/ ٤٠.

٤- البقرة/ ٢٣.

٤- التسخير: أى جعل الشيء مسخراً منقاداً؛ وذلك إذا استعملت الصيغة حيث يكون المأمور منقاداً لأمر لاحيلة له فيه كما فى قوله تعالى:(كونوا قردةً خاسئين)[١]، والعلاقة بين الأمر والتسخير السببية؛ لأن إيجاب شيء لاقدرة للمخاطب عليه يتسبب عنه تسخيره بذلك.

٥-الإهانة: وهى إظهار مافيه تصغير المهان وقلة المبالاة به، وذلك إذا استعملت الصيغة فى مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور كما فى قوله تعالى:(كونوا حجارةً أو حديداً)[٢]. والعلاقة بين الأمر والإهانة اللزوم؛ لأن طلب الشيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه، مع كونه من الأمور الخسيسه يستلزم إهانته. وقال تعالى:(ذقْ إنك أنت العزيزُ الكريم)[٣]. وقال الجرير فى هجاء الفرزدق:

خـذوا كُحـلاً ومجـمرةً وعطراً ... فـلسـتم يافـرزدقُ بالـــرجـالِ
وشـمـوا ريح عـيبـتكم فلسـتم ... بأصـحـاب العناقِ ولا النزالِ[٤]

٦- التسوية: وذلك إذا استعملت صيغة الأمر فى مقام توهم المخاطب فيه رجحان أحد الأمرين على الآخر، كقوله تعالى: (اصبروا أو لاتصبروا)[٥]؛ فقد يتوهم المخاطب أن الصبر نافع، فيدفع ذلك بالتسوية بين الصبر والجزع. وقال تعالى:(أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يُتقبَّلَ منكم)[٦] فقد توهم أن الإنفاق طوعاً مقبول، دون الإنفاق كرهاً، فسوّى بينهما فى عدم القبول.

٧- التمّنى: وذلك إذا استعملت صيغة الأمر فى مقام طلب ماهو محبوب، وفى الوقت نفسه لاقدرة للطالب عليه، ولاطماعية له فى حصوله لتعذره، كقول

١- الأعراف/١٦٦.

٢- الإسراء/٥٠.

٣- الدخان/٤٩.

٤-العيّبة: وعاء من أدم يكون فيه المتاع.

٥- الطور/١٦.

٦- التوبة/٥٣.

امرىء القيس:

ألا أيهــا الليلُ الطويلُ ألاَ انجلى　　　بصبح ومـا الإصبـاحُ منك بأمثل

فليس الغرض طلب الإنجلاء من الليل؛ لأن الليل ليس مما يُخاطب ويُؤمَر، فحصول الانجلاء متعذر، وإنما غرض الشاعر تمنى ذلك تخلصاً من تباريح الهوى التى يعانى منها. وقال عنترة العبسى:

يادارَ عــبلةَ بالجــواءِ تكلمى　　　وعِمِى صباحاً دارَ عبلةَ واسلمى[1].

وقال أبو العلاء:

فيـاموتُ زُرْ إن الحيـاةَ ذميـمـةٌ　　　ويـانـفـسُ جِدى إن دهـركِ هـازلُ

٨- الالتماس: إذا استعملت صيغة طلب الفعل على سبيل التلطف، كقولك لمن يساويك فى الرتبة: «افعلْ» بدون الاستعلاء.

٩- الدعاء: إذا استعملت صيغة الطلب على سبيل التضرع كقوله تعالى: (رب اغفرْ لى ولوالديّ)[٢].

١٠- النصح والإرشاد: والطلب معهما لاتكليف فيه ولا إلزام، وإنما يحمل فى طياته معنى النصيحة والموعظة والإرشاد. قال الشاعر:

أحسنْ إلى الناسِ تستعبدْ قلوبَهم　　　فطالما استـعـبـد الإنسـانَ إحسـانُ

وقال الشاعر:

شــاورْ ســواك إذا نابتك نائبــةٌ　　　يومـاً، وإن كنتَ من أهلِ المشورات

* * *

٤ -النهى: وهو نقيض الأمر؛ يقال: نهاه نهياً فانتهى وتناهى: كَفَّ. والنهى عند علماء البلاغة عبارة عن قول ينبىء عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام.

١- عبلة: صاحبة الشاعر، والجواء: اسم وادٍ فى ديار بنى عبس، وعمى صباحاً: انعمى.

٢- نوح/ ٢٨.

ويتفق الأمر والنهى فى أن كل واحد منهما لابد فيه من اعتبار الاستعلاء، وأنهما جميعاً يتعلقان بالغير؛ فلايمكن أن يكون الإنسان آمراً لنفسه أو ناهياً لها، وأنهما جميعاً لابد من اعتبار حال فاعلهما فى كونه مريداً لهما، إلى غير ذلك من الوجوه الاتفاقية.ويختلفان فى الصيغة؛ لأن كل واحد منهما مختص بصيغة تخالف الآخر، ويختلفان فى أن الأمر دال على الطلب والنهى دال على المنع،ويختلفان أيضاً فى أن الأمر لابد فيه من إرادة مأموره،وأن النهى لابد فيه من كراهية منهيّة[١] .

والنهى له صيغة واحدة فقط هى المضارع المسبوق بـ« لا» الناهية الجازمة كقوله تعالى: (ولاتجسسوا ولايغتبْ بعضُكم بعضاً)[٢]؛ وقوله تعالى: (ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبُهُ)[٣]. وقال الشاعر:

لاتخلنى أَرْضى الهوانَ لنفسى ... الرضا بالهوانة عجز صريحُ

وقال الشاعر:

لاتقولوا حطَّنا الدهرُ فما ... هو إلا من خيالِ الشعراء

وقال الشاعر:

لاتَحُذْ حَذْوَ عصابةٍ مفتونةٍ ... يجدون كلَّ قديمِ شيءٍ منكرا

وهناك بعض المعانى التى يخرج إليها النهى عن معناه الأصلى كالدعاء والالتماس والتمنى والنصح والارشاد وسواها ويمكن تقديم تلك المعانى كما يأتى:

١ - **الدعاء**: وذلك حين يكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى شأناً ومنزلة. قال تعالى: (ربَّنا لاتؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به)[٤]. وقال النابغة للنعمان بن المنذر:

فلا تتركنّى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مطلىٌّ به القار أجربُ

١- الطراز: ٢٨٥/٣ ومابعدها.

٢- الحجرات/١٢

٣- البقرة / ٢٨٣.

٤- البقرة / ٢٨٦.

٢- الالتماس: وذلك عندما يصدر النهى من شخص إلى آخر يتساويان فى المنزلة والمكانة نحو: «لاتبرحْ مكانكَ حتى أعود». وقال أبو فراس مخاطباً من يساويه:

فلا تصفنَّ الحربَ عندى فإنها طعامىَ مُذْ بعتُ الصِّبا وشرابى

٣- الإرشاد: نحو: (لاتسألوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَلكم تسؤكم)(١). وقال المتنبى:

إذا غامرْتَ فى شرفٍ مروم فلاتقنعْ بما دون النجومِ

وقال الطغرائى:

لاتطمحنَّ إلى المراتب قبل أنْ تتكامل الأدواتُ والأسبابُ

وقال أبو العلاء:

ولاتجلسْ إلى أهل الدنايا فإنَّ خلائق السفهاءِ تعدى

٤- التوبيخ: وذلك فى الأمور التى لايجب أن تصدر من الإنسان. قال تعالى: (لايسخر قوم من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم)(٢). وقال المتنبى:

لاتحسب المجدَ تمراً أنت آكلُه لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصَّبِرَا

٥- التحقير: وهدفه الإزراء بالمخاطب والتقليل من شأنه وقدراته. قال الشاعر:

لاتطلب المجدَ إنَّ سُلَّمه صعب وعِشْ مستريحاً ناعمَ البالِ

وقال ابن الرومى:

فلاتخش من أسهمى قاصداً ولاتأمنَنَّ من العاثر
ولكن وقاك معراتها تضاؤلُ قدرك فى الخاطر

وسواها من المعانى التى يفيد السياق فى التوصل إليها.

* * *

٥- النداء: وهو دعوة المخاطب ليقبل على الداعى بحرف ينوب مناب

١- المائدة / ١٠١.

٢- الحجرات / ١١

الفعل «أدعو» فإذا قلت: ياخالدُ، كان المعنى: أدعو خالداً، والأحرف المستعملة للنداء ثمانية: الهمزة أى، يا، أيا، هيا، آ، آى، وا. وتلك الأحرف من حيث الاستعمال قسمان:

أ- الهمزة، أى: لنداء القريب.

ب- الأحرف الستة الباقية لنداء البعيد.

وقد يُنزلُ البعيد منزلة القريب فيُنادى بالهمزة أو «أى» للدلالة على أنه لايغيب عن القلب، ويحضرفى الذهن، ومن أمثلة ذلك قولُ الشاعر:

أعَلىُّ إنْ تكُ بالعراقِ نسيتنى   فأنا بمصرَ على هواك مقيمُ

وقول الشاعر:

أىْ بلادى فى القلبِ مثواكِ مهما   طال منفاى عن ثراكِ الحبيبِ

وقد ينزَّل القريب منزلة البعيد فيُنادى بغير الهمزة و«أى» للتوصل إلى بعض الأغراض الدلالية نحو:

١-الدلالة على أن المنادى رفيع القدر، عالى المرتبة، عظيم الشأن، كقول أبى بكر بن النطاح فى مدح أبى دلف العجلى (ت ٢٦٢هـ) أحدِ القواد الشجعان فى عهد المأمون والمعتصم:

أبا دلفٍ بُورِكْتَ فى كلِّ بلدةٍ   كما بوركتْ فى شهرِها ليلةُ القدرِ

وقال الشاعر:

يا رجاءَ العيونِ فى كلِّ أرضٍ   لم يكن غير أنْ أراك رجائى

٢- الدلالة على أن المنادى وضيع منحطُّ الدرجة، وذلك كقول الفرزدق يهجو جريراً:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   إذا جمعتْنا ياجريرُ المجامعُ

وقول الشاعر:

أيا هذا أتطمعُ فى المعالى   ومايحظى بها إلاَّ الرجالُ

٣- الدلالة على أن المنادى غافل شارد الذهن، وذلك كقول أبى العتاهية:

أيَا مَنْ عـاش فى الدنيـا طـويـلاً وأفنـــى العـمـرَ فـى قِيـلٍ وقـالِ
وأتعـــبَ نفسـهَ فيـمـا سيفـنـى وجـــمـع مـن حـرامٍ أو حـــلالِ
هَبِ الدنيـا تُقـاد إليك عـفـواً أليس مــصـــيـرُ ذلك للزوالِ

ونشير إلى أنّ النداء يخرج عن معناه الأصلى إلى أغراض أخرى كالتحسر والإغراء والزجر فحين يقول ابن الرومى:

ياشـــبابى! وأيـن منـــى شـبابى آذنـتنى حـبـاله بانقـــضــــابِ
لهفَ نفسى على نعيمى ولهوى تحـت أفـنـانه اللـدانِ الـرطـابِ

يريد إظهار التحسر على شبابه الذى ولىّ ومضى. وقال الشاعر فى التوجع والحسرة:

أيا قبرَ معنٍ كيف واريْتَ جودَه وقـد كـان منه البـر والبـحـر مُتْرعاَ

وحين يقول الشاعر:

ياقلبُ ويحك ماسـمـعتَ لناصح لمّاَ ارتميْتَ ولااتقـيتَ مـلامـا

يريد الزجرَ. وحين تقـول لمن أقبل يتظلم: «يامظلوم تكلم» فـهـو إغـراء... وهكذا.

* * *

التقدم والتأخير

من الظواهر اللغوية التى تطبع التركيب النحوى للجملة العربية تقديم ما حقُّه التأخير أو العكس، لبعض الأغراض المعنوية، و قد أشار سيبويه فى كتابه إلى بعض الشواهد المتصلة بتلك الظاهرة، وتبعه جيل من علماء النحووالبلاغة الذين توسعوا فى دراسة التقديم والتأخير من حيث التطبيق فى النصوص المختلفة، وأشاروا إلى أنه دليل على تمكن العرب ومقدرتهم على التصرف فى فنون القول وامتلاكهم لناصية اللغة، لذلك يقول عنه الزركشى :«هو أحد أساليب البلاغة، فإنهم أتوا به دلالةً على تمكنهم فى الفصاحة وملكتهم فى الكلام وانقياده لهم، وله فى القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق»[١].

وقد ربط سيبويه «التقديم والتأخير» فى التركيب بعناية المتكلم واهتمامه، وطبّق ذلك على جملة :ضَرَبَ عبدُ الله زيداً، التى يجوز فيها تقديم المفعول على الفاعل فنقول :ضرب زيداً عبدُ الله؛ لأنه معقد الفائدة وأساس الاهتمام، وعبّر سيبويه عن هذا بقوله :«فإن قدمت المفعول وأخّرتَ الفاعل جرى اللفظ كما جرى فى الأول، وذلك قولك :ضرب زيداً عبد الله، لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأولَ منه وإن كان مؤخراً فى اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدماً،وهو عربى جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذى بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنياهم»[٢].

واهتم عبد القاهر بالتقديم والتأخير في دلائله، وعقدله باباً قائماً بذاته، وقدّم لذلك الكثير من الشواهد، محاولاً التعرفَ على ما فيها من الجمال، وكان هذا غرضه الأساسى، لذلك استهل هذا الباب بقوله :«هو باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفتر لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعُه، وحُول اللفظ عن مكان إلى مكان». ثم

---

(١) البرهان فى علوم القرآن :٢٣٣/٣

(٢) الكتاب :٣٤/١

يشير عبد القاهر إلى بعض القوانين المتصلة بالتقديم والتأخير فى بناء الجملة، لذلك يرى أن تقديم الشئ على وجهين .

الأول : تقديمٌ يقال إنه على نية التأخير ، وذلك فى كل شئ أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليه، وفى جنسه الذى كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل كقولك: منطلق زيد، وضرب عمراً زيد، معلوم أن «منطلق» و «عمراً» لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ أو مرفوعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله، كما يكون إذا أخرت.

الثانى : وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشئ عن حكم إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجئ إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا، ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق، حيث تقول مرة : زيد المنطلقُ، وأخرى: المنطلقُ زيدٌ، فأنت فى هذا لم تقدم «المنطلق» على أن يكون متروكاً على حكمه الذى كان مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر «زيداً» على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً[1] .

وقد درس علماء البلاغة بعض أبواب النحو دراسة تطبيقية فى ضوء التقديم والتأخير، ونحاول التعرف على ذلك، ونبدأ بالحديث عن :

أولاً : تقديم المسند إليه على المسند: الأصل فى التركيب النحوى للجملة العربية أن يتقدم المبتدأ (المسند إليه) على الخبر (المسند) ، وقد أشار علماء البلاغة إلى أنّ هذا التقديم الإجبارى له بعض الأغراض، من بينها ما يأتى :

١- أنّ أصل المبتدأ التقديم، إذ هو المحكوم عليه ولا مقتضى للعدول عنه، نحو : العدلُ أساسُ الملكِ، ورأسُ الحكمةِ مخافةُ اللهِ.

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٠٦ وما بعدها .

٣- صلاحية اسم المسند إليه للتفاؤل الذى يصحبه تعجيل المسرة؛ لذلك إذا استمع الإنسان، فى البداية لما يبعث على السرور شعر بالسعادة والفرح، نحو: سعيد ابن سعيد فى دار فلانٍ، والهدى فى قلوب المخلصين، والنجاح فى الامتحان للمجتهد، ولعله من المفيد الإشارة إلى أن ذلك يتصل بالجانب الاجتماعى فى استعمال اللغة، ولجوء الإنسان إلى انتقاء الألفاظ المتصلة بالمواقف المختلفة ، وكيف يسعد المستمع حين نحسن الاستهلال، وهناك ما هو عكس ذلك، أى «تعجيل المساءة» نحو :السجنُ على جهة التأبيد حُكِمَ به عليك اليوم، ومن أمثلة ذلك قول أبى العلاء المعرى :

والذى حـارت البـريَّةُ فـيـه ... حـيـوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جَمَادِ

يريد أن يقول إن البرية؛ أى الخلائق، تحيرت فى المعاد الجسمانى، وقد تقدم المسند إليه «الذى» وتبعه جملة صلة الموصول «حارت البرية فيه» التى ترتبط بالاسم الموصول نحويًا ودلاليًا، وتؤدى إلى العجب وتُشْعِر بالغربة، وهذا أمر يشوق النفس ويثير فضولها لمعرفة الخبر المتأخر الذى يأتى فيجعل المعنى متمكناً فى النفس.

وهناك الكثير من الآيات الكريمة التى جاءت على هذا النحو من تشويق المستمع إلى الخبر، قال تعالى :﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١).

٤- يؤدى تقديم المبتدأ (المسند إليه) إلى التخصيص، على أن يكون التركيب النحوى عناصره كما يأتى :

حرف النفى + المبتدأ + الخبر (جملة فعلية)

ومن أمثلته : ما أنت قلتَ هذا، الذى يفيد الدلالة على النفى لأن تكون القائل له، وهو مقول لغيرى، ومن هنا فدلالة التركيب نفى الفعل عنك وثبوته لغيرك، فلا تقول ذلك إلا فى شئ ثبت أنه مقول، وأنت تريد نفى كونك قائلاً له، ومن ذلك أيضاً قول المتنبى :

ومـا أنا أسـقـمْتُ جـسـمى به ... ولا أنا أضـرمْتُ فى القلبِ نارا

(١) الحجرات / ١٣ .

المعنى، كمالا يخفى ، على أن السُّقم ثابت موجود، وليس القصد بالنفى إليه، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له، ويكون قد جرَّه إلى نفسه، ومثله قول المتنبى أيضاً :

وما أنا وحدى قلتُ ذا الشعرَ كلَّه ولكن لشعرى فيكَ من نفسه شعرُ

الشعر مقولٌ على القطع والنفى لأن يكون هو وحده القائل له .

٥- إفادة التعميم والنص على شمول النفى (عموم السلب) وذلك حين تتقدم أداة العموم كـ«كل» و «جميع» ونحوهما على أداة النفى، وهى غير معمولة للفعل المنفى، فيتوجه النفى إذ ذاك إلى أصل الفعل، ويعم كل فردٍ من أفراد ما أضيف إليه «كل» نحو: كل ظالمٍ لا يفلح، فالمعنى: لا يفلح أحدٌ من ظلمه، وعليه قول أبى النجم :

قد أصبحتْ أمُّ الخيارِ تدَّعى علىَّ ذنباً كلُّه لم أصنع

برفع «كله» ، لأن هذا الرفع يقتضى نَفْىَ أن يكون قد صنع منه شيئاً، وأتى منه قليلاً أو كثيراً، وأنك إذا قلت: كلُّهم لا يأتيك، وكلٌّ ذلك لا يكون، وكلٌّ هذا لا يحسن، كنتَ نفيت أن يأتيه واحد منهم، وأبيت أن يكون أو يحسن شئ مما أشرتَ إليه .

ومما يشهد لك بذلك من الشعر قول إبراهيم بن كُنيف النبهانى أو بكر بن النطاح على خلاف فى النسبة :

فكيف؟ وكلٌّ ليس يعدو حِمَامَه ولا لامرئٍ عمَّا قضى اللهُ مَزْحَلُ(١)

المعنى على نفى أن يعدو أحدٌ من الناس حِمامه بلا شبهة، ولو قلت : فكيف وليس يعدو كل حمامه، فأخرت «كلاً» لأفسدت المعنى، وصرت كأنك تقول: إن من الناس من يسلم من الحِمام ويبقى خالداً لا يموت. ومثله قول دِعبلٍ :

فو الله ما أدرى بأىِّ سهامها رمتنى، وكلٌّ عندنا ليس بالمُكْدى

أبالجيدِ، أم مجرى الوِشاح، وإننى لأتهم عينيها مع الفاحم الجَعْدِ

(١) مَزْحَل : مصدر ميمى من «زَحَلَ» إذا تباعد، يعنى : ليس منه مهرب .

المعنى على نفى أن يكون في سهامها مُكْدٍ (أى سهم يخيب ولايصيب هدفه) على وجه من الوجوه (١).

ونشير إلى أنك إذا أدخلت «كلا» فى حيز النفى، وذلك بأن تقدم النفى عليه لفظاً أو تقديراً، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى الفعل والوصف نفسه كقول المتنبى :

ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركُهُ ... تأتى الرياحُ بما لا تشتهى السفنُ

فالمتنبى يقرر أن الإنسان لا يدرك كلَّ أمانيه، وإنما يدرك بعضها ويفوته بعضها الآخر، ومن أمثلته أيضاً قول أبى فراس الحمدانى :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً ... فإذا قنعْتَ فكلُّ شئ كافِ

وقول عمارة اليمنى :

ما كل قولى مشروحاً لكم فخذوا ... ما تعرفون ومالم تعرفوا فدعوا

٦- يؤدى تقديم المبتدأ إلى تقوية الحكم وتقديره لدى السماع، وذلك كقولك: هو يعطى الجزيل، وهو يحبُّ الثناءَ، لاتريد أن تزعم أنه ليس هنا من يعطى الجزيل غيره، ويحب الثناء غيره، ولاأن تعرِّض بإنسان وتحطُّه عنه، وتجعله لا يعطى كما يعطى، ولا يرغب كما يرغب، ولكنك تريد أن تحقق على السماع أن إعطاءه الجزيل وحبَّ الثناء دأبه، وأن تمكِّن ذلك فى نفسه، ومثاله فى الشعر :

هُمُ يُفْرِشُونَ اللِّبدَ كلَّ طِمِرَّةٍ ... وأجردَ سبَّاحٍ يبذُّ المُغالبَا(٢)

لم يرد أن يدعى لهم هذه الصفة دعوى من يفردهم بها، وينصُّ عليهم فيها، حتى كأنه لم يعرِّض بقوم آخرين، فينفى أن يكونوا أصحابها، هذا محال، وإنما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل، وأنهم يقتعدون الجياد منها، وأن

---

(١) انظر دلائل الإعجاز : ٢٨١ وما بعدها، وعلوم البلاغة للمراغى: ١٠٤ .

(٢) اللبد : الصوف أو الشعر المتلبد، وقد جرت العادة بوضع قطعة منه على ظهر الفرس تحت السراج للينه، والطمرة: أنثى الطِّمرّ وهو الفرس الجواد أو المتجمع المتداخل الخلق كأنه متهيئ للوثب دائما، والأجرد: الفرس القصير الشعر، والسباح: الذى يشبه عدوه السباحة، ويبذ: يغلب

ذلك دأبهم، من غير أن يعرّض لنفيه عن غيرهم، إلا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم، ويُعْلِمَ بَدِيًّا قصده إليهم بما فى نفسه من الصفة، ليمنعه بذلك من الشك، ومن ذلكَ قولَ الآخر (الأخنس بن شهاب التغلبى) :

هُمُ يضـربون الكبشَ يبـرقُ بيضُه   على وجهه من الدماء سَبَائبُ[1]

لم يرد أن يدعى لهم الانفراد، ويجعل هذا الضرب لا يكون إلا منهم، ولكن أراد الذى ذكرت لك، من تنبيه السامع لقصدهم بالحديث من قبل ذكر الحديث، ليحقق الأمر ويؤكده .

وهناك شواهد قرآنية وردت على أساس تقوية الحكم وتقريره حين تقديم المبتدأ ومن ذلك قوله تعالى :﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾[2]الذى يفيد من التأكيد فى نفى الإشراك عنهم، ما لو قيل : والذين لا يشركون بربهم، أو: بربهم لا يشركون، لم يفد ذلك[3] .

وقد أوضح عبد القاهر السبب فى تقوية الحكم وتقريره حين تقديم المبتدأ خلال الربط بالعامل النحوى قائلاً :«فإنّ ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم مُعرى من العوامل إلالحديث قد نُوىَ إسنادُه إليه، وإذا كان كذلك، فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرْتَ قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئتَ بالحديث فقلت مثلاً: قام، أو قلت:خرج، أو قلت:قَدم، فقد عَلم ما جئتَ به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخولَ المأنوس له، وقَبلَه قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لامحاولة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل فى التحقيق»[4] .

٧- هناك بعض الألفاظ التى رأت العرب أن تقديمها كاللازم، وخصوا بهذا التقديم لفظى «مثل» و «غير»، قال المتنبى يعزى عضد الدولة بعمته :

(١) الكبش: قائد القوم، وسبائب: جمع سبيبة، يعنى على وجهه طرائف من الدم .

(٢) المؤمنون /٥٩ .

(٣) الدلائل : ١٢٩ وما بعدها .

(٤) الدلائل : ١٣٢ .

مـثلُكَ يثْنى الحـزنَ عن صَوْبِه ويســتــردُّ الدمعَ عن غــرْبِه

ولا يقصد المتنبى بـ«مثل» إلى إنسان سوى الذى أضيف إليه، ولكنه يعنى أن كل من كان مثله فى الحال والصفة، كان من مقتضى القياس وموجب العرف والعادة أن يفعل ما ذكر، أو أن لا يفعل، ومن أجل أن كان المعنى كذلك قال :

ولـم أقلْ مـــثلُك، أعنى بـه ســـواك، يا فـــرداً بلا مُشْبِه

وكذلك حكم «غير» إذا سُلِكَ به هذا المسلك فقيل :غيرى يفعلُ ذاك، على معنى أنى لا أفعله، لا أن يومئ بـ«غير» إلى إنسان فيخبر عنه بأن يفعل، كما قال المتنبى :

غيرى بأكثر هذا الناسِ ينخدعُ إنْ قاتلوا جَبُنوا، أو حدَّثوا شَجُعُوا

وذاك أنه معلوم أنه لم يرد أن يعرِّض بواحد كان هناك فيستنقصه ويصفه بأنه مضعوف يُغَرُّ ويُخْدَع،بل لم يرد إلا أن يقول :إنى لست ممن ينخدع ويغتر، وكذلك لم يرد أبو تمام بقوله :

وغيـرى يأكلُ المعروفَ سُحْتاً وتشـحبُ عنده بيضُ الأيادى

أن يعرِّض مثلاً بشاعر سواه، فيزعم أن الذى قُرِفَ به عند الممدوح من أنه هجاء، كان من ذلك الشاعر لا منه، هذا محال، بل ليس إلا أنه نفى عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمة ويَلْؤُم .

وقد علّق عبد القاهر على استعمال «مثل» و «غير» فى تلك الأبيات قائلاً :«واستعمال «مثل» و «غير» على هذا السبيل شئ مركوز فى الطباع، وهو جارٍ فى عادة كل قوم. فأنت الآن إذا تصفحت الكلام وجدت هذين الاسمين يُقدَّمان أبداً على الفعل إذا نُحِيَ بهما هذا النحو الذى ذكرت لك، وترى هذا المعنى لا يستقيم فيها إذا لم يقدَّما، أفلا ترى أنك لو قلت :يثنى الحزنَ عن صوبه مثلك.... وينخدع غيرى بأكثر هذا الناس، ويأكل غيرى المعروف سحتاً، رأيت كلاماً مقلوباً عن جهته، ومغيَّراً عن صورته، ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه»[1].

---

(١) السابق :١٤٠ .

ثانياً: تقديم المسند على المسند إليه : أشار علماء البلاغة إلى أن تقديم المسند (الخبر) له عدة أغراض، يمكن تقديمها على النحو الآتى :

١- يُقدم الخبر لتخصيصه بالمبتدأ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ لكم دينكم ولى دينِ ﴾[١]، وقوله تعالى :﴿ لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها يُنْزَفُونَ ﴾[٢]، أى بخلاف خمور الدنيا فإنها تغتال العقول، ولهذا لم يقدِّم الجار والمجرور فى قوله تعالى :﴿ لا ريب فيه ﴾[٣] لئلا يفيد ثبوت الريب فى سائر كتب الله تعالى ما عدا القرآن الكريم.

٢- يُقدَّم الخبر للتنبيه ابتداءً دون حاجة إلى تأمل فى الكلام على أنه خبر لا نعت، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[٤] فالخبر هو الجار والمجرور (لكم) والمبتدأ (مستقر)، ولولا هذا التقديم لقيل إن الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لـ (مستقر). قال الشاعر :

له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها ... وهمَّته الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحةٌ لو أن معشار جودها ... على البرِّ كان البرُّ أندى من البحرِ

وقد تقدم الخبر «له» على المبتدأ «هم» و «راحة»، وقال المتنبى :

وفيك إذا جَنَى الجانى أناةٌ ... تظنُّ كرامةً وهى احتقار

والتمثيل فى قوله :«فيك....أناة»، فلو قال المتنبى «أناه فيك» لتوهم ابتداءً أن «فيك» نعت لـ«أناة» وأن خبر المبتدأ سيُذكر فيما بعد .

٣- يقدم الخبر (المسند) للتشويق إلى ذكر المسند إليه (المبتدأ)، ومن ذلك قول محمد بن وهيب الحميرى :

ثلاثةٌ تشرق الدنيا ببهجتها ... شمسُ الضُّحى وأبو إسحاق والقمرُ[٥]

---

(١) الكافرون /٦ .

(٢) الصافات /٤٧.

(٣) البقرة /٢

(٤) البقرة /٣٦ .

(٥) أبو إسحاق : هو الممدوح، الخليفة العباسى محمد المعتصم بن هارون الرشيد .

وقال أبو العلاء المعرى فى باب الوعظ :

وكالنارِ الحياةُ، فمن رمادٍ أواخرُها، وأولُها دُخَانُ

ثالثاً : تقديم متعلقات الفعل عليه : هناك ارتباط بين الفعل وبعض العناصر النحوية الأخرى كالمفعول به، وشبه الجملة (الظرف–الجار والمجرور)، والحال وسواها، ومن قواعد ترتيب الكلام فى الجملة العربية أن يأتى الفعل أولاً ثم يأتى بعده ما يتعلق به، ولكن علماء البلاغة كشفوا عن بعض الأغراض التى تؤدى إلى تقديم المتعلّق على فعله، ومن بينها ما يأتى :

١– تقديم المفعول على الفعل لردّ الخطأ فى التعيين كقولك :«محمداً عرفتُ» لمن اعتقد أنك عرفت إنساناً، وأنه غيرُ محمدٍ، وأصاب فى الأول دون الثانى، وتقول لتأكيده وتقريره :محمداً عرفتُ لا غيرَه .

٢– ويؤدى تقديم المفعول على الفاعل إلى التخصيص، ومن شواهد ذلك قوله تعالى :﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[1] معناه : نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة، ولا نستعين غيرك، وقوله تعالى :﴿ إن كنتم إياه تعبدون﴾[2] معناه: إن كنتم تخصونه بالعبادة، وقوله تعالى :﴿ لإلى الله تُحشرون﴾[3] معناها: إليه لا إلى غيره .

ويفيد التقديم فى جميع ذلك وراءَ التخصيص اهتماماً بشأن المقدّم، لذلك قُدّر المحذوف فى «باسم الله» مؤخراً، أى «باسم الله أفعلُ كذا» ، فالجار والمجرور متعلق بالفعل الذى قدرناه «أفعل» للدلالة على بيان اهتمام الموحد بالاسم الكريم والرد على أهل الشرك الذى كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات، وباسم العزى، ولكن إذا قيل : ما وجه تقديم الفعل على اسم العلى القدير فى ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾[4]، يعود السبب فى ذلك إلى أنها أول سورة نزلت،

(١) الفاتحة /٥ .

(٢) البقرة /١٧٢ .

(٣) آل عمران /١٥٨ .

(٤) العلق /١

والأمر بالقراءة في ذلك الموضع أهم، وقيل : إن الجار والمجرور متعلق بـ«اقرأ» الثاني في «اقرأ وربك الأكرم»، والفعل الأول معناه : افعل القراءة وأوجدها، لذلك لا يحتاج إلى المتعلّق كقولنا : فلانٌ يعطي .

٣- يؤدي تقديم بعض متعلقات الفعل أو معمولاته إلى تحقيق تناسب الفواصل في بعض الآيات الكريمة. قال تعالى :﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾[1] ،وقال تعالى :﴿ فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدّث ﴾ [2].

ونشير إلى أن الفعل تكون له عدة متعلقات، ويتم تقديم بعضها على بعضها الآخر لأسباب معينة منها :

- يؤدي التأخير إلى الإخلال بالمعنى كقوله تعالى:﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ [3] فإنه لو أُخِّر (من آل فرعون) عن (يكتم إيمانه) لتُوهِّم أن الجار والمجرور متعلق بـ(يكتم) فلم يُفهم أن الرجل من آل فرعون

- يؤدي التأخير إلى الإخلال بتناسب الفواصل، أو رؤوس الآيات نحو : ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴾ [4] بتقديم الجار والمجرور والمفعول لأجله على الفاعل «موسى» إذ فواصل الآي على الألف .

- يُقدَّم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل على مَنْ وقع عليه (المفعول) لاوقوعه ممن وقع منه (الفاعل)، كما إذا عاث لص فاتك في البلاد وأصاب أذاه الكثير من الناس، وألقيت الشرطة القبض عليه، حين الإخبار عن هذا كله الأفضل إن تقول : أمسكت اللصَّ الشرطةُ، بتقديم المفعول، لأنه أساس الاهتمام ومعقد الفائدة، ومحط العناية .

* * *

(١) الحاقة / ٣٠-٣٢ .

(٢) الضحى / ٩-١١.

(٣) غافر /٢٨ .

(٤) طه /٦٧ .

الضمائر

الضمير ما يُكنى به عن متكلم مثل «أنا» أو مخاطب مثل «أنت» أو غائب مثل «هو» أو الضمير اسم جامد مبنى يصلح لأن يحلّ محلّ الاسم، ولما كان الضمير مبنيًا فإنه لا يُثنّى ولايجمع، وإنما يدل بذاته وتكون صيغته على ما نريده، فالضمير «أنت» يفيد الدلالة على أن المخاطب للمفرد المذكر، و«أنتم» يفيد الدلالة على أن المخاطب لجماعة الذكور، و«أنتنّ» لجماعة الإناث .... وهكذا .

وقد أشار النحاة إلى أن الضمير سُمّي كذلك من قولهم: أضمرتُ الشئ، إذا سترته أو أخفيته، ومنه قولهم :أضمرتُ الشئ فى نفسى، أو من الضمور وهو الهُزال، لأن الضمير قليل الحروف، ثم تلك الحروف الموضوعة له غالبها مهموسة، وهى التاء والكاف والهاء، والهمس هو الصوت الخفى .

وتتعدد صور استخدام الضمائر فى الجملة العربية، ونحاول التعرف على ما يتصل بالجمال فى هذا الاستخدام، فى ضوء إشارات علماء البلاغة لذلك، دون الخوض فى التفصيلات الخاصة بالضمائر عند النحاة، ويمكن تقديم هذا الجمال خلال النقاط الآتية :

أولاً: هناك ضمير يسمى «ضمير الشأن» يستخدم إن أريد ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية ويكون مقدماً قبلها كناية عن تلك الجملة، أما الجملة نفسها فتكون مفسرة له، وخبراً عنه، وهناك أسماء أخرى تُطلق عليه هى ضمير القصة أو ضمير الأمر أو ضمير الحكاية وغيرها، وكلها بمعنى واحد، وتفيد الدلالة على الشأن.

ويلزم ضمير الشأن صورة واحدة فى الجملة، فهو بلفظ المفرد دائماً مذكراً كان أو مؤنثاً، ومن شواهده قوله تعالى :﴿ قل هو الله أحد ﴾[1] ،و ﴿ فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾[2] ،و ﴿ فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ﴾[3] .

---

(١) الإخلاص /١ .

(٢) الأنبياء /٩٧ .

(٣) الحج / ٤٦ .

وقال أبو الفرج الساوى أحد كتاب الصاحب بن عباد :

هـى الدنيـا تقـول بمـلء فيها: حـــذارِ حذارِ من بطشى وفتكى
فـلا يغـرركم منى ابتــسـامٌ فقولى مضحكٌ والفعلُ مبكى

وقال الشاعر :

هو: الدهرُ ميلادٌ فشغلٌ فمأتم فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوتِ

وقال الشاعر :

علمتهُ: الحقُّ لا يخفى على أحدِ فكنْ محقًا تنلْ ما شئتَ من ظَفَرِ

هذه هى بعض الشواهد والأمثلة التى توضح استخدام ضمير الشأن فى الجملة العربية، ولكن ما الجمال الذى يحققه؟ يقول يحيى العلوى :«إن ضمير الشأن والقصة على اختلاف أحواله، إنما يرد على جهة المبالغة فى تعظيم تلك القصةوتفخيم شأنها، وتحصيل البلاغة فيه من جهة إضماره أولاً، وتفسيره ثانياً، لأن الشئ إذا كان مبهماً فالنفوس متطلعة إلى فهمه ولها تشوقٌ إليه،فلأجل هذا حصلت فيه البلاغة، ولأجل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يكاد يرد إلا فى المواضع البليغة المختصة بالفخامة»[١] .

ثانياً: تقع بعض الضمائر المرفوعة فصلاً، أى تفصل بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر، ويطلق عليه «ضمير الفصل» عند علماء البصرة،و «العماد» عند علماء الكوفة، ومن أمثلته قوله تعالى :﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾[٢] ،و ﴿ كنت أنت الرقيب عليهم ﴾[٣] ،و ﴿ ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٤] ،وقد أشار العلوى أيضاً إلى الجمال فى استعماله، قائلاً :«فوروده إنما كان من أجل التأكيد المعنوى، وفيه دلالة على الاختصاص، فقوله تعالى :﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾[٥] ،و قوله تعالى :﴿

(١) الطراز: ١٤٢/٢ وما بعدها .

(٢) القصص /٥٨ .

(٣) المائدة /١١٧

(٤) الزخرف / ٧٦.

(٥) البقرة / ٢٥٤.

ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[1] ،و ﴿ وإن ترَن أنا أقلّ ﴾[2] .إلى غير ذلك من الضمائر التى وردت على هذه الصفة فإنها مفيدة للتأكيد كما ترى، لأن الكلام مع ذكرها أبلغ، فأنت لو قلت :والكافرون الظالمون، ولكن كانوا الظالمين، وأسقطت هذه الضمائر، فإنك تجد فرقاً بين الحالتين فى التأكيد وعدمه، وكما هى مفيدة للتأكيد كما ترى ففيها دلالة على الاختصاص لأنه إذا قال ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾[3] ، فإنما جاء بالضمير ليدل على أنهم لكفرهم اختصوا بمزيد الظلم الفاحش، وقوله تعالى :﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾[4] ، فيه دلالة على مزيد اختصاصهم بالإيمان واستحقاقهم لصفته من بين سائر الخلق فيؤخذ الاختصاص والتأكيد من هذا الضمير كما أشرنا»[5] .

ثالثاً : أشار علماء البلاغة إلى ما يتصل بتوكيد الضمائر، ولكن قبل الحديث عن ذلك، توقفوا أمام التوكيد بصفة عامة، فأوضحوا أن دخول التوكيد فى الكلام ليس أمراً حتماً ولا يكون على جهة الوجوب، وإنما يكون وروده على وجهين، أحدهما : أن يكون المعنى معلوماً فى النفس لايقع فيه شك، فما هذا حاله أنت فيه بالخيار بين تأكيده وتركه، وثانيهما: أن يكون غير معلوم، أو يكون مشكوكاً فيه، وما هذا حاله فالأولى تأكيده لإزالة احتماله.

نأتى، بعد ذلك، إلى التأكيد فى الضمائر، فنجده بالإضافة إلى الاتصال والانفصال على أوجه ثلاثة :

(أ) تأكيد الضمير المنفصل بمثله، ومن أمثلته قول المتنبى :

قَبِيلٌ أنت وأنت منهم ... وجدُّك بشرٌ الملكُ الهُمامُ

فقوله «أنت أنت» من تأكيد المنفصل بمثله، وفائدته المبالغة فى مدحه بأبلغ ما

---

(١) الزخرف / ٧٦.

(٢) الكهف /٣٩.

(٣) البقرة / ٢٥٤.

(٤) الأنفال / ٤.

(٥) الطراز: ١٤٣/٢ وما بعدها .

يكون، فإنه لو مدحه بما شاء من الأوصاف الدالة على الثناء لَمَا سدّ مسدّ قوله «أنت أنت»، كأنه قال : أنت المشار إليه بالفضل دون غيره .

(ب) تأكيد الضمير المتصل بمثله فى الاتصال، ومثاله قولك :«إنك إنك لفاضلٌ» فالكاف الثانية توكيد للأولى وتم اتصالها بـ«إن»، وقال تعالى فى سورة الكهف فى آية السفينة، بعد المخالفة :﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾[1] من غير تأكيد ثم قال فى آية القتل الثانية :﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع﴾[2] بالتأكيد، والتفرقةُ بين الأمرين هو أنه أكد الضمير فى الثانية دون الأولى، لأن المخالفة فى الثانية أعظم جُرماً، وأدخل فى التعنيف لأجل الإصرار على المخالفة، فلهذا ورد العتاب مؤكّداً بعد الخلاف لما ذكرناه .

(جـ) توكيد الضمير المتصل بالمنفصل، ومن شواهده قوله تعالى :﴿ فأوجس فى نفسه خيفةً موسى قلنا لا تخفْ إنك أنت الأعلى ﴾[3] فالتوكيد ها هنا بـ«أنت» للكاف فى «إنك»، وفيه الدلالة على طمأنينة نفس موسى، وعلى الغلبة بالقهر والنصر .

وقد حلل علماء البلاغة الآية الكريمة بالتفصيل فى ضوء ربط التوكيد بغيره من العناصر اللغوية، لذلك قالوا إن قوله تعالى :﴿ إنك أنت الأعلى ﴾ نهاية البلاغة بدليل أمور ستة هى :

- الإتيان بـ«إن» فى أول الخطاب لتأكيد الأمر وتقرير ثبوته .
- تأكيد الضمير المتصل، وهو الكاف فى «إنك»، بالمنفصل، وهو «أنت» مبالغة فى تخصيص موسى بالقهر والغلبة .
- الإتيان بلام التعريف فى قوله تعالى :﴿ الأعلى ﴾، ولم يقل «أعلى» ولا «عال»، لأنها دالة على الاختصاص، كأنه قال : أنت الأعلى دون غيرك، وفيه تعريض بأمرهم، وتهكم بحالهم،وإبطال لما هم عليه من أمر السحر .

(١) الكهف /٧٢.

(٢) الكهف /٧٥ .

(٣) طه / ٦٧.

- جاء قوله تعالى ﴿ الأعلى ﴾ بلفظة «أفعل» الدالة على التفضيل، ولم يقل «العالى» لأن مجيئها على جهة الزيادة فى تلك الخصلة للمبالغة .
- تحقيق الغلبة بقوله تعالى :﴿ الأعلى ﴾، لأن معناه «الأغلب»، وعدل إلى لفظ «الأعلى» لما فيه من الدلالة على الغلبة بالفوقية لابالمساواة .
- التعبير بالجملة الاستئنافية «إنك أنت الأعلى» ولم يقل - سبحانه - «قلنا لا تخف لأنك أنت الأعلى»، لأنه لم يجعل عدم الخوف سبباً لكونه غالباً عليهم، وإنما نفى عنه الخوف بقوله «لاتخف» ثم استأنف الكلام بقوله (إنك أنت الأعلى) فلا جَرَمَ كان أبلغ فى شرح صدر موسى وأقر لعينه فى القهر والاستيلاء .

وهذا التحليل للآية الكريمة بالأمور الستة السابقة فيه الدلالة على أن النظر فى بلاغة الضمير إنما هو جزء من السياق العام .

رابعاً : اهتم علماء البلاغة بدراسة التعبير بالاسم الظاهر بدلاً من الضمير، وأشاروا إلى أن الإفصاح بإظهاره فى موضع الإضمار له موقع عظيم وفائدة جزلة، وهى تعظيم حال الأمر المظهَر والعناية بحقه، وشاهده قوله تعالى :﴿ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ﴾ ثم قال بعد ذلك :﴿ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾[1] فانظر إلى إظهاراسمه جلّ جلاله فى قوله :﴿ ثم الله ينشئ النشأة ﴾، وكان قياس الإعراب «ثم ينشئ النشأة الآخرة» ؛ لأنه قد تقدم ما يفسر هذا الضمير وهو قوله تعالى :﴿ كيف يبدئ الله ﴾، والفائدة فى ذلك هو المبالغة فى الأمر المظهر وإظهار الفخامة فيه، وكقوله تعالى :﴿ القارعة . ما القارعة ﴾[2]، و قوله :﴿ الحاقة . ما الحاقة ﴾[3].

وقد يرد الإظهار على جهة الإنكار وشدة الغضب والتهكم بحالهم والتعجب من عنادهم، وجحدهم، وهذا كقوله تعالى :﴿ ص. والقرآن ذى الذكر بل الذين

(١) العنكبوت / ٢٠.
(٢) القارعة / ١و٢ .
(٣) الحاقة /١و٢ .

كفروا ﴾[1] ثم قال بعد ذلك : ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾[2] و الغرض هو إفراط النكير عليهم والتعريض بأنهم الكفرة حقًا أهل التمرُّد الذى لا شك فيه، والمراد الذى لا مدفع له [3].

* * *

(١) ص / ١-٢.

(٢) ص /٤.

(٣) انظر الطراز ١٤٦/٢ وما بعدها

ظاهرة التكرار

يعد التكرار واحداً من الظواهر اللغوية التى نجدها فى الألفاظ والتراكيب والمعانى لتحقيق البلاغة فى التعبير، والتأكيد للكلام، والجمال فى الأداء اللغوى، والدلالة على العناية بالشئ الذى كُرِّرَ فيه الكلام. وقد ورد التكرار فى آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربى؛ لذلك نال اهتمام علماء الدراسات النقدية والبلاغية وسواهم، وهو عندهم على قسمين :

١- تكرار فى اللفظ والمعنى كقولك لمن تستدعيه:«أسرعْ أسرعْ»، ومنه قول المتنبى :

ولم أرَ مثلَ جيرانى ومثلى ... لمثلى عندَ مثلهم مقامُ

٢- تكرار فى المعنى دون اللفظ كقولك: « أطعنى ولاتعصنى» فإن الأمر نهى عن المعصية.

وكل من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد وهو ما يأتى لمعنى، وغير مفيد وهو ما يأتى لغير معنى .

وقبل الدخول فى دراسة التكرار وتحليل بعض شواهده وأمثلته نتعرف على سبب وروده فى بعض آى الذكر الحكيم .

توقف ابن قتيبة أمام تكرار الكلام والزيادة فيه، واهتم بالتعليل لتكرار الأنباء والقصص فى القرآن الكريم قائلاً :« وأما تكرار الأنباء والقصص فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً فى ثلاث وعشرين سنة، بفرض بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ، تنبيهاً لهم من سِنَة الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ، استبعاداً لهم واختباراً لبصائرهم، يقول الله عز وجل :﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدةً كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾[1]، الخطاب للنبى ﷺ، والمراد بالتثبيت هو والمؤمنون» . ثم يشير ابن قتيبة إلى أن الرسول ﷺ كان يتخوَّل أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم، أى يتعهدهم بها عند الغفلة ودثور القلب، ولو أتاهم القرآن نَجْماً واحداً لسبق حدوث الأسباب التى أنزله الله بها، ولثقُلَتْ جملة

(١) الفرقان /٣٢ .

الفرائض على المسلمين وعلى من أراد الدخول فى الدين، ولبطل معنى التنبيه، وفسد معنى النسخ، لأن المنسوخ يعْمَلُ به مدة ثم يعْمَل بناسخه بعده. وكيف يجوز أن ينزل القرآن فى وقت واحد: افعلوا كذا ولا تفعلوه؟»[1].

وقد اهتم بعض العلماء بالتكرار فى القرآن الكريم مع ربطه بالأغراض البلاغية واللغوية التى تكشف عن سرّه، ومن أولئك محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى فى كتابه «أسرار التكرار فى القرآن» أو «البرهان فى متشابه القرآن»[2] الذى عرض فيه للتكرار أو المتشابه بين بعض الآيات الكريمة، وقد بدأ بسورة الفاتحة ملتزماً ترتيب السور فى المصحف الشريف حتى يصل إلى سورة الناس، وإذا حاولنا التعرف على مجالات التكرار عند المؤلف، نجدها تدور فى إطار النقاط الآتية :

١ - الاختلاف فى استخدام حرف العطف، قال تعالى :﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ﴾[3] ،وقال تعالى :﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ﴾[4] .لقد قارن الكرمانى بين «وكلا» و«فكلا» ، قال :«اسكن» فى الآيتين ليس بأمر بالسكون الذى هو ضد الحركة، وإنما الذى فى البقرة من السكون الذى معناه الإقامة وذلك يستدعى زماناً ممتداً فلم يصلح إلا بالواو، لأن المعنى: اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها، ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة، لأن الفاء للتعقيب والترتيب والذى فى الأعراف من السكنى التى معناها اتخاذ الموضع مسكناً؛ لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله :﴿ اخرج منها مذموماً ﴾[5] ،وخاطب آدم فقال :﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾، أى اتخذاها لأنفسكما مسكناً، ﴿فكلا من حيث شئتما ﴾ فكانت الفاء أولى، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعى زمنا ممتداً،

(١) تأويل مشكل القرآن :٢٣٢ وما بعدها .

(٢) أشار الكرمانى فى مقدمة كتابه إلى أن اسمه «البرهان فى متشابه القرآن» وقد لجأ المحقق إلى تغيير العنوان، لأن المشتغلين بالنشر أغمضوا عيونهم عنه بالنشر، إذ ظنوه فى «المتشابه» بمعنى الموهم أو الغامض،ولم يظنوا إلى أن المتشابه بمعنى المتماثل، وهو مكررات القرآن كما أوضح مؤلفه فى مقدمته.

(٣) البقرة /٣٥.

(٤) الأعراف /١٩.

(٥) الأعراف /١٨

ولايمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل يقع الأكل عقيبه»[1] ،ونلاحظ اعتماد الكرماني على الدلالة للتفريق بين استعمال الواو والفاء، فالفعل «اسكن» في آية البقرة يعني الإقامة التي تتطلب زماناً ممتداً، لذلك جاء الأمر مسبوقاً بالواو «وكلا» التي تعني الجمع بين الإقامة في الجنة والأكل من ثمارها، والفعل «اسكن» في آية الأعراف من السُّكنى التي معناها اتخاذ الموضع مسكناً، وهذا لا يتطلب زماناً ممتداً، ولايمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه، بل الأكل يقع عقيبه، لذلك جاء الأمر مسبوقاً بالفاء «فكلا» الدالة على التعقيب والترتيب.

٢- استخدام حرف الجر مع بعض الآيات الكريمة دون بعضها الآخر، قال تعالى :﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[2] ،وقال تعالى :﴿أم يقولون افتراه فأتوا بسورة مثله﴾[3] ،وردت آية البقرة «من مثله» وآية يونس «مثله» ، لأن «من» دالة على التبعيض، ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة، حَسُنَ دخول «من» فيها ليُعْلَم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره، وغيرُها من السور لو دخلها «من» لكان التحدي واقعاً على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل .

٣- الاختلاف في التنكير والتعريف، ومن ذلك «حق» و «الحق» كما في الآيات الكريمة الآتية :

- ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾	البقرة /٦١
- ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ﴾	آل عمران /٢١
- ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾	النساء /١٥٥

ويشير تعريف «الحق» في الآية الكريمة الأولى إلى الحق الذي أذن به الله تعالى أن تُقْتَلَ النفس به وهو قوله :﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾[4] فكان الأَوْلى أن يُذْكَرَ معرفاً، لأنه من العلي القدير، وورد نكرة في الآيتين

(١) أسرار التكرار : ٢٥ وما بعدها .

(٢) البقرة /٢٣.

(٣) يونس /٣٨ .

(٤) الأنعام / ١٥١ .

الثانية والثالثة لأن معناه بغير حق فى معتقدهم ودينهم، فكان هذا بالتنكير أولى، ومن ذلك :

– ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً ﴾ البقرة / ١٢٦

– ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ إبراهيم /٣٥

وقد ورد «بلداً» نكرة، لأنه إشارة إلى المذكورة فى قوله تعالى :﴿ بوادٍ غير ذى زرع﴾[1] قبل بناء الكعبة، و «هذا» المفعول الأول، و«بلداً» المفعول الثانى، و«آمناً» صفة ، وورد «البلد» معرفة، لأنه يشير إلى البلد بعد بناء الكعبة، و«هذا» المفعول الأولى، و«البلد» بدل، و«آمنا» المفعول الثانى، ولعلنا نلاحظ أن التنكير والتعريف للفظة أدى إلى التأثير فى الإعراب .

٤– ورد الجار والمجرور فى بعض الآيات المتشابهة من حيث التركيب النحوى دون بعضها الآخر، ومن ذلك «منكم» فى قوله :﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾[2] ،وقوله تعالى :﴿ ومن كان مريضا أو به أذى من رأسه ففدية﴾[3] ،ولكن الجار والمجرور لم يرد فى قوله تعالى ﴿ ومن كان مريضاً﴾[4]لأنه ذُكر من قبل فى الآية الكريمة نفسها، قال تعالى :﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾.

وكُرِّر الجار والمجرور «لكم» فى وقوله تعالى :﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ ﴾[5]، وقال تعالى فى سورة هود :﴿ ولا أقول إنى مَلَكٌ ﴾[6] دون الجار والمجرور، لأنه تقدم فى السورة الكريمة نفسها، :﴿إنى

---

(١) إبراهيم /٣٧.
(٢) البقرة /١٨٤.
(٣) البقرة /١٩٦.
(٤) البقرة /١٨٥.
(٥) الأنعام /٥٠.
(٦) هود /٣١.

لكم نذير ﴾[١] ،و ﴿ ما نرى لكم ﴾[٢] .

٥- الاختلاف فى الحروف الدال على النفى بين بعض الآيات الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمتْ أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾[٣] ،وقوله تعالى :﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾[٤] ،والنفى فى الآية الأولى بالحرف «لن» وهو عامل، لذلك نصب المضارع بحذف النون، والنفى فى الآية الثانية بالحرف «لا» وهو ليس عاملاً، ويرتبط النفى بـ«لن» بالمعنى؛ لأن دعوى الكافرين فى البقرة بالغة قاطعة وهى كون الجنة لهم بصفة الخلوص، فبالغ فى الرد عليهم بـ«لن»، وهو أبلغ ألفاظ النفى، ودعواهم فى الجمعة قاصرة مترددة، وهى زعمهم أنهم أولياء الله، فاقتصر على «لا» .

٦- وردت بعض الآيات الكريمة بإثبات تاء التأنيث مع الفعل الماضى، وإسقاطها فى بعضها الآخر، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وأَخَذَ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾[٥] ،وقوله تعالى :﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾[٦] ،التذكير والتأنيث مع الفعل «أخذ» حسنان، لكن التذكير فى الآية الأولى أخف بحذف حرف منه، وفى الأخرى وافق التأنيث فى الآية التالية لها، وهى قوله تعالى :﴿ كما بَعِدَتْ ثمود ﴾ [٧] .

٧- وردت بعض الآيات الكريمة متشابهة فى ألفاظها مع الاختلاف فى التقديم والتأخير، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل

(١) هود /٢٥ .

(٢) هود /٢٧ .

(٣) البقرة /٩٤،٩٥ .

(٤) الجمعة /٦و٧ .

(٥) هود /٦٧ .

(٦) هود/٩٤ .

(٧) هود /٩٥ .

شئ قدير ﴾[١] ،فالفعل «يغفر» مقدم فى هذه الآية من سورة البقرة وفى غيرها، إلا فى سورة المائدة، فإن فيها : ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شئ قدير﴾[٢]، ويعود السبب فى ذلك إلى أن آية المائدة نزلت بعدها فى حق السارق والسارقة وعذابهما يقع فى الدنيا[٣]، فقدم لفظ العذاب، وفى غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه تعالى، وترغيباً للعباد فى المسارعة إلى موجبات المغفرة.

ويتصل بالتقديم والتأخير اجتماعُ لفظى «النفع» و«الضُر» معاً فى الكتاب العزيز، مع تقديم النفع على الضر كما فى الآيات الآتية:

- ﴿قل لا أملك لنفسى نفعاً ولاضراً إلا ما شاء الله﴾ الأعراف/١٨٧
- ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضراً﴾ الرعد/ ١٦
- ﴿فاليوم لايملك بعضُكم لبعض نفعاً ولاضراً﴾ سبأ/٤٢

وورد التقديم، واللفظان بصيغة الفعل كما فى الآيات الآتية:

- ﴿قل أندعو من دون الله مالاينفعنا ولايضرنا﴾ الأنعام/ ٧١
- ﴿ولا تدعُ من دون الله مالاينفعك ولايضرك﴾ يونس/١٠٦
- ﴿ قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئاً ولايضركم﴾ الأنبياء/٦٦
- ﴿ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولايضرهم﴾ الفرقان/٥٥
- ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون﴾ الشعراء/٧٢-٧٣

وقد قارن العلماء قوله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسى نفعاً ولاضراً إلا ماشاء

---

(١) البقرة/٢٨٤.

(٢) المائدة/٤٠.

(٣) قال تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله) المائدة/٣٨.

(٤) الأعراف /١٨٧.

(٥) يونس/٤٩.

الله﴾[٤] بقوله تعالى: ﴿قل لاأملك لنفسى ضراً ولانفعاً إلا ما شاء الله﴾[٥] اللذين يتشابهان مع الاختلاف فى التقديم والتأخير للفظى «النفع» و«الضر»، ويرى العلماء أن تقديم الضر على النفع فى الآية الكريمة الثانية جاء لموافقة ما قبلها فى السورة نفسها. قال تعالى:﴿ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم﴾[١]، ثم إن هذا التقديم جاء على الأصل؛ لأن أكثر ما جاء فى القرآن الكريم من لفظى الضر والنفع معاً؛ جاء بتقديم لفظ الضر على النفع؛ لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ثم طمعاً فى ثوابه ثانياً، يقويه قوله تعالى: ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾[٢].

٨ – وردت بعض الآيات الكريمة متشابهة فى ألفاظها وتركيبها النحوى، مع الاختلاف فى اقتران إحداها باللام المزحلقة الدالة على التوكيد دون الأخرى، كما فى:

– ﴿إن ربك سريعُ العقابِ وإنه لغفور رحيم﴾ الأنعام/١٦٥

– ﴿إن ربك لسريعُ العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ الأعراف/١٦٧

أما عن الآية الأولى فقد جاءت عقب ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾[٣] و﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرضِ﴾[٤]؛ لذلك قيد قوله (غفور رحيم) باللام، ترجيحاً للغفران على العقاب، ولم تأت مع (سريع). والآية الثانية جاءت عقب (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس)[٥] ،و﴿كونوا قردةً خاسئين﴾[٦] فقيد رحمة منه للعباد؛ لئلا يرجح جانب الخوف على الرجاء.

٩ – هناك بعض الآيات التى تتشابه فى ألفاظها وتركيبها النحوى، مع الاختلاف فى لفظ الفعل المستخدم لارتباطه بالدلالة، كما فى:

---

(١) يونس/١٨.

(٢) السجدة/١٦.

(٣) الأنعام/١٦٠

(٤) الأنعام/١٦٥.

(٥) الأعراف/١٦٥.

(٦) الأعراف/١٦٦.

– ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ البقرة/١٨٧.

– ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ البقرة/٢٢٩.

إن الحدود ضربان:

– حد هو منْعٌ ارتكابِ المحظورِ، وهو يُنْهَى عن مقاربته

– حد فاصل بين الحلال والحرام، وهو يُنْهَى عن مجاوزته.

واستخدام (فلا تقربوها) لأن الحد فى الآية الكريمة الأولى نهى وهو قوله: ﴿ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾، وما كان من الحدود نهياً أمر بترك المقاربة. واستخدام (فلا تعتدوها) لأن الحد فى الآية الكريمة الثانية أمرٌ، وهو بيان عدد مرات الطلاق بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد، وما كان أمراً أمر بترك المجاوزة وهو الاعتداء.

١٠ – اهتم المفسرون بالأحرف المقطعة التى تبدأ بها بعض السور وعلاقتها بالمتشابه، ومن ذلك قول الكرمانى[١] عن (آلم) التى فى أول البقرة: «هذه الآية تتكرر فى أوائل ست سور[٢]»،فهى من المتشابه لفظاً، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله : ﴿وأخر متشابهات﴾[٣] هى هذه الحروف الواقعة فى أوائل السور؛ فهى أيضا من المتشابه لفظاً ومعنى ، والموجب لذكره، أول البقرة من القَسَم وغيره هو بعينه الموجب لذكره فى أوائل سائر السور المبدوءة به، وزاد فى الأعراف صاداً لما جاء بعده (فلايكن فى صدرك حرج منه)، ولهذا قال بعض المفسرين: معنى (المص) ألم نشرح لك صدرك، وقيل: معناه المصوِّر، وزاد فى الرعد راء لقوله بعده: ﴿الله الذى رفع السموات﴾.

١١ – درس العلماء ما يتصل بصفات العلى القدير من المتشابه ، وأشاروا إلى أن أول المتشابهان قوله: ﴿الرحمن الرحيم. مالك﴾ فيمن جعل ﴿بسم الله الرحمن

(١) أسرار التكرار : ٢١ وما بعدها.

(٢) هى: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

(٣) آل عمران/٧.

الرحيم﴾ آية من الفاتحة، وهناك عدة أغراض لتكرار ﴿الرحمن الرحيم﴾ منها: التوكيد، أو لأن المعنى: وَجَبَ الحمدُ لله؛ لأنه الرحمن الرحيم؛ أو إنما كرر لأن الرحمة هي الإنعام على المحتاج، وذكر في الآية الأولى المنعِم ولم يذكر المنعَم عليهم، فأعادها مع ذكرهم وقال: (رب العالمين. الرحمن) لهم جميعاً، ينعم عليهم ويرزقهم (الرحيم) بالمؤمنين خاصة يوم الدين، ينعم عليهم ويغفر لهم.

١٢ – توقف المفسرون أمام ما يتصل بالضمائر من المتشابه أو التكرار، ومن ذلك الآيات الثلاث الآتية:

– ﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ آل عمران/٥١.

– ﴿وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ مريم/٣٦.

– ﴿إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ الزخرف/٦٤.

قال الكرماني موضحاً الوجه في الإتيان بالضمير (هو) في الآية الكريمة الثالثة: «إذا قلت: زيد هو قائم، فيحتمل أن يكون تقديره: وعمرو قائم، فإذا قلت: زيد هو القائم، خصصت القيام به، فهو كذلك في الآية، وهذا مثاله؛ لأن (هو) يُذكر في مثل هذه المواضع إعلاماً أن المبتدأ مقصور على هذا الخبر، وهذا الخبر مقصور عليه دون غيره. والذى فى آل عمران وقع بعد عشرآيات من قصتها[1]، وليس كذلك ما فى الزخرف، فإنه ابتداء كلام، فحسن التوكيد بقوله (هو)؛ ليصير المبتدأ مقصوراً على الخبر المذكور فى الآية، وهو إثبات الربوبية، ونفى الأبوة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً»[2].

ومما يتصل بالضمائر تكرار (إياك) فى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. قال الكرماني: «كرر (إياك) وقدّمه، ولم يقتصر على ذكره مرة كما اقتصر على ذكر

---

(١) من أول قوله تعالى: (وإذ قالت الملائكة يا مريم) الآيات ٤٢ –٥١.

(٢) أسرار التكرار: ٤٩

أحد المفعولين فى آيات كثيرة منها ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾(١) ؛ أى ما قلاك، وكذلك الآيات التى بعدها معناها فآواك، فهداك، فأغناك؛ لأن فى التقديم فائدة وهى قطع الاشتراك، ولوحذف لم يدلّ على التقديم؛ لأنك لوقلت : إياك نعبد ونستعين، لم يظهر أن التقدير: إياك نعبد وإياك نستعين، أم: إياك نعبد ونستعينك، فكرر(٢) .

١٣ – هناك بعض الآيات التى تتشابه فى ألفاظها وتركيبها النحوى، ولكن تختلف فى نوع الاسم الموصول. قال تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم﴾(٤) ؛ فجعل مكان قول (الذى) (ما) ، وزاد فى أوله (من) ؛ فما السبب فى ذلك؟ إن العلم فى الآية الأولى علم بالكمال، وليس وراءه علم؛ لأن معناه: بعد الذى جاءك من العلم بالله وصفاته، وبأن الهدى هدى الله، ومعناه: بأن دين الله الإسلام، وأن القرآن كلام الله، فكان لفظ (الذى)أليق به من لفظ (ما) ؛ لأنه فى التعريف أبلغ وفى الوصف أقعد؛ لأن (الذى) تعرّفه صلته فلا يتنكر قط، وتتقدمه أسماء الإشارة نحو قوله ﴿أمن هذا الذى هو جند لكم﴾(٥) و﴿أمن هذا الذى يرزقكم﴾(٦)، فيكتنف (الذى) بيانان: الإشارة قبلها والصلة بعدها. ويلزمه الألف واللام، ويثنى ويجمع، وليس لـ (ما) شئ من ذلك؛ لأنه يتنكر مرة ويتعرف أخرى، ولايقع وصفاً لأسماء الإشارة، ولاتدخله الألف واللام، ولايثنى ولايجمع.

وخص العلم فى الآية الثانية بـ(ما) لأن المعنى: من بعد ما جاءك من العلم بأن قبلة الله هى الكعبة، وذلك قليل من كثير من العلم، وزيدت معه (من) التى

---

(١) الضحى/٣
(٢) أسرار التكرار:٢٠.
(٣) البقرة/١٢٠.
(٤) البقرة/١٤٥.
(٥) الملك/٢٠.
(٦) الملك/٢١.

لابتدآء الغاية، لأن تقديره: من الوقت الذى جاءك فيه العلم بالقبلة؛ نُسخت بهذه الآية، وليست الأولى مؤقتة بوقت.

وبعد هذا العرض لما يتصل بالتكرار أو المتشابه والمجالات التى دار حولها فى الكتاب العزيز، نشير إلى أن هناك بعض الآيات التى لاتندرج تحت التكرار، على الرغم من احتوائها على بعض الألفاظ والتراكيب النحوية المتشابهة، ومن أمثلة ذلك الجار والمجرور (عليهم) فى قوله تعالى: ﴿صرط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم﴾ فهو لايعد تكراراً من منظور نحوى يتصل بتعليق شبة الجملة؛ إذ إن (عليهم) الأول يتعلق بـ (أنعمت) والآخر بـ (المغضوب)، وهذا التنوع فى التعليق لايجعل الجار والمجرور تكراراً أو من المتشابه. وقال تعالى:﴿ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين﴾(١) و﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين﴾(٢)؛ فإن ﴿إنى لكم منه نذير مبين﴾ ليس بتكرار لأن كل واحد منهما يتعلق بغير ما تعلّق به الآخر، فالأول متعلق بترك الطاعة إلى المعصية، والثانى متعلق بالشرك بالله تعالى.

وقد توسع ابن الأثير فى دراسة ما ليس بتكرار متوقفاً أمام ثلاث من الآيات هى:

- ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السُّوءَ بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾(٣).

- ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فُتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾(٤).

- ﴿لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بمالم يفعلوا فلاتحسبنهم بمفازة من العذاب﴾(٥).

---

(١) الذاريات/٥٠.
(٢) الذاريات/٥١.
(٣) النحل / ١١٩.
(٤) النحل/١١٠.
(٥) آل عمران / ١٨٨.

وقد علّق عليها بقوله: «وهذه الآيات يُظن أنها من باب التكرير، وليست كذلك، وقد أنعمتُ نظرى فيها فرأيتها خارجة عن حكم التكرير، وذاك أنه إذا طال الفصل من الكلام، وكان أوله يفتقر إلى تمام لايفهم إلا به؛ فالأولى فى باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارناً لتمام الفصل؛ كى لايجئ الكلام منثوراً لاسيما فى (إن) وأخواتها؛ فإذا وردت (إن) وكان بين اسمها وخبرها فُسحة طويلة من الكلام فإعادة (إن) أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة كالذى تقدم من هذه الآيات»[1]. أى إن طول الفصل من الكلام هو السبب فى إعادة (إن) مع اسمها؛ لذلك لاتدخل فى باب التكرار، ومعها (لاتحسبنهم) للسبب نفسه. ومن أمثلة ذلك شعراً قول بعض شعراء الحماسة:

أسجناً وقيــداً واشتياقــاً وغربــةً ... ونـأى حبيــبٍ إنّ ذا لعظيـــمُ
وإن امـرأً دامتْ مـواثيقُ عـهـده ... على مـــثل هذا إنه لكريمُ

فإنه لما طال الكلام بين اسم (إن) وخبرها أعيدت (إن) مرة ثانية؛ لأن تقدير الكلام: وإن امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هذا لكريم، لكن بين الاسم والخبر مدى طويل، فإذا لم تُعَدْ (إن) مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق، وهذا لايتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً، على حد تعبير ابن الأثير.

وقد ربط بعض العلماء التكرار فى الذكر الحكيم بسنن العرب فى كلامها، وعلى رأس أولئك ابن قتيبة الذى توقف أمام تكرار قوله تعالى: ﴿قل يأيها الكافرون﴾، وقوله تعالى فى سورة الرحمن: ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ موضحاً أن القرآن نزل بلسان قوم وعلى مذاهبهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن افتنان المتكلم والخطيب فى الفنون وخروجَه عن شئ إلى شئ أحسنُ من اقتصاره فى المقام على فن واحد.وقد يقول القائل فى كلامه: والله لا أفعله ثم والله لا أفعله، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله، كما يقول القائل: والله أفعلهُ، بإضمار «لا» إذا أراد الاختصار.

---

(١) المثل السائر: ١٥٥/٢.

وهناك الكثير من الآيات الكريمة التى فيها تكرار للفظ والغرض البلاغى منه تأكيد المعنى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلاسوف تعلمون﴾[١] و﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً﴾[٢] و﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾[٣] و﴿وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾[٤].

وإذاكان ابن قتيبة قد ربط التكرار بسنن العرب فى كلامها فإنه قد ربطه بـ «أسباب النزول» أيضاً. قال: «ولاموضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذى أنزلت فيه: ﴿قل يأيها الكافرون﴾ لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون ليعبدوا ما يعبد، وأبدؤا فى ذلك وأعادوا، فأراد الله - عز وجل - حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم، فأبدأ وأعاد فى الجواب، وهو معنى قوله: ﴿ودوا لو تُدْهِن فيدهنون﴾[٥]، أى تلين لهم فى دينك فيلينون فى أديانهم»[٦].

وقد اهتم علماء الدراسات النقدية والبلاغية بالتعرف على التكرار فى الشعر، والكشف عن الجمال الذى يحققه فى الأداء اللغوى، وقدموا الكثير من النماذج للتطبيق عليه، ومن ذلك قول الشاعر:

ولائمةٍ لامتك يافيضُ فى الندى ... فقلتُ لها: هل يقدح اللومُ فى البحرِ
أرادتْ لتثنى الفيضَ عن عادة الندى ... ومَنْ ذا الذى يثنى السحابَ عن القطرِ
كأن وفودَ الفيضِ يومَ تحملوا ... إلى الفيضِ لاقوا عنده ليلةَ القدرِ
مواقعُ جودِ الفيضِ فى كلِّ بلدةٍ ... مواقعُ ماءِ المزنِ فى البلد القفرِ

فتكرير اسم الممدرح ههنا تنويه به وإشادة بذكره وتفخيم له فى القلوب والأسماع كما يقول ابن رشيق[٧].

كذلك قول الخنساء:

وإن صخراً لمولانا وسيدُنا ... وإن صخراً إذا نشتو لنحّارُ
وإن صخراً لتأتم الهداةُ به ... كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

(١) التكاثر/٣-٤.
(٢) الانشراح/٥ ٦.
(٣) القيامة/ ٣٤ -٣٥.
(٤) الانفطار/ ١٧-١٨.
(٥) القلم/٩.
(٦) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٧.
(٧) العمدة: ٢/ ٦٠.

ومن الأغراض التي يحققها التكرار في الشعر التعظيم كما في قوله الشاعر:

لا أرى الموتَ يسـبقُ الموتَ شيءٌ نغّص الموتُ ذا الغنى والفـقـيـرا

ومن أغراضه التوجع إن كانت المناسبة التي تقال فيها الأبيات الرثاء والتأبين، كما في قول متمم بن نويرة:

وقالـوا أتبكـي كلَّ قبـــرٍ رأيْتَــه لقبرٍ ثـوى بين اللوى فالـدكادكِ
فقلتُ لهم: إن الأسى يبعثُ الأسى دعـوني فـهـذا كلُّه قـبرُ مـالكِ

وللتكرار دور مهم في باب الغزل والنسيب، لأنه يؤدي إلى تأكيد المعنى الذي يهدف إليه الشاعر عن طريق إعادة بعض الألفاظ، ومن ذلك قول ابن المعتز:

لسانـي لسـرِّي كتـومٌ كتـوم ودمعي بحبِّـي نمـومٌ نمـوم
ولـي مـالكٌ شفنـي حبُّـه بديـعُ الجمـالِ وسيـمٌ وسيـم
لـه مقلتـا شـادن أحـورٍ ولفظ سحـور رخيـمٌ رخيـم
فـدمعي عليه سجـومٌ سجـوم وجسمي عليه سقيمٌ سقيم

ويدخل في باب الغزل والنسيب تكرار الاسم على جهة التشوق والاستعذاب كما في قوله قيس بن ذريح الذي لجأ فيه إلى تكرار اسم «لبنى»:

ألا ليت لبنى لـم تكـن لي خلةً ولم تلقني لبنى ولم أدرِ مـاهيـا

ونختم هذا العرض بالحديث عن التكرار عند ابن الأثير[1] الذي قدم له الكثير من التقسيمات، وقد تضمن بعض الآراء المفيدة المتصلة بالتكرار على وجه العموم، ومن بينها ما يأتي:

١ - هناك تكرار في اللفظ والمعنى، يؤدي الى الدلالة على معنى واحد، ولكن المقصود به غرضان مختلفان، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿قل إني أُمرْتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدينَ وأمرت لأن أكونَ أولَ المسلمين. قل إني أخاف إن

(١) المثل السائر: ١٤٦/٢ وما بعدها.

عَصَيْتُ ربى عذابَ يوم عظيم. قل الله أعبدُ مخلصاً له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾[١]. فكرر قوله تعالى: ﴿قل إنى إمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ وقوله: ﴿قل الله أعبد مخلصاً له دينى﴾ والمراد به غرضان مختلفان؛ وذلك أن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة والإخلاص فى دينه، والثانى إخبار بأنه يخصُّ الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة فى الثانى، وأخّره فى الأول؛ لأن الكلام أولاً واقع فى الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل من أجله، ولذلك رتب عليه: ﴿فاعبدوا ماشئتم من دونه﴾

٢ - التكرار فى اللفظ والمعنى، وهو يؤدى الى الدلالة على معنى واحد، والمراد به غرض واحد، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿فقُتِلَ كيف قدر ثم قُتل كيف قدّر﴾ [٢]، والتكرير دلالة على التعجب من تقديره وإصابته الغرض، وهذا كما يقال: قتله الله ما أشجعه! أو ما أشعره! وعليه ورد قولُ الشاعر:

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثُمّتَ اسلمى ثلاث تحيـاتٍ وإن لم تكلّمى

وهذا مبالغة فى الدعاء لها بالسلامة، وكل هذا يُجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته.

٣ - هناك نوع من التكرار يكون المعنى فيه مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ، وذلك يأتى فى الألفاظ المترادفة، وقد ورد فى القران الكريم، واستعمل فى فصيح الكلام؛ فمنه قوله تعالى: (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم)[٣]، والرجز هو العذاب، وعليه ورد قول أبى تمام من قصيدة يمدح فيها حبيش بن المعافى:

نهـوضٌ بثـقلِ العبءِ مـضطلعٌ به وإنْ عظمتْ فيه الخطوبُ وجلّتِ

والثقل هو العبء، والعبء هو الثقل، وكذلك ورد قول البحترى من قصيدة يمدح فيها المتوكل:

ويـومَ تثنـتْ للـوداع وسلّمـتْ بعينين موصولٍ بلحظهمـا السحـرُ
توهمـتُهـا ألوى بأجـفـانهـا الكرى كرى النومِ أو مالتْ بأعطافها الخمرُ

(١) الزمر / ١١-١٥.
(٢) المدثر / ١٩ و ٢٠.
(٣) سبأ / ٥.

فإن الكرى هو النوم. وربما أشكل هذا الموضعُ على كثير من متعاطى هذه الصناعة وظنوه مما لافائدة فيه، وليس كذلك، بل الفائدة فيه هى التأكيد للمعنى المقصود، والمبالغة فيه. أما الآية فالمراد بقوله تعالى: (عذاب من رجز) أى عذاب مضاعف من عذاب، وأما بيت أبى تمام فإنه تضمن المبالغة فى وصف الممدوح بحمله للأثقال، وأما بيت البحترى فإنه أراد أن يشبه طرفها لفتوره بالنائم، فكرر المعنى فيه على طريق المضاف والمضاف إليه تأكيداً له وزيادة فى بيانه.

٤ – يلجأ بعض الشعراء إلى التكرير فى اللفظ والمعنى، دون أن يؤدى إلى فائدة ، ومن ذلك قول مروان الأصغر:

سقى الله نجداً والسلامُ علـى نجـدِ ... ويا حبذا نجدٌ على النـأى والبعـدِ
نظرتُ إلى نجـدٍ وبغـدادُ دونهـا ... لعلى أرى نجداً وهيهات من نجدِ

قال ابن الأثير معلقاً على البيتين: «وهذا من العىِّ الضعيف، فإنه كرر ذكر نجد فى البيت الأول ثلاثاً، وفى البيت الثانى ثلاثاً، ومراده فى الأول الثناء على نجد، وفى الثانى أنه تلفت إليها ناظراً من بغداد، وذلك مرمى بعيد، وهذا المعنى لايحتاج إلى مثل هذا التكرير؛ أما البيت الأول فيُحمل على الجائز من التكرير، لأنه مقام تشوق وتحرق وموْجدة بفراق نجد، ولما كان كذلك أجيز فيه التكرير، على أنه قد كان يمكنه أن يصوغ هذا المعنى الوارد فى البيتين معاً من غير أن يأتى بهذا التكرير المتتابع ست مرات» . وعلى هذا الأسلوب ورد قول أبى نواس:

أقـمنا بهـا يومـاً ويومـاً وثالثـاً ... ويومـاً له يومُ التـرحل خـامسُ

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام، ويا عجباً له يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العى الفاحش فى ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن، وهى:

ودارِ ندامى عطّلوها وأدلجـوا ... بهـا أثر منهم جـديد ودارسُ

٥ – هناك تكرار فى المعنى يدل على معنيين أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر﴾[1] ؛ فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير؛ لأن الأمر بالمعروف خاص، والخير عام، فكل أمر بالمعروف خير، وليس كل خير أمراً بالمعروف؛ وذاك أن الخير أنواع كثيرة من جملتها الأمر بالمعروف، ففائدة التكرير ههنا أنه ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله. ومن ذلك قول المُقَنَّع الكِندى:

وإنَّ الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لمختلفٌ جدًا
إذا أكلوا لحمى وفرتُ لحومهم وإن هدموا مجدى بنيتُ لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبى حفظتُ غيوبَهم وإن هم هوَوا غىَّ هويتُ لهم رشدا

فهذا من الخاص والعام؛ فإن كل لحم يؤكل للإنسان فهو تضييع لغيبه، وليس كل تضييع لغيبه أكلاً للحمه، ألا ترى أن أكل اللحم هو كناية عن الاغتياب، وأما تضييع الغيب فمنه الاغتياب، ومنه التخلى عن النصرة والإعانة ، ومنه إهمال السعى فى كل ما يعود بالنفع كائناً ما كان.

* * *

وبعد هذه المحاولة للتعرف على الموضوعات التى تندرج تحت الجمال فى التركيب، ننتقل إلى الحديث عن «علم الجمال الدلالى»، وهو موضوع الفصل التالى.

(١) آل عمران / ١٠٤.